A. U. B. LIBRARY

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458

852.709
D22f2A
V.1

في الأدب الحديث

تأليف

عمر الدسوقي

أستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الجزء الأول

ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

مكتبة العرب
مديرها : صلاح الدين البستاني
٢٨ ش كامل صدقي (الفجالة) القاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي

ভারতের ইতিহাস

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقدمة

فى مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربية تستيقظ من سبات طويل وتفرك عيوناً طالت هجعتها ، وتنظر دهشة إلى دنيا حافلة بالجديد فى نظم العيش ، ووسائل التغلب على قوى الطبيعة وتذليلها للإنسان ، بالمخترعات الحديثة ؛ وفى نظم الفكر وعالم المعانى ، والآداب ، وما خلقه أدباء الغرب من صور ودبجوه من كتب ، ونظموه من شعر ، وسطروه من علم مبنى على التجارب الممحصة ، ومن حقائق مؤيدة بالبراهين الساطعة . ومنذ ذلك الوقت ، ومصر والبلاد العربية تزداد بالغرب صلة ، وبأهله تعرفاً ، وبحضارته وثقافته ولوعاً . ولم تنس ماضيها وتراثها المجيد من الحضارة والثقافة ، فأحيت ما ورثته عن العرب من آداب ضخمة . وأخذت تتناول من القديم ، وتتناول من الجديد وتمزج بين الثقافتين .

وكان اتصالها بالغرب عن طرق كثيرة : فمن بعثات ترى رأى العين . وتتلقى العلم على أساتذة مختصين ثمة ، وتعود فتنقل صوراً جديدة من العادات والحياة ، وأفكاراً وآراء لم تكن موجودة من قبل ، ومن ترجمات لآثار العلماء الغربيين ورجال الأدب والفكر ، والفن والقانون ، يطلع عليها جمهرة المتعلمين من الشعوب العربية ، ويدرسونها ، فيستقر ما بها من آراء فى عقول الناس نتيجة التداول ، ومرور الزمن ، وتصير من تراث الأمة العقلى ، تظهر دون تعمد على ألسنة الخطباء ، وعلى أسلات الأقلام ، وفى ثنايا الأبيات

الشعرية ، والصور الفنية ، وبذلك يتخذ الأدب والفن لوناً جديداً يميزه عن العصور السابقة ، ويطبعه بطابع خاص .

وكان التعليم المدنى الذى وضع محمد على أسسه فى مصر ، ونماه إسماعيل ، واشتد عوده وأتى أكله فى عهد فؤاد الأول ، وفاروق الأول ، من أعظم العوامل التى ساعدت على اتصال الشرق بالغرب ؛ وكذلك فعلت النهضة التعليمية فى سوريا ، وفى لبنان على الأخص ، ومجهودات الأرساليات التبشيرية فى هـذا المضمار لا تنكر . وصار الطالب العربى فى مدارس القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، حتى وهو فى مرحلة الدراسة الثانوية يلم بشىء كثير من الأدب الغربى ، ويطلع على بعض صوره : من قصة وشعر ، ومقالة ، وحياة أدباء ، ويستوعب كل هذا ، ويؤدى فيـه امتحاناً ، ثم يختزنه فى عقله الواعى ، أو فى عقله غير الواعى ؛ ولن يستطيع أن يتخلص من تأثيره حين يتكلم ، وحين يكتب ، وحين يقرض الشعر ، وحين يفكر وحده . دع جانباً دراسة التخصص فى الجامعات ، وما تقوم به الهيئات والأفراد من بحوث وترجمات ؛ ونهضة الصحافة ، والتجديد فى مادتها بنقل كثير من ألوان الصحافة الغربية وأبوابها لجمهرة القراء ، وعامة الشعب .

وليس الغرب أمة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، ولـكنه أمم شتى ، ولها أذواق مختلفة ، وآداب متباينة ولغات عديدة ، ولـكل شعب أسلوبه فى التفكير ، وفلسفة خاصة فى الحياة ، ولم يـكن اتصال مصر والبلاد العربية قاصراً على شعب غربى دون آخر ، بل اتصلنا بكل بلاد الغرب إن لم يكن عن طريق البعثات فعن طريق الترجمة ؛ اتصلنا بفرنسا ، وانجلترة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وروسيا ، وأسبانيا ، والولايات المتحدة ، وغيرها ، وعرفنا صوراً وألواناً من آداب كل وفلسفة كل ، ولا سيما فى الحقبة الأخيرة ، بعد ما انتشر الطيران ، وازداد العالم اتصالا بعضه ببعض .

ومن العسير أن نحدد مدى تأثر الأدب العربى بكل ثقافة من هذه الثقافات ، بيد أننا نستطيع أن نقول على وجه التقريب . إننا تأثرنا بادئ الأمر بالحضارة الفرنسية ، فنقلنا عنها كل ما يتصل بأسباب الحياة من طب وهندسة ، وعلوم تجارية ، وقانون وما شاكل

هـذا ؛ وأن مصر تأثرت بالثقافة الإنجليزية ، ثم بالثقافة الفرنسية ، ثم أخذت ألواناً من ثقافات غربية أخرى دون أن يكون لها تأثير كبير . أما فى لبنان فالثقافة الفرنسية ، ثم ثم الثقافة الأمريكية والإنجليزية ، ثم سوى ذلك من الثقافات .

هذا التيار الغربى القوى الذى يجرى فى حياة الأمة العربية العقلية والأدبية ، ينافسه تيار آخر حبيب إلى نفوس الأمة ، ويمت إلى ماضيها المجيد ، ويعرض الشخصيات المألوفة لديها الأثيرة عندها ، التى تبعث فيها العزة والكرامة ، وتقوى من شخصيتها ، وتزيد فى اعتدادها بنفسها ، وذلك هو الأدب العربى القديم ، وهو أدب ضخم عتيد ، غاص بكثير من آيات الفن ومعجزاته ، وهو قريب من نفوس الشعب العربى ، ويستطيع أن يتمثله بيسر ومسرة ، قريب من فكره وعاداته ، وعقيدته ، ومزاجه وشعوره ، فلا بدع إذا عظم هذا التيار واشتد وزاحم تيار الثقافة الغربية مزاحمة عنيفة .

والأدباء فى العالم العربى — فى خلال قرن من الزمن — قد تباينوا فى تأثرهم بهذين التيارين : فمنهم من اقتصر على القديم بحكم ثقافته وبيئته ، والعوامل الاجتماعية الخاصة المحيطة به ، وإن لم ينج من التأثر بالأفكار الشائعة ، والألوان الأدبية المترجمة فى الصحف والمجلات ، ودور العلم ، ولكن غلب القديم عليه فى خياله ، وموضوعه ، وأسلوبه ، وطريقة عرضه ؛ ومنهم من كانت ألوان الثقافة الغربية غالبة على أدبه ، فتقرأ له وكأنما تقرأ لأديب فرنسى أو انجليزى ، يكتب بالعربية ؛ ومنهم من حاول الجمع بين القديم والجديد ، فخذ من القديم متانة الأسلوب ، وطلاوة العبارة ، ووضوح الغرض ، وأخذ من الجديد العرض ، والموضوع ، أما الفكرة فتارة يأخذها من هنا ، وتارة يأخذها من هناك .

هذا ، وقد حاول بعض أدباء العربية فى السنوات الأخيرة محاكاة المدارس الأدبية الأوربية ، التى نشأت بتطور تلك الأمم فى الحياة والمدنية ، والتى كانت أثراً لعوامل اقتصادية ، واجتماعية وسياسية مختلفة .

حاولوا محاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة ، أو تدفعهم إلى لون خاص من الأدب دوافع قهرية كما كان فى الغرب ، ولكنه حب التجديد ، والتقليد للأدب الغربى فحسب .

ولذلك رأينا من يقلد المدرسة الإبداعية (Romantisme) ، ومن يدعى أنه من المدرسة الواقعية (Realisme) ، ومن يحاول أن يكون من المدرسة الرمزية (Symbolisme) إلى آخر ما هنالك من مدارس .

وأدب هؤلاء المغرقين فى التجديد ، المغرمين بالتقليد ، هو أدب غربى صرف ، جاء فى ثوب عربى ضعيف النسيج ، ملون بألوان صارخة يمجها الذوق العربى .

هذه الأنماط المختلفة من الأدباء ، وهذه الألوان المتباينة من الأدب ، فى عصر ازدحم بالعلوم والثقافات ، يجعل مهمة مؤرخ الأدب عسيرة فى تعرف طريقه فى درسها وتقسيمها وحصرها ، وإصدار أحكام عامة عليها ، وتبيان كل مدرسة ، والفريق الذى ينتمى إليها فى كل بلاد العروبة ، ولا سيما والنهضة اليوم عامة ، وهناك عشرات من الأدباء اللامعين يستحقون الدراسة . ولا بد لمؤرخ الأدب كذلك من التعرض للعوامل السياسية والاجتماعية التى أثرت فى الأدب العربى الحديث ، وتتبع نمو هذا الأدب منذ عصر محمد على ، حين كان يحاول التخلص من القيود التى كبل بها فى عصور الانحطاط ، إلى أن قوى ، ووقف على قدميه حراً طليقاً ، ثم إلى أن صار مارداً عملاقاً فى جيلنا الحاضر .

وأشهد أن هذا العمل الضخم يحتاج إلى دراسات واسعة قبل أن يتم ويصير عملا تاريخياً علمياً له قيمته : فمن دراسة لتأثر الشعر العربى الحديث بالثقافة الغربية من حيث الفكرة والخيال ، والغرض والصورة ، ومن دراسة للكلمات الدخيلة والمعربة التى استعملها الأدباء ؛ ومن دراسة لتطور القصة فى الأدب العربى قديماً وحديثاً ؛ ومن دراسة للأساليب الأدبية المتأثرة بالأساليب الغربية ؛ ومن دراسة لتطور النثر العربى ؛ وأدب المقالة إلى غير ذلك من الدراسات المنظمة المسهبة التى تأخذ جزءاً خاصاً من هذا العمل الضخم ، وتبحثه وتصدر عليه أحكاماً مدعمة بالأدلة والنماذج ؛ لتعين مؤرخ الأدب حين يتعرض إلى المدارس الأدبية فى العصر الحديث ، ورجال كل مدرسة .

ولست أزعم أننى ضليع بهذا العبء وحدى وأننى حين أقدم هذا الكتاب للقارئ العربى قد قمت بهذه الدراسات المستفيضة ، وانتهيت من الأحكام العامة التي تؤدى إليها

هذه الدراسات . ولكن هذا الكتاب ليس إلا محاضرات ألقيتها على طلبة كلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول ، حاولت أن أعرض عليهم فيها نماذج من هذه التيارات المتباينة فى الآدب الحديث ، وأسرد عليهم فيها كيف نما هذا الأدب وتطور ، فى إجمال واختصار .

وقد ألحوا على إلحاحاً شديداً فى أن أقدمه للمطبعة ، حتى ينتفعوا به و ينتفع غيرهم فيما يزعمون ؟ ولقد ترددت طويلا قبل أستجيب لرغبتهم ، لاعتقادى أن هذا العمل يتطلب جهداً عنيفاً ووقتاً طويلا ، وأن الأولى أن يظل دراسة حتى تستوفى عدتها ، وتكمل أهبتها ، وتوضع فى قالبها الأخير على صورة كتاب .

فأنا لا أعفى كتابى هذا من التقصير ، و إذا لم يستوعب الأدب الحديث ومدارسه ، وكل الشخصيات الأدبية الجديرة بالدرس ، فإنى أول المعترفين بذلك ، المعتذرين عن تقصيرهم والذى يشفع لى عند القراء أنها محاولة لدرس الأدب الحديث ؛ علّ فيهم من يكون أقوى منى مُنة ، وأطول باعاً فيستوفى الموضوع و يلم بكل أطرافه ؛ أو يكون فيهم من تستهويه ناحية خاصة ، أو أديب بعينه فيتخذه مجالا لدراسته ، وتزويد المكتبه العربية بها ، فيعين على تحديد معالم أدبنا المعاصر .

و بعد ، فإن المعاصرة حجاب ، وقد أتعرض فى كتابى هذا بالنقد لبعض الأحياء من الأدباء ، والتعريف بآثارهم الأدبية ، وقد يكون فى كلامى ما لا يروقهم ، أو يثقل عليهم ، ولكنى سألزم نفسى قول الحق مجرداً عن الأهواء والغايات ، ثم إنى مجتهد ، فإنى أصبت فلى ثوابان ، و إلا فلن أعدم ثواب الاجتهاد ، ولن تحول المعاصرة بينى و بين تقرير الحقيقة ، والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقى

مقدمة الطبعة الثانية

لم أزل منذ صدرت الطبعة الأولى فى عام ١٩٤٨ أواصل دراسة الأدب الحديث ، وأبحث عن مصادره ، وقد تسنى لى فى هذه الحقبة الاطلاع على كثير من المراجع ، وإنى أتقدم اليوم بالطبعة الثانية إلى قراء العربية وفيها زيادات كثيرة فى كل باب من أبواب الكتاب ، وإفاضة فى تراجم الشعراء والكتاب .

على أن هذه المرحلة من الأدب الحديث لا تزال فى حاجة إلى الدراسة ، واستقصاء المصادر ، حتى تظهر واضحة مجلوة لدارس الأدب ، فلست أزعم أن الكتاب قد بلغ الكمال أو قاربه ، وإنى سأظل عاكفاً على الاستزادة من الأدب الحديث حتى أبلغ بالكتاب الغاية التى أصبو إليها إن شاء الله .

ومما يحفزنى على ذلك ما وجدته فى جمهرة القراء من تشجيع؛ حتى نفذت الطبعة الأولى فى أمد وجيز ، على الرغم مما تلاقيه الكتب الأدبية من انصراف عنها ، وزهد فيها . وإنى أقابل هذا التشجيع بالشكر راجياً أن يوفقنى الله إلى إرضاء العلم وجمهور الأدباء ، وطلاب البحث . والله هو الموفق للصواب » .

القاهرة فى نوفمبر ١٩٥٠ — عمر الدسوقى

الفصل الأول

البعث

— ١ —

قبيل البعث :

ظلت مصر و بلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعانى مرارة الظلم ، وقسوة البغى .

قلب ما شئت من أسفار التاريخ فلن ترى إلا صفحات سوداء قاتمة ، تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخ المظلومين يصم الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين فى كل صقع تسيل تحت سياط الجباة ، وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة أصابعها : الفقر والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال .

لم يكن لولاة الأتراك هم إلا استدرار الأموال بأية وسيلة ، غير معيرين صرخات الشعوب العربية التفاتاً ، وغير مهتمين بما يقاسونه من ضنك و بؤس وفاقة وجهل ، واشتد الخلف بين أمراء المماليك ، وسلبوا الوالى سلطته ، وشنوها حرباً شعواء كل على أخيه ، ينازعه السلطة والجاه . والضحية فى هذا النزاع كله هم أبناء البلاد ، فلا غرو إذا أقفرت من أهلها ؛ وقد جاء القرن التاسع عشر ، وسكان مصر أقل من ثلاثة ملايين ، أكثرهم من العرب المسلمين ، ويليهم الأقباط ثم الأتراك . وكان الحاكم يفد من الأستانة ، ويقيم بالقلعة ويدعو للخليفة ، ويضرب باسمه النقود .

ولكن السلطة الفعلية كانت فى يد المماليك ، وهم أخلاط من الأتراك والشراكسة وجميع ثروة البلاد وإدارتها فى أيديهم ، ولم يكن لهم عصبية ؛ لأنهم لم يتوارثوا الملك

إلا نادراً و إنما الغلبة للقوى ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظه السعيد يغير من أخلاقه ، فهو فى منصب الوالى تتقمصه روح العبد الوضيع وليس له من هم إلا الاستيلاء على النساء والخيل والأموال وكان الفلاح المسكين يُغزى وتنهب أمواله ، ولم يكن التاجر المصرى أو الأوربى الغريب بأحسن منه حالاً[١] ، ولا ريب أن الحالة الاجتماعية والأدبية تتأثر إلى حد كبير بالحالة السياسية ؛ فرعية همل ، ورعاة مستبدون ، وهيهات أن يكون للأدب نصيب فى مثل هذه البيئة الجاهلة .

وقد زار (فولنى) الفيلسوف الفرنسى مصر ، و بلاد الشرق العربى وتركيا فى أخريات القرن الثامن عشر فراعه ما بها من جهل مطبق ، وفساد شائع ، وهو فى هذا يقول : « الجهل عام فى هذه البلاد ، وفى كل بلد تابع لتركيا ، وقد عم كل الطبقات ويتجلى فى كل العوامل الأدبية و فى الفنون الجميلة ، حتى الصناعات اليدوية تراها فى حالة بدائية ، و يندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة و إذا وجد فهو أجنبى » .

ويقول فى موضع آخر : « ولىّ عصر الخلفاء وليس من الأتراك أو العرب اليوم علماء فى الرياضيات أو الفلك ، أو الموسيقى أو الطب ، و يندر فيهم من يحسن الحجامة ، و يستخدمون النار فى الكى ، و إذا عثروا بمتطبب أجنبى عدوه من آلهة الطب ، وصار علم الفلك والنجوم شعوذة وتنجيما ، و إذا قيل لعلمائهم و رهبانهم إن الأرض تدور عدوا ذلك كفراً ؛ لأنه — فى زعمهم — يخالف كتب الديانات » .

ولم تكن تركيا أحسن حالا من البلاد الخاضعة لسلطانها ، وحسبك أنه حينما أراد بعض النابهين من الأتراك فى القرن الثامن عشر[٢] إدخال المطبعة لأول مرة فى تركيا ، وجد من ولاة الأمور ، وجمهور الشعب عنتاً و إرهاقاً ، واضطر إلى استصدار فتوى شرعية بعد أن بذل إبراهيم باشا صهر السلطان مجهوداً كبيراً ، وقد سمحت الفتوى بطبع الكتب غير الدينية ، ثم أفتى علماء الشرع بعد ذلك — حين ظهرت فائدة المطبعة — بطبع كتب

---

(١) راجع The Begining of the Egyptian question and the Rise of Mohamed Ali by Prof. Shafik Ghorbal. P. 2.

(٢) هو محمد چلبى سفير الدولة العثمانية بباريس .

الدين اعتماداً على أن « الأمور بمقاصدها » .

وقد حرم الأتراك مصر أغلى كنوزها فنقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس إلى بلادهم ، ثم نقلوا كثيراً من العلماء ، والأدباء ، والأمراء ، والمهندسين ، والوراقين ، وأرباب الحرف . وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء ، وقال : إنهم يبلغون ألفاً وثمانمائة ، وصادفهم النحس فغرقت بهم بعض السفن التى كانت تقلهم فمات كثير منهم . مع أن ابن إياس (١) أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثمانى ، ولم يشهد الاحتلال فى أوج جبروته ، وما جره على البلاد من نكبات . وكان من نتائج هذا الاحتلال كذلك أن قلت أموال الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم ولم يبق منه إلا ذماء يسير بالأزهر . ومن البديهى أن اللغة العربية لم تجد فى هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويثيب الشعراء والكتاب المحتفين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية فى الدواوين ، وفشت على ألسنة الناس ؛ ولأن الحكام لا يفقهون العربية ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والغث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين .

ولم يعد فى استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عز عليهم اللفظ الجزل والأسلوب القوى ، فلجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام ، وأتوا بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصابا من آثار من سبقوهم من الكتاب .

وحسبنا أن نقدم بعض نماذج دليلا على ما وصلت إليه اللغة وآدابها نثراً ونظماً من الركة والضعف .

---

(١) هو ابن إياس الجركسى الحنبلى من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » دون فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ ١٥٢١ م ولغته ضعيفة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى .

(١) قال عبد الوهاب الحلبى فى رسالة إلى الشهاب الخفاجى :

« لقد طفحت أفئدةُ العلماء بشراً ، وارتاحت أسرارُ الكاتبين سراً وجهراً ، وأُفعمت من المسرة صدورُ الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيُمن قدومِ من اخضرّت رياضُ التحقيق بإقدامه ، وعرفت بحار التدقيق من سحائب أقلامه » .

(٢) قال عبد الرحمن الجبرتى من النثر المرسل مبيناً نشأة مدرسة الهندسة فى عهد محمد على :

« لما رغب الباشا فى إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة ، تعين المترجم رئيساً ومعلماً لمن يكون متعلماً بذلك المكتب ، وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك . ورتب له خروجاً وشهريا ، ونجب تحت يده المماليك فى معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكاناً للتعليم ويضم إلى مماليكه من يريد التعليم من أولاد الناس ، فأمر بإنشاء ذلك المكتب ، وأحضر له أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنكليز وغيرهم »

(٣) ولم يكن الشعر — إذا صح أن نسميه شعراً — أرقى حالا من النثر وإنما كان صناعة لفظية غثة .

وهاك مثلا مما قاله عبد الله الشبراوى[١] يرثى أحمد الدلنجاوى المتوفى سنة ١١٢٣ هـ :

سألتُ الشعر هل لك من صديق ... وقد سكن الدلنجاوى لحده
فصاح وخر مغشياً عليه ... وأصبح ساكناً فى القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر ... فقد أرختُ مات الشعر بعده

٤٤١ ٦٠ ٨١

ومن ذلك قول الشهاب الخفاجى[٢] :

---

(١) كان عبد الله الشبراوى من أكابر شيوخ الأزهر ، واشتهر بقول هذا النوع من الشعر ، وتوفى سنة ١١٧٢ هـ .

(٢) هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجى المصرى ولد بسرياقوس وتلقى دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم الإستانة ، ثم عين قاضياً للعسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دمشق فحلب فالإستانة وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ، ومن أشهر مؤلفاته « ريحانة الألباب » يشتمل على تراجم لبعض أدباء عصره ، ثم « شفاء الغليل بما فى لغة العرب من الدخيل » .

فَدَيتُك يا مَن بالشجاعة يرتدى ... وليس لغير السُّمْر فى الحرب يَغْرِسُ
فإنْ عشقَ الناس المها وعيونَها ... من الدَّل فى روض المحاسن تَنْعِسُ
فَدِرعُكَ قدْ ضمَّتكَ ضمَّةَ عاشقٍ ... وصارت جميعاً أعيناً لك تحرسُ

ومن هذه النماذج المتقدمة للأدب قبيل النهضة ، ندرك كيف كان النهوض صعباً بطيئاً ، يحتاج إلى عناء طويل ، وصبر كثير ، وزمن مديد ، ليبلغ أشده ، ويؤتى أكله .

— ٢ —

البعث :

هبت مصر من سباتها العميق فزعة مذعورة حين دوّت فى آفاقها مدافع نابليون ، وأخذت تقلب الطرف دهِشة فى هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه ، الغريبة ، فكان ذلك أول عهدها بالفرنجة منذ عصر صلاح الدين الأيوبي . ولكن شتان بين العهدين ، ففى الأول كانت قوية عزيزة لا تزال فيها أثارة من علم وأدب ، وكانت أوربا لا تزال تتحسس طريقها نحو النور . فاقتبست من مهد العروبة وأفادت علماً وحضارة ، وأخذت ترقى صُعُداً فى سُلّم المدنية بخطوات ثابتة سريعة ، بينما أخذت مصر تهوي وتنحدر رويداً رويداً ويتراكم عليها الجهل والغفلة . حتى جاءها (نابليون) وهى فى الدَّرْك الأسفل .

اصطحب (نابليون) معه كل عُدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ . وكانت دهشة المصريين جِدَّ عظيمة مما رأوا من مظاهر هذه المدنية الجديدة ؛ إذ أنشأ نابليون مسرحاً للتمثيل كانوا يمثلون فيه رواية فرنسية كل عشر ليال ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ، ومعملا للورق ، وأسس مراصد فلكية ، وأماكن للأبحاث الرياضية ، والنقش والتصوير فى حارة الناصرية ، وأسس مكتبة عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وفيها كثير من الكتب الفرنسية التى أحضرتها الحملة معها ليفد إليها كل من يريد المطالعة ، وكان القائمون بأمرها يرحبون بمن يدخلها من

المصريين . وكان بها عدد كبير من الكتب العربية ، وأنشأ المجمع العلمى المصرى على نظام المجمع العلمى الفرنسى فى أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وكان من أغراضه :

١ — نشر المدنية و بعث العلوم والمعارف بمصر .

٢ — دراسة المسائل والأبحاث التاريخية والطبيعية والصناعية ، ونشر هذه الأبحاث فى مجلة المجمع التى تنشأ لهذا الغرض .

٣ — إبداء رأيه فى الأمور التى تستشيره فيها الحكومة .

وكان المجمع يتألف من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون . و يتألف كل قسم من اثنى عشر عضواً .

وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره وأعمال رجاله وصارت أبحاث أعضائه هى النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر . ولا بدع إذا ظل المجمع العلمى هو الأثر الباقى حتى اليوم من آثار حملة نابليون ، وذلك لجليل فائدته . وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية[1] .

و بذل الفرنسيون غاية جهدهم فى تقريب المصريين إليهم ، وترغيبهم فى أسباب الحضارة . وفى تاريخ الجبرتى وصف مستفيض لكل هذا ، حتى موائد الفرنسيين ، وكيف يأكلون ويشربون و يلبسون ، وما شاهده من سائر أعمالهم العلمية والكيميائية ، وكتبهم المصورة وأدواتهم . وهو يمثل بدهشة هذه حال كل عربى فى أيامه . ولقد ظن كثير ممن شاهدوا التجارب العلمية التى أجراها الفرنسيون فى معاملهم سحراً[2] بيد أن كل هذا ذهب بذهابهم سنة ١٨٠١ م .

كانت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر ، أيقظتها من سباتها الطويل العميق و بينت لها

---

(١) تاريخ مصر السياسى لمحمد رفعت بك ح ١ ص ٣٩ .

(٢) وصف الجبرتى كل ما رآه فى أحد هذه المعامل بقوله : « ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً ياقوتياً » .

أنها تعيش فى عالم آخر ، وأن الدنيا تسير وأهلها واقفون غارقون فى أحلامهم ، يجترون ماضيهم ، ولا يدركون مساويهم ، ويظنون أنهم الناس وأن غيرهم لا شىء .

وقد نظم نابليون شئون مصر الداخلية تنظيماً حسناً ، يشهد له بالنبوغ الإدارى ، فوق نبوغه الحربى ، على الرغم من قصر المدة التى أقامها بمصر ، فأنشأ الدواوين ، فى مصر والمدن الكبرى وانتخب لها أكفاء المصريين . واختار من بين المصريين المسيحيين رجال المالية والإدارة بيد أن شراسة رجال الحملة ، واستهتارهم بالشعب المصرى ، ودينه ، وتقاليده ، وانتهاكهم حرمات الأهالى جهاراً ، ونهبهم القرى الآمنة ، وإفزاع أهلها . وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التى كان يصرف ريعها على المساجد وطلاب العلم ، وفرضها كذلك على المنازل . جعل كل هذا قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته ، وعلمه ، وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد ، ولقد ثار المصريون عليه فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فأخمد ثورتهم فى قسوة عارمة ، وعنف وغلظة وانتهك حرمة المساجد الإسلامية[١] ؛ وعبثاً حاول بعد ذلك أن يتألف قلوبهم أو يستميلهم إلى المدنية الغربية . وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، واتخذوا ما وضعه لهم أساساً للإصلاح الداخلى[٢] .

وفى ذلك يقول المؤرخ الإنجليزى الجود (Elgood) :

« لقد ترك الاحتلال الفرنسى فى مصر أثراً لا يمحى ، فقد ظل المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم ، وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر . وإن ما خلفته الحملة الفرنسية فى مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير ، لمن أضخم ما يتسنى إنجازه فى هذا الأمد الوجيز[٣] »

ثم أتيحت لمصر فرصة ذهبية حقاً لكى تنهض وتتبوأ مركزها بين أمم العالم المتمدين باستواء محمد على على عرش مصر ، فأقالها من عثرتها ، وأنهضها من كبوتها وغسل بماء

---

(1) Prafessor Shafik Ghorbal . ibid . pp . 73 — 5 .

(٢) لمحة عامة إلى مصر لكلوت بك ج ٢ ، ص ٢٥٥ — ٢٦٨ .

(3) The Transit of Egypt, by P . G . Elgood, P . 45 . Edward & Co. London' 1928

العدل والعلم والمدنية هذه الدماء التى خلفتها فى جسم مصر الهزيل براثن السبع التركى .

كان محمد على طموحاً ، يريد أن يرى مصر ما بين طرفة عين وانتباهتها لا تقل فى حضارتها وقوتها عن دول أوربا فوضع أسس نهضة شاملة : فى الجيش ، والصناعة ، والزراعة ، والتعليم ، والإدارة ، حتى يكون البعث عاماً ، يدفع بعضه بعضاً . ولا يعنينا فى مقامنا هذا إلا مايمس اللغة والأدب .

وقد وجد محمد على أن خير وسيلة تنهض بالشعب المصرى وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة الاهتمام بالتعليم وقد سلك فى سبيل تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية فى العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الأمة .

البعثات :

جاء محمد على إلى مصر جندياً فى الحملة التى اشتركت فى إخراج الفرنسيين منها ، ولم تمض عليه أربع سنوات حتى استولى على مصر ؛ بما وهب من صفات نادرة خلقته لأن يكون زعيما مصلحاً ، وملكا قويا ، ورأى أنه لن يستقيم له الأمر حتى يقضى على المماليك لتمردهم وكثرة شغبهم ، فأبادهم ؛ وأنه لابد له من جيش قوى يُقر به الأمنَ ويصون هيبةَ الحكم فى الداخل ، ويدفع به غارة المغيرين من الخارج ، فانتدب طائفة من أساتذة الفنون العسكرية بأوربا ، وأرسلهم مع مماليكه إلى أطراف الصعيد ليدربوهم هناك .

وفى سنة ١٨٢٥ أسس مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصر ابن العينى مكاناً ، وكان كل تلامذتها فى أول الأمر من غير المصريين إلا أنهم لم ينجحوا فالتفت إلى المصريين ، ونقلها إلى أبى زعبل ، وأكثر بها من الأساتذة الفرنسيين ؛ وتعجلا للفائدة كان قد سبق وأرسل فى سنة ١٨١٣ طائفة من شبان المماليك لدراسة الفنون العسكرية بإيطاليا ، وفى سنة ١٨١٨ أرسل بعثة أخرى إلى انجلترا لدراسة علم الحيل (الميكانيكا) وغيرها .

ورأى محمد على أن الجيش فى حاجة إلى أطباء يأسون جراحات الجند ، ويقاومون الأوبئة ، ويُعْنَون بالمرضى ، وأن الطب لا أثر له ألبتة ، فخاصة المصريين كانوا يعتمدون فى هذا على المأثور من نُسخ الأدوية فى الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب ، ومنها الكى والحجامة ؛ وأما الدهماء فكانوا فى عامة شأنهم يعوذون بمدعى الطب من الدجالين والمشعوذين والسحرة ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة الأضرحة . فأنشأ فى سنة ١٨٢٦ مدرسة للطب فى جهة أبى زعبل ، وأقام بجوارها مستشفى كبيراً لمعالجة المرضى ، ولتمرين الطلبة ، واستقدم لها أساتذة من الغرب ؛ وجعل رياستها إلى الدكتور (كلوت بك الفرنسى) . وكان الطلاب فى هذه المدرسة من المصريين وغيرهم ، واختير كثير من أولئك من بين نوابغ طلاب الأزهر ، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العينى فى سنة ١٨٣٨ .

وقد كان لمدرسة الطب أثر لا ينكر فى بعث اللغة العربية والنهوض بها ، واتصالها بالعلم الحديث ؛ لأن فصيح اللغة ، فوق أنه غُمَّ على الناس ، وعلى المصريين بخاصة من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهر بلاغتها قد دَبَّ إليها الضعف والانحلال إلى حد كبير ، فإنها قد تخلَّفت عن متابعة العلم حِقَباً طويلة ، فلما استوى العلم وأدرك ، إذا هو فى واد ، وإذا حظُّ الناس من لغة العرب فى واد آخر . وحين فاجأ محمد على مصر بهذه العلوم التى حذقها الغرب منذ عدة قرون تُشايعها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصيغ ، وتُطبع لها المصطلحات التى تهيئها الهيئات العلمية المنظمة . تبينَ العُسر أشدَّ العسر فى تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب يجهلون لغاتِ أهلها ، وخاصةً من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو عرفوها ما تهيأ لهم أن يدرسوا بها لعجزها عن أداء كثير ، والقليل مما تهيأ لها أن تؤديه ليس فى متناول اليد ، بل إنه يحتاج إلى كثرة مراجعة وشدة تنقيب ، ويحتاج إلى علماء عندهم شغف بالاطلاع ، ورغبة فى البحث ، وجلد على العمل ؛ لهذا اضطر محمد على أول الأمر أن يقيم بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس فى اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية ، وكان هؤلاء المترجمين من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانوا كثيراً فى القيام بهذه المهمة الشاقة ، ولكن كان عملهم هذا أول دِعامة فى

صرح النهضة الحديثة ، فلقد حفزهم ذلك إلى مراجعة معجمات اللغة ، والكتب الفنية القديمة كمفردات ابن البطار ، وقانون ابن سينا ، وكليات ابن رشد ، وغيرها من الكتب العربية لاستخراج المصطلحات العلمية أو لصياغة ما يؤدى مطالب العلم الحديث ، إذا عجز القديم عن أدائه ، وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية فى كثير من الأحيان ، ففضلهم فى عقد الصلة بين الشرق والغرب لا يجحد .

رأى محمد على أن تشمل نهضته جميع نواحى الحياة ، فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية ، وقد بدأ بالمدارس العالية ، وكان على حق فيما فعل ؛ حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين فى المواد المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى ؛ ويسيرون بالنهضة سريعاً ، فأسس مدرسة للصيدلة ، وأخرى للهندسة فى القلعة ثم نقلت إلى بولاق ، ومدرسة للولادة والتمريض . ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة مختصين عالمين بعلوم الغرب وثقافته ، فجلب الأساتذة من فرنسا فى كل فن من الفنون ، ولكنه أدرك أن النهضة الحقة لا تتم إلا على يد أبناء البلاد ، فأكثر من البعثات ، وفى سنة ١٨٢٦ أرسل بعثة إلى فرنسا عدتها أربعة وأربعون طالباً ، ذكر أسماءهم (المسيو جومار)[١] — وقد عهد إليه محمد على بالإشراف على بعثاته — فى المجلة الأسيوية ، Journal Asiatique[٢] ، وقد تخصصوا فى شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب وزراعة ، وتاريخ طبيعى ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر ، وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة . ومن أشهرهم وأعظمهم أثراً أمام البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوى . وسنترجم له فيما بعد لجليل قدره وعظم أياديه على الترجمة والنهضة الأدبية .

ثم توالت البعثات ، ومن أشهرها البعثة الطبية الكبرى فى سنة ١٨٣٢ ، وقد اختير طلبتها من نابهى مدرسة الطب المصرية ، ومن نوابغ رجالها محمد على البقلى ، وفى سنة ١٨٤٤

---

(١) كان مهندساً فى الجيش الفرنسى بمصر ثم عضواً فى المجمع العلمى المصرى أيام حملة نابليون .

(٢) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩ .

أرسلت بعثة ضمت خمسة من أمراء البيت المالك ، ومنهم الأمير إسماعيل[١] ، ولذا سميت ببعثة الأنجال ، وهى أكبر بعثات محمد على وآخر بعثاته الكبرى ، وقد اختار تلامذتها سليمانُ باشا الفرنساوى من نوابغ تلاميذ المدارس المصرية ، ومن أجل هذه البعثة فتح محمد على مدرسة بباريس . ومن أشهر رجالها على مبارك باشا ، وحسن أفلاطون باشا ، ومحمد عارف باشا ، ومحمد شريف باشا .

وقد أرسل محمد على إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧ ، وكان محمد على شديد العناية بأعضاء البعثات يتقصى أنباءهم ، ويشرف على دراستهم باهتمام ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد ، وينبههم إلى واجباتهم ؛ وذلك لشدة حاجته فى نهضته إلى من يقف بجانبه ، وينفذ مشروعاته الضخمة ، وقد ذكر رفاعة بك الطهطاوى نموذجاً من الرسائل التى وجهها محمد على باشا إلى طلبة البعثات ، يوبخهم فيها على تقصيرهم ، ويحثهم على الاجتهاد ، ويتعجلهم فى قطف ثمار تحصيلهم[٢] .

كان لهذه البعثات كلها أثر بالغ فى تقدم مصر ، ونهضتها ، وإرسال نور العلم دافقاً قوياً فى ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل فى إحياء اللغة ، وجعلها مسايرة للعلم الحديث ، بما ترجم أعضاؤها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه فى شتى نواحى العلم .

الترجمة :

كان محمد على حريصاً على أن ينقل كنوز الغرب إلى اللغة العربية فأسس فى سنة ١٨٣٦ مدرسة الإدارة والألسن ، وعهد بالأشراف عليها لرفاعة بك الطهطاوى . ولما كان تاريخها مرتبطاً به ، ونهضة الترجمة فى عصر محمد على وخلفائه ثمرة جده وكده ، رأينا أن نترجم له ترجمة موجزة فحياته حياة مدرسة الإدارة والألسن ؛ لأنها وجدت بفضله ، وانتهت بخروجه منها .

---

(١) الخديو إسماعيل فيما بعد ، ومن الأمراء الذين سافروا فى هذه البعثة الأمير حليم والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد شقيق الأمير إسماعيل من أنجال إبراهيم باشا — الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٠ .

(٢) راجع الرسالة فى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز لرفاعة بك ص ١٥١ ، وفى تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى بك ج ٣ ٤٥٥ .

رفاعة بك الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣

١٠٨١ - ٣٧٨١

هو إمام النهضة العلمية فى مصر الحديثة غير مدافع ، وهبه الله لمصر كى يزودها بنور العلم ، ، فكان مشعلا ساطعاً بدَّد الجهل وسُدْفته ، وأنار الطريق لآلاف العقول والقلوب ووضع اللبنات الأولى القوية فى صرح ثقافتنا الحديثة .

أوتى القلب الذكىّ ، والعقل الصافى ، والنشاط الموفور ، والبصيرة النفَّاذَة ، والعزيمة المبرمة فما أضاع ساعة منذ وضع رجليه على سلَّم الباخرة التى أقلته إلى فرنسا إلا وأمامه الهدف الذى رسمه لنفسه ولوطنه ، وظل هذا دأبه إلى أن انطفأ مشعل حياته .

هو مصرى صميم ، من أقصى الصعيد ، يتصل نسبه من جهة أبيه بسيدنا الحسين رضى الله عنه وقد أشار إلى هذا النسب بقوله .

حسينىّ السلالة قاسمىٌّ بطهطا معشرى وبها مهادى (١)

ومن جهة أمه بالأنصار الخزرجية ، ولد فى طهطا ، وكان أجداده من ذوى اليسار ، ثم أخنى عليهم الدهر ، وحينما ولد كانت أسرته فى عسر ، فنشأ نشأة معتادة بين أبوين فقيرين ، وقرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية ، كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار كثيرون ، ولكن ذكاءه وحبه للعلم ، وإقباله على التحصيل لفت إليه نظر الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر فى ذياك الوقت وكان الشيخ العطار من أفذاذ عصره فى العلم والأدب والفنون الحديثة ، فاقتدى به تلميذه الشيخ رفاعة ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، ومهر فى فنونه وهو بعد فى الأزهر . ثم تولى التدريس سنتين ظهر فيهما استعداده للتعليم والتثقيف ، إذ أحبه تلاميذه حباً جماً وتعلقوا به

---

(١) قاسمى : نسبة إلى أحد أجداده أبى القاسم الحسينى وهو من أولياء طهطا المشهورين .

وبدروسه ، ويقول صالح بك مجدى فى هذا[١] .

« وكان رحمه الله حسن الألقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى : فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصاً بالجم الغفير من الطلبة وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذه عنه ؛ لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ، محققاً ، قادراً على الأفصاح بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب » .

ثم عين واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش فى سنة ١٨٢٤ ، فاعتاد حياة جديدة عنوانها النظام والطاعة ، ومحبة الوطن والدفاع عنه ، ومواجهة الأخطار ، وقد كان لذلك أثر كبير ؛ فعاش محباً للنظام ، فى كل عمل تولاه : فى تلقى العلوم ، وفى التأليف والتعريب ، وفى حسن تنظيم المعاهد التى تولى إدارتها ، شغوفاً بوطنه مخلصاً له طول حياته .

وكان من حسن حظه وحظ مصر أن طلب محمد على باشا إلى الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى ، يرى فيه اللياقة لتلك الوظيفة[٢] ، فوقع الاختيار على الشيخ رفاعة .

ولم يكن مطلوباً من إمام البعثة أن يحصل شيئاً من علوم الفرنسيين ، ولكن حسبه أن يؤدى مهمته ؛ من وعظ الطلاب ، وإرشادهم إلى مافيه خيرهم ، ونصحهم إذا ضلت بهم السبل ، وإمامتهم حين الصلاة ؛ ولكن الشيخ رفاعة كان ذا نفس طموح ، فما أن أقلعت به وبصحبه الباخرة من مصر حتى ابتدأ يتعلم الفرنسية ، فأتقنها فى ثلاث سنوات ، واتصل بكثير من العلماء والمستشرقين ، فأجلوه وأكبروه ، ومنهم المستشرق المشهور (البارون دى ساسى) .

واهتم فى دراسته بالتاريخ والجغرافية ، والفلسفة والأدب ، فقرأ (ڤولتير) ، (روسو) ، (وراسين) ، (مونتسكيو) وغيرهم ، وقرأ بعض الكتب فى علم المعادن وفى فنون الحرب

---

(١) فى رسالته (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وهى ترجمة حياة رفاعة بك . كتبها صالح بك مجدى أحد تلاميذه .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

والرياضيات . ومالت نفسه وهو بباريس إلى التأليف والتعريب ، فوضع رحلته وسماها : (تخليص الأبريز فى تلخيص باريز) ، وقد كان أستاذه العطار قد أوحى إليه بذلك ، وعرب نحو اثنتى عشرة رسالة فى مختلف الفنون والعلوم من هندسة ومعادن وطبيعة وتاريخ ، وتقويم ، وميثولوجيا وعلم الصحة والأخلاق . وترجم كذلك فى باريس كتابه (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) .

وهو أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة فى تاريخ مصر القومى ، وذلك أنه درس فى أثناء إقامته بباريس نظام الحكم فى فرنسا ، وعرب فى كتابه (تخليص الأبريز) دستور فرنسا فى ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، ولم يكن يكتفى بالتعريب ، بل كان يعلق بما يدل على سعة فهم وصحة حكم ، وميل فطرى للنظم الحرة[1] .

وكان الشيخ رفاعة فى باريس موضع إعجاب أساتذته وإكبارهم ، لتمام رجولته ، ونضج عقله ، وحسن تصرفه ، وشدة إقباله على الدرس والتحصيل ، والعمل على نفع أمته ، وفيه يقول المستشرق الفرنسى المشهور (سلفستر دي ساسى) إن الشيخ رفاعه « أحسن صرف زمنه مدة إقامته بفرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً بلاده ، . . . وله عندى منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة[2] » .

وذكر السيد صالح مجدى تلميذه ومؤرخ حياته فى كتاب (حلية الزمن) : « وقال لى

---

(١) من ذلك تعليقه على موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة فى باريس قال : (فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكماً ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء الفرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ؛ فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ؛ فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحباباً له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء والرفق بالمذنب والإغضاء
إن لم تقل عثرة من يقال يوشك أن يصيبك الجهال

(٢) تخليص الإبريز ص ١٥٤ .

من أثق به ممن كانوا معه بباريس : « إنه كان يؤدى الفرائض والسنن ، ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، وواظب على تلاوة القرآن[١] » .

كان رفاعه قبل أن يغادر مصر يظن أن العلم كله قد جمع فى الأزهر ، وأنه سيحرم الاغتراف من هذا النبع العذب ، وفى ذلك يقول :

ألا من يغب عن أزهر العلم فلينح على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات ، وغيره بحور عروض لاتجود بماء[٢]

ولكن يتبين له بعد أن ذهب إلى باريس ، واتصل بثقافة الغرب أن وطنه فى حاجة ملحة إلى معرفة هذه الثقافة الجديدة ليرقى وينهض ، وأنه لا يكفيه علم الأزهر ، ولذلك جد فى الترجمة ، حتى ليخيل للمرء أنه يريد أن ينقل كل شىء إلى اللغة العربية وإلى مصر ، ولا بدع فكل شىء أمام ناظريه جديد ، وعلى عقله غريب .

ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ ، بعد ست سنوات قضاها مكباً على الدرس والتحصيل ، يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ، ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ، وينعم النظر فى أحوال الشعوب الأوربية وتاريخها ، وأسباب حضارتها وتقدمها . واستقر عزمه وهو فى باريس على أن يخدم بلاده عن طريق نقل العلوم الغربية إلى مواطنيه ؛ فتتسع أفكارهم وتنمو مداركهم مقتفياً فى ذلك آثار الدولة العباسية ؛ إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف فى عهدها بترجمة كتب اليونان إلى العربية .

ولقد بر بوعده فملأ البلاد علماً وحكمة ، وحمل لواء النهضة وخدمها بتآليفه وتعاريبه ، وتلاميذه الذين تخرجوا على يديه فى مدرسة الألسن وغيرها .

أعماله بعد عودته :

لما رجع ولى منصب الترجمة ، وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب بأبى زعبل ؛ ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية بطرة ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، ثم

---

(١) حلية الزمن ص ١٠ (٢) المصدر السابق ص ١٧ .

وقع وباء فى القاهرة اضطره إلى السفر لطهطا بلدته ، فمكث بها ستين يوماً ، ترجم فى خلالها مجلداً من جغرافية (ملتبرون) وعاد به إلى القاهرة ، وقدمه لمحمد على فأكرمه ورقاه .

عرف الشيخ رفاعة فى باريس مدرسة اللغات الفرنسية ، التى أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها فى كتابه مدرسة الألسن ، فوجب أن تؤسس فى مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب أغراضها . ورأى إن أعضاء البعثات مهما كثر عددهم لن يقوموا بكل ماتتطلبه النهضة من جهود ، فلابد من إيجاد طبقة من العلماء الأكفاء فى الآداب العربية ، واللغات الأجنبية ؛ ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب ، وليكونوا صلة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .

إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوروبا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر ؛ فاقترح الشيخ على محمد على إنشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد على أن يسر بالاقتراح الجيد ، وينفذه فوراً ، وعهد إلى الشيخ رفاعة بوضع المشروع وتنفيذه ، وبذلك أنشئت مدرسة الألسن ، وكان مكانها (سراى الألفى بك) حيث فندق (شبرد) الآن . واختار لها الشيخ خمسين طالباً من نوابغ طلاب المكاتب المصرية . وفى هذه المدرسة التى تولى الشيخ نظارتها ظهر نبوغه كعالم محقق ، ورئيس قدير ، ومعلم كفء ، ومرب ممتاز .

وكانت المدرسة كلية تدرس فيها آداب العربية ، واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ ، والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ؛ فكانت أشبه شىء بكلية للآداب والحقوق مجتمعتين ، وكان نهج المدرسة فى الترجمة عملياً ومفيداً ، فلم يكن دروساً تكتب فى دفاتر وتهمل ، بل يمرن الطلبة على الترجمة فى كتب نافعة ، فإذا استغلقت عليهم جملة لجئوا إلى شيخهم يذللها لهم ، ثم عرضوا ماترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لهم لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطه العدوى ، فقد كان ساعده الأيمن فى هذه المدرسة ؛ لما رزقه من موهبة جليلة فى التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة ، وقدرة فائقة على تصحيح عبارات الطلبة ، فيما يترجمون . فإذا

أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً[١] .

وأحيل على رفاعة بك مع إدارة هذه المدرسة إدارة عدة معاهد ، المدرسة التجهيزية ، ومعهد الفقه والشريعة الإسلامية ، ومعهد المحاسبة ، ومدرسة الإدارة الأفرنجية ؛ والتفتيش على مدارس الأقاليم ، وتحرير الوقائع المصرية . وبعد سنوات تخرجت الدفعة الأولى من مدرسة الألسن ، فتلقفتهم مصالح الدولة المختلفة ، وابتدءوا يفيضون وأستاذهم على مصر من بحور الغرب وكنوز ثقافته ما كان دعامة لنهضتنا الحالية .

ظل الشيخ سبعة عشر عاماً وهو دائب فى عمله لا يمل ولا يكل ، وفى كل آونة يضاف إليه عمل جديد يتقبله بصدر رحب وعزيمة قوية ، وكلما زاد اجتهاده وإنتاجه زاده أولو الأمر مكافأة وتقديراً ، فمنحه محمد على رتبة أميرالاى و ١٣٠٠٠ قرشاً فى الشهر ، و ٣٥٠ فداناً فى طهطا . ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، فما أن مات محمد على ، وتولى عباس الأول الحكم حتى أغلق المدارس جميعها إلا القليل ، وألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة معها ؛ بحجة الاقتصاد فى النفقات ، ولأن حاشية السوء لما رأت ميل الوالى إلى محاربة التعليم والعلماء خاضوا فى الشيخ رفاعة وطريقته ، ورموه بالعقم ؛ فنفاه عباس الأول إلى السودان تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظراً لها ، ومعه طائفة من أكابر العلماء . ولم تكن الخرطوم كما نعهدها اليوم فى نظافتها ومبانيها ، وتوفر وسائل العيش بها ، وإنما كانت مدينة صغيرة تصعب الحياة فيها على من ألف حياة باريس والقاهرة ، وعلى من كان يشرف على التعليم كله بمصر ، فإذا هو يشرف على مدرسة ابتدائية صغيرة بالخرطوم . وحزّ

---

(١) يقول أحمد أفندى عبيد مترجم كتاب (الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر) « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن السيد رفاعة أفندى ، فأجاد تربيتى كغيرى ، حتى حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ، اقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار ملكا من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو كتاب بطرس الأكبر ، وفضله أشهر من أن يذكر لمؤلفه الشهير المسمى (ڤولتير) الذى يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت فى نقله من الفرنسية إلى العربية ، مع إعانته لى فى حل مشكلاته ، وما عسر على من غوامضه ومعضلاته ، وقد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدلهمة ... الخ » .

فى نفس الشيخ أن يجازى على إحسانه بالإساءة ، وأن يطعن الجاهلون فى صلاح طريقته وقد أينعت وآتت أكلها شهياً لذيذاً ، يزيد فى نماء البلاد العقلى ، ونهضتها نحو الكمال ، وأخذ يستغيث و يندب حظه ، والموت يتخطف أعوانه كل يوم حتى لم يبق إلا نصفهم . وكان يستغيث أولا بمن يأنس منهم روح الجد والعمل لخير مصر ، حتى إذا عجز هؤلاء عن إغاثته لجأ إلى أولياء الله الصالحين وأنبيائه المطهرين ، ومن قصيدة له أرسلها إلى حسن باشا كتخدا مصر :

مهازيلُ الفضائل خادعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى
وزخرفُ قولهم إذ موّهوه ... على تزييفه نادى المنادى
قياسُ مدراسى — قالوا — عقيم ... بمصرَ فما النتيجةُ من بعادى

ثم يذكر أشهر مترجماته ومؤلفاته فيقول :

على عدد التواتر مُعرباتى ... تفى بفنون سِلْم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عَدْلٌ ... ومنتسكو يقر بلا تمادى
ومغترفو قراح فُراتِ درسى ... قد اقترحوا سقاية كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس ... بقاهرة المعز على عمادى

ويزفر زفرة حارة على ما صار إليه أمره ، وعلى بعده عن أولاده وأهله فيقول :

رحلتُ بصفقة المغبون عنها ... وفضلى فى سواها فى المزاد
وما السودان قطُّ مُقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سُعادى
وقد فارقت أطفالا صغاراً ... بطهطا دون عَوْدى واعتيادى
أفكر فيهمو سراً وجهراً ... ولا سمرى يطيب ولا رقادى
أريد وصالهم والدهر يأبى ... مواصلتى ويطمع فى عنادى

وهذه القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادى

وحين يئس من مثل هذه الاستغاثات ، أخذ يخمس قصيدة لسيدى عبد الرحيم البرعى فى مدح النبى عليه السلام مطلعها :

خل الغرام لصب دمعه دمـــه حيرانَ توجـده الذكرى وتعدمه

ويقول فيها :

« رفاعة » يشتكى من عصبة سخرت لما رأت أبحر العرفان قد زخرت

فارفع ظُلامةَ نفسٍ عدلكَ ادخرت وهاك جوهرَ أبياتٍ بك افتخرت

جاءت إليـــك بخط الذنب ترقُمُهُ

وظل الشيخ فى منفاه أربع سنوات ، وكان رفاعة وهو فى السودان بَرِما بمقامه ومصيره ، ولكن رأيه فى السودان حين هدأت ثائرته ، وعاد إلى وطنه ، يدل على بصيرة وحكمة وفى ذلك يقول : « فمتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ودخلت أهاليها بحسن الإدارة فى دائرة الاستقامة ، صارت هى والديار المصرية فى العمار كالتوأمين ، وفى إيناع الأثمار صنوين ، حتى ينشد لسان حالها .

نحن غصان ضمنا الوجد جميعاً فى الحب ضمَّ النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى غرةٌ كوكبية الإنفـــلاق »(١)

ولم يعد لمصر إلا بعد أن توفى عباس وتولى سعيد أريكة مصر فعينه وكيلا للكلية الحربية ، ثم ناظراً لها ، ومديراً لمدرسة الهندسة ، ومدرسة العمارة ، مع الاحتفاظ برئاسة قلم الترجمة ؛ بيد أن هذه المدارس جميعها ألغيت فى سنة ١٨٦٠ ، كما ألغى قلم الترجمة فظل الشيخ بدون منصب حتى عهد إسماعيل ، حين هبت على العلم والتعليم نسمة من الحياة فبعثته قوياً فتياً ، وأعيد قلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية وتولى رئاسته من جديد رفاعة بك سنة ١٨٦٣ ، وعين عضواً فى مجلس المعارف الأعلى الذى كان يعرف حينذاك بـ (قومسيون المدارس) ، وكان لهذا المجلس فضل كبير فى تنظيم التعليم ، على عهد إسماعيل :

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٣ .

رفاعة بك والقانون:

حينما فكرت الحكومة فى إصلاح نظام القضاء على عهد إسماعيل رأت أن تبدأ بترجمة القوانين الفرنسية المعروفة بـ (الكود) وهو قانون نابليون ، وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب إلماماً واسعاً بالقوانين الفرنسية ، وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها فى القانون الفرنسى ، وهذا كله يحتاج إلى صبر طويل ومثابرة وهمة .

ولم تجد الحكومة خيراً من رفاعة بك وتلاميذه ، ليقوم بهذه المهمة الجليلة ، فقام بهذا العمل مع بعض من نجباء خريجى مدرسة الألسن ، وأخرجوه فى مجلدين كبيرين .

رفاعة بك والمرأة :

وهو أول من نادى بتعليم المرأة وتثقيفها ، ووضع كتاباً مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء ، وسماه :(المرشد الأمين للبنات والبنين) ، وهو كتاب فى الأخلاق والتربية والآداب ؛ بل دعا إلى اشتراك المرأة فى أعمال الرجال على قدر طاقتها ، ويقول فى هذا : « فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ، فالفعل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء » وقد طبع كتابه هذا فى سنة ١٨٧٢ ، وأسست أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر سنة ١٨٧٣ ، أسستها إحدى زوجات إسماعيل . على أن دعوة رفاعة بك إلى تعليم المرأة والنهوض بها ترجع إلى ما قبل هذا بكثير ، ولكن لم يستجب لدعوته أحد ، وكان تعليم المرأة قاصراً على الأساتذة الخصوصيين ، إلى أن وجدت دعوته من يلبيها ويعمل على تنفيذها .

وفاته :

ظل هذا العالم الجليل يدأب ويجد فى نشر الثقافة وفتح أبواب العلم والنور للأمة

المصرية ، حتى توفى فى سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م وله من العمر ٧٥ سنة .

وقد بقى تلاميذه من بعده ، وطريقته التى استنها ، وكتبه التى ألفها وترجمها تهيب بالأمة أن تسير على سنته ، وأن تنقل من آثار الغرب ما يزيل صدأ السنين عن عقول طالت غفلتها .

صفاته :

كان رفاعة بك عربى الصفات ، يتمثل فيه الكرم والجرأة والحزم ، وتفرس الأمور ، ومن أخص مزاياه الشمم والآباء ، واعتداده بنفسه ، ولعل هذه الصفات تفسر لنا تأخر رفاعة بك فى سلم الترقى الحكومى ونيل الألقاب ، بينما قد سبقه بعض تلاميذه فى هذا المضمار . وكان يمثل أخلاق العلماء ببعده عن مظاهر الخيلاء والغرور ، بل كان زاهداً جواداً ، متواضعاً ، محباً للخير ، وكان يتقد وطنية وغيرة على بلاده وله فى ذلك كثير من الأشعار الحماسية يشيد فيها بمصر ، وعظمة جيشها ، ومن هذا قوله يخاطب الجنود :

يا أيها الجنود والقادة الأسود
إن أمكم حسود يعود هامى المدمع
فكم لكم حروب بنصركم تئوب
لم تثنكم خطوب ولا اقتحام معمع
وكم شهدتم من وغى وكم هزمتم من بغى
فمن تعدى وطغى على حماكم يُصرع

وتتجلى روحه الوطنية فى ترجمته نشيد فرنسا القومى (المارسيليز) ؛ لأنه أحبه ، وهاج عاطفته ، وكان يكثر من عبارات الوطنية وخدمة الوطن فى مؤلفاته . وفى الوطن يقول :

« الوطن هو عُشُّ الإنسان الذى فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ،

ومقطع سُرّته ، وهو البلد الذى نشأته تربته ، وغذاه هواؤه ، ورباه نسيمه ، وحُلت عنه التمائم فيه[١] » .

ويقول عن مصر فى زهو وإعجاب :

« ولا يشك أحدٌ أن مصر وطن شريف ، إن لم نقل : إنها أشرف الأمكنة ، فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث ، وكم ورد فى فضلها من آيات بينات ، وآثار وحديث ، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد ، منقوشة فى عرض الأرض ، بيد الحكمة الآلهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها ، حتى تكاد أن تكون حصرتها فى أرجائها ونواحيها . بلدة معشوقة السُّكنى ، رحبة المثوى . . . . الخ »[٢] .

ويقول عن واجب الفرد نحو وطنه فى كتابه « المرشد الأمين » كذلك :

« فالوطنى المخلص فى حب الوطن ، يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر ، فينبغى أن تكون نية أبناء الوطن دائماً متوجهة فى حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئاً مما يخل بحقوق أوطانهم ، فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح ، كما أن الوطن نفسه يحمى ابنه من جميع ما يضر به »[٣] .

وتلك لعمرى نغمة جديدة لم يألفها الشرق العربى عامة ، ومصر خاصة ، لأن الوطن عندهم لم يكن محدود المعالم ، فكل بلاد الإسلام بلادهم ، يدينون بالولاء للخليفة ، ولم يكن يعنيهم من أمر أوطانهم والغناء فى سبيلها شىء .

كانت هذه النعمة ، وذلك الحديث عن الوطن وواجب المواطن أول لبنة فى بناء الأدب القومى المصرى الحديث ، جعلت أنظار الأدباء فيما بعد يعنون بهذا الوطن . ويتملون جماله ، ويعبرون عن آلام أهله وأمانيهم ، وإن لم يحدث ذلك سريعاً لانتشار الأمية ، وقيام معوقاتٍ سياسية واجتماعية كثيرة ؛ وحسب رفاعة أنه سبق زمنه ، وتحدث حديثاً عن

---

(١) المرشد الأمين ص ٩٠ . (٢) نفس المرجع ص ٩١ .

(٣) نفس المرجع ص ٩٣ وما بعدها .

الوطن نخاله لجدته قد قيل فى أيامنا هذه .

وكان بجانب هـذا أديباً ، وشاعراً رقيقاً إذا قيس بأهل عصره ، ويدلك على ذلك ما روى من أن السفينة التى أقلته إلى أوربا ظلت خمسة أيام بجزيرة صقلية تتزود من الماء والخضر ، ولم يسترع انتباه الشيخ ، ويأخـذه بمجامع قلبه إلا دق نواقيس الـكنائس . وفى إحدى الليالى دعا صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ممن يعرف فيه الظَّرف والأدب ، واقترح عليه أن يشتركا فى إنشاء مقامة على غرار مقامات البديع أو الحريرى ، ويكون موضوعها ثلاثة أشياء : حوار حول « أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، ثم « سكر المحب من عينى محبوبه » ؛ ثم « تأثر النفوس بضرب الناقوس » إذا كان من يضربه ظريفاً . وأخـذ ينشئ الشعر فى مقاماته حول هذه المعانى ، فقال فى المعنى الأول :

أصبو إلى كل ذى جمـــال ولست من صبوتى أخاف
وليس لى فى الهـوى ارتيابٌ وإنمـــا شيمتى العفاف

وقال فى المعنى الثانى :

وقدقلت لما بدا والـكأس فى يده وجوهر الخمر فيها شبه خدّيه
حسبى نزاهةُ طَرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

وفى المعنى الثالث :

مُذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : من علم الظبى ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلمـكِ ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

ومما يدل على هذا المزاج الأدبى ترجمته لبعض الشعر الفرنسى ، وتأليفه كتاب « تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال » ، وترجمته رثاء ڤولتير الشاعر للويس الرابع عشر ، الذى يقول فيه : « لم يتول قبله ملك من تلك العصابة ، ولا ساواه غيره فى تربية الرعيـة بهذه المثابة ، فالفخار شـعاره ، والمجد دثاره ، وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد ، كما كان أعظمهم فى الهيبة عند الأخدان والأضاد ، وربما كان دونهم فى ميل الرعية إليه ،

من الكتب العربية وغيرها[١] .

أما الطباعة العربية فى الشرق ، فأسبق الأمم إليها الدولة العثمانية ، وقد مر بك كيف اضطر من أراد إدخال المطبعة الأولى لأخذ فتوى من علماء الدين ، وأول كتاب طبع بالعربية فى الاستانة كان سنة ١٧٢٨ .

وكانت للسوريين محاولات سابقة لهذا التاريخ ؛ إذ طبع الإنجيل فى حلب بالعربية سنة ١٧٠٦ ، وأقدم مطبعة عربية فى الشام هى مطبعة (ماريو حنا) الصايغ فى (الشوير) للروم الملكانيين ، أنشئت سنة ١١٤٥ هـ ، ١٧٣٢ م . ثم مطبعة القديس (جاورجيوس) للروم الأرثوذكس ، فى بيروت سنة ١١٦٧ هـ ، ١٧٥٣ م . ولكن مطبوعات هاتين المطبعتين لم تتعد بعض كتب الدين ، ولم يكن لهما أثر يذكر فى نشر الثقافة العربية ، ولا فى النهضة الحديثة .

وأهم مطبعة انبعث منها النور متدفقاً فياضاً يبدد الظلام الحالك المطبق على عقول الأمة العربية ، هى تلك المطبعة العتيدة التى أسسها محمد على فى بولاق سنة ١٨٢٢ ، وهى إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية فى العالم .

نعم ! إن مصر قد عرفت الطباعة المصرية قبل محمد على ؛ لأن نابليون كان قد أحضر معه مطبعة عربية ، وحاول أن يصدر بها تلك النشرة المعروفة (بالتنبيه) التى لم تصدر فعلا[٢] ، وإنما الذى صدر هو (سلسلة التاريخ) ، وكان يحررها السيد اسماعيل الخشاب ، وكانت سجلا لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، بيد أن أثر مطبعة نابليون زال بخروج الحملة الفرنسية من مصر ، واشترى محمد على مطبعتهم ، فكانت نواة لمطبعة بولاق الشهيرة . أما مطابع تركيا فكانت أسبق إلى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطبع هناك القاموس المحيط فى سنة ١٨١٤ ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ ، وجملة

---

(١) راجع جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٤ .

(٢) راجع عبد الرحمن بك الرافعى فى تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ص ١٤٥ . والجزء الثانى ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ج ٣ ص ٥٣٨ .

ما نشر من الكتب الأدبية واللغوية لا يزيد عن أربعين كتاباً حتى سنة ١٨٣٠ [١] .

لم يكن اتجاه محمد على أدبياً ، ولكن معظم اهتمامه كان بالعلوم والجيش والإدارة ؛ ولذلك كان إنتاج مطبعة بولاق فى أوائل أمرها علمياً بحتاً ، ومن أوائل الكتب التى طبعت بها قاموس طلياني عربى ، وكتاب الآجرومية فى النحو ورسالة الفنون الحربية مترجمة إلى التركية ، وكتاب فى صباغة الحرير من الإيطالية ، ثم سيرة الإسكندر الأكبر .

وفى الحق لم تخرج مطبعة بولاق شيئاً ذا قيمة من الكتب الأدبية القديمة إلا فى عهد إسماعيل ، حينما أخذت النهضة الأدبية تشتد وتقوى . على أن مطبوعات استامبول كانت فى نمو واطراد ، ولا يزال لطبعاتها فى آذاننا رنة حتى اليوم .

ومن أشهر المطابع التى كان لها أثر ملموس فى النهضة الأدبية بالشرق العربى المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٨٣٤ ، ومطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت كذلك سنة ١٨٤٨ . وتعد الأخيرة أكبر المطابع فى سوريا ، وأتقنها ، وفيها حروف عربية ، وأفرنجية ، ويونانية ، وسريانية ، وعبرية ، وأرمنية .

الصحافة :

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وعامل من أهم العوامل فى مقاومة اللغة العامية ، وانتشار اللغة الفصحى ، ومجال واسع لنشر الأبحاث الأدبية ، والعلمية ، والسياسية ، والتاريخية ، والاجتماعية . ولقد تدرجت فى نموها من عصر محمد على حتى اليوم .

أنشأ الفرنسيون إبان مقامهم بمصر فى عهد نابليون صحيفتين فرنسيتين . العُشار المصرى « La Décade Egyptienne » وهى جريدة علمية اقتصادية تنشر فيها أبحاث المجمع العلمى ومناقشات أعضائه وتصدر كل عشرة أيام . وبريد مصر « Le Conrrier de L' Egypte » وهى الصحيفة الرسمية للحملة الفرنسية ، وتصدر كل أربعة أيام . وقد ذهبتا بانقضاء الحملة الفرنسية ، كما أنهم نشروا سلسلة تاريخية حررها السيد اسماعيل الخشاب ،

---

(١) راجع مجلة الشرق ٣ (١٩٠٠ م) .

وقد أشرنا إليها سابقاً . وقد ذهبت كذلك بانقضاء حملتهم .

كانت هذه محاولات بدائية فى الصحافة ، فلما جاء محمد على أصدر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٢ ، حين أصدر (جرنال الخديو) . وكان يطبع فى مطبعة القلعة بالقاهرة ، ويصدر كل مرة فى مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمناً الأخبار الحكومية و بعض القصص من ألف ليلة وليلة ، وكان يرسل إلى رجال الدولة الذين يهم الباشا أن يقفوا منه على أحوال البلاد . وظلت تصدر لمحمد على وحده بعد أن ظهرت الوقائع المصرية . وكان الغرض من تزويده بعض القصص جذب القراء إليه . ثم أنشأ فى سنة ١٨٢٨ جريدة الوقائع المصرية ، وكانت تصدر أول أمرها بالتركية والعربية معاً ، وأخيراً اقتصرت على العربية ، ولا تزال تصدر حتى اليوم . ولم يكن صدورها فى عهد محمد على منتظما ، وكان يشرف على تحريرها الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر ، وكان صديقاً للشيخ اسماعيل الخشاب محرر (سلسلة التاريخ) . وتكاد الوقائع تكون مقصورة على الأخبار الرسمية . وكان محمد على شديد الاهتمام بالوقائع ، يود أن يراها فى قوة تحريرها وحسن إخراجها ، وغزارة مادتها مثل تلك الجرائد التى كانت تأتيه من أوربا ، وتقرأ له . وقد أرسل ذات مرة يعنف المسئولين عن تحريرها ، لأنهم نشروا خبراً تافهاً لا يليق بمقام الجريدة الرسمية للدولة ، وجاء فى كتابه : لقد أخذنا العجب فى درج مثل هذه الحوادث القبيحة ، فإذا علمتم ذلك فعليكم من الآن فصاعداً أن تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر ، وتتجنبوا نشر ما لا يليق نشره ، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام ؛ لأنه من مقتضى ذمة خدمتكم ، ومطلوبى أن تكونوا بعد ئذ على انتباه و بصيرة »[1] .

وقد حرص محمد على على أن يرى مسودات الجريدة ، ويبدى فيها رأيه قبل أن تنشر[2] . وبذا كان محمد على أول صحفى بمصر ، وكانت مهمته أشبه بمهمة رئيس التحرير فى الجرائد اليومية اليوم ، فكان يشير بالمقالات ، ويحذف ما لا يراه لائقاً بكرامة الصحيفة

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ فى ١٤ من جمادى الآخرة ١٢٤٨ هـ دفتر ٤٨ معية سنية .

(٢) راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ فى ١٩ من جمادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر ٦٦ معية تركى .

ولا يبخل عليها بمال أو رجال ، ويأمر أن يلى أمر طبعها عمال مهرة لا تشوب كفايتهم شائبة .

وقد تعاقب على تحريرها منذ ذلك الوقت نخبة من كبار الأدباء منهم مختار بك مدير المدارس فى عهد محمد على ، وبغوص بك موضع ثقته فى المسائل العليا ، وأحمد فارس الشدياق ، والسيد شهاب الدين صاحب السفينة ، والشيخ رفاعة الطهطاوى ، والشيخ أحمد عبد الرحيم ، والشيخ عبد الكريم سليمان ، وغيرهم .

وقد تعطلت الوقائع بعد محمد على ما بين ١٨٤٩ — ١٨٦٣ ، ولم تصدر جريدة غيرها ، وذلك راجع إلى عزوف عباس وسعيد عن النهضة ووسائلها . ولكنها استأنفت حياتها فى عهد اسماعيل .

تعقيب :

كانت نهضة محمد على كما رأينا من كل ما تقدم علمية حربية ، ولم يلتفت للأدب أدنى التفاتة ؛ وذلك لأنه لم يكن بحاجة للأدب كحاجته لجيش قوى يدعم به عرشه ، ويؤسس دولته ، ويدافع به عن نفسه . وكان كل شىء فى مصر ، وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها تهدف إلى خدمة الجيش ، ورجال الجيش . ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فى عهد إسماعيل ؛ فالمدارس التى فتحها محمد على ، والكتب التى ترجمت ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا ، واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها فى النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين فى عهد اسماعيل إلا شباناً فى عهد محمد على ، ولقد أفادوا مصر فيما بعد أكبر فائدة ، وفى طليعتهم رفاعة بك ، ومحمد على البقلى باشا ، واسماعيل باشا الفلكى ، ومحمود باشا الفلكى ، وعلى باشا مبارك .

تعلم هؤلاء فى عصر محمد على وقادوا الحركة الفكرية فى عهد اسماعيل . ففضل محمد على على النهضة الأدبية من هذه الناحية أجل من أن ينكر . وحسبنا أن نقول كما قال (جورجى زيدان) : إنه « قد خدم آداب اللغة العربية بإحياء الجامعة العربية ، واللغة

العربية حتى الأزياء العربية ، فإنه كان يُكره من يدخل فى خدمته من الفرنجة على أن يتزيوا بالزى العربى ، ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا فيها ، أو ينقلوا كتبهم إليها » كما رأينا فى الكلام على الترجمة ، وكما سنرى عند الكلام على التأليف فى عهد محمد على .

— ٤ —

الأدب فى عهد محمد على :

لا نستطيع أن نقول إن الأدباء الذين ظهروا فى عهد محمد على هم أثر للنهضة العلمية فى عصره ، ولكنهم ولا شك أفادوا منها ، مع أنهم من آثار العصر السابق . اطلعوا فى عصر محمد على أشياء كثيرة لم يروها من قبل وأحاطت بهم نهضة شاملة ، ومع ذلك فقد كانوا مكبلين بقيود الألفاظ ، والزخارف فى كتابتهم وشعرهم إلا القليل . ومن هؤلاء :

١ — الشيخ حسن العطار :

من أسرة مغربية نزحت إلى القاهرة فولد بها سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م ، وكان أبوه عطاراً ، فتبع أباه فى تجارته أول الأمر ، ولكن الله قد أودع قلبه حب الأدب والعلم ، فلم يضن عليه والده بالمساعدة على تحصيلهما ، وجد الولد ، وحصّل منهما الشئ الكثير ، ووعى ما حصل ، وتتلمذ على أكابر علماء عصره كالشيخ الأمير والشيخ الصبان .

وفى أيامه دخل الفرنسيون مصر ، فاتصل بهم ، فأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم ، وعلم بعضهم اللغة العربية ، ثم ارتحل إلى الشام ، وسكن دمشق زمناً . وتجول فى بلاد كثيرة يفيد ويستفيد ، ثم آب إلى مصر ، فأقر له علماؤها بالفضل ، وعهد إليه بتحرير الوقائع المصرية ، ثم تولى التدريس بالأزهر ، ثم صار شيخاً له ، بعد الشيخ العروسي سنة ١٢٤٦هـ ، فأحسن إدارته ، وظل فى منصبه إلى أن توفى سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٥م . وكان محمد على يجله ويكرمه لما امتاز به من التفوق فى العلوم العصرية ، والأدب وفنونه ، ويقول عنه تلميذه رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية : « كان له مشاركة فى كثير من

هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة . . . وله هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية » ، وقد خلف عدة مؤلفات فى النحو والبيان والمنطق والطب وله فى البلاغة حاشية على السمرقنديه ، وله كتاب فى الإنشاء والمراسلات طبع مراراً بمصر، وجمع ديوان سهل الإسرائيلى وبوبه ، وكان على إلمام بعلم الفلك ، وله رسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب ، وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية ، وقد اشتهر بالأدب والشعر .

وكان صديقاً للسيد اسماعيل الخشاب ، واستمرت صحبتهما بعد عودة الشيخ العطار من الشام — حتى كانا يبيتان معاً — إلى أن مات الخشاب ، وللعطار ديوان شعر ، وروى له الجبرتى كثيراً . وكان على صلة بكثير من أدباء عصره ، ومنهم المعلم بطرس كرامة اللبنانى ، وقد قال فيه كرامة لما لقيه بمصر :

قد كنت أسمع عنك كل نادرة ... حتى رأيتك يا سؤلى ويا أربى
والله ما سمعتْ أذنى بما نظرتْ ... لديك عيناى من فضل ومن أدب

ومن نثر الشيخ العطار :

« أما بعد فإن أحسن وشى رقمته الأقلام : وأبهى زهر تفتحت عنه الأكمام ، عاطرُ سلام يفوح بعبير المحبة نفحه ، ويُشرق فى سماء الطروس صبحه .

سلام كزهر الروض أو نفحةِ الصَّبا ... أو الراح تُجلى فى يد الرشأ الألمى

سلام عاطر الأردان ، تحمله الصبا سارية على الرَّند والبان ، إلى مقام حضرة المخلِص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميده ، حلية الزمان ، الذى حلىَّ به معصمَه وجيده . . . الخ » .

ومن شعره قوله يتغزل :

ألزمت نفسى الصبرَ فيك تأسياً ... والصبرُ أصعبُ ما يقاد نجيبه

ألزمت نفسي الصبر فيك تأسياً ... والصبر أصعب ما يقاد نجيبه

وبليت منك بكل لاحٍ لو تبـ ... ـدّى نحو طودٍ أثقلته كروبه

أفلا رثيت لعاشق لعبت به ... أيدى المنون ونازعته خطوبه

أنت النعيمُ له ، ومن عجبٍ تُعـ ... ـذبه وتمرضه ، وأنت طبيبه

وهو شعر إذا قيس بعصره دل على روح أديب ، وذوق شاعر ، كما أن النثر ، وإن كان مسجوعاً ، إلا أنه غير مُثقل بالحلى اللفظية ، مما يدل على بعض التطور فى كل من النثر والشعر . نعم إن فى النثر تكلفاً وتعمداً للسجع فإذا كان السلام عاطر الأردان ، فلا بد أن تحمله الصبا سارية على الرند والبان . إلى غير ذلك مما يذكرنا بسجع القاضى الفاضل ، وتذليل المعانى للألفاظ ، وخفاء شعور الكاتب والشاعر تحت هذه الزخارف الكثيرة . على أن الشيخ العطار مع هذا من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلهم تكلفاً .

٢ — الشيخ حسن قويدر :

تلميذ العطار ، ولد بمصر ١٢٠٤ هـ — ١٧٨٩ م ، وهو مغربى الأصل كأستاذه ، ونزح أهله إلى بلدة الخليل بالشام ، وجاء والده إلى القاهرة وأقام بها ، فولد فيها المترجم . ونال شهرة عظيمة فى العلوم ، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة ، وصارت له مع أهل الشام صلات تجارية . ومن تآليفه شرحه المطول على منظومة الشيخ العطار فى النحو ، وكان قد قرظها من قبل بقوله :

منظومةُ الفاضل العطار قد عبقت ... منها القلوبُ بريّا نكهة عطِره

لو لم تكن روضةً فى النحو يانعةً ... لما جنى الفكرُ منها هذه الثمرة

وله كتاب إنشاء ومراسلات ، وكتاب نيل الأرب فى مثلثات العرب ، وهو مزدوجات ضمنها الألفاظَ المثلَّثة الحركات ، المختلفات المعانى كمثلثات قطرب ، وقد طبع بمصر ، ونقله إلى الإيطالية المستشرق (إريك فيتّو) قنصل إيطاليا ببيروت . وهو أرجوزة طويلة مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن ... لكن له ظن بمولاه حسن

فكم لمولاه عليه من منن ... بالعدّ لا تدخل تحت الحصر

ويقول فى المنظومة :

جمعت فيها الكلمات اللاتى تكون فى الشكل مثلثات
أبدأُ بالمفتوح ثم آتى بالضم لكن بعد ذكر الكسر

وهاك مثلا من مثلثاته :

أَجَمَةُ الحَلْفا هى الأَباء والامتناع من كذا إِباء
والغثيان يا أخى أُباء وهو كراهة الطعام فادر

وهى ألفان ومائتان وعشرة أبيات ، ومن مطبوعات جمعية المعارف .

وكان مشهوراً بالتاريخ الشعرى ، وقد أرخ وفاته وهو مريض سنة ١٢٦٢ هـ بقوله : « رحمة الله على حسن قويدر » ومما يروى من شعره قوله :

يا طالبَ النصح خذ منى محبَّرةً تُلْقى إليها على الرغم المقاليد
عروسةً من بنات الفكر قد كُسيت ملاحةً ، ولها فى الخد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقةٌ طيرٌ له فى حميم القلب تغريد
واحذر من الناس لا تركن إلى أحد فالخِلُّ فى مثل هذا العصر مفقود
بواطنُ الناس فى ذا الدهر قد فسدتَ فالشر طبعٌ لهم والخيرُ تقليد

وله قصيدة تسمى المزدوجة جاء منها ، وهى طويلة :

رأيت بدراً فوق غُصْنٍ مائسٍ يخطر فى خُضْرٍ من الملابس
ويَسْحَرُ العقلَ بطرفٍ ناعسٍ وهو بشوش الوجه غير عابس
كأن ماء الحسن منه يجرى
خاطرتُ لما أن رأيته خطر وحار فكرى فى بها ذاك الحوَرَ
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بشمس قاسه أو القمر
فليس عندى بالقياس يدرى
فلفظه العذبُ لقلبى قوتُ كأنه الدرُّ أو الياقوت

وسحرهُ إلى النُّهى مثبوت يعجز عن أمثاله هاروتُ

وهو الحلال من صنوف السحر

عقرب مسكٍ فوق خدِّه التوى وجمرةُ الخد بها القلب اكتوى

جمالُ هذا الظبي قد هدَّ الهوى وليس لى غير الوصال من دوا

فاسمح به يابدر واكسب أجرى

وهو شعر كما ترى ، قريب المعانى جداً ، ليس فيه من الخيال شىء ، وهو وإن خلا من المحسنات البديعية إلا أنه غير متين النسج ، بل هو قريب من الكلام المعتاد .

وقد رثاه محمود صفوت الساعاتى بقصيدة مطلعها :

بكت عيونُ العلا وانحطت الرتَبُ ومزقت شملها من حزنها الكتبُ

٣ — السيد على الدرويش :

توفى سنة ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م .

هو السيد على الدرويش بن ابراهيم المصرى ، ولد بالقاهرة سنة ١٢١١ هـ ونشأ بها وأُغرم بالأدب ، وحفظ كثيراً من الشعر ، وأصاب شهرة كبيرة فى زمانه ، وله عدد وفير من المقطوعات الغنائية ، واتصل بأمراء البيت العلوى ، وعرف بشاعر عباس الأول . ولم يكن يتكسب بالشعر ؛ لأن الله رزقه حظاً من الثروة ، فاكتفى بما لديه .

وله من المؤلفات : الدَّرج والدرك ، وضعه فى مدح من اشتهر فى أيامه بحميد المزايا وكريم الصفات ، وكتاب (محاسن الميل لصور الخيل) وضعه بأمر عباس باشا الأول ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وسفينة فى الأدب .

وشعره يمثل لنا عصره من حيث الولوع بالمحسنات البديعية ، يحشرها حشراً ، ويتكلفها تكلفاً ، ومعانيه وأخيلته لا تدل على شاعرية ممتازة إذا قيست بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة لعصره كان فى طليعة الشعراء . وقد اشتهر بالتواريخ الشعرية ، وله ديوان طبعه تلميذه

مصطفى سلامه النجارى فى ٤٨٢ صفحة ، وقد جمع فيه كل ما قاله السيد على الدرويش من شعر ونثر .

ومن نثره قوله فى مقامة الفضيلة والرذيلة :

« وفقك الله لما يرضاه ، وعصمك فى موجب الذم ، ومن لا يتحاشاه ، إن الفضيلة والرذيلة صفتان متضادتان ، ونوع الإنسان مجبول على الميل للأولى ، والفرار من الأخرى على حسب أراء العباد ، وعوائد البلاد ، فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم فضيلة عند غيرهم من المتأخرين ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، مع تفاوت فى طبائعهم ، وأشكالهم وصنائعهم ، فمنهم ذو الطبع السليم ، ومنهم الذميم ، ولا سبيل إلى ترغيب الأول ليجتهد فى الازدياد ، والترهيب الثانى لينطبع على أن يتحاشى بالاعتياد ، إلا باللسان ، الآتى بسحر البيان ، فقد جاء فى الحديث : « إن إيمان المرء ليربو إذا مُدح » ، وربما يصح الجسم إذا جُرح ، فمن ذلك كان المدح على المحاسن تذكيراً ، والذم على القبائح تنفيراً ، وكلاهما مطلوب شرعاً ، ومرغوب فرعاً ؛ ليستيقظ العاقل ، ويقبل الكمال الكامل » .

ومن شعره قطعة قالها فى منفلوط :

سعيدٌ من نأى عنه الصعيدُ ... صعودٌ مالطالعه سعود
وردنا منفلوط فلا سقاها ... وردناها فأظمأنا الورود
فمالى قد بُعثت لقوم عاد ... كأنى صالحٌ وهم ثمود
أراهم ينظرون إلىَّ شزراً ... كعيسى حين تنظره اليهود
فما لى منهم خِلٌ ودودٌ ... ولى من طبعهم خَلٌ ودُود

ويقول فى الهرمين :

أنظر إلى الهرمين واعلم أننى ... فيما أراه منهما مبهوت
رسخا على صدر الزمان وقلبه ... لم ينهضا حتى الزمان يموتُ

ومن شعره يصف الجراد الذى اجتاح مصر سنة ١٢٥٩ هـ :

فترى الجراد على الجريـ ـد مكللا مثلَ الثمر
رُقشٌ تراها إنهـا نارٌ تَلظى بالشجر
لوّاحـة للأرض لا تُبقى النباتَ ولا تذر
وصغيرة فى حجمها لكنها إحدى الكُبر
الأرضُ كانت جنـة فالآن ترمى بالشرر
نزلَ الجرادُ بها كما نزل القضاء أو القدر

٤ — المعلم بطرس كرامة :

وهو من شعراء سوريا فى عهد محمد على ، ولد فى حمص سنة ١١٨٨ هـ ١٧٧٤ م ، وجاء لبنان ، واتصل بالأمير بشير الشهابى ، وتوفى سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥١ م ، ومن شعره يصف ينبوع الصفا ، وقد مُدَّ (بيت الدين) مقر الأمير بشير بماء هذا الينبوع :

صاح قد وافى الصَّفا يروى الظما بشراب كوثرىٍ ألعس (كذا)
وأفاض الشهدَ فى روض الحمى لجلا الغمَّ وبُرء الأنفس

* * *

حبذا الفوّار منه حين راق فأرانا ماؤه ذوبَ اللجين
نزَّه القلب عن الهم ، وراق بسنا صافى صفاه كلّ عين
نثر الدر بفيض واندفاق وسقى الوراد أهنا الأطيبين
قد جرى عذباً فأغنى النُّدما بزُلال من رحيق الأكؤس
وعلى الأغصان أبقى النعما فزهت مثل ندامى العُرُس (١)

---

(١) قد نظم الشاعر هذه القصيدة على منوال الموشح الأندلسى المشهور لابن سهل الأشبيلى ومطلعه :

جادك الغيث إذا الغيث هما يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً بالكرى أو خلسة المختلس

وقال يصف باقة زهر أهداها له الأمير بشير :

وباقةِ زهرٍ من مليكٍ مُنحتها ... معطرةَ الأرواح مثلَ ثنائه
فأبيضها يحكى جميعَ خصاله ... وأصفرُها يحكى نُضار عطائه
وأزرقها عينٌ تشاهد فضله ... وأحمرُها يحكى دماء عدائه

وقال يهنىء ابراهيم باشا بفتح عكا :

فتحٌ به الفتحُ القريب موكد ... وكواكب النصر المبين توقَّدُ
ما المجد إلا بالحسام ولم يدم ... شرف الفتى ما لم يصنه مهنَّدُ
مايوم عكةَ لم تدع ذكراً لما ... غبر الزمانُ به وما يتجدد
يومٌ به الحربُ العوان تضرَّمت ... بقنابل مثلَ الصواعق تُرعدُ
رُجمتْ بشُهْب كراتها الأسوار من ... لهب فدكَّ الشامخ المتوطد
ورمت بصدر بروجها قللَ الفضا ... تلك المدافع فهى طوراً تسجد
فتخالُ والهيجاء تلهب حولها ... نارَ الجحيم بجوها تتصعَّدُ
سبقت إليها الصبحَ أسدُ عَرينة ... وبغير صبح حرابهم لم يهتدوا
من كلِّ أروعَ قد تعوَّدَ فى الوغى ... أخذَ الكماةِ وما يقول السيِّدُ
وتراه يبسِمُ للكفاح كأنما ... وِرْدُ الحِمام لديه نعم المورد
وثبوا على الأسوار ثم تسنموا الـ ... ـأبراجَ والسيفُ الصقيلُ مجرد
وتجلدَ القومُ العداةُ وإنما ... لم يُجدِهمْ عند العراك تجلُّدُ

٥ — الشيخ ناصيف اليازجى :

هو ناصيف بن عبد الله اليازجى ، ولد بكفر شيما بلبنان سنة ١٨٠٠ م ، واشتغل أول أمره بالعلوم والطب ، ولكن الأدب غلب عليه ، واتصل بالأمير بشير الشهابى ، فاتخذه كاتم سره ، ولما دالت دولة الأمير بشير انقطع للتأليف ومراسلة الأدباء ، ونظم الشعر .

وقد خلف عدّة مؤلفات ، من أشهرها :

(١) مقاماته الستون المعرفة بمجمع البحرين ، عارض فيها مقامات الحريرى ، ويقول فى إحداها المعروفة بالمقامة الخزرجية :

« قال سُهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب فى التماس بعض الأدب ، فقصدت نادى الأوس والخزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وآخذ من ألسنتهم بعض المنهج ، فلما صرت فى بُهرَة[١] النادى ، أخذ بمجامع فؤادى ، فجلست بين القوم ساعة ، وأنا أحدق إلى الجماعة ، وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر فى ذلك المقام ، وهو يقول : من أراد أن يعرف جهينة[٢] أو شاعرَ مُزينة[٣] ، فليحضر ليسمعَ ويرى ، فإن كل الصيد فى جوف الفرا[٤] ، فعمد إليه رجل وقال : أطرقْ كرى ، إن النعامة فى القرى[٥] إلخ .

ومن نثره المرسل قوله :

« وكان الملوك ومن يليهم فى الأيام القديمة يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها ، حتى كان منهم من يخطئ العلماء فى بعض المسائل ، ولذلك كانوا يعتنون بشأن العلم والعلماء ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس فى علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً ، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والإحسان ، فكان الناس يدخلون فيها أفواجاً ، ويعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم ، حتى إذا استتم الرجل علمه خرج إلى منصب ، أو وظيفة عند السلطان ، متمتعاً ببسطة الجاه والمال ، ومستغنياً عن جميع المهمات والأشغال ، فيتفرغ

---

(١) بهرة النادى : وسطه :

(٢) جهينة : قبيلة قتل رجل منها قتيلا ، ومر بامرأته وهى تبحث عنه فقال :

تناشد كل حى عن حصين وعند جهينة الخبر اليقين

ويضرب بالشطر الأخير المثل :

(٣) هو زهير بن أبى سلمى .

(٤) الفرا : حمار الوحش ، ومن صاده أغناه عن كل صيد سواه ويضرب بهذه الكلمة المثل .

(٥) الكرى : الكروان : اخفض رأسك ولا تتكبر فإن النعامة وهى أكبر منك قد صيدت وحبست فى القرى .

للتوسع فى العلوم ، و إنشاء المصنفات فيها ، و بذلك يكون مثالا لغيره فى طلب العلم والتجرد له »

(٢) وله كتاب فصل الخطاب فى الصرف والنحو ، وله شرح على ديوان المتنبى ، أتمه ابنه الشيخ إبراهيم ، واسمه العَرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب .

(٣) وله ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء : أحدها نفحةُ االرَّيحان ، وثانيها فاكهة الندماء ، وثالثها : ثالث القمرين .

وشعره يجمع بين الرقة والمتانة ، ومن شعره فى بخيل :

قد قال قوم إن خبزك حامض ... والبعض أثبت بالحلاوة حكمه[1]
كذب الجميعُ بزعمهم فى طعمه ... من ذاقه يوماً ليعرف طعمه ؟

وقال فى الزهر :

مر النسيمُ على الرياض مسلما ... سَحَراً فردَّ هزارُها مترنما
أحنى إليه الزهر مَفْرِق رأسِهِ ... أدباً ، ولو ملك الكلامَ تكلما
يا حبذا ماء الغدير وشمسُه ... تعطيه ديناراً فيُقْلب درهما

وقال يرثى صديقاً :

قد كنت أنتظر البشرى برؤيته ... فجاءنى غيرَ ما قد كنت أنتظر
إن كان قد فات شهدُ الوصل منه فقد ... رضيتُ بالصبر لكن كيف أصطبر
أَحَبُّ شىء لعينى حين أذكره ... دمعٌ وأطيبُ شىء عندها السهرُ
هذا الصديق الذى كانت مودته ... كالكوثر العذبِ لا يغتالها كدر
لا غروَ أن أحزن الزوراءَ مصرعُه ... فحزنُه فوق لبنانٍ له قدر

وقال يمدح محمد على باشا و يهنئه بفتح عكا :

يا فاتحَ القُطرين أنتَ محمدٌ ... هل دون فتحكَ فى البلاد مُسدِّدُ ؟

---

(١) أل لا تدخل على بعض فى صحيح اللغة ، وعجيب أن يفوت ذلك على الشيخ ناصيف وهو العالم اللغوى .

أنت العلىُّ كما يقال ونسلُه ... منك المعالى لم تزل تتولَّدُ
لما بعثتَ من الكنانه سهمَها ... حَلفتْ عليه أنه لا يُصردُ
ما زالتْ النار التى وُقدت له ... برداً عليه وناره لا تَبرُد
مَن مثلُ إبراهيمَ إلا سيفُه ... يومَ الكريهةِ والقنا المتأوِّد

***

ولقد ضربتَ حصونَ عكاءَ التى ... كانت لِهَيبتها الفرائص ترعدُ
الله أكبر ليس دونك قلعةٌ ... تُحمى ولا حصنٌ أشمُّ ممرد
وتحصنت منك الأسود فلا تلم ... قوماً بإغلاق الحصون استنجدوا
أسألت (عبد الله) أين قِلاعُه ... ورجاله وفؤاده المتوقدُ ؟

ومما كنا نحفظه فى الصغر للشيخ ناصيف اليازجى قوله فى عروس الزهر (الموردة) :

هذى عروسُ الزَّهر نقَّطها الندى ... بالدر فابتسمت ونادتْ مَعبداً
لما تفتق سِترُها عن رأسها ... عَبِث الحياء بخدها فتوردا
فتح البنفسجُ مقلةً مكحولة ... غمز الهزارَ بها فقام وغرَّدا
وتبرجت وُرْق الحمام بطوقها ... لما رأين التاج يعلو الهُدْهُدا
بلغ الأزاهر أن ورد جنانها ... ملكُ الزهور فقابلته سُجَّدا
فرنا الشقيق بأعين محمرَّة ... غضباً وأبدى منه قلباً أسودا
بسط الغديرُ الماء حتى مسه ... بردُ النسائم قارصاً فتجعدَّا
ورأى النباتُ على جوانب أرضه ... مهداً رطيباً ليِّنا فتوسَّدا
يا صاحبىَّ تعجبا لملابس ... قد حاكها من لم يمد لها يدا
كل الثياب يحول لون صِباغها ... وصباغ هذى حين طال تجددا

وفى هذه القصيدة خيالٌ جميل ، وسهولة لفظ ، ودقة وصف تجعل مثل ناصيف اليازجى يقف وحده بين شعراء عصره .

ومن جميل شعره الذى يدل على رقة حس ، ودماثة عاطفة قوله يرثى ولده حبيباً :

ذهب الحبيبُ فياحُشاشة ذوبى أسفاً عليه ويادموع أجيبى
ربيته للبَيْن حتى جاءه فى جُنح ليلٍ خاطفاً كالذيب
يآيها الأم الحزينة أجملى صبراً فإن الصبر خير طبيب
لا تخلعى ثوب الحداد ولازمى نَدْباً عليه يليق بالمحبوب
إنى وقفت على جوانب قبره أسقى ثراه بدمعى المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته يا لوعتى من ذلك المكتوب :
لك يا ضريح كرامةٌ ومحبة عندى لأنك قد حويتَ حبيبى

٦ — الشهاب الألوسى :

هو أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسى ، ولد ببغداد ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م وتوفى ١٢٧٠ هـ ١٨٥٤ م .

وكان إماماً فى التفسير والإفتاء ، وعالماً ضليعاً باللغة ، وكاتباً بليغاً وخطيباً مصقعاً . وقد حظى بشهرة عظيمة فى عصره ، وصار مقصد الأدباء والمتأدبين ، وطلاب التفسير والفقه .

وقد كثر حاسدوه وشانئوه ببغداد ، واضطهده الوالى التركى ، فقام برحلة إلى الأستانة يبث شكواه لأولى الأمر ، ويعرض عليهم تفسيره المشهور (روح المعانى) ، ولقى فى رحلته من الأكرام ما أنساه غلظة الوالى ، وسجل رحلته بعد عودته لبغداد فى ثلاثة كتب .

وكان سريع الخاطر ، منطلق الذهن فى الكتابة والتحرير ، وقيل إن أقل ما كان يكتبه فى الليلة من مؤلفاته ورقتان كبيرتان ، وله عدة كتب فى التفسير والفقه والمنطق والأدب واللغة ، ومن أشهرها :

١ — روح المعانى فى التفسير وهو تسعة أجزاء . ويعد خير كتبه ومن أحسن التفاسير المتداولة ، وقد طبع مرة على نفقة ولده السيد نعمان خير الدين بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١ ؛

٢ — شرح السلم فى المنطق .

٣ — كشف الطرة عن الغرة ، وهو شرح على درة الغواص للحريرى .

٤ — حاشية على شرح قطر الندى لابن هشام .

٥ — وله كتاب فى المقامات طبع فى كربلاء . ومن نثره يصف القسطنطينية :

« بلدة مونِقة الأرجاء . رائعةُ الأنحاء ، ذات تصوّر تضيق عن تصورها سعة الأذهان ، وتتجاذب الحسنَ هى وقصور الجنان ، وربةُ رياض أريضة ، وأهويةٌ صحيحة مريضة ، وقد تغنت أطيارها فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أمطارها فتضاحكت أزهارها » ، وطاب نسيمُها ، فصح مِزاج إقليمها . وليتَك رأيتَ مافيها من الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب ، زِقاق خمرِ السحائب ، فسقت مروجَها مدامُ الطَّل ، فنشأ على أزهارها حَبَابٌ كاللؤلؤ المنحل ، فلما رُويت من الصَّهباء أشجارُها ، رنَّحها مع النَّسماتِ المِسْكيَّة خُمارها ، فتدانت ولا تداني المحبين ، وتعانقت ولا تعانق العاشقين ، يلوح من خلالها شقيق ، كأنه جمراتٌ من آثار حريق ، ويتخللها بَهارُ يَبْهَرُ ناظرَه .

وكأن النرجس الغضَّ بها أعينُ العِين وما فيهن غَمْضُ

ومن نثره قوله يحذر أولاده من الدَّجاجلة وأبالسة التضليل :

« يابُنى ! بعض الناس ذئابُ ، عليهم من جلود الشاه ثياب ، فلا تُخدعوا بمُتماوت تغنَّجت كالهَلوك كلمتُه ، ولانت كالصعلوك عريكتُه ، وولِعَ الذبول بقامته فتناطحت تُفَّاحة كتفه ورُمَّانةُ هامته ، وربما لزق ذقنه بصدره ، وأصاخ بسمعه نحوه بسرِّه ، وحمل سُبحة من ذوات الأذناب وجعلها شبكة ، وأعمل فيها سبَّابته تنقر حباتِها كما تنقر الحبَّ الدِّيكة .

قريبُ الحظو تحسبه لهَوْنٍ وليسَ مقيداً يمشى بقيد

فوأبى لقد رأيت فى هؤلاء المتماوتين من هو أمَرُّ من أبى مُرة وأضر منه بألف مرة :

وقد جربتهم فرأيت منهم خبائث بالمهيمن نستجير (١)

وهو شاعر مقل ، ولكنه رقيق ، ومن شعره قوله يذكر العراق :

---

(١) تجد نماذج من نثره فى كتاب أعلام العراق لمحمد بهجة الأثرى ص ٣٤ وما بعدها .

أهيم بآثار العراق وذكره ... وتغدو عيوني من مسرتها عَبْرى
وألثم أخفافاً وطئن تُرابه ... وأكحل أجفاناً بتربته العَطْرى
وأسهر أرعى فى الدياجى كواكبا ... تمر إذا سارت على ساكنى الزَّوْرا
وأَنْشَقُ ريحَ الشرق عند هبوبها ... أداوى بها يامىُّ مهجتى الحرا

ومنه قوله :

وإذا الفتى بلغ السِّماك بفضله ... كانت كأعداد النجوم عِداه
ورمَوْه عن حسدٍ بكل كريهة ... لكنهم لا ينقصون عُلاه

تعقيب :

ذكرنا آنفاً أن هذا الأديب وليد العصر السابق ، وأنه لم يتأثر أدنى تأثر بالحركة العلمية التى حمل محمد على لواءها فى مصر ، كما رفع رجال الأرساليات التبشيرية هذا اللواء فى بعض بلاد الشام ؛ لأن هذه الحركات فضلا عن أنها كانت فى بدء نشأتها ، بحيث لم يستفد بها هؤلاء الرجال الذين ترجمنا لهم ، والذين هم خير من أنجب عصرهم ، فإن هذه الحركات كانت علمية لا تُعْنى بالأدب إلا القليل .

والنماذج التى أوردناها لهؤلاء الأدباء من شعر ونثر تفصح عن تعلق بتلك الحلى السمجة ، والزخارف اللفظية ، والمعنوية ، التى تضحى بالفكرة فى سبيل المحسن المقصود ؛ والفكرة فى ذاتها ضحلة ، والخيال يكاد معدوماً ، وما بها من معنى فهو مأخوذ من السابقين ، وليته ظهر واضحاً كما ظهر عند المتقدمين من الشعراء ولكنه توارى تحت ستار كثيف من المحسنات الثقيلة ، والنسج ضعيف إلا القليل .

وأما الأغراض فهى تلك المقاصد التقليدية التى سار عليها الأدباء من قديم ، ولم يظهر فيما رأينا أية بادرة للروح القومية ويقظة الشعوب ، والأغراض العامة ، وإفصاح الشاعر عما يجيش فى نفسه هو من حزن وألم ، وفرح ولذة مما يلاقيه فى الحياة ، بحيث يبدو مستقلا فى

شخصيته عن أمير يُمدح ، أو عظيم يُرثى . وربما كان عند بعض شعراء الشام أو العراق فى ذلك الوقت — كما رأيت — كلف بالطبيعة ووصفها ؛ لأن الشاعر الحساس لا يملك أن يُغمض عينيه مهما كانتا من الضعف ، أو ألا ينجذب ذوقه مهما كان عليه من المرض ، أمام هذه الطبيعة الفياضة بالفتن والمحاسن فى بلاد الشام ، والطبيعة ثمة تغرى على القول :

تُبـــدل كل آونة لبؤساً خيال العبقرى به يضـــل

بيد أن وصف الطبيعة ، وإن دل على حس مرهف ، وتأثر بالجمال ، فإن الصياغة والمعانى تَئِن من الضعف والرِكّه .

— ٥ —

التأليف فى عصر محمد على :

رأينا عند الكلام على الترجمة ، أن النهضة الحديثة ابتدأت ، والبلاد فى فقر عقلى شنيع ، وظلام مطبق دامس ، وليس ثمة إلا بصيص ضئيل من النور يَشع من الأزهر ، بيد أن أهله عكفوا على كتب الأقدمين يدرسونها بطريقتهم العقيمة ، ولم يكونوا على علم بما وصلت إليه أوروبا من علم وحضارة ، حتى بعد أن جاء نابليون ، ومعه العلماء الأفذاذ ، والباحثون العظام ، بل ظل الأزهر كما هو غارقاً فى أحلامه القديمة ، وإن اعتمد عليه محمد على فى اختيار أعضاء البعثات منه أول الأمر . وأخذت النهضة تسير فى طريق مختلفة عن طريق الأزهر ، ولم يشأ محمد على أن يغير من نظم الأزهر شيئاً بحيث توافق مقتضيات العصر ، وحاجات النهوض ، بل أنشأ نظاماً علمياً جديداً هو ذلك النظام المدنى فى التعليم الذى نجنى ثمرته اليوم ، وذلك أن تغيير الأزهر ، وتحويله إلى النظام المدنى كان عملا شاقاً ، وفيه قضاء على ما للأزهر من سمعة دينية فى نفوس المسلمين فى كافة الأقطار ، ثم فيه تحد للشعور الدينى الذى كان مسيطراً على أذهان الناس فى الشرق حينذاك .

ولم ير محمد على بداً من الاستعانة بعلماء الأزهر وكتب الأزهر فى مدارسه الحديثة ؛ إذ لم يكن هنالك غير علماء الأزهر يصلحون لتدريس اللغة والدين ، ولم تؤلف فيهما كتب

على النهج الحديث ، بل كانت الكتب الأزهرية — على ما بها من غموض ، ومع أنها فى مستوى أرقى من مستوى المدارس الحديثة — هى الشىء الوحيد فى هذا الميدان ، ولذلك اضطرت حكومة محمد على أن تقدم الآجرومية ، والسنوسية ، والألفية ، والشيخ خالد وغيرها من الكتب إلى مطبعة بولاق ، فطبعت منها لأول مرة فى مصر آلافاً من النسخ نشرتها فى مدارسها الحديثة ، وفى الأزهر نفسه .

ولم يكن فى هذه الكتب مايشوق التلميذ أو يحبب القراءة إليه ، أو يعاونه على تفتق ذهنه ، واستكمال عدته للتعليم الثانوى ؛ لأنها أُلفت فى عصور ضعف اللغة ، وفيها أمثلة بعيدة كل البعد عن بيئة التلميذ وحياته ؛ وطريقةُ تأليفها عقيمة ، إذ لا تتدرج مع معلومات التلميذ ، وإنما تفرض فيه العلم من أول سطر ، وتعرض أمامه مشكلاتٍ فى الأعراب والعقائد يخالها طلاسم ، ويتبرم بها ، ويكاد ييأس . كل هذا فى عصر كان الكتاب فيه هو كل شىء أمام التلميذ ، وليس له إلا أن يستظهره ، فحفظ كتب الدين واللغة ، وأَعْدَته الطريقة فاستظهر كتب الحساب والهندسة وغيرها من الكتب المعروفة ، استعداداً لاجتياز الامتحان .

ولم يكن المدرسون وحدهم هم الذين استعارتهم مدارس محمد على من الأزهر ، بل كان ثمة طائفة أخرى ، اقتضتها طريقة التدريس على يد المترجمين التى ذكرناها آنفاً[1] ، هذه الطائفة هم المصححون الذين يصلحون الأخطاء النحوية والأساليب فى الكتب التى تنقل إلى اللغة العربية . ولم يكن هذا العمل سهلاً هيناً ، فكثير من المترجمين ، وبخاصة فى السنين الأولى من إنشاء المدارس ، كانوا من السوريين ، أو غيرهم من المتمصرين كالأرمن والمغاربة ، ولا ريب أن لغتهم كانت على شىء كثير من الضعف ، فقلما وُثِق بكتابتهم وترجمتهم ، ولا سيما فى مواد لم يدرسوها من قبل . هذا إلى أن العلوم الحديثة كانت تنقل لأول مرة من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية ، وقد هجر الأزهر من زمن بعيد دراسة هذه المواد ، فاضطروا إلى مراجعة الكتب القديمة فى الحساب والفلك والهندسة والطب ، وغيرها من التى ترجمت أو ألفت فى العصر العباسى ، وذلك لأن مهمتهم لم تكن قاصرة على تصحيح العبارة

---

(١) راجع ص ١٧ من هذا الكتاب .

اللغوية ، بل تعدتها إلى اختيار الكلمات الفنية المناسبة .

وقد أفادت اللغة العربية من عملهم هذا فائدة جليلة ، وحين أعجزتهم الترجمة ، ولم يهتدوا إلى مقابل للكلمة الأجنبية فى العربية عمدوا إلى تعريبها ، وتركوها كما هى مع تحريف يسير يناسب اللسان العربى ، أو بدون تحريف ؛ وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية ، واتسع أمامها المجال لدراسة المواد الحديثة وتعريبها والتأليف فيها . وقد ألف بعضهم فى ذلك كتباً تعين المترجمين والمؤلفين مثل الشيخ محمد عمر التونسى فى كتابه (الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية) .

كان لا بد لمحمد على من الاعتماد على هذا القبس الضئيل الذى يشع من الأزهر ، ولقد رأينا إلى أى حد كان هذا الاعتماد ، ولكن حين استطاع نظام محمد على أن يقف على قدميه ويؤتى ثمرته ، ويتخرج فى مدرسة الهندسة والطب وغيرها شباب جمعوا بين الثقافتين حاول محمد على أن يتخلص من تأثير الأزهر على نظامه ، ورأينا فى أخريات عهده محاولة لتأليف كتب فى اللغة والدين على طريقة حديثة ، وهذه الكتب وإن لم تبلغ مستوى الكتب الأزهرية فى الجودة بحيث يمكنها التغلب عليها إلا أنها كانت نزعة إلى التحرير من الأزهر ، ورأينا أيضاً مدرسى الحساب من خريجى الهندسة ، وبعض مدرسى اللغة العربية يؤخذون من نوابغ المتخرجين فى مدرسة الألسن .

وهكذا ابتدأت الهوة تزداد اتساعا بين تعليم الأزهر والتعليم الحديث ، حتى أوشكت الصلة أن تزول فيما بينهما . بل رأينا — على العكس — أن الأزهر يقتبس من النظم الجديدة فى التعليم ، ويحاول الشيخ العروسى شيخ الأزهر فى عهد محمد على أن يدخل الطب فى الأزهر بمعاونة كلوت بك ، لولا أن عاجلته المنية .

كان التعليم الحديث فى عهد محمد على بالمجان فى كافة أنواع المدارس سواء كانت ابتدائية أو ثانوية أو عاليه ، وكانت الحكومة تنفق على التلاميذ ، وتتولى أمورهم من مسكن ومأكل ، وملبس ، وتجرى على كثير منهم الأرزاق والمرتبات . بيد أن الأهالى لم يطمئنوا إلى إسلام أولادهم للمدارس والتعليم فى بادئ الأمر ، بل نفروا من ذلك نفوراً شديداً ؛

حتى لجأت الحكومة فى بعض الأحيان إلى إدخال التلاميذ فى المدارس قسراً .

ولكن ما لبث الناس فى مصر أن لمسوا فائدة التعليم ، وكيف ينقل أولادهم من حال الضعف الجسمى والعقلى والخلقى ، إلى مستوى رفيع من الحياة ، فأقلعوا عن المعارضة ، بل أقبلوا على التعليم بنفوس رضية .

وقد بلغ عدد التلاميذ فى عهد محمد على بجميع مدارس القطر المصرى على اختلاف أنواعها تسعة آلاف تلميذ ، تتولى الحكومة النفقة عليهم فى كل شئ ، وتعطى لهم بعض الرواتب[1] .

كانت نهضة محمد على علمية كما مر بنا ؛ لأن البلاد لم تكن فى حاجة للآداب حاجتها للعلوم والنهوض بالجيش ، ومسايرة الحضارة الأوربية العلمية فى الطب والهندسة والرياضيات والفنون العسكرية ، وكان محمد على نفسه يؤثر اللغة التركية على اللغة العربية فى التعليم أول الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يجعل اللغة العربية لغة الدراسة ، فكانت هذه الخطوة الأولى فى إحياء اللغة . ثم أنشأ مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ كما ذكرنا ، وقد عكفت منذ عصره حتى اليوم على إحياء الكتب القديمة ، وإن كان اهتمامها بكتب الآداب فى عهد محمد على زهيداً ، لأنها كانت فى شغل بطبع مؤلفات رجال البعثات فى الفنون التى تخصصوا بها ، ولم تتجه إلى إحياء التراث العربى القديم إلا فى عصر اسماعيل كما سيأتى .

وأغلب الكتب التى ظهرت فى عصر محمد على كانت كتباً مترجمة فى شتى العلوم والفنون ، ولم تؤلف إلا كتب قليلة ليست ذات شأن ، مثل كتب الرحلات التى دون فيها أعضاء البعثات مشاهداتهم بأوربا ، ككتاب رفاعة بك (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) وما شاكله . أما الكتب العلمية البحتة فكانت أغلبها ترجمة ، وقد انتشرت هذه الكتب كثيراً بتشجيع محمد على لمترجميها ومكافأتهم مكافآت سخية ، وبطبعها على نفقة الدولة فى مطبعة بولاق .

---

(١) راجع كتاب (لمحة عامة إلى مصر) تأليف كلوت بك ج ٢ ص ٥١٩ . وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى بك ص ٤٥١ ج ٣ .

ويروى عن محمد على أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة، وسلم كُلاًّ منهم كتاباً بالفرنسية فى المادة التي درسها بأوربا، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية، وأمر بإبقائهم فى القلعة، وألا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم، فترجموها، وأمر بطبعها وتوزيعها على المدارس التى وضعت لها تلك الكتب[1].

وكان للوقائع المصرية التى أنشأها محمد على فضل فى تذليل الأسلوب العربى للأخبار الصحفية، وكانت على عهده تنشر أخبار الحكومة ومصالحها وبعض الأنباء الخارجية، وكان يحررها نوابغ العلماء فى عهده.

كل هذا ولا شك قد مهد اللغة نوعاً ما للعصر الثانى فى النهضة وهو عصر إسماعيل، وهيأ جيلا من العلماء والمفكرين، ومحبى الفنون والآداب، قادوا مصر فى عهد إسماعيل إلى مدى واسع من الرقى والتعليم.

على أن النهضة السورية اتجهت وجهة أدبية من أول أمرها بخلاف النهضة المصرية؛ وقد وقفنا على الدوافع التى حولت نهضة مصر إلى وجهة علمية، أما الأسباب التى جعلت نهضة سورية أدبية، فهى أن المبشرين كانوا حملة مشاعل تلك النهضة أول الأمر، وكان همهم نشر التعاليم الدينية طبقاً للمذاهب المسيحية الغربية، وقد عنوا بترجمة التوراة، وظل الجدل الدينى مسيطراً على الصحافة السورية، ومجالس الأدب ثمة رَدَحاً طويلا من الزمن. ولعل هذا يعلل لنا سبق السوريين فى الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الأدبى عند السوريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولنا إليه عودة.

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية للرافعى بك ج ٣ ص ٥٣٧.

الفصل الثانى

النهضـــة

عصر إسماعيل هو العصر الذى أينعت فيه النهضة الأدبية ، وأورقت ، و بشرت بثمار طيبة حلوة ، وكان عهده الباب الذى دلف منه الأدب إلى رياضه الغناء فى عصرنا الحاضر؛ وذلك لأن إسماعيل وضع أسساً متينة لنهضة شاملة ، بعد أن مضت فترة ركود كادت تعصف بما غرسه محمد على ، وتعود بمصر القهقرى إلى عصور الظلمات وذلك أيام الواليين عباس وسعيد ؛ إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألغى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية .

والأدب فى عصر إسماعيل مدين فى نهضته ورقيه وسيره نحو التحرر من أغلال الماضى فى صورته ومعناه إلى عدة عوامل لا نستطيع إغفالها ، أو التقليل من أثرها ، وسنلقى عليها نظرة عاجلة ، حتى يكون إدراكنا لتطور الأدب فى مصر والبلاد العربية إدراكاً صحيحاً .

— ١ —

التعليم :

استوى إسماعيل على أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ، وما بها إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية ، وثالثة للصيدلة ، وأوقفت البعثات ، واستغنى عن خدمات من عاد من رجالها ؛ وكان إسماعيل ذا همة عالية ، ترسّم فى نهضته خطوات جده محمد على ، وأراد أن يرى مصر قطعة من أوربا فى ظرف وجيز ، فأعاد للبعثات سيرتها الأولى حتى بلغ عدد أعضائها فى عصره اثنين وسبعين ومائة ، وأعاد مدرسة البعثات بباريس ؛ لأنه عرف فائدتها أيام أن كان طالباً هناك .

وأخذت الحياة تدب إلى كل أنواع التعليم ، فأعاد إسماعيل المدارس العالية التى كانت على عهد محمد على كالهندسة والطب ، وزاد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة الإدارة والألسن (بدلا من مدرسة الإداره القديمة) .

وقد أسهمت مدرسة الحقوق فى النهضة اللغوية والأدبية ، فالمذكرات التى يعدها المحامون ، ووكلاء النيابة ، ولغة المرافعات والدفاع ، والخطابة القانوية قد تحسنت كثيراً وأدخلت فى اللغة كلمات عديدة لم تكن مستعملة من قبل . ورجال الحقوق والقانون هم الذين يقودون مصر اليوم فى ميدان السياسة ، ولكنهم وللأسف قد أثروا بعقليتهم الجدلية ، وتربيتهم النظرية ، و إصلاحاتهم القانونية اللفظية فى حياة الأمة أثراً بليغاً ، وأبعدوها عن جادة الصواب ، وألقوا بها فى لجة الجدل والتناحر الحزبى ، والتشدق بالإصلاح ونأوا بها عن الحياة العملية المنتجة ، على أن هذا الموضوع ليس مما يعنينا فى كتابنا هذا ، و إنما الذى يلفت أنظارنا هو نهضة الخطابة واللغة على يد من تخرج فى هذه المدرسة ، ولا سيما فى عصرنا الحاضر .

ومن المدارس التى أنشئت فى عهد إسماعيل ، وكان لها أكبر الفضل فى نهضة اللغة والآداب مدرسة دار العلوم التى أشار بها على باشا مبارك ، وافتتحها فى سنة ١٨٧١ . وقد رأينا ما كانت تعانية مدارس محمد على الحديثة من فقر فى الكتب المدرسية المنظمة والمدرسين الأكفاء ، الذين جمعوا بين العلم القديم والحديث ، وعرفوا النظام ، ونالوا حظاً من طرق التربية ؛ وأن ذلك الفقر التربوى كان معوقاً لنهضة الآداب . بيد أن دار العلوم سدت هذا الفراغ ، فقد كان طلبتها يختارون من متقدمى طلبة الأزهر ونوابغهم ، وينشئون تنشئة لغوية ، وأدبية ، وشرعية ، مع قسط وفير من العلوم الحديثة ، وطرق التربية . ولقد أدت دار العلوم رسالتها للأمة وللغة وللدين على الوجه الأكمل . فحفظت اللغة وصانتها ، وقوتها وأيدت دعائمها ، وأحيت مواتها وجددت فى أساليبها ، ونفضت عن تراثها المجيد غبار القرن ، وقدمته للناس رائعاً جذاباً . وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم ألسنتهم ، وتدريب أقلامهم ، وتذويدهم بذخائر نفيسة من مختارات الشعر والنثر ، وتقديم الكتب

التى تنهج نهجاً علمياً نفسياً يتمشى مع الطفل وملكاته وغرائزه ؛ فكانت بحق خير ما أسدى إسماعيل من خدمات للغة العربية ، ولا تزال دار العلوم تقوم بنصيبها الوفير فى نهضة التعليم واللغة ، وتعتمد عليها جامعتا فؤاد الأول وفاروق الأول وإبراهيم الكبير فى دراسة الآداب والنصوص وقواعد اللغة ، ولا زال بنوها فى الطليعة من الكتاب والمؤلفين يجارون بتآليفهم تيار النهضة الحالية ، ويمشون مع الزمن خطوة خطوة ، وقد تخرج على أيديهم زعماء النهضة فى كل ميادين الحياة .

وفى عهد إسماعيل أنشئت أول مدرسة للبنات ، وذلك فى سنة ١٨٧٣ حيث أسست السيدة (جشم آفت هانم) ثالثة زوجات إسماعيل مدرسة السيوفية ، وكان بها حين افتتاحها مائتا تلميذة ، وبلغ عددهن فى السنة الثالثة أربعمائة تلميذة يتعلمن بالمجان فضلا عن القيام بمأكلهن وملبسهن ، وكن يتعلمن القراءة والكتابة ويحفظن القرآن الكريم ، ويدرسن الحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز والنسيج .

وقبل مدرسة السيوفة كانت البلاد خلوا من مدرسة للبنات اللهم إلا مدرسة للولادة ، لم يغشها إلا البنات الحبشيات . واستنكفت المصريات عن دخولها . وإلاّ مدرسة إنجليزية أسستها مس (وتلى) سنة ١٨٦٠ وقد نجحت بعد عشر سنوات من الجهاد فى جذب كثير من الفتيات المصريات إليها . وبذلك كان الجهل متخذا من رءوس فتيات مصر ونسائها أعشاشاً ، إلا من حرص أهلها على تعليمها فى البيت ، وقليل ماهن .

وقد خطا تعليم البنت منذ مدرسة السيوفية خطوات واسعة فى مصر ، وتعددت ألوانه ومدارسه ، وزاحمت الفتاة الفتى فى الجامعة ، واقتحمت الكليات المستعصية ؛ ولست هنا فى مقام النقد ، ومناقشة طريقة تعليم الفتيات ذلك التعليم النظرى ، ومنافسة البنين فى كل شىء ، ولكن مما لا شك فيه أن تعليم المرأة ونهوضها دعامة متينة فى النهضة الاجتماعية والأدبية ، والأم المتعلمة تربأ بابنها أن يكون فريسة الجهل ، وتسعى جهدها أن تنيله حظاً مهما كان يسيراً من نور العلم .

وقد أنشأ إسماعيل بجانب هذه المدارس كثيراً من المدارس الصناعية والخصوصية ،

كمدرسة المساحة والمحاسبة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة العميان والبكم .

أما المدارس الابتدائية فقد زاد عددها حتى بلغ أربعين مدرسة ، وقد صار للأقباط زيادة على ذلك اثنتا عشرة مدرسة ، وافتتحوا مدرستين لتعليم البنات ، واحدة بالأزبكية والأخرى (بحارة السقايين) ، وقد وهبهم إسماعيل ألفاً وخمسمائة فدان ينفق ريعها على مدارسهم .

وأنشأ إسماعيل كذلك عدة مدارس ثانوية منها مدرسة رأس التين فى سنة ١٨٦٣ ، والمدرسة الخديوية سنة ١٨٦٨ ، وأعاد ديوان المدارس ، وهو نواة وزارة المعارف بعد أن ألغاه سعيد ؛ ليشرف على التعليم ويرعاه ، ويدخل على نظمه وأساليبه التحسينات التى تساير الحياة .

ومن الوسائل التى ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية فى عصر إسماعيل دار الكتب ، وناهيك بما لها من أثر فى نشر العلم ، وتحبيب الاطلاع وتسهيله ، ومعاونة المؤلفين والباحثين ومساعدة الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

لقد كانت الكتب قبل ذلك مبعثرة فى المساجد يتولى أمرها خدم لا يقدرونها قدرها ، ففرطوا فيها ، وتسرب كثير من كنوزنا الأدبية والعلمية إلى مكاتب أوربا ، وأهين كثير من الكتب القيمة باستعمالها فى دكاكين البدالين وغيرهم .

همّ إسماعيل بتأسيس دار الكتب فجمع هذه الكنوز المبعثرة فى المساجد والتكايا والزوايا والأضرحة وغيرها ، وضم إليها ألفى كتاب اشتراها من مكتبة المرحوم حسن باشا المانسترلى ، ولما مات أخ الخديو إسماعيل الأمير مصطفى فاضل ، وكان من أكبر هواة الكتب فى الشرق ، ابتاع إسماعيل من مكتبته ما يربو على ثلاثة آلاف كتاب ، وضمها إلى دار الكتب ؛ فكان ذلك نواة لهذه المؤسسة العظيمة ، التى أخذت بعد ذلك تنمو وتزداد ، وتجلب لها الكتب من الشرق والغرب ، وتضم إليها المكتبات الكبيرة مثل مكتبة المرحوم العلامة أحمد باشا تيمور وغيرها .

وقد ضم القسم الأدبى الذى كان يشرف على إحياء الكتب القديمة بمطبعة بولاق إلى

دار الكتب ، وعكف منذ سنين على تصحيح و إخراج أمهات الكتب الأدبية من أمثال : الأغانى ، ونهاية الأرب ، والنجوم الزاهرة . . . وغيرها .

— ٢ —

الجمعيات العلمية :

إذا كثرت الجمعيات العلمية فى أمة دل ذلك على حيويتها و يقظتها ، ورغبتها فى السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة فى غذائها العقلى ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم ، لا يصاب الشعب بالشلل العقلى ، ولكن يمضى فى طريقه قدماً ، يتثقف و يستعد للنضال فى سبيل الحياة السعيدة بهمم أفراده اليقظين ، والجمعيات القوية المنظمة .

وقد بدأت تباشير هذه اليقظة العقلية فى عهد إسماعيل ، و برهنت مصر على أنها آخذة بأسباب النهضة الصحيحة ، وأنها مستعدة للنضج الفكرى ، ولو توانت الحكومة فى فى الإصلاح ، أو قصرت فى الأخذ بأسبابه ؛ ومن أوائل من عنوا بنشر الكتب القديمة والمخطوطات :

١ — المرحوم رفاعة بك الطهطاوى متأثراً بطريقة صديقه المستشرق الفرنسى (سلفستردى ساى) ، وعن مجهود رفاعة بك فى إحياء الكتب القديمة يقول العلامة على باشا مبارك : «ولرغبته فى نشر العلوم ، وسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ، استدعى مع بعض أفراد الحكومة المصرية من المرحوم سعيد باشا — وكان له ميل إلى المترجم رحمه الله — صدور الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، عم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها : تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت فطبعت »[1] .

٢ — المجمع العلمى : وقد أسس على عهد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ ، وألغى عند جلائهم

(١) الخطط التوفيقية — ترجمة رفاعة بك ج ١٣ (ص ٥٥ — ٥٦)

ولكنه أعيد فى عصر سعيد ، وظل يعمل مدة حكم إسماعيل ، مؤدياً رسالته فى نشر المباحث العلمية . ولا يزال حتى اليوم قائماً ، وإن تغير اسمه إلى (مجلس المعارف المصرى) ومقره وزارة الأشغال ، وله مجلة تنشر أبحاثه وقد تكلمنا عنه آنفاً[١] .

٣ — جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، وهى أول جمعية علمية مصرية صميمة ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، أسسها محمد باشا عارف ، وأسهم فى تأسيسها عدد كبير من أعيان البلاد ، وقد اقتنت مطبعة ، وقامت بطبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب[٢] .

ولقيت الجمعية تشجيعاً عظيما حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمائة عضو من الطبقة الممتازة فى الأمة[٣] .

وظلت الجمعية تعمل ، وتؤدى رسالتها الثقافية إلى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديو إسماعيل ، والأمير عبد الحليم باشا لتنافسهما على أريكة مصر ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، ففر إلى الآستانة خوفاً من إسماعيل ، وبذهابه انحلت الجمعية . وكان عارف باشا أديباً ، ويروى له قوله :

ألم تعلم بأن سماء فكرى تلوح بأفقها شمس المعارف
تَفرَّس والدى فىَّ المزايا فيوم وُلدت لقبنى بعارف

٣ — الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ ، وتعد من أهم المنشآت العلمية بمصر ، وتعنى

---

(١) راجع ص ١٤ من هذا الكتاب .

(٢) من هذه الكتب : أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات ، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردى ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجه وديوان ابن المعتز والبيان والتبيين للجاحظ ؛ وشرح الشيخ خالد على البردة ، ورسائل بديع الزمان الهمذانى وغير ذلك من الكتب .

(٣) كان من أعضائها : إبراهيم بك المويلحى ، وأحمد فارس الشدياق ، والشيخ حسونة النواوى ، والدكتور محمد شافعى بك ؛ ومصطفى رياض باشا ، والشيخ بدراوى عاشور . وتجد ثبتاً بأسماء أعضاء الجمعية فى آخر (الفتح الوهبى) وراجع كتاب عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى بك ج ١ ص ٢٥٦ ، وجورجى زيدان فى كتاب آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٧٨ .

بالأبحاث الجغرافيا والعلمية وتدوينها ونشرها ، ولها مجلة دورية تنشر أبحاثها ، وما تقوم به من اكتشافات ، ولا تزال قائمة إلى اليوم .

٤ — الجمعية الخيرية الإسلامية . أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ ، حين دفعت الحماسة جماعة من المتعلمين بالثغر — رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستئثارهم بمرافق البلاد — إلى تأسيسها ، وكانت تعقد الاجتماعات ليلا ويتبادل أعضاؤها الخطب ، وقبيل افتتاحها انضم إليهم السيد عبد الله نديم ، فكلفته الجمعية العمل على تأسيس مدرسة حرة يتعلم فيها أبناء المسلمين ، وينشئون تنشئة صالحة ؛ وظلت الجمعية والمدرسة تتقدمان حتى قامت الثورة العرابية فتفرق القائمون بأمرها .

وقد أنشىء على غرار هذه الجمعية التعليمية جمعية باسمها فى القاهرة ، وأخرى بدمياط ، أما الجمعية الحالية فقد أسست سنة ١٨٩٢ على غرار الجمعية الأولى حين اشتدت الحاجة إليها وكان الداعى إلى تأسيسها الإمام الشيخ محمد عبده ، وسنعود إلى الكلام عنها فى ترجمته إن شاء الله .

— ٣ —

الصحافة :

وتعد الصحافة من أقوى عوامل النهوض بالشعب فى عقليته ، ولغته ، وعلمه ، والإصلاح الإجتماعى الذى يأخذ بيده صوب الكمال . وقد تحررت اللغة من آفاتها القديمة التى ورثتها عن عصور الانحطاط ، ولا سيما السجع والمحسنات والزخرف اللفظى والركاكة ، على يد الصحافة .

انقضى عصر محمد على كما رأينا ، وليس بمصر سوى صحيفة واحدة هى الوقائع المصرية ، وكانت موضوعاتها قاصرة على الأخبار الحكومية ، ولغتها لا تكاد تستقيم من الركة ، ولكننا نشاهد فى عصر إسماعيل نهضة جديدة ، واسعة عظيمة الأثر فى الصحافة .

سبق السوريون فى بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال بحلب سنة

١٨٥٥ ، وإن لم تعمر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً ما لسان الحكومة الرسمى . ثم خطت الصحافة خطوة أوسع فى سبيل الرقى بصدور الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد فى الكتابة العربية ، وأفتن صاحبها فى تحريرها ، وتخير موضوعاتها .

فجمعت بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فذاعت ، وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربياً بل إسلامياً إلا دخلته ، وقد سافرت كذلك إلى كثير من بلدان الغرب ، واقتبس الناس منها ، وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ أما صاحبها .

أحمد فارس الشدياق :

فهو من رواد النهضة الحديثة فى الأدب ، وممن سبق بفكره ، وقلمه ، وعلمه أبناء زمانه لكثرة ما قرأ ، وجرّب ، ورأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ؛ لأنه جاب بلاداً عديدة وعرف لغات شتى ، وأفاد مما رأى ، ومما سمع ، ومما قرأ وعرف ، فكان نادرة من نوادر عصره .

ولد بقرية عشقوت فى لبنان سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م من أسرة مارونية مشهورة ، ثم انتقل والده إلى قرية (الحدث) بالقرب من بيروت ؛ وتيتم فارس بن منصور (وعرف فيما بعد باسم أحمد فارس الشدياق) وهو صغير ، وكانت تتراءى عليه علامات النجابة ، فأتقن صناعة الخط ، وجعل ينسخ الكتب لنفسه ، ولغيره طلباً للرزق . وكان له أخ يسمى (أسعد) على حظ وفير من العلم والذكاء ، وعليه تلقى فارس دروسه الأولى ، وأفاد منه فائدة جليلة ، ووجهه وجهة صالحة ، وغرس فى نفسه محبة العلم . ثم اضطهد (أسعد) من بطريرك الموارنة ، وسيم ألواناً من العذاب ، لتغيير مذهبه المارونى إلى المذهب الإنجيلى ، حتى مات بأحد الأديرة وهو فى عنفوان شبابه ، فأثر موته على فارس ، وحز فى نفسه ، فكره الإقامة ببلاد الشام ، وأعلن سخطه على المارون ، فجدوا فى أثره لينكلوا به ، بيد أنه لجأ إلى المبشرين

الأمريكيين ببيروت ، فأحسنوا مقدمه ، و بعثوا به إلى مصر ليعلم أعضاء بعثتهم فيها اللغة العربية .

وفى مصر تعرف على الشيخ محمد شهاب محرر الوقائع المصرية ، فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والأدب ، وقرأ على غيره كتباً فى المنطق والنحو حتى تمكن من سائر علوم العربية ، وتقرب من كبار علماء مصر ، ومن معية الخديو . ثم أفسح له مجال الكتابة فى الوقائع ، فأخذ يدبج فيها المقالات الممتازة بأسلوب جديد لم يألفه المصريون من قبل ، وهو الأسلوب المرسل الرصين ، ثم أسند إليه تحرير الوقائع مدة .

و بعد ذلك سافر إلى (مالطة) سنه ١٨٣٤ بدعوة من الأمريكان ؛ ليعلم فى مدارسهم هنالك ، فمكث بها أربعة عشر عاماً ، عكف فى أثنائها على التدريس ، والتأليف ، ونشر الكتب ، وتصحيحها ، إلى أن طلبته جمعية ترجمة (التوراة) بلندن ليساعد فى التعريب والضبط والتنقيح ، فسافر إليها سنة ١٨٤٨ ، وأقام بها مدة مكنته من تعلم اللغة الإنجليزية ، وتعرف أحوال الإنجليز ، و بلادهم معرفة دقيقة ، ثم سافر إلى باريس بعد أن نال الحماية البريطانية ، وتجنس بالجنسية الإنجليزية .

وقد سجل رحلته إلى أوربا فى كتابه (كشف المخبا عن أحوال أوربا) . وقد ألف فى أثناء مقامه بأوربا كتابه (الساق على الساق فيما هو الفارياق) ، والفارياق لفظ مقتطع من (فارس الشدياق) .

ولما زار باى تونس باريس ، ووزع فى فرنسا كثيراً من الأموال على الفقراء مدحه الشدياق بقصيدة طويلة حببته إليه ، فاستدعاه للإقامة معه بتونس . وكان قد مدح السلطان عبد المجيد كذلك بقصيدة طويلة حسنت لديه ، فاستدعاه للآستانة ، ولكنه فضل الذهاب إلى تونس أولاً ، فأرسل إليه (الباى) باخرة حربية لحضوره عليها . وقد وقعت بينه و بين شيخ الإسلام فى تونس مجادلات فى العقائد الدينية أدت إلى اعتناقه الإسلام وسمى نفسه (أحمد فارس) ، وتكنى (بأبى العباس) ، وكان يقول فى هذا : « لعمرى ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها ، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره »

وتولى عند الباى أرفع المناصب ، واشتهر اسمه ، فطلبته الآستانة مرة أخرى ، فلبى الدعوة ، وهناك أُلحق بديوان الترجمة ، وتولى الإشراف على التصحيح بدار الطباعة .

ويقال إن الخديو اسماعيل هو الذى أشار عليه فى أثناء زيارته للآستانة بإنشاء (الجوائب) ، وكان معجباً به ، فقام بإنشائها سنة ١٨٦٠ ، واشتركت فيها الحكومة المصرية بألفى نسخة . ثم قدم مصر سنة ١٨٨٦ ، وهو شيخ هرم ، فى عهد الخديو توفيق ، فقوبل بكل إجلال وترحاب ، واجتمع به كثيرون من الأدباء ورجال الصحافة ، فبهرهم على الرغم من شيخوخته بتوقد قريحته ، وسرعة بديهته ، وحلاوة سمره وطلاوته ، ورقة حاشيته ورشيق عبارته . ثم عاد إلى الآستانة فتوفى بها سنة ١٨٨٧ ، ونقلت جثته إلى سوريا ، ودفن بقرية الحازمية على مقربة من بيروت .

والشدياق من أوائل الذين اهتموا بالأبحاث اللغوية فى العصر الحديث ، وله كتاب (الجاسوس على القاموس) ، وهو كذلك من أوائل الكتاب المترسلين ، الذين خاضوا فى كل موضوع ، وأفادوا الأدب واللغة بأبحاثهم ومقالاتهم ، وله عدة كتب كان لها فى زمانه وبعد زمانه شأن يذكر ، منها :

١ — (الواسطة فى أحوال مالطة) وقد وصف فيه هذه الجزيرة وصفاً دقيقاً ، وأبان فيه عن أصل اللغة التى ينطق بها أهلها ، وبين أنها العربية شيبت بلهجات الغزاة الفاتحين وألحانهم .

٢ — (كشف المخبا عن أحوال أوربا) فصّل فيه سياحته فى بلاد الإنجليز وغيرها من الأقطار الأوربية ، ووصف عادات الإنجليز وآدابهم ، وأخلاقهم ، وتاريخ تمدينهم ، وسر تقدمهم ، بأسلوب شائق طلى .

٣ — (الساق على الساق فيما هو الفارياق) وهو كتاب ممتع ، سيق فى أسلوب قصصى وذكر فيه تاريخ حياته ، وأحواله الخاصة ، وما عاناه فى دهره ، وفى معركته مع الحياة والأيام . خلط فيه الجد بالهزل ، والسجع بالترسل ، والعلم بالأدب ، وأغرب فيه وأطرب ، وذهب فى تدبيجه وصياغته كل مذهب ، طبع بباريس ١٨٥٥ .

٤ — سر الليال فى القلب والإبدال .

٥ — (الجاسوس على القاموس) ، وضعه لاستدراك ما فات الفيروزبادى فى قاموسه ، وما وهم فيه من الألفاظ وهو مطبوع .

٦ — (منتهى العجب فى خصائص لغة الأدب) فى أسرار اللغة ، وخصائص الحروف ومدلولاتها ، ولكنه ذهب فريسة النار ، وهو بعدُ مخطوطٌ لم يطبع .

٧ — (الجوائب) وقد اشتركت فيها مصر بألفى نسخة ، وكان باى تونس يمدها بخمسمائة جنيه سنوياً ، وتلقت مثل هذه الإعانة من السلطان عبد العزيز ، وكانت تصدر أسبوعياً ، وقد نالت شهرة عظيمة كما ذكرنا آنفاً ، وهى الجريدة الوحيدة التى جاهرت بالدفاع عن الخديو اسماعيل فى دار الخلافة حينما خلع سنة ١٨٧٩ ، ورثته يوم وفاته ، ولم تخش سطوة الحكومة العثمانية ، ويقال إن السفارة الإنجليزية بالأستانة دفعت لصاحبها ألف جنيه ؛ نظير إذاعة المنشور الذى أصدره الباب العالى يعلن فيه عصيان عرابى باشا سنة ١٨٨٢ ، وأن ذلك كان من أسباب إخفاق عرابى .

وقد جمع سليم بن أحمد فارس منتخبات من الجوائب ونشرها فى سبعة أجزاء .

٨ — لأحمد فارس كتب مدرسية كثيرة منها : الباكورة الشهية فى نحو اللغة الإنجليزية ، السند الراوى فى الصرف الفرنساوى ، اللفيف فى كل معنى طريف .

٩ — وله ديوان شعر لم يطبع .

ومن روائع أدبه قوله يصف مصر فى كتابه الساق على الساق :

« ومن خواصِّها أن أسواقها لا تشبه رجالها ألبتة ؛ فإن لأهلها لطافةً وظرافة ، وأدباً وكِياسةً وشمائلَ مرضية ، وأخلاقاً زكيَّةً ، وأسواقها عاريةٌ عن ذلك رأساً .

ومنها : أن العالم عالم ، والأديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، والفاسق فاسق ، والفاجر فاجر . ومن ذلك أن البنات اللائى يُستَخْدَمن فى (الميرى) لحمل الآجر والجبس والتراب ، والطين والحجر والخشب ، وغير ذلك ، يحملنه على رءوسهن ، وهن

فرحاتٌ ، جامحات ، سابحاتٌ ، صادحاتٌ ، مادحاتٌ ، غير ترِحات ، ولا دالحاتٍ[١] ، ولا رازحات ، ولا كالحات ، ولا نائحات ، ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه (موّالا) آجرياً ، أو من الجبس غنت له أغنية جبسية ، كأنما هن سائرات فى زفاف عروس .

ومن ذلك أن (البرنيطة) فيها تَنْمِى وتعظم ، وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق ، فإذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها (شَوْنَةً)[٢] ، قال (الفارياق) : وكثيراً ما كنتُ أتعجبُ من ذلك وأقول : كيف صح فى الإمكان ، وبدأ للعيان أن مثل هذه الرءوس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المستنكَرة المشئومة ، المستَقْذَرة المُهوَّعة[٣] المستقيمة المستفظَعة ، المستسمجة المستشنعة ، المسترذلة المستبشَعة ، تُقل هذه (البرانيط) المكرمَّة ، وكيف أنماها هواء مصر ، وكبرّها إلى هذا المقدار ، وقد طالما ، كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفرّاش ، ولا توازن ناقورة الفَراش ، وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالتِّبر ؟ يا هواء مصر ، يا نارها ، يا ماءها ، يا ترابها[٤] ، صيِّرى طربوشى هذا (برنيطة) ، وإن يكن أحسنَ منها عند الله والناس وأفضل ، وأجمل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل وعلى الرأس أطبق وبالجسم أليق . . . قال : فلم يُغن عنى النداء شيئاً ، وبقى رأسى مطربشا ، وطرفُ دهرى مُطَرْفَشا[٥] .

ومن خصائصها أيضاً أن البُغاثُ بها يستنسر ، والذباب يستصقر ، والناقة تستبعر ، والجحش يَستمهِر ، والهر يستنمر ، بشرط أن تكون هذه الحيوانات مجلوبة إليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك أن كثيراً من أهلها يرون أن كثرة الأفكار فى الرأس يكثر عنها الهموم والأكدار أو بالعكس ، وأن العقل الطويل يتناول البعيد من الأمور كما أن الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره ، وأن تلك الكثرة سبب فى الإقلال ، فما دام النور

---

(١) من دلح كمنع : مشى بحمله منقبض الحظو لثقله ، وسحابة دلوح : كثيرة الماء .

(٢) الشونة : كما جاء فى القاموس مخزن الغلال — مصرية .

(٣) المهوعة : من هوعته ما أكل إذا قيأته إياه .

(٤) يشير بالهواء والنار والماء والتراب إلى العناصر الأربعة التى كان يعتقد الفلاسفة القدماء أنها أصل المواد

(٥) الطرف : العين ، وطرفشت العين : أظلمت وضعفت ، وفلان نظر وكسر عينيه .

مُوقَداً ، فلا بد وأن تُفقَد الفتيلة ، ولا يمكن إبقاؤها إلا بإطفاء النور ، أو كالماء فى الوادى فإذا دام الماء جاريا فلا بد وأن ينضب فى البحر ، فمتى حُقن بقى ، أو كالفلوس فى الكيس ، فما دام المفلس أى صاحب الفلوس يمد يده إلى كيسه ، وينفق منه فَنِيَ ما عنده ، إلا أن تُرْبَط يدُه عن الكيس ، أو يُرْبَط الكيسُ عن يده ؛ فمن ثَمَّ اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل فى ميدان الدماغ حيناً من الأحيان ، ليتوفر لهم فى غيره ، وذلك بشرب شىء من الحشيش ، أو بمضغه ، أو بالنظر إليه ، أو بذكر اسمه ، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ، ويحضر السرور ، وتولى الأحزان ، ويرقص المكان » .

وفى الحق لم يدع أحمد فارس شيئاً فى أهل مصر وعاداتهم إلا وصفه وصفاً دقيقاً بذلك الأسلوب المرح ، وهذا التهكم المحبوب ، وله نظرات نافذات حين يتكلم على الأجانب ، وكيف صار لهم الحول والسلطان ، مع أنهم كانوا فى بلادهم أفاقين ، مفلسين ، وحين يعبر عن فلسفة الحشاشين ، وكيف يعملون جادين مخلصين على تغييب العقل ، وهو النور الذى يهدى الإنسان سواء السبيل .

وأنت ترى فى أسلوبه السجع ، والترسل ، والسهولة ، والتوعر ، والكلمات العامية ، والكلمات الغريبة التى لا تستعمل إلا فى المعاجم ، وكأنه قصد إلى إحيائها ، كما كان يفعل أصحاب المقامات ، لولا طرافة الموضوع ، وصدق الوصف . ومما يلفت الأنظار فى أدب أحمد فارس أنه كان قوى الملاحظة ، مَعْنِياً بأحوال الشعوب وطرق حياتهم ، والموازنة بين الشعوب التى زارها والشعوب العربية ، وله فصول ممتعة فى كتابه (الساق على الساق) عن الإنجليز وبلادهم ، والفرنسيين وأحوالهم . ومما قاله فى الموازنة بين الأدب الغربى قوله :

« فإنهم أول ما يبتدئون المدح يوجهونه إلى المخاطب ، ويجعلونه ضربا من التاريخ ، فيذكرون فيه مساعى الممدوح ومقاصدَه وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد أسمائهم ولما ترجم (مسيو دوكان) قصيدتى التى مدحت بها المرحوم أحمد باشا والى تونس وطبعها مع الترجمة ، وكان بعضهم يسألنى : هل اسم الباشا (سعاد) ؟ وذلك لقولى : « زارت سعاد وثوب الليل مسدول » فكنت أقول : لا ، بل هو اسم امرأة ، فيقول السائل :

« وما مدخل المرأة بينك و بين الباشا ؟ وهو فى الحقيقة أسلوب غريب للعرب ، قال العلامة الدسوقى : اعلم أنه قد جرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادوا مدحَ إنسان أن يذكروا قبله الغزل لأجل تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر ، والمبالغة فى الوصف ، وترويح النفس ورياضتها » قلت : كما أن الإفرنج ينكرون علينا هذه العادة ، كذلك ينكرون المبالغة فى وصف الممدوح . وأما تشبيهه بالبحر والسحاب والأسد ، والطود ، والبدر ، والسيف ، فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ، ولا يعرضون له بالكرم ، و بأن عطاياه تصل إلى البعيد ، فضلا عن القريب ، فهم إذا مدحوا ملوكهم ، فإنما يمدحونهم للناس ، لا لأن يصل مدحُهم إليهم » .

ومن فكاهاته التهكمية ، ونقداته اللاذعة ما قاله عن علم النحو وتعلمه . قال : قال أحد التلميذين : ألا قُبحاً لذوي الخواطر البليدة ، والفِطن البعيدة !. كيف لا يتعلم الناس كلُّهم فنَّ النحو ، وهو أسهل من حك ما تحت الحِقْو ؛ أما والله لو كانت العلوم كلها مثله ، لما غادرتُ منها كبيراً وصغيراً إلا استوعبته كله ، لكنى سمعت أن النحو إنما هو مفتاح للعلوم ، ولا يُعَدُّ منها فلا بد أن يكون غيره أصعب منه .

فقال له معلمه : لا تقل هكذا ، بل النحو أساس العلوم ، وكل العلوم مفتقرةٌ إليه افتقار البِناء إلى الأساس ، ألا ترى أن أهل بلادنا لا يتعلمون سواه ، ولا يعرِّجون على غيره ؟ وعندهم أن من تمكَّن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها ، ولذلك لا يؤلفون إلا فيه . و إنما يحصل خلاف بينهم فى تقديم بعض الأبواب على بعض ، وفى توضيح ما كان مُبْهَماً منه بأدلة وشواهد . اختلفوا أيضاً فى الشواهد ، فمن قائل إنها مفتعلة ، ومن قائل إنها ضرورة أو شاذة ، بيد أن المآل واحد ، وهو أن العالم لا يسمى عالماً إلا إذا كان متمكناً من النحو ، مستقصياً لجميع وقائعه ، ولا يكاد يستتب أمر إلا به . ولو قلتَ مثلاً : ضرب « زيد عمرو » من غير رفع زيد ونصب عمرو ، فما يكون ضربه حقاً ، ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار ، فإن حقيقة فعل الضرب متوقفة على عِلْم كونِ زيدٍ مرفوعاً . وجميع اللغات التى ليس فيها علامات الرفع فهى خالية عن الإفادة التامة ، و إنما يفهم بعض

الناس بعضاً من دون هذه العلامة عن دُربةٍ واتفاق ، فلا مُعوَّل على كتبهم و إن كثرتْ ، ولا على علومهم و إن جلَّتْ » .

وأخذ المعلم يثنى على النحو ثناءً عظيماً ، و يبين أنه هداه إلى مسألة حار فيها حيرة عجيبة ، فسأله تلميذه : وما هذه الفائدة يا أستاذى ؟ قال : قد طالما كان يخامرنى الريب فى قضية خلود النفس ، فكنت أميل إلى ما قالته الفلاسفة ، من أنه كلُّ ما كان له ابتداءٌ فهو متناهٍ ، فلما رأيت النحو له ابتداء ، وليس له انتهاءٌ قست النفس عليه فزال عنى ، والحمد لله ، ذلك الإبهام » وفى هذا الكلام لذعات حادة للنحاة لا تخفى على اللبيب .

وهكذا تجد أحمد فارس فى كل ما كتبه يخلط الجد بالهزل ، و يتهكم تهكماً مريراً على الأوضاع التى لا تروقه ، وقد قال عن كتابه (الساق على الساق فيما هو الفارياق) :

هـذا كتابى للظريف ظريفاً ... طلقَ اللِّسان وللسخيف سخيفاً
أودعته كَلِماً وألفاظاً حلت ... وحشوتُه نقطا زهت وحروفاً
و بداهةً وفكاهةً ونزاهـة ... وخـلاعةً ، وقناعة وعزوفاً
كالجسم فيه كل عضو تعشق الـ ... مستور منه وتحمد المكشوفاً
فصّلته ، لكن على عقلى فما ... مقياس عقلك كان لى معروفا

وقد وضع أحمد فارس كل تجاربه وعلمه وفنه ، وقلمه الظريف القوى المتمكن من مختلف أساليب اللغة فى إخراج (الجوائب) فكانت من الصحف الأولى فى العالم . وله يرجع فضل السبق فى تعبيد العربية وتذليلها بأسلوبه المرسل الطليق ، كما أنه من أوائل الذين ملئت قلوبهم بغضاً للأجانب ، وفهم عن حق أغراضهم الدنيئة ، وسلقهم بلسان حادٍ ، وحرَّض على إخراجهم من ديار العرب والشرق . وقد خصَّ مصر بحب وفير ، وكان مثلاً فى الصحافة انتهجه المصريون ، وحذوْا حذوه ، فلا بدع أن كان من رواد النهضة الحديثة .

كل ذلك حفز المصريين إلى الاهتمام بالصحافة ، ووجدوا من اسماعيل صدراً رحباً للنقد السياسى اللهم إلا مايمس شخصه ، فلصاحبه الويل والثبور كما حدث لمدير الأهرام سنة ١٨٧٩ ، حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد اسماعيل

يبطش به وبجريدته لولا أن ارتمى فى حِضن فرنسا فحمته ؛ كما وجدوا من اسماعيل تشجيعاً للحركة الأدبية وميلا إلى الأدب والفن والعلم . ومن الصحف المصرية التى ظهرت فى عهد اسماعيل :

١ — مجلة اليعسوب :

وهى أول هذه الصحف المصرية ، وهى مجلة طبية أصدرها الدكتوران محمد على باشا البقلى ، و إبراهيم الدسوقى بك ، وكانت شهرية عربية اللغة ، وهذا يدلنا على عظم المحاولة التى كان يبذلها أطباء البعثات العلمية فى تذليل اللغة العربية للمصطلحات العلمية ، والاستعانة بالكتب القديمة ، و بوضع كلمات من عندهم — على سبيل الاشتقاق — ولقد كانت هذه المجلة الأولى من نوعها فى الشرق ، ولكنها للأسف لم تعمِّر طويلا ، ومنها نماذج بدار الكتب ، وكان ظهورها سنة ١٨٦٥ .

٢ — مجلة روضة المدارس :

أنشأها العلامة على باشا مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف المصرية ، وهى من أجل أعماله خدمة للغة والأدب ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإنفاق عليها ، وقد أُسست لإحياء الآداب العربية ، ونشر المعارف الحديثة ، وأسندت رئاسة تحريرها للعالم الأديب رفاعة بك الطهطاوى ، فقد رأى على باشا مبارك أن رفاعة بك أجدر الناس بأن يتولى الإشراف على روضة المدارس ، وفى ذلك يقول : « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، وهو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضلِه الرفيعة كل إنسان ، ناسب أن يجعل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدُّر الثمين ، وينشر علمها ، فيتلقاه محب المعارف باليمين » .

وقد صدَّر رفاعة بك أول عدد منها بمقال بيَّن فيه الهدف الذى تسعى إليه المجلة ، والخطة التى تسير عليها لبلوغ هذا الهدف ، ومما جاء فى هذا المقال قوله : « بحيث تكون

فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، أقرب تناولاً للمطّلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ، ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعانٍ رجيحة تنخرط فى سلكِ مُسْتَحْسَن الأساليب » .

وقال : « وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى ما يخص نشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية مما يقع عليه الاختيار ولا ضرر فيها ولا ضرار ، فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والإدارية » .

ومن الذين أسهموا فى تحرير المجلة عبد الله فكرى الذى أحيلت عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، و « بروكش » ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخُصَّ بالتاريخ ، واسماعيل الفلكى وعُهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى وخُص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد ندا وعهد إليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجى والنِّكات ، وأحيل على مباشر تحريرها الكلام على محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاطها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على مدرسى المدارس ، وما يرد منهم فى القابل ، يذكر اسم صاحبه ، حتى لا يضيع عملُ عامل (١) .

وقد ضُم إلى هيئة التحرير بعد إنشائها السيد صالح مجدى وكيل ديوان المدارس ، والشيخ حسونة النواوى مدرس الفقه وعلم الكلام بمدرسة الألسن وصار فيما بعد شيخاً للأزهر . وأسندت مباشرة تحريرها ، وترتيب مقالاتها إلى على فهمى ولد رفاعة بك ، وكان مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، واتخذت المجلة شعارها :

تعلم العلم واقرأ تَحْزُ فخار النبوة
فالله قال ليحيى (خذ الكتاب بقوة)

فكانت هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وقد عنيت كما رأيت بالمباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والفلك والتاريخ والرياضيات ، وكانت

(١) العدد الأول من مجلة روضة المدارس .

تصدر مرتين فى الشهر ، وظلت تصدر ثمانى سنوات ، فمهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالمجان على جميع التلاميذ ، وقد أفسحت أعمدتها للطلبة ينشرون أبحاثهم الجيدة فيها ، فعودتهم بذلك الاطلاع والكتابة والبحث ، و بذل الجهد المستقل عن أساتذتهم

ومن الأمثله على تشجيع المجلة للتلاميذ مانشرته « للشاب النجيب ، إسماعيل أفندى صبرى أحد تلاميذ مدرسة الإدارة وقتئذ » ، وقد صار فيما بعد الشاعر المشهور اسماعيل باشا صبرى .

فمن ذلك قصيدة فى مدح الخديو إسماعيل بالعدد العشرين من السنة الأولى مطلعها

سفرتْ فلاح لناهلال سعود ... ونما الغرام بقلبى المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد الخامس من السنة الثانية قال فيها :

أغرتُك الغراء أم طلعة البدر ... وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعركِ أم ليل تراخى سدوله ... وثغرك أم عقد تنظم من درِّ

وقصيدة أخرى بالعدد الثالث والعشرين من السنة الثانية استهلها بقوله :

لا والهوى العذرى والوجد ... عَذْلُ عذولى فيك لا يجدى

إنى مع الصد وطول الجفا ... باق على الميثاق والعهد

وغير ذلك مما يعد تقدمة وبا كورة للشعر الحديث (١) .

(٢) أما الصحف السياسية بمصر فأقدمها ظهوراً جريدة (وادى النيل) أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود (٢) ، وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع على شكل المجلات ، ثم ألغتها الحكومة فى سنة ١٨٧٢ ؛ بيد أنها استأنفت جهادها وحياتها باسم جديد هو « روضة الأخبار » التى أصدرها محمد بك أنسى نجل عبد الله أبى السعود ، وكان والده يحرر القسم السياسى بها إلى آخر حياته .

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى بك ج ٣ ص ٤٩٧ ترجمة رفاعة بك الطهطاوى وعصر إسماعيل له كذلك ج ٢ ص ٢٦٢ وديوان إسماعيل صبرى باشا ص ٢ — ١٠ وأعداد مجلة روضة المدارس

(٢) توفى سنة ١٨٧٨ وهو من أوائل تلاميذ رفاعة الطهطاوى ، واشتغل بالتدريس بدار العلوم واشتهر بالترجمة والكتابة فى التاريخ ، وصار عضواً بمجلس الاستئناف .

(٤) وتليها فى الظهور جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئها إبراهيم بك المويلحى ، ومحمد بك عثمان جلال ، وناهيك بهما فى ذلك العصر فحولة قلم ، وجزالة أسلوب وطرافة موضوع ، وحلاوة نكتة ؛ وكانت هذه الجريدة أسبوعية ، ولكن لسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، وضاق بها إسماعيل ذرعاً ، فعطلها حين نصحه بذلك أحد وزرائه خشية أن تثير لهجتها الخواطر ضده .

(٥) وأنشأ بعض الأقباط بمصر فى سنة ١٨٧٧ ، جريدة الوطن ، وكانت سياسية وطنية تميل إلى التحرر .

ثم نزح عقب حوادث سنة ١٨٦٠ فى سوريا[1] جماعة من الأدباء الذين فروا بحريتهم من الاضطهاد ؛ جاءوا وقلوبهم تغصُّ بالحقد والإحَن على تركيا ، وفى نفوسهم ميل إلى الحرية ، والتنفيس عن الآراء المكبوتة . وقد شجعهم إسماعيل باشا على الإقامة بمصر ، والإسهام فى نهضتها ، ولا نستطيع أن ننكر ما أسدوه للصحافة ولنشر الثقافة من خدمات .

ومن أوائل الذين وفدوا على مصر عقب هذه الحوادث الدامية :

أديب إسحق :

وهو فلتة من فلتات الزمن . استطاع على حداثة سنه ، أن يتوهج فى سماء الأدب والسياسة والخطابة نجما ساطعاً ، وأن يكوِّن مدرسة إنشائية يحتذيها الأدباء والخطباء . وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرتزقة والأفاقين ، فأضرمها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تخمد لها جذوة ، فى كل مكان حل به وما أكثر ما ارتحل وشُرد فى سبيل مبدئه ، وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ومات ولما ينته العقد الثالث من عمره .

---

(١) فى هذه السنة زاد اضطهاد الأتراك لمسيحى سوريا ، وقامت مذابح فى جبل لبنان ذهب ضحيتها عدد كبير من المسيحيين ، واضطر كثير من سكان القرى بجبل لبنان إلى الهجرة ، وذلك لأن نصارى الشام قد أظهروا ولاءهم لإبراهيم باشا وكرههم للحكم التركى أيام وجوده بينهم ، فلما سحبت الجيوش المصرية ظلوا على ولائهم لمصر ، فانتقم الأتراك منهم شر انتقام .

ولد أديب إسحق سنة ١٨٥٦ من أبوين سوريين ، ونشأ بلبنان ، وتعلم العربية والفرنسية فى مدرسة الآباء العازاريين ، واضطر إلى الكَدْح فى سبيل العيش وهو صغير ، ودرس التركية فى أوقات فراغه ، ثم انضم إلى والده فى خدمة بريد بيروت . وقد ظهرت ميوله الأدبية فى حداثته فعهد إليه وهو فى السابعة عشرة بتحرير جريدة (التقدم) .

وكان إلى عمله الصحفى هذا يترجم عن الفرنسية ويؤلف ، وانتمى إلى جمعية (زهرة الآداب) ، ثم صار رئيساً لها فيما بعد . وقد ترجم (أندروماك) لراسين ، وساعد صديقه (سليم نقاش) فى تأليف المسرحيات وتمثيلها ، ولحق به فى الإسكندرية . وكانت فرقتهما التمثيلية من أوائل الفرق العربية ، وعرب أديب رواية (شارلمان) وأعجب بها المصريون إعجاباً عظيما[1] وألف رواية غرائب (الاتفاق) .

وحن إلى الصحافة فذهب إلى القاهرة ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وأنشأ هو وصديقه سليم نقاش جريدة (مصر) سنة ١٨٧٧ وكانت أسبوعية ، وقد تأثرا فيها بتعاليم جمال الدين الأفغانى وأسلوبه الملتهب . أنشآها وهما مفلسان لا يملكان غير عشرين (فرنكا) ، بيد أن أسلوبها وقوة بيانها ، وجدة أفكارها ، ودعوتها الجريئة للحرية ، قد ضمنت لها الإقبال والرواج ، ورحب بها الذين يحبون القلم القوى ، والأسلوب الجزل والأفكار الجريئة ؛ واندفع كاتبها كالبركان يرسل ناراً ، ونوراً ، وينفس عن نفسه ما طالما كُبت فيها وهو ببيروت ، وما ذاقه وقومه من اضطهاد وظلم على أيدى الأتراك ، فحركت الهمم وأعادت للأسلوب الرفيع عزته .

وقد وجد أديب إسحق وسليم نقاش فى رواج (مصر) ما شجعهما على إصدار جريدة يومية سمياها (التجارة) ، وكانت لا تقل عن أختها حماسة وقوة ، ونشر فيها جمال الدين الأفغانى بعض المقالات ، تارة ممهورة بتوقيعه ، وتارة بتوقيع مستعار ، وقد ألغاها رياض باشا سنة ١٨٨٠ .

ولكن ذلك لم يثن من عزيمة (أديب إسحق) فهاجر إلى باريس ، واستأنف جهاده

---

(1) M . Sapry : La Genèse de l'Esprit National Egyptian.P. 128.

وأصدر ثمة جريدة (القاهرة) بالعربية وقال فى مقالها الأول : « ما تغيرت الحقيقة بتغيير الاسم ، بل هى مصر خادمة مصر » .

وقد حرص فى أثناء مقامه بباريس على معرفة عدد كبير من ساسة فرنسا وعلمائها حتى روى عن فيكتور هوجو أنه قال لمن كانوا فى حضرته ، على أثر انصراف أديب : « هذا نابغة الشرق » . ولكن برد باريس ، وأسرافه على نفسه فى كل شىء قد جنى على صدره ، فرجع إلى لبنان ملتمساً الشفاء ، وعاد إلى تحرير جريدة التقدم مرة أخرى .

وحين تغيرت الأحوال فى مصر دعى إليها ، وعين مديراً لقلم الإنشاء والترجمة بوزارة المعارف ، وسمح لجريدة مصر بالظهور ، وشغل وظيفة أخرى بجانب وظيفته الأولى حيث عين كاتب سر مجلس شورى القوانين . وحين قامت الثورة العرابية ، واشتد لظاها عاد إلى بيروت ثم رجع إلى الإسكندرية ، ثم اشتد به مرض الصدر ، فعاد إلى لبنان حيث مات بقرية الحدث بالقرب من بيروت وهو فى التاسعة والعشرين من عمره سنة ١٨٨٥ . وهى قريبة من القرية التى دفن فيها أحمد فارس الشدياق ، وهكذا جمع الموت بين علمين من أعلام النهضة الحديثة ، وروّاد الفكر والأدب الجديد .

كان أديب إسحق ناراً مسلطة على الاستعمار ، والذل ، والعبودية ، وقد التقى بجمال الدين فزادت حماسته ، واضطرمت النار فى فؤاده ، فأخرجها شواظاً ملتهباً فى كلمات تصب الحمم على الأعداء ، وتثير الهمم الفاترة ؛ لقد نادى بوجوب اتحاد الأمم العربية ، فسبق زمنه قرناً أو ما يقرب من قرن ، وفى ذلك يقول : « ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ، ثم حُشدوا إلى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد . قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرّت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، ولمت بنا القارعة ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغن بالأمس ، ولم نكن شيئاً مذكوراً ، فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا تقوم بأمر ذلك فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن فى الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، وكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان .

أيحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سُدى ، أم لا يعلمون أن مثل هذا الاجتماع ، منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً فى العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذبا وإرهاباً ، فتعود للعرب الضالة التى ينشدون ، والحقوق التى يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون) .

إن هذا ولا ريب تفكير مشرق ، وقلب عظيم يتجه الاتجاه السليم الذى يجب أن تسير فيه الأمة العربية منذ أن رأت الغرب الجشع يطمع فيها ، ويحد براثنه لينهشها الواحدة تلو الأخرى ، ولو فعلت ذلك من أواسط القرن التاسع عشر ما أصابها اليوم ما أصابها.

وكان أديب ممن يعشق حرية الرأى وينادى بالدستور ، وقد كتب مقالا يرد فيه على الشيخ حمزة فتح الله محرر جريدة (البرهان) فى سنة ١٨٨١ حين دعا الشيخ إلى حكم الفرد يوم افتتاح مجلس النواب ، فقال له أديب :

صفحاً لصرف الدهر عن هفواته إن كان هـذا اليوم من حسناته

« وكيف لا ؟ وهو حاجة النفس ، وأمنية القلب ، منذ توجه الخاطر إلى السياسة الوطنية ، وانصرف العزم إلى إحياء الهمم ، وانعقدت النية على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة فى القيام بالواجبات ، وهو النشأة التى كست الوطن رداء الفتوة قشيباً ، وهو البغية التى غرست للأمة غصن الأمل رطيباً ، وهو ما رجوناه زماناً ، ودافعنا الزمن فيه ، وتمنيناه أعوما وغالبنا الحدثان عليه . فياحسنه من يوم رد فائت البهاء ، وأحيا مائت الرجاء ، وأعاد شباب الأمة ، وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيَّدَ مساعى الوزير ، وقضى لُبانات النبهاء ، وحقق أمانى النزهاء[1] » .

وكان أديب مغرماً بمصر ، مُحباً لها حُباً ملك شغاف قلبه ، مثله فى ذلك مثل الشدياق ، ولا بِدْع فقد آوت غربته ، وأعطته الحرية التى حُرمها فى وطنه ، وأفسحت له مجال العمل ، وقدرت جهده ، حتى منحه الخديو الرتبة الثالثة بيده ، وأنزلت كفاءته منزلتها فعينته فى الوظائف

(١) جريدة مصر فى ٢٩ من يناير ١٨٨٢

الكبيرة ، ثم إنها ملجأ الأحرار ، وزعيمة الشرق العربى ، ونهوضها — كما كان ذلك رأى أستاذه جمال الدين — نهوض للعرب أجمعين ، وفى مصر يقول أديب : « ومصر ، ولاحياء فى الحب ، بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب ، وخلَّفت غرس الآداب ، وهززت غصن الأمانى رطيباً ، ولبست ثوب الآمال قشيباً ، فما عدلتْ بى عن حبها النكبة ، ولا أنستنى عهدَها الغُربة ، ولست أول محب زاده البعد وجداً ، ولم ينكث على العهد عهدا ، فحذار أهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وإنكم لمحفوفون بالعيون والأرصاد » .

واستمع إليه يقول فى الحزب المصرى وأمانيه وأنه « يريد أن يكون المصرى فى مقام الإنسان ، مستقلا بوجوده متمتعاً باستقلاله ، فائزاً بحقوقه ، ناهضاً بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيوان ، يساق للموت ، فإن عجز فللسلخ ، ويطلبُ أن يكون الوطنى آمناً فى داره ، مساوياً لجاره ، يستغل زرعَه ، ويستدر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريباً فى آله ، مصادراً بماله ، يطعم من يَحْرمُه ، ويؤمن من يروعُه ، ويحفظ من يضيِّعُه[1] » .

وكان أديب من ألد أعداء الأجانب ، وإليك بعض نفثاته الحارة ضد صحيفة موالية للأجانب وقد كانت تشيد بإلغائهم بعض الضرائب لتمكن أقدامهم فى احتلال مصر : « فهل خفى عن تلك الصحف أنه ليس من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أولم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بانحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هذا الفتات ، إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع التصريح ؛ علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور ، فإذا حاولت إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها وإلغائها .

يا أهل مصر :

إنى محدثكم غريباً : إذا كان أمراؤكم خيارَكم ، وأغنياؤكم أسخياءَكم ، وأمورُكم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم

---

(١) جريدة مصر فى ٢٩ من يناير ١٨٨٢

وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

كان أديب جنديا من جنود الحرية ، ومصر ، والعروبة ، ولما عطلت جريدة التجارة أسبوعين أول الأمر دبّج مقالا جاء فيه : « ولئن ساءنا أن جاءنا ذلك الإخطار بلومٍ ، وعقاب أليم ، لقد سرّنا أن تكون الجرائد موضعا للنظر ، ومجالا للنقد ، ولم نر فى القصاص شيئاً يستعين به اللائم ، أو مصاباً يعتضد به الشامت ، فإن «التجارة» تحسب حبّ الوطن ديناً والمدافعة عنه جهاداً ، فإن عاشت فيه فهى سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد آتاها الله النعمتين ، وأتاح لها الحسنتين ، فعاشت به ، وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين ، رافلة فى ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة ، على رغم أنوف حاسديها ، الذين أولوا كلامنا إلى مالم نقصد ، وسعوا فيها بما لم يخطر على قلوبنا ، وحاولوا إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره المبطلون[1] » .

ولم يَثنه تعطيل جريدتيه ونزوحه إلى باريس عن غايته المثلى ، وهى العمل على إيقاظ الشرق العربى ، والدعوة للحرية ، وطرد الأجانب من البلاد ، وقد أعلن خطة جريدته «القاهرة» التى أصدرها بباريس بقوله : « إنى لا أقصد إلى الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله ، فمسلكى أن أكشف حقائق الأمور ، ملتزماً جانب التصريح ، متجافياً عن التعريض والتلميح ، وأن أجلوَ مبادئ الحرية ، وآراء ذوى النقد ، ومقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية ، وأهيج فُضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيي الغيرة فى قلوب العارفين ، ليعلم قومى أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ، ومالا منهوباً فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل مُدَلِّسٍ يشترى بحقوقهم ثمناً قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذاباً وبيلا ؛ وليستصغروا الأنفس والنفائس فى جنب حقوقهم ، وليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم »

وأسلوب أديب أسلوب قوى متين ، افتن فى تدبيجه وانتقاء ألفاظه ، وحلاه بالسجع

---

(١) التجارة العدد ١٨٧ فى ١٣ من فبراير ١٨٧٩ .

على عادة كتاب ذلك الوقت ، ولكنه ليس بالسجع السخيف المتعمد ، ولكنه سجع قريب من سجع ابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، والصابى ، لا من سجع الحريرى والقاضى الفاضل . إنه حقاً حَفِلَ بالأسلوب كما حفل بالمعنى ، وأحيا الكتابة العربية المنمَّقة القوية أيام كانت فى القرن الرابع الهجرى ، ونقول مع (مارون عبود)[1] : « أما الذى يتراءى لى من آثاره الكتابية ومن أسلوبه ، فهو أنه نارى الشعور ، متقد الخاطر ، ثورى من الطراز الأول ، كأنه كان فى رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة وقد انتشر النهار ، يرسل عباراته فتئزُّ أزيز السهم ، وقد فارق الوتر . جمل كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالته كتيبة جامحة ، إذا راعيتها منفردة لا تحس لها مفعولا عظيما ، ولكنها تؤلف كُلاًّ تخرج منه النفس ، وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً .

ويقول : نثر كأنه الشعر يرصعه بأبيات إما من الشعر القديم ، وإما من نظمه هو فيأتى مقاله عجّاجا زاخراً حين يحتد ويشتد كقوله : « هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الأرض عناء ، فلا تجد على سطحها إلاّ جسوماً ضاوية ، فى ديار خاوية ، وقلوبا تحترق فى بلاد تحت رق » .

وهو يراعى الموسيقى فى نثره أكثر من شعره فيتعمد ما كانت تتعمده مدرسة ابن العميد من أفعال مختلفة تتحرك لها الجملة فتحرك قارئها توًّا ، وإن ذهب أثرها من عقله بعد حين كقوله :

« هو الجهل حتى تضيع الأخطار ، وتفنى الأقدار ، وتبطل الهمم ، ويعفو القلم ، ويدرُسَ الفهم ، ويستعلى الخامل ، ويستولى الجاهل ، وتنخفض الرءوس ، وتنقض الأنفس وحتى ترى :

بكل أرض وطئتها أمم ... تُرعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه ... وكان يبرى بظفره القلم

(١) مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨

أديب إسحق

ومن شعره الذى جرى مجرى الأمثال ، وإن لم يكن من الشعراء المجلين ، وإن اشتهر بنثره أكثر مما اشتهر بشعره قوله :

قَتلُ امرئٍ فى غابة جريمةٌ لا تُغتفر
وقتلُ شعب آمن مسألةٌ فيها نظر
والحق للقوة لا يُعطاه إلا من ظفِر

ومن ذلك قوله :

حَسب المرأةَ قومٌ آفةً مَنْ يدانيها من الناس هَلَكْ
ورآها غيرهم أمنيَّةً مَلَكَ النعمة فيها من مَلَكْ
فتمنى معشرٌ لو نُبِذَتْ وظلام الليل مُشتدٌّ الحَلَكْ
وتمنى غيرهم لو جُعلت فى جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله حاكم فى مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بها كلُّ ما تنظره منك ولك
فهى شيطان إذا أفسدتَها وإذا أصلحتَها فهى مَلَك

إذا كان الشدياق قد وضع أسس المقالة الحديثة فى صحيفة الجوائب ، وهجر الأسلوب المرصع المسجوع فى الكتابة الصحفية ، واقتفى أثره كثيرون ممن شُغِلوا بالصحافة ، ورأوا ذلك أدنى لأن يُفهموا من جمهرة القراء ، وأسرع فى الإبانة عن المعانى الكثيرة التى يريدون الإفضاء بها واستقصائها ، فإن فضل أديب إسحق على الأسلوب الأدبى لا ينكر ، وقد قلده كثيرون ممن كتبوا المقالة ، وكانوا من أنصار الشدياق بادئ الأمر ، وعلى نهجه جرى جُبران ، ونجيب حداد ، وغيرهما من أفاضل السوريين ، ولكن الصحافة لم تحتمل هذا الأسلوب ، ورجعت إلى البساطة فى التعبير ، وإن ظل أسلوب أديب الذى أحيا به كتابة القرن الرابع نموذجاً للأدباء فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحاضر .

ومن السوريين الصحفيين سليم باشا الحموى صاحب جريدة (الكوكب الشرقى) سنة ١٨٧٣ ، ولكنها كانت قصيرة العمر . ومنهم سليم و بشارة تقلا ، وقد أصدرا (الأهرام)

بالإسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وقد لاقت أول أمرها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت تصدر أسبوعية فى بَدْء ظهورها ، ثم صدرت بجانبها جريدة يومية تسمى (صدى الأهرام) فلما عطلت الجريدة اليومية انفردت الأهرام بالظهور ، ودأبت تصدر حتى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية ، وإليها يرجع الفضل فى تقدم الصحافة المصرية وأخذها بكل جديد من صحافة الغرب . ولقد كانت المقالة أهم شىء فى الصحيفة ، حتى خرجت الأهرام على ذلك فى سنة ١٩١٢ ، وقدمت الأخبار على المقالة ، والأهرام أول من عُنى بالحوادث المصورة ، ولقد ازداد حجمها أحيانا فى عهد جبرائيل تقلا حتى بلغ عشرين صفحة ، وقد عنيت عناية فائقة بالأخبار الخارجية ، وصارت نموذجاً لصحف الشرق العربى كله .

ومنهم سليم عنحورى ، وقد أصدر جريدة سياسية سماها (مرآة الشرق) ولكنه تنحى عنها فى سنة ١٨٧٩ ، وتولاها ابراهيم اللقانى بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد أنشأ الشيخ يعقوب صنُّوع اليهودى صحيفتين سياسيتين وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت فى القاهرة سنة ١٨٧٧ . ويعقوب صنوع إسرائيلى مصرى ولد سنة ١٨٣٩ . وكان يتقن التوراة ، وقرأ الإنجيل ، والقرآن ، وتعلم فى إيطاليا على نفقة أحمد باشا يكن ، وهو أول من أنشأ مسرحاً عربياً فى القاهره سنة ١٨٧٠ وأعجب به الخديو اسماعيل وكان يسميه (موليير مصر) ومنحه المنح ، وأمده بالعون ، وحضر بعض تمثيلياته تشجيعاً له ، وقد ألف نحو اثنتين وثلاثين مسرحية فى موضوعات جدية وهزلية . وسافر إلى أوربا سنة ١٨٨٤ وبقى فيها فترة ، ولما عاد إلى مصر اتصل بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده . وكان يعلمهما الفرنسية .

وكانت « أبو نضارة » من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وكان صاحبها ميالا للفكاهة والدعابة ، وقيل إن السيد جمال الدين هو الذى أوحى اليه بإصدار جريدته لانتقاد سياسة إسماعيل . وكانت (أبو نضارة) أول جريدة هزلية سياسية صدرت بمصر ، وقد نفاه إسماعيل فرحل إلى (باريس) ، واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضاً الخديو ومنتقداً

أعماله ، ولم يخل عدد منها من صور هزلية تعرِّض تعريضاً شديداً بالخديو إسماعيل ، فلقيت رواجاً ، واستمر الشيخ صنُّوع يصدر جريدته إلى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً للإنجليز وتوفى سنة ١٩١٢ .

وعلى العموم فقد بلغ عدد الصحف التى ظهرت فى عهد إسماعيل ما يقرب من عشرين صحيفة ، ومعظمها ظهر فى أواخر أيامه ، وقد أطلق لها الحرية فى الكتابة ، وكان يميل إلى هذه الحرية فى أخريات عهده حين اصطدم بالمطامع الأوربية ، وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الأوربيين وجشعهم ، ونواياهم ، وتشعر الناس بتدخلهم السياسى ، وتحمل عليهم حملات شديدة اللهجة ، فكان ذلك يروق إسماعيل . ولكن لم يكن يرضى أن يتعرض كاتب ما لسياسته الخاصة أو لشخصه .

تعقيب :

هذه النهضة الصحفية خلصت اللغة من أسرها القديم ، وأوضارها التى ورثتها من عصور الضعف ، وخاضت فى موضوعات شتى كما ذكرنا ، وسلُس الأسلوب ، واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون فى مقدمته ، ذلك الأسلوب المرسل السهل : وإذا وازنا بين أسلوب النثر الصحفى فى هذا العهد الذى نتحدث عنه ، وأسلوب الكتابة فى العصر السابق وجدنا البون شاسعاً ، وقد مرت بك نماذج من هذه الكتابة الصحفية يتجلى فيها أثر التحرر اللغوى والفكرى ، وقوة البيان ، وطرافة الموضوع ، وإليك ما قاله بعض قادة النهضة الصحفية فى الحث على العلم والاهتمام بالبيان ، وطريقة الكتابة ، راسمين للشادين فى الصحافة الطريقة القويمة .

١ — يقول أحمد فارس الشدياق :

« من الناس من يتعلم العلم ، وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدًى ورشداً وورَعاً ودماثة أخلاق ، وحُسْنَ تصرف ، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، وإخلاص مودة ، وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد ، فمثله كمثل الجوهر الشفاف إذا قابله

شعاع الشمس ، أو كمثل إناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً ؛ فتراه دائماً مقبلاً على نفع الناس ساعياً فى إصلاح شئونهم ، وتسنية أحوالهم ، باذلاً أقصى جهده فى تسكين خواطرهم ، ولم شعثهم ، وتأليف مفرقهم ، وتسلية حزينهم ، وإرشاد غاويهم ، وتأييد ضعيفهم ، وليس من همه التردد على أبواب الأمراء والخضوع لحجابهم . . . الخ[1] »

٢ — ويقول أديب إسحق :

« الكتابة صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح ، وأسلوب صريح ، فهى ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد إيضاحه وهو الإنشاء ، والوضع الذى يبدو به ذلك الإيضاح وهو البيان ، والكيفية التى يحصل بها ذلك وهو الأسلوب » .

ويقول أديب إسحق كذلك :

« رأيت أن أصرف العناية إلى تهذيب العبارة وتقريب الإشارة ؛ لتقريب المعنى فى الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً ، ومُبْتَذَلاً سوقيا ؛ فإن التهافت على الغريب عجز ، وفسادُ التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى فى القراء والمطالعين أدى إلى فسادٍ عام ، وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم ؛ والتنازلُ إلى ألفاظ العامة يقضى بإماتة اللغة ، وإضاعة محاسنها وإن فى لغة القوم لدليلاً على حالهم » .

وقد عدل أديب إسحق عن أسلوبه المنمَّق فى أخريات حياته ، ولا سيما فى بعض مقالاته الصحفية وفى ذلك يقول : « قد التزمت لهذا المطلب أسلوب التقرير ، وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية ؛ لاعتقادى بأن الأسلوب الخطابى ، وإن كان أسرع تأثيراً فى القلوب وأحسن وقعاً فى الأذهان ، إلا أنه قد يميل بالكاتب إلى جانب التخيل الوهمى فى فى مكان التقرير العلمى ، فيرتفع بيانه عن المدارك التى سيقت إليها الملكات الحسية ، فلم يبق بها من محل لملكة الخيال المسماة شعراً ، فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة ،

---

(١) مجالى الغرر ج ٢ ص ١٧٧ .

وهو تقرير المعانى فى الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام ؛ ولهذا سأرسل فيه الكلام إرسال مقرر مبين ، ولا أتكلفه تكلف منمق مُزَيِّن ، فإن أحكام التقرير منافية لهذا التمويه الذى يسمونه بديعاً » .

ويقول : « النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة ، إلا ما يكون من وضع الكلام فى مواضعه ، وإيثار ما يألفه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل فى الإنشاء ، وما سواه فرع منه ، فإنه طبيعى أصيل ، وما دونه صناعى حادث ، والأصل فى الطبيعة لا محالة ؛ يدل على ذلك أن هذا الكلام المقفى الذى يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد فى غير اللسان العربى ، فلو كان طبيعياً لوجب أن يكون فى جميع اللغات ، أو فى المعدودة منها أصولا لا أقل[1] » .

٣ — ويقول السيد عبد الله نديم فى العدد الأول من جريدته (التنكيت والتبكيت)[2] :

« إليكم يراعى فاستخدموه فى مقترحات أفكاركم العالية ، وصحيفتى فاملئوها بآدابكم المألوفة ، وبدائعكم الرائقة ، فاليراع وطنىٌّ يخاطب القوم بلغتهم ويطيعهم فيما يأمرون به ، والصحيفة عربية ، لا تبخل بالعطاء ، ولا تردُّ الهدية ، وأنتم كرامُ اللغةِ وإخوانُ الوطنية ، فشدوا عَضُد أخيكم بالقبول والإغضاء عن العيوب ، وساعدوه بأفكار توسّع دائرة التهذيب ، وتفتح أبواب الكمال ، وكونوا معى فى المشرب الذى التزمته ، والمذهب الذى انتحلته : أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ؛ لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مُثَلة فى الوجود من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وترى من هذه النماذج كيف كان القوم يجاهدون فى سبيل العلم وتفتيح الأذهان المغلقه ، وتحبيب الناس فى الثقافة ، والإشادة بفضل المتعلمين فى زمن كانت الأمة لا تزال

---

(١) مجالى الغرر ج ٢ ص ٦ .

(٢) صدرت سنة ١٨٨١ راجع سلافة النديم ص ٧٧

تحبو فى طريق النور ، وكيف وضعوا أسس تحرر اللغة من أسر السجع والتكلف ، ورسموا قواعد الإنشاء الصحيح لمن يريد أن يتخذ الكتابة حرفة ؛ وكيف سخروا القلم القوى الجرىء فى خدمة الوطن ، وجعلوا الصحف ميداناً للأفكار الطيبة والأدب الرفيع ، والدعوات الإصلاحية الحرة وبذلك كانت الصحافة منارة من منارات النهضة العربية الأدبية . ارتفعت هذه المنارة فى عهد إسماعيل ، وظلت ترسل النور قوياً يبدد سدفة الجهل ، ويهدى الضالين إلى اليوم .

— ٤ —

الطباعة :

نهضت الطباعة نهضة عظيمة فى عهد إسماعيل ؛ إذ وجه عنايته إلى مطبعة بولاق ، وما زال بها حتى صارت أرقى مطبعة فى الشرق ؛ وأسس مصنعاً للورق يمد المصالح الحكومية بالورق من سنة ١٨٧١ ، ويزود المشتغلين بالعلم والطباعة ، والتجار بكل ما يحتاجون إليه . ولقد سهل هذا الأمر على المشتغلين بالعلوم ، وشجعهم على الإنتاج المتصل ، وكاد إنتاج الورق بمصر يعطل ما يرد من أوربا حينذاك .

وأنشئت بجوار مطبعة بولاق عدة مطابع أهلية أهمها مطبعة جمعية المعارف التى تكلمنا عنها آنفاً ، ثم المطبعة الأهلية القبطية التى جلبها من أوربا الأنبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ فى عهد سعيد باشا . ومطبعة (وادى النيل) لمحمد أبو السعود أفندى ، ومطبعة (مجلة روضة المدارس) ، والمطبعة الوطنية بالأسكندرية . . . وغير ذلك من المطابع التى كان لها الفضل الأكبر فى نشر الكتب الحديثة ، وتيسير الاطلاع ، والنهوض باللغة والأدب وشئون التعليم .

ومن أشهر الكتب القديمة التى طبعت فى تلك الحقبة : المثل السائر ، والأغانى ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبى ، ووفيات الأعيان ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، وتفسير الرازى ، والبخارى (شرح القسطلانى) ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب ، وقانون ابن سينا فى الطب ، وتذكرة دواد ، وغير ذلك من

نفائس الكتب التى عملت على تغذية العقول بنتاج السلف ، وتهذيب اللغة وتقويمها .

— ٥ —

الترجمة والتأليف :

كانت التركية لا تزال ذات سطوة فى مصر حتى عصر إسماعيل ولكن هذا العاهل العظيم عمد إلى تمصير الحكومة ولغتها ؛ حتى يسهل انفصاله عن الدولة العثمانية ، وأصدر أمراً بجعل صور الأوامر واللوائح وكل ما سبق صدوره من الإجراءات منذ عهد محمد على عربية ، كما أمر بطبعها ، فما كان منها عربياً يطبع كما هو ، وما كان تركيا تطبع معه ترجمته العربية[1] ، ولقد كان الأمر باستعمال اللغة العربية أداة التعبير الحكومية سابقاً لأوانه ؛ لافتقار البلاد لعدد كبير ممن يحذقون اللغة العربية ، ولا سيما بعد ذلك الركود الذى أصاب التعليم على يد عباس وسعيد ، ثم إن ترجمة هذه القوانين الكثيرة التى صدرت منذ عهد محمد على تحتاج إلى وقت طويل ، ولذلك ظلت للتركية بعض السطوة ، وإن أخذت تدريجياً تفسح مكانها للعربية حتى أوشكت أن تحل محلها نهائيا فى أخريات عصر إسماعيل.

ومما ساعد على الاهتمام بالترجمة فى عهد إسماعيل ازدياد النفوذ الأجنبى ، وكثرة من وفدوا إلى مصر من هؤلاء الأجانب تجاراً ومغامرين ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس ، فأنشئوا المصارف والدور التجارية الكبرى ، ودخلوا فى خدمة الحكومة مديرين وفنيين ، وعلى الأخص حين اضطربت مالية البلاد .

واهتم إسماعيل باللغة الفرنسية اهتماماً زائداً ، لأنها كانت منذ عهد محمد على هى اللغة التعليمية الأولى لرجال البعثات .

وظل الأمر فى تدريس المواد العلمية كما كان فى عهد محمد على محتاجاً إلى واسطة بين التلاميذ والمدرس الأجنبى . ولكن حينما أعاد إسماعيل مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨ ، وأخذ تلاميذ رفاعة بك الطهطاوى يشرفون عليها ، نهضت الترجمة نوعاً ما ، وتولى رفاعك بك

---

(١) حركة الترجمة بمصر لجاك تاجر ص ٩٢ .

رئاسة قلم الترجمة ، واشترك فى تعريب القانون الفرنسى مع عبد الله أبى السعود وغيره .

استمرت حركة الترجمة فى أوائل عهد إسماعيل مصبوغة بالصبغة العلمية ، ومعظم ماترجم حينذاك كان فى العلوم كالهندسة والطب والصناعات العسكرية وغيرها ، وذلك لشدة حاجة البلاد إلى هـذا النوع من التعليم . وإن كان بعض تلاميذ رفاعة بك قد اهتموا بالنواحى الأدبية من قانون وتاريخ وأدب .

فنجد عبـد الله أبى السعود الصحفى والسياسى يترجم نظم اللآلئ فى السلوك فى مَنْ حَكَمَ فرنسا من الملوك . وقناصة أهل العصر فى خلاصة تاريخ مصر ، تأليف (أوغست ماريت بك) ، وباشر ترجمة تاريخ عام مطول واسمه « الدرس التام فى التاريخ العام » ، وتاريخ الديار المصرية فى عهد الدولة المحمدية العلوية تأليف (برنار الفرنسى) .

وممن كان لهم أثر فى الترجمـة وفى الأدب العربى ، وكان صاحب مدرسة لها نهجها الخاص ، واحتذا حذوها الأدباء من بعده .

محمد عثمان جلال :

وهو مصرى من صميم الريف ، ولد فى (ونا القس) بمديرية بنى سويف سنة ١٨٢٨ ، وتلقى العلم فى مدرسة قصر العينى ، ثم فى مدرسة الألسن ، وكان من نبهاء تلامذة رفاعة بك الطهطاوى . وشغل عدة مناصب حكومية ، وكان آخر ما تولاه منها منصب القضاء فى المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ ، وتوفى فى سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

امتاز محمد عثمان جلال بأنه يمثل الروح المصرية أتم تمثيل ، فى خفتها ، وحبها للنكتة . ومرحها الجم ، وقد اختلط كثيراً بالعامة ، وعرف أمثالهم ونوادرهم ، ومواعظهم ، وعرف كذلك ميولهم الفطرية ، وحبهم للقصص الغريبة . وامتاز أيضاً بأنه كان أديباً مطبوعاً ، ثائراً على المدرسة التقليدية التى تحاكى الأدب القديم فى محسناته وفخامته ، وموضوعاته ، فكان يعتمد أولاً على تجربته الشخصية يستوحيها ويستلهمها ، ويعبر عما يُحسُّه ، وعما يهديه إليه فكره ، فهو فى أدبه يمثل القاهرة والريف المصرى ، لا بغداد وقرطبة ولا البلاد العربية وصحراءها . وهذا لعمرى هو الأدب الصادق ، ولولا ما شاب أدبه من إسفاف فى اللفظ

وجنوح إلى العامية ، إفراطاً منه فى مصريته ، لكان من أفذاذ الأدباء المصريين أصحاب المبادئ فى الأدب ، وقد نقد فى كتابه (العيون اليواقظ) هؤلاء الذين يدعون إلى الأدب التقليدى ولا يستلهمون مشاعرهم الخاصة ، وأساليبهم المبتكرة :

يقولون ما هذا الكتاب وما به ... أكاذيب أقوال البهائم فى قبح
وقد زعموا أن البلاغة لم تكن ... بأحسن مما قيل فى القدِّ والرمح
وتشبيه لون الخدِّ بالورد واللَّظى ... وتمثيل نور الوجه إن لاح بالصبح (١)

وقد غالى فى مصريته وثورته على الأدب التقليدى ، فأكثر من استعمال العامية ، سواء فى كتبه الموضوعة أو في ترجمته للروايات المسرحية .

ومن أشهر كتبه التى تمثل هذه الروح المصرية المرحة ، وتدل على شدة تأثره بعامة الشعب فى أمثالهم كتابه الذى أشرنا إليه سابقاً وهو العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ . الذى ترجم به أمثال (لافونتين) La Fontaine شعراً (٢) ، وقد شحنه محمد عثمان جلال بكثير من الأمثال العامية ، من مثل قوله :

فإنما تأخذ من سِماطى ... ما تأخذ الريح من البلاط (٣)
وقوله : واحذر مدى الأيام كل ساهى ... فإن تحت رأسه الدواهى (٤)
وقوله : إن كان بالتوت غضبان ... هَلْبَتْ يرضيه شرابه (٥)
وقوله : صدقنى حاجة ما تهمك ... وصى عليها جوز أمَّك (٦)

---

(١) العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ص ١٠٢

(٢) لافونتين شاعر فرنسى مشهور ولد فى سنة ١٦٢١ ، وتوفى بباريس سنة ١٦٩٥ ، وقد اشتهر بكتابيه (القصص ، والأمثال) أما (القصص) فقد أهمل فيه الأخلاق ، ولكنه ممتلىء بالحيوية ؛ وكتابه الأمثال هو أشهر الكتابين ، ولا يزال حتى اليوم ذا منزلة عظيمة فى عالم الأدب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية ، وقصصاً على ألسنة الحيوان من أمثال تلك التى فى كليلة ودمنة ، بل إن كثيراً منها مأخوذ من كليلة ودمنة الذى ترجم إلى كل اللغات الأوربية منذ القرن الرابع عشر .
راجع (Nouveau Petit La rousse Illustré, P 1479 .)

(٣) العيون اليواقظ ص ١٤٩ (٤) ص ١٦٤ (٥) ص ٩٩ (٦) ص١٧٦

ولغته فى هذا الكتاب إما عامية دارجة ، أو عربية قريبة من العامية ، ومن أمثلة هذه القصص قوله :

كان البخيل عنده دجاجة ... تكفيه طولَ الدهر شرَّ الحاجة
فى كلِّ يومٍ مَرَّ تعطيه العجب ... وهى تبيض بيضةً من الذهبْ
فظنَّ يوماً أن فيها كنزا ... وأنه يزداد منه عِزا
فقبضَ الدَّجاجةَ المسكينُ ... وكان فى يمينه سكينُ
وشقَّها نصفين من غفلته ... إذ هى كالدجاج فى حضرته
ولم يجد كنزاً ولا لقيَّه ... بل رِمَّةً فى حِجْره مَرْميَّه
فقال لا شكَّ بأن الطمعا ... ضيَّع للإنسان ما قد جمعا

وقد كان لهذا الكتاب تأثير كبير فى أدب الأطفال فى عصرنا الحاضر ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأطفال من قصة مأخوذة منه بنصها ، أو محرفة بعض التحريف ، أو منثورة ، بل أن بعض المشتغلين بكتب الأطفال لم يتحرجوا فى أن ينسبوا بعض قصصه إلى أنفسهم ، وعلى منواله نسج شوقى بك كثيراً من القصص الرمزية أو قصص الحيوان ، ويقال إن قصص (لافونتين) هذه التى ترجمها محمد عثمان جلال مأخوذة من قصص (إيسوب)[1] .

هذا وقد ترجم عثمان جلال بعض روايات (موليير)[2] الهزلية : (الأربع روايات من نخب التياترات) منها رواية (ترتوف) . وسماها (الشيخ متلوف) ومثلت مراراً على المسرح المصرى . ومنها (النساء العالمات) وقد مصَّر أشخاص هذه الروايات وكتبها باللغة العامية .

---

(١) (إيسوب) صاحب هذه الخرافات يونانى ولد بعد تأسيس رومة بمائتى سنة ، وكان عبداً رقيقاً وإليه تنسب هذه القصص التى قيلت على ألسنة الحيوان ، وكثير منها شرقى : هندى وصينى ، وفارسى وعربى وقد ترجم قسيس إغريقى فى القرن الرابع عشر كثيراً من القصص الشرقية ونسبها إلى إيسوب (Masterpiece Library of Short Stories Vol. I, P, 15)

(٢) موليير Molière : شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٦٢٢ ، واشتهر برواياته التمثيلية الهزلية ، ومن أشهرها : النساء المتحذلقات ، والطبيب رغم أنفه ، وترتوف ، ومدرسة النساء ، وتوفى سنة ١٦٧٣ . Petit Larouse Illustré

وترجم كذلك بعض روايات (راسين)[١] وسماها (الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) وقد قال فى مقدمتها : « وجعلت نظمها يفهمه العموم فإن اللغة الدراجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع فى النفس عند الخواص والعوام »[٢] .

وألف محمد عثمان جلال رواية بالعامية عن الخدم والمخدمين ، ويقول الأستاذ العقاد عن ملكة عثمان جلال القصصية عند الحديث عن هذه الرواية : « قد كان له ملكة قيمة فى فن القصة والرواية المسرحية ، فكانت هذه الملكة تنزع به إلى نظم الزجل غالباً والشعر أحياناً فى وصف ما يقع له من النوادر والفكاهات والرياضات ، ومن ذلك زجله فى الأزهار وزجله فى المأكولات ، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدمين والخدم ، وهى باكورة فى وضع الروايات المصرية ، وتمثيل البيت المصرى ، والمجتمع الوطنى يندر ما يقارنها فى بابها بين روايات هذا الجيل ، وبحق يسمى محمد عثمان جلال أبا المسرحيات الوطنية فى العصر الحديث[٣] » .

وقد يحار المرء فى تعليل هذا الاتجاه الذى انحرف إليه عثمان جلال ، وإيثاره اللغة العامية مع تمكنه من اللغة الفصحى ، أما الدكتور طه حسين باشا فيرى أن ذلك لضعفه فى اللغة العربية . وذلك حين يقول : « فأخذ الذوق يتغير ، وكان تغيره قوياً ، ظهر فى مظهرين مختلفين ، أحدهما إيثار اللغة العامية على لغة الأدب العصرى ، والآخر إيثار اللغة القديمة ، والأساليب القديمة على لغة العصر وأساليبه ، ورأينا رجلاً كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسى ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوى ورأى أن الأدب العصرى أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسى الحى ، فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل موليير فى الزجل العامى لا فى الشعر العربى[٤] » .

---

(١) راسين Racine شاعر فرنسى اشتهر بمآسيه ولد سنة ١٦٣٩ ، وكان صديقاً لموليير ، وللافونتين ، وقد بلغ المثل الأعلى فى كتابة المأساة المسرحية ، ومن أشهر مآسيه : أندروماك ، وقد ترجمها أديب أسحق كما مر بنا ، و (باجازيت أو بايازيد) وآتيل ، وتوفى فى سنة ١٦٩٩

(٢) مقدمة الرويات المفيدة فى علم التراجيدة .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ١١٧

(٤) حافظ وشوقى ص ٤ .

على أن هذا الكلام على ما به من وجاهة لا يؤخذ على إطلاقه ؛ فمحمد عثمان جلال قد ترجم (بول وفرجينى) كما سنذكر فيما بعد بأسلوب عربى فصيح ، كما قال كثيراً من الشعر باللغة الفصحى ، فهو لم يكن بهذه المنزلة من الضعف اللغوى حتى يعجز عن ترجمة أمثال لا فونتين ، وهزليات موليير ، ومآسى راسين ، ويضع رواية ، باللغة العامية .

ولعل من الأسباب غير ما ذكره الدكتور طه حسين باشا ، عظم تأثره بالروح المصرية فى كل شىء ، وتعصبه للهجة العامية التى هى لغة جمهرة الشعب ؛ وقد يكون ذلك لغرض تجارى بحت ؛ إذ لم يجد للأدب الرفيع سوقاً رائجة ، فأقبل على التحدث إلى جمهرة الشعب باللغة التى يفهمونها لعلهم يقبلون على كتبه ، وليس أدل على رواج هذه الكتب التى تكتب بالعامية من قول الشيخ محمد عبده : « ومنها الكتب المضرة بالأدب والأخلاق ، كتب الأكاذيب الصرفة ، وهى ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ، ومن هذا القبيل كتب أبو زيد ، وعنترة العبسى ، وإبراهيم ابن حسن ، والظاهر بيبرس ، والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه مئات المرات ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل[1] » . ويقول عثمان جلال مؤيداً هذا الرأى حين حاول نشر (العيون اليواقظ) : «واشتغلت بإتمام العيون اليواقظ ، وعرضتها على الوالى بواسطة المرحوم مصطفى فاضل باشا ، وكان أوصلنى إليه محمد على الحكيم بك ، فما أثمر عزمها ، فاتفقت مع فرنساوى له مطبعة من الحجر يسمى يوسف بير ، وعهدته بطبعها فتعهد ، ثم أخلف ما وعد ، فكلفت مطبعة أكبر من مطبعته ، وصرفت عليها ما جمعت ، ونشرتها ، ثم بعت الحمار وبعتها ، وقلت فى ذلك .

راجى المحال عبيط ... وآخر الزمر طيط
والناس فاثنان بخت ... مروج وقليط
والعلم من غير حظ ... لا شك جهل بسيط[2]

---

(١) تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده لمحمد رشيد رضا ج ٢ ص ١٦٤

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٦٤

وقد يكون من الأسباب التى دعته إلى ترجمة المسرحيات وكتابتها باللغة الدارجة إقبال الفرق التمثيلية على هذا النوع دون سواه ولا سيما بعد أن أغلقت أبواب (الأوبرا) التى كان يشجعها إسماعيل ، ويهب الممثلين فيها والمؤلفين لها بعض المال ، ويحضر الروايات بنفسه وكان التأليف حينذاك باللغة الفصحى ، فلما أغلقت الأوبرا أبوابها ؛ إذ عُد التمثيل ترفاً وإسرافاً ، وأنشئت الفرق الخاصة ، واعتمدت على الجمهور ، اضطرت إلى مجاراته فى لغته ، وإلى التأليف له بالعامية حتى يقبل على مسارحها .

وإذا أحسنا الظن بعثمان جلال قلنا : إنه جارى المصلحين فى نزولهم إلى مستوى الشعب حتى يكون لكلامهم أثره ، ولم ينظروا للأدب إلا بمقدار ما يؤثر فى النفوس ، وقد رأى عثمان جلال انتشار الأدب الرخيص وإقبال الجمهور على سماعه فى المقاهى من أمثال قصة أبى زيد ، وعنترة ، والظاهر بيبرس وغيرها ، فأراد أن يوجد لهم أدباً أسمى موضوعاً ، ولكن لا بُدَّ من كتابته باللغة التى يفهمونها ، ولا سيما حين منعت الحكومة طبع كتب الأدب الرخيص ؛ إذ وجدت فيها ضرراً عظيماً ، ولبت نداء المصلحين بمنع تداولها[1] .

وربما كان من حسن الظن بعثمان جلال أنه قلد أدباء الغرب فى إنطاقهم أشخاص رواياتهم بلهجاتهم المألوفة ، وليس من المعقول أن ينطق الخادمة مثلاً باللغة العربية الفصحى ، ولما كان جمهرة أبطاله من عامة الشعب لجأ إلى اللغة العامية لتكون شخصياتهم مطابقة لواقع الحياة ، خالية من التكلف والصنعة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا النوع من الأدب لم يكتب له الخلود ؛ لأن اللغة العامية ، وإن كانت قريبة من الشعب ، تنبض بالحياة ، وتجدَّد كل يوم ، فهى لغة لا أصل لها ، ولا نظام ، ولا قاعدة ، ولذلك أُهمل كلُّ ما يكتب بها . وإن كنت لا أبرئ محمد عثمان جلال من ممالئته للإنجليز فى حملتهم على اللغة العربية ، وترويجهم للغة الدارجة ؛ لأنه كان إبان عصر القوة — عصر إسماعيل — يكتب بالفصحى ، فلما انقضى هذا العهد ، ورأى المحتلين يشجعون اللغة العامية ويعاضدهم المبشرون والمستشرقون أمثال مارتمان Martman ،

---

(١) الوقائع المصرية العدد ١١٠٩ — ١١ مايو ١٨٨١ م

ويشجعونه على الكتابة والتأليف باللغة العامية ، وهم أصحاب الحول والطول فى طريقته تلك[١]

وقد كان لمحمد عثمان جلال ومسرحياته ، وكتابته باللغة العامية أثر فى الجيل الذى أتى بعده ، إذ حذا حذوه « هيكل » فى روايته « زينب » التى نشرها أول الأمر سنة ١٩١٤ باللغة العامية ، ومحمد تيمور ومحمود تيمور فيما أخرجا من قصص . ولكن زينب أهملت كذلك ، لأنها كتبت بالعامية ، ويقول الأستاذ المازنى فى شأنها . « وأعتقد أن الدكتور هيكل يوافقنى الآن على ذلك — أنه لو كتبها باللغة الفصحى — فإن فيها عاميا غير قليل — لكان أثرها أسرع فى إزخار هذا التيار الجديد »[٢] .

ولم يجرؤ هيكل ، كما لم يجرؤ من قبله محمد عثمان جلال ، وقد كتبا باللغة العامية ، على الجهر بأنهما ألفا هذه الروايات العامية ، وإلا لانحطت منزلتهما الأدبية ، ولذلك نرى عثمان جلال يرمز إلى اسمه بالحروف الأولى (م . ع . ج .) على الروايات (المفيدة فى علم التراجيدة) (والأربع روايات من نخب التياترات) ، كما يكنى هيكل عن نفسه حين نشر (زينب) لأول مرة بقوله : (زينب ـ مناظر وأخلاق ريفية ـ بقلم مصرى فلاح) ؛ وذلك لعلمهما بأن اللغة العامية ليست لها مكانة ، وأنهما يحاولان بعثها وخلقها ، ولكن هيهات . . .

ومن الكتب التى ترجمها محمد عثمان جلال عن الفرنسية رواية (بول وفرجينى) للكاتب الفرنسى (برناردين دى سان بيير)[٣] . وقد صبغها عثمان جلال بالصبغة المصرية كعادته ، وسماها « الأمانى والمِنة فى حديث قبول وَرْدِ جَنَّة » ، وتصرف فيها بالزيادة والنقصان ، ولكنه حرص فى كثير من الأحيان على روح الرواية وأصلها ، وقد قال فى تصدير الكتاب : « أخرجته من الطباع الأفرنجية ، وجعلته على عوائد الأمة العربية فمن تصفحه بعين النقد ، رأى القد على القد ، ومَنْ قاسَه بمقياس المقابلة ، وطبق آخره وأوله رأى فَذاً قُرِن بتوأم . وعلم أن من تَرْجم فقد ترجم ، ثم كتبته على ورق الحنة ، وسميته

---

(1) The Encyelopodia of Islam, Vol . II , P. 935.

(٢) الأهرام ١٩ مارس سنة ١٩٣٨ كلمة المازنى فى تكريم هيكل .

(٣) برناردين دى سان بيير Bernardin de Saint Pierre كاتب فرنسى من دعاة الرجوع إلى الطبيعة ولد سنة ١٧٣٧ . وتوفى سنة ١٨١٤ ومن أشهر كتبه : بول وفرجينى . ودراسة الطبيعة .

قَبُول ووَرْدَ جَنَّة ، لمقارنة مخرج الاسمين ، ومطابقته فى لفظه اللغتين » .

ولقد ترجمت هذه الرواية بعد ذلك عدة تراجم أشهرها ترجمة المنفلوطى التى سماها الفضيلة ، وقد خلع عليها ثوباً قشيباً من أدبه وأسلوبه ، وترجمته يغلب عليها الروح الأجنبى وينقصها الروح المصرى الذى اشتهر به عثمان جلال (١) .

وكان لعثمان جلال الفضل فى تنبيه الأدباء إلى هذه الرواية وحاول كثير منهم ترجمتها كما ذكرنا . وقد التزم عثمان جلال الأسلوب المسجوع ، القصير الفقرات ، السهل العبارة استمع إليه يصف حال وردجَنَّة قبل فراقها لقبول ، وسفرها إلى خالتها :

«ولما جاء العشاء ، وجلس الكل على المائدة ، وكان جلوسهم بغير فائدة ، إذ كان لكلٍ شأن يُغْنيه ، وشاغلٌ يَشْغَله ويُلهيه ، يأكلون قليلا ، ولا يقولون قيلا ، ثم ما أسرع ما قامت ورد جَنَّة أولا ، وجلست فى مكان غير بعيد فى الخلا ، فتبعها قبول ، وجلس بجانبها ومكثت تراقبه ومكث يراقبها ، وانقضت عليهما ساعة ، وهما ساكنان ، ولبعضهما ملتفتان .

وكانت ليلة نيرة ، ذات سماءٍ مُقْمِرة ، زائدة الإتحاف والألطاف ، لا يرسمُها رسّام ، ولا يصفها وصاف ، قد نزل البدر منها منزلة القلب ، ونشر أشعته على الشرق والغرب ، فما يستره إلا أثر الضباب ، وبعض سحاب ، كأنه حين تجلى على بساط الخضرة بَدْر عليه من الفضَّة بِدْره . وكان الريح ممسكاً نَفَسه ، والليل مطلقاً هَمْسه . فلا يسمع فى الغابات ولا فى الوديان ، لا صوتُ إنسان ولا صوت حيوان إلا مناغاة الطيور فى أوكارها ، ومداعبتها مع صغارها . مسرورين بضيائه ، وسكون الجو فى جميع أرجائه » .

وكان عثمان جلال كثيراً ما ينطق قبول وورد جنه بالشعر العربى الفصيح مع اعترافه بأنهما « لم يتعلما الكتابة ولا القراءة ، بل نشئا على السذاجة والبراءة ، فلا يفكران فى أزمان مضت ، ولا ليالٍ انقضت ، بل قام بعقولهما الصغيرة أن الدنيا قد انحصرت فى هذه الجزيرة ، وأن لا لذة لهما فوق لذتهما ، ولا شغل لهما إلا حب أمهاتهما » (٢)

---

(1) H. R. Gibb. B. S. O. S. Vol. Vii. Part. I. P. 2 — 3

(٢) الأمانى والمنة ص ١٨ .

ومن ذلك الشعر قول ورد جنه ، تذكر لهف الأمهات على أولادهن ، وذلك قبل أن تسافر إلى خالتها لتبتدئ تعلمها لديها .

يا ويح قلبي على نساءٍ قد لقبوهن بالأمهات
يحملن طول الزمان هَمًّا على البنينَ أو البناتِ
وكل خير لهن ماض وكل ضَيْرٍ لهن آتى
ما تم حظٌّ لهن إلا بدَّله الله بالممات

فقال لها قبول وقد أحسن أن يقول :

وحقِّ حبي لك يا أختاه وما اعترى قلبي وما أتاه
لترين اليومَ أمهاتنا ولنبيتن معاً في بيتنا(١)

وأسلوب عثمان جلال في (بول وفرجيني) كما ترى من الأساليب الخالية من التعقيد ، والتي تنطلق في يُسْر ورشاقة ويدل على تمكنه من اللغتين الفرنسية والعربية ، فقد حرص على الأصل كل الحرص ، وأدَّاه بخير أداء ، ولولا تمصيره لأشخاص الرواية ، وجعله الكنيسة جامعاً ، وبرج ناقوسها مئذنة ، وصبغها بالصبغة المصرية الخالصة لجاءت ترجمته مَثَلاً في الترجمة ، إذ أضفى عليها من الأمانة ، وخفة الظل ، وسهولة اللفظ شيئاً كثيراً .

ومن الذين اشتهروا بالترجمة خليفة محمود (وقد ترجم إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا) ، وكتاب (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شرلكان) وترجم محمد أحمد عبد الرازق كتاب « غاية الأدب في خلاصة تاريخ العرب » تأليف المؤرخ الفرنسي (سيديللو) . وترجم بشارة شديد رواية « الكونت دي مونت كريستو » تأليف (اسكندر دوماس) ، وجاءت بعبارة « بسيطة ليكون ذلك سهلا على عامة الناس » كما يقول المترجم .

وترجم حسن عاصم خطبة (رينان) الفرنسي ، وموضوعها « الدين الأسلامي والأمة العربية » . وترجم مراد مختار من التركية « قصة أبي علي بن سينا وشقيقه أبي الحارث ،

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩ .

وما حصل منهما من نوادر العجائب ، وشوارد الغرائب » .

وهذه أهم الكتب الأدبية التى ترجمت فى عصر إسماعيل . ويقول قدرى باشا : إن مستوى الترجمة قد هبط بمصر بعد أن أغلقت مدرسة الألسن ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء فى التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة بالأجانب . نعم ! إن مدرسة الألسن قد أعيدت فى عهد إسماعيل كما ذكرنا بيد أن تخريج المترجمين لم يكن موضع عناية ولا سيما بعد أن تحولت إلى مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٦ .

أما التأليف فقد خطا خطوات لا بأس بها ولا سيما فى القانون والتاريخ والعلوم ؛ فقد ألف قدرى باشا ثلاثه كتب رتب فيها أحكام الشريعة الإسلامية فى المعاملات المدنية والأحوال الشخصية والوقف ، على مذهب إبى حنيفة ، وصاغها فى شكل مواد قانونية ، وهى كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) فى المعاملات الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف) .

أما التأليف فى العلوم فهناك عشرات الكتب من تأليف على البقلى ، والشافعى ، ومحمد بيومى ، وصالح مجدى ، ومحمد سليمان وهو أول من برع فى الترجمة من الإنجليزية .

وقد ذكر قدرى باشا[1] أن تلاميذ رفاعة بك قد عربوا نحو ألف كتاب أو رسالة فى مختلف العلوم والفنون ، وأن جميع الذين نبغوا فى الترجمة كانت لهم مؤلفات قيمة .

هذا وقد توسع إسماعيل باشا فى فتح المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، واقتضى ذلك تنسيق العلوم والمواد المختلفة لصغار التلاميذ ؛ فألفت الكتب العربية شاملة كل نواحى العلم من : حساب وجغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وحيوان وحياة ولغة . . إلى غير ذلك مما مهد السبيل لبلوغ النهضة ذروتها فى عصرنا الحالى .

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى بك ص ٥١١ .

النهضة فى بلاد الشام :

— ٦ —

لا نستطيع أن نغفل أثر السوريين فى الأدب إبان القرن التاسع عشر وفى عصرنا الحاضر ، ولقد ساعدهم على النهوض ، ومكنهم من خدمة اللغة حرصهم على التعليم ، ووجود الأرساليات التبشيرية .

والباحث فى نهضه سوريا التعليمية يعجب أشد العجب ؛ لأن الأتراك تركوا البلاد تتخبط فى ديجور مطبق من الجهالة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم ينشئوا من المدارس إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وهى مدارس لا يتجاوز ما تلقنه لتلاميذها مبادئ العلوم . كان أكثر الذين بنوا مدارس دمشق غرباء عنها ، وقد ظلت المدارس التى أسست فى عهد الملوك الطوائف مفتوحة للطلاب قبل زمن الأتراك ، بيد أن الناس قد فسدوا فى القرون الأخيرة ، وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها :

وكان معظم هذه المدارس دينية فمدرسة للفقه الحنفى ، وأخرى للشافعى وثالثة للمالكى ورابعة للحنبلى . ومنها مدارس لدراسة القرآن وتجويده ، ومنها دور الحديث ؛ وكانت هناك مدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، غير أن كل هذه المدارس قد أغلقت بعد دخول الأتراك بلاد الشام[1] .

ولما رأى الأتراك أن مصر ولبنان قد سارتا خطوات واسعة فى درج النهضة العلمية لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عن التأخر والفساد والجهل الذى كان فاشياً فى سوريا ، وقد وكل إليهم أمرها ، فأسسوا فى أخريات أيامهم مدرسة للحقوق هى اليوم إحدى كليات الجامعة السورية ، وأنشئوا مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٢ م[2] .

وفى سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٠ م صدرت إدارة السلطان عبد الحميد بإنشاء مدرسة طبية

---

(١) خطط الشام لكرد على ص ٦٩ ج ٦

(٢) راجع خطط الشام لكرد على ص ١٠٢ ج ٦ .

بدمشق ، وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ، ومثلها لنفقتها ولوازمها ؛ وذلك لأن بيروت أخذت تخرج أبناء البلاد فى مدرستيها الأجنبيتين الأمريكية واليسوعية[١]

أما غير دمشق من مدن الشام فكانت مقفرة من المدارس تقريباً إلا حلب ، وهى ثانى مدن سوريا عظما ، وقد عمرت قديماً بكثير من المدارس ، ولكنها خربت على يد العثمانيين وجاء فى تقويم ١٣٣٢ هـ ١٩١٢ م أن بحلب الشهباء اثنتين وثلاثين مدرسة ، وما نظن العامر منها يتجاوز العشر[٢] .

وإذا كانت دمشق وحلب لم يسعدهما الحظ للنهوض السريع ، فإن نصارى لبنان كانوا أسبق إلى اليقظة من إخوانهم المسلمين فى دمشق وغيرها ؛ بفضل الأرساليات التبشيرية ، ولصلة النصارى الدائمة بأوربا المسيحية يستمدون منها القوة ضد الدولة العثمانية المتعصبة .

وكان التعليم فى لبنان — كما كان فى غيره — دينياً ، ومن أوائل المدارس التى أسست فيه (مدرسة عين ورقة) سنة ١٧٨٩ ، وكانت ديراً ثم حولت إلى مدرسة ، وكانت تدرس فيها اللغة السريانية ، والعربية ، والفصاحة ، والمنطق ، واللاهوت .

ولكن المدارس لم تنتشر ، والنهضة لم تعم البلاد إلا فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر حين أسست مدرسة (عينطورا) سنة ١٨٣٤ م ولا تزال مفتوحة الأبواب حتى اليوم وقد تعلم فيها عدد من زعماء النهضة اللبنانية الحالية . ولما وفد على لبنان الدكتور (فانديك) الأمريكى مبشراً بالدين المسيحى والمذهب البروتستانتى ، ورأى البلاد فى حاجة للمدارس العلمية أنشأ مدرسة (عِبية) سنة ١٨٤٧

كانت كل هذه المدارس فى الجبل ؛ لأنه موئل المسيحية ، فلما وقعت مذابح سنة ١٨٦٠ ونزح كثير من أهل الجبال إلى بيروت ، ابتدأت الأرساليات تفتح المدارس فيها ، ومن ذلك الوقت تبتدئ النهضة الحقيقية بلبنان .

وأقدم مدرسة أنشئت ببيروت كانت للبنات اليتامى اللائى فقدن آباءهن فى مذابح

---

(١) نفس المرجع ص ١٠٤ .

(٢) خطط الشام لكرد على ج ٦ ص ١١ .

سنة ١٨٦٠ ، أسستها (مسز طمسن) فى تلك السنة ، ثم المدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١ ، وقد كان لهاتين المدرستين أثر عظيم فى النهضة ؛ لأن تعليم الأم أول خطوة فى تعليم الشعب ، وقد كثرت مدارس البنات فى لبنان خاصة بعد ذلك كثرة ملحوظة ، ولا ريب فى أن الأم المتعلمة لن ترضى لأولادها الجهل .

ومن أوائل مدارس البنين المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستانى فى سنة ١٨٦٣ ، وكانت ممتازة بصبغتها الوطنية ، وحرية الدين ، ولكنها تعطلت سنة ١٨٧٦ . وأنشئت المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ . ومدرسة الحكمة فى نفس السنة وهى للطائفة المارونية . وأقدم المدارس الإسلامية هى كلية المقاصد الخيرية الإسلامية سنة ١٨٨٠ .

أما التعليم العالى فيتمثل فى الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية ، وقد أنشئت الأولى ببيروت سنة ١٨٦٦ ، وبها الآن فروع للطب ، والفلك ، وطب الأسنان ، والتجارة ، والآثار ، والآداب ، ولها قسم إعدادى ثانوى ، وبها مرصد فلكى . ولما قوى نفوذ الإنجليز فى الشرق بعد الحرب العالمية الأولى وصار تعلم الإنجليزية ضرورياً اتسعت الجامعة الأمريكية ، وزاد إقبال الطلاب عليها ، وقصدوها من كل البلاد العربية ، وبها ما يقرب من خمسة آلاف طالب ، وقد اتسعت مبانيها ، وألحق بها مستشفى عظيم ، ولها عناية بالمؤلفات العربية [1] .

أما الكلية اليسوعية فقد نقلت إلى بيروت سنة ١٨٧٤ ، وتعلم اللغات ، والآداب والطبيعات والرياضيات ، وبها ثلاث شعب رئيسية : الحقوق والطب والهندسة ، ولها مستشفى كبير ، والتعليم فيها باللغة الفرنسية ، وبها مكتبة من أنفس المكتبات العربية ، ومطبوعات اليسوعيين ذات شهرة عظيمة .

كان لهذه النهضة التعليمية فى لبنان أثر بالغ فى ثقافة الشعب ، والإقبال على القراءة

---

(١) من أشهر أساتذتها الحاليين الرئيس (دودج) ، والأستاذ بولس الخولى أستاذ التربية ، والأستاذ أنيس المقدسى أستاذ الأدب العربى ، والدكتور قسطنطين زريق (مدير الجامعة السورية الآن) ، والدكتور شارل مالك وقد صار وزيراً مفوضاً بالولايات المتحدة ، والدكتور أسد رستم ناشر مخطوطات الشام فى عهد محمد على ، والدكتور مصطفى الخالدى .

والتنافس فى أسباب الرقى بين الطوائف المختلفة ، كل طائفة تسعى لأن تبز الأخرى وتحتل دونها مركزاً أدبياً ممتازاً فى القطر الصغير .

ولكن كثيراً من أدباء لبنان فى القرن التاسع عشر قد آثروا الهجرة إلى مصر ؛ لاضطهاد تركيا المسلمة لهم ، ولضيق المجال أمام تفوقهم فى بلادهم ، ومن أشهر من وفد على مصر من هؤلاء الأدباء غير من ذكرنا سابقاً من الصحفيين : جورجى زيدان ، وطانيوس عبده ، وأديب إسحاق ، وسركيس ويعقوب صروف ، وفارس نمر[١] . وقد نشر زيدان فى مجلة الهلال كثيراً من البحوث المترجمة ، واختصت المقتطف بالأبحاث العلمية . ومن أشهر آثار للبنانيين فى الترجمة تعريب الألياذة شعراً ، وقام بهذا العمل الضخم سليمان البستانى[٢] .

ولكن للأسف قد طغت الفرنسية على أهالى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى حينما خضعت بلادهم لحكم فرنسا ، ففُرضت الفرنسية فى جميع المدارس ، تُعلَّم بها كلّ المواد ما عدا اللغة العربية فاستعجمت ألسنة شبابهم وأدبائهم ، وركت أساليبهم ، وضعفت الترجمة إلى حد كبير ، ولا سيما عند المسيحيين . أما المسلمون فقد انصرفوا للتجارة ، وإن كانوا أصح لغة من إخوانهم ، ولولا شعراء الجيل الماضى وأدباؤه لتأخرت منزلة لبنان فى الأدب .

---

(١) وسنترجم لهم فى الجزء الثانى من كتاب الأدب الحديث إن شاء الله .

(٢) ولد سنة ١٨٥٦ وتوفى سنة ١٩٢٥ ، وابتدأ فى ترجمة الألياذة سنة ١٨٨٧ بالقاهرة ، وتعلم اليونانية ليترجم الألياذة ، ونظمها فى أحد عشر ألف بيت غير متقيد بوزن واحد ولا قافية واحدة بل استعمل كل ضروب الشعر وبحوره ، وانتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ ، وشرحها وعلق عليها بألف بيت من الشعر وبكثير من القصص العربية ، وانتهى من شرحها سنة ١٩٠٢ ، ونشرت لأول مرة كاملة بشرحها ومقدمتها سنة ١٩٠٤

الفصل الثالث

الأدب فى عصر إسماعيل

لم يكن لهذه النهضة الشاملة ، وهذا الإحياء القوى الذى ظهر على يد إسماعيل ورجال البعثات أثر كبير فى الأدباء الذين نشئوا فى عصر محمد على وعاصروا إسماعيل بعد أن جَمَدت طباعُهم ، ورسخت عاداتهم ، وصار عسيراً عليهم أن يتقبلوا الأفكار الجديدة ويغيروا أسلوبهم فى التعبير والتفكير . ولم يكن من المنتظر أن تؤثر النهضة فى مثل هؤلاء الأدباء ، وهم لم يتشربوا مبادئها ، ويسيروا على هداها ، ويتمتعوا بنورها رَدَحاً طويلا من الزمن ؛ ولم يكن من السهل التخلص من أوضار الماضى وتقاليده ، ولا سيما ذلك الماضى القريب الذى يمت إلى عصور الضعف اللغوى والفكرى والخلقى ؛ إذ لم ير الأدباء أمامهم أمثلة تحتذى إلا ما قيل فى الماضى إن قريباً وإن بعيداً . أما الأدب الأوربى القوى فلم يترجم فى عصر إسماعيل منه إلا شىء يسير وبلغة ضعيفة ولا سيما الروايات المسرحية ، ولو عرفه الأدباء ما استساغوه ؛ لأن ثقافتهم كانت محدودة ، وكان عصرهم مُثْقَلاً بتلك التقاليد القديمة ، والمدارس قليلة العدد ، والمتعلمون فى الأمة يعدون عداً .

هذا وقد كان اهتمام محمد على وإسماعيل بالعلوم أعظم من اهتمامهما بالأدب ، ولولا ما أخرجته المطبعة العربية حينذاك من الكتب القديمة ، واطلاع المحبين فى الأدب والراغبين فى التزود من ينابيعه على آثار السلف ، ودواوين كبار الشعراء الذين ظهروا فى عصور القوة لما كان للأدب فى مصر والشرق العربى نصيب .

ولما كان الأدب الموروث هو أولُ ما عرفوا من الآداب كان طبيعياً أن يحتذوه ، ويحاكوه فى موضوعاته وأسلوبه ، ومعانيه وأخيلته ، وقد تفاوت الأدباء فى هذا التقليد تبعاً لمواهبهم ، وشخصياتهم ، كما تفاوتوا فى اختيار من قلدوهم ، فمنهم :

١ — شعراء لم تكن لهم شخصيةٌ ألبتة ، بل ساروا فى الطريق المعبَّد الذى سلكه مِنْ قبلهم أدباء عصور الانحطاط والضعف ، ذلك هو طريق الشعراء النظامين أو العروضيين لا يعرفون الشعر والأدب إلا أنه مهارةٌ لفظية وقدرة على التفوه بعبارات شعرية ونثرية لا حياةَ فيها ولا عاطفة ولا قوة ، و إنما غرضها إظهار البراعة فى اقتناص ألوان البديع ؛ حتى إنهم ليُخِلُّون بالأعراب فى الكلمات والتصريف ، إذا تعارض الأعراب أو التصريف مع ما يريدونه من جناس أو طباق ، و يفسدون بِنْيَةَ الكلمة ، عساها تصادف ما يَجْرون وراءه من هذه الحلى التى يسترون بها عوار لغتهم الركيكة وأفكارهم السقيمة ، وخيالاتهم المريضة ، ومثال هذه المدرسة العروضية فى عصر إسماعيل : السيد على أبو النصر ، والشيخ على الليثى ، ولولا ما بهما من ظَرْف طبيعى ، ورقة قاهرية ، ولولا أنهما ألِفا منادمة الأمراء والعظماء ، وتطلبت المنادمةُ منهما أدباً وحلاوة نُكْتَةٍ ، وسرعةَ بديهة لما خرجا عن نطاق شعراء مصر والشام إبان الدولة العثمانية ، ولما امتازا بشىء عن عبد الله الشبراوى ، وحسن قويدر وأضرابهما .

٢ — شعراء كانت لهم — مع تقليدهم للسلف والأدب الموروث — شخصيةٌ ، بيد أن هذه الشخصية كانت تُرى من بعيد ، ومن خلف هذه الحُجب الكثيفة من التقاليد ، فى العبارات والأساليب والأخيلة ، حائلة غير واضحة ولا مميزة ، ولكنها تدل على أن هذا الأديب قد جاهد فى أن ينفذ بشاعريته وأدبه من خلال هذه الحوائل الغليظة ، و إن لم تمكنه شخصيته القوية ، ولا أدبه المتين من التغلب عليها ، وخير مثل لهذا النوع من الأدباء هو محمود صفوت الساعاتى .

٣ — وشعراء قويت شخصيتهم بعضَ الشىء ، وحاولوا أن يجددوا ، وأن يلونوا أدبهم بما يُظهر نفسيَّتهم ، و يطبعَه بطابعهم ، وقد نجحوا فى ذلك أحياناً ، ولكنهم لم يستطعوا أن يقاوموا سيطرة الأدب الموروث ، ولا إغراء المحسنات والزخارف ، فضعفت هذه الشخصية ، وتضاءلت أمام هذا الإغراء ، فجاء أدبهم إبان هذا الضعف من نمط المدرسة الثانية ، ومن نماذج هذه المدرسة عبد الله فكرى ؛ تراه آناً ينطلق على سجيته ولا يتقيد

بهذه الصناعة السمجة المتكلفة فى نثره ، و بهذه الزخرفة اللفظية الممجوجة فتتضح شخصيته وتنجلى فكرته ، و يترسل فى كتابته فيفهم الناس منه ما يقول دون عناء ، وهذا قليل فى كتابته . وآنا يجذبه ذلك الزخرف إليه فيستعدُّ و يهتم و يحتفى بموضوعه ، و يبذل جهداً شديداً فى صوغ العبارات ، و يكاد هذا يطغى على شخصيته ، وأكثر نثره وشعره من هذا الطراز.

٤ — وشعراء رزقوا الشخصية الغلابة ، والأدب المتين ، وحاكوا النماذج الرفيعة من أدب السلف ، فاستحصدت مِرّتهم ، وعظمت ذخيرتهم من الأدب الرصين فمزقوا هذه الحجب الكثيفة ، وطرحوها جانباً ، وارتفعوا بالشعر و بالأدب إلى حيث الشمس الساطعة القوية فتراءت معانيه ، وتجلت أخيلته ، واهتزت لديباجته المشرقة النفوسُ . قلدوا القدماء ، بل عارضوهم ، وجروا و إياهم فى ميدان واحد . ولكنهم لم يقلدوا الغث من الآداب بل عمدوا إلى فحول الشعراء ينسجون على منوالهم و يبارونهم فى قصائدهم المشهورة الخالدة ، فخلقوا معهم فى سماواتهم ، وأضفوا على الشعر لوناً جديداً جذاباً لم يستمتع به منذ أمد طويل أجل ! لم يكونوا دائماً فى قوة فحول الأدباء والشعراء السابقين ، بل قصروا عنهم فى كثير من الأوقات ، ولكن حسبهم أن سَلِم شعرهم من هذه العلل والأوصاب التى أزمنت لدى الشعر العربى قروناً ، ووصلت به إلى دَرَك الغثاثة والرِّكَّة والعُجْمة . وخير مثل لهذا النوع من الأدباء — استغفر الله — بل باعث الشعر العربي فى العصر الحديث ، وصاحب هذه اليد الطولى على الأدب هو البارودى .

هذا وقد ظهر فى أخريات عصر إسماعيل فجر نهضة جديدة فى الأدب ، لم تكن مدارس إسماعيل ، ولا حركة الإحياء فى عهده هى الباعث عليها ، ولكن رغبة إسماعيل فى أن يرى مصر بين عشية وضحاها قطعة من أوربا فى مدنيتها وحضارتها ، جعلته يُسرف فى مال مصر و يبدِّده فى هذه السبيل غير ناظر إلى الشعب ومصيره . واتخذ الأجانب من حب إسماعيل للحضارة الأوربية وسيلةً لاستيطان مصر فجاءوا زَرافات ووُحداناً ، يرتادون هذه الأرضَ البِكْر و ينشئون البيوتَ التِّجارية والمصارف المالية ، و يتقدمون لخدمة الحكومة فى جميع

مصالحها . ولما استدان إسماعيل ، وأثقلته ومصرَ الديون ، عظُمَ نفوذ هؤلاء الأجانب وشجَّعتهم حكوماتهم وحمتهم امتيازاتهم ، فكان هذا النفوذ المتزايد سببا فى تنبه المصريين إلى الخطر الداهم الذى ينتظر بلادهم . وتصادف أن كان بمصر الزعيم المصلح السيد جمال الدين الأفغانى — وكان من الملهمين فى العصر الحديث — فبث تعاليمه الإصلاحية ، وشجع حركة الاستياء من طغيان النفوذ الأجنبى ، وأخذ يقتحم هـذا الحمى الذى ظل قروناً لايقرب ، وهو حق الحاكم فى التصرف برعاياه وأموالهم ونفوسهم ، فوجه الانتقاد لإسماعيل وحاسبه فى الصحف المختلفة التى يكتب فيها أتباعه ومريدوه من أمثال : أديب إسحاق ، وإبراهيم المويلحى ، وسليم نقاش ، وعبد الله نديم ، ويوسف صنوع ، وعبد الله أبو السعود ، وهو من ورائهم يغذيهم بروحه وتشجيعه وآرائه ، ويكتب هو أحياناً مستتراً .

هذه الحركة أنتجت أدباً قومياً حيث وجهت الأدب — ولا سيما النثر — إلى النظر فى شئون الشعوب العربيه ، والدفاع عن حقوقها ، ووصف أمراضها وأدوائها ، وما تتطلبه هذه الأوصاب من علاج ، ولنا عودة إلى هذا الأدب ومظاهره فيما بعد .

وحَرِىٌّ بنا ، وقد ألقينا هذه النظرة العاجلة على ألوان الأدب فى عصر إسماعيل أن نعود إلى هذه الألوان والنماذج فندرسها بشىء من التفصيل .

١ — السيد على أبو النصر :

مصرى شريف النسب من منفلوط ، لا نعرف على التحقيق متى ولد ، وأغلب الظن أنه كان رجلا ناضجاً فى عصر محمد على حيث أرسله فى مهمة إلى الآستانة فى خلافة السلطان عبد المجيـد ، ومبعوث محمد على إلى (الحضرة الخليفية) لن يكون حدثاً غراً أو شاباً غير مجرب ، بل رجلا مكتمل العقل والشهرة ؛ ولذلك نرجح أنه ولد فى أوائل القرن التاسع عشر وجاء إلى مصر من منفلوط وهو صغيرُ السن ، ثم دخل الأزهر وتلقى به العلومَ العربية والشرعية ، إلا أنه لم يسر فى مرحلة التعليم هذه حتى غايتها ، بل ترك العلم واشتغل بالأدب ، وقد ظهر ميلُه إليه منذُ الصغر . وكان عصرُ شبابه مُقفراً من الأدباء اللامعين ، وكان صفوت

الساعاتى فى شُغُل بمدح أمراء الحجاز كما سيأتى ، فنال أبو النصر شهرة ، واتصل بالأسرة الحاكمة ، و بعثه محمد على كما ذكرنا إلى الآستانة ، وصحب إسماعيل من بعده ، وكان له نديماً وجليساً ، وقد سافر إلى الآستانة معه مرة ثانية .

لم يكن أبو النصر شاعراً فحسب ، ولكنه كان نديماً أكثر منه شاعراً ؛ وللمنادمة صفات كثيرة ، وهى صنعة شاقة . أما هذه الصفات فمنها : الاحاطة بالادب القديم ، ورواية شعره ونثره ، ونوادره وأمثاله ، ثم الذكاء الحاد ، وسرعة البديهة ، ومعرفة دخائل النفوس ، ودراسة أحوالها المتباينة ؛ وأهم من هذا طبيعة مرحة ، قادرة على استلال سخائم النفوس ، و بعث الضحك مع الاحتفاظ بالوقار والمنزلة ؛ حتى لا يُمتَهَنَ النديم و يهان . وليس الإضحاك أمراً هيناً ولا سيما فى مجلس أمير عظيم تشغله أعباء الحكم ، وتحزُبه أزماتٌ نفسيةٌ كثيرة ؛ والنفسُ الإنسانية يعتورها الحزن والسرور والانقباض والانشراح ، والغضب والرضا ؛ والمفروض فى النديم أن يستطيع بعثَ الضحك فى كل حالة ، ولا سيما فى حالات الانقباض والحزن ، وأن يُذهب بمرحه وأدبه وضَرَ القلوب ، وتجهم الوجوه ، مع أنه إنسان كسائر الناس له نفس تحزن وتنقبض ، وعقل يفتر و يخبو ، وقريحة تخمُد وتتبلد أحياناً .

ولهذا كانت مهمة النديم شاقة ، وعليه أن يخلق الجو المناسب لنكاته ، وأن يروض الناس على الضحك حين يطلق النكتة ولو لم تكن مستساغة ، وهذا فن يتقنه الموهوبون من الندماء .

ثم إن النديم صدى للحوادث التى تحدث فى مجلس الأمير أو العظيم ، يسجلها فى أدبه فيقول الشعرَ فى كل المناسبات الممكنة : حين يرحل الأمير ، وحين يعود ، وحين يرتقى أحدُ أفراد الحاشية أو يُنعم عليه بلقب ، وحين يولد مولود جديد ، وفى الأعياد والأفراح والمآتم ، بل فى غير ذلك من المناسبات المفاجئة والعارضة .

و إذا تصفحنا ديوان السيد على أبى النصر لم نجده شيئاً غير هذا ، وقلما يلتفت النديم لنفسه فيظهر لواعج حُبِّها ، أو اهتزاز مشاعرها وعواطفها ، أو يلتفت إلى غير الأمير وحاشيته وشعر أبى النصر يمثل كذلك هذه المدرسة التى أُثقل أدبُها بأوضار القديم وآفاته ،

فهو مولعٌ بالمحسنات البديعية ، و بالتأريخ الشعرى ، و بالألغاز ، و بالتشطير ، والتلاعب بالألفاظ والشعر فى هـذه المدرسة كما ذكرنا صناعةٌ تُظهر البراعة والقدرة على صياغة مُعينة تحقق غرضاً من هذه الأغراض ، وليس تُرجماناً عن همسات القلوب ، وأشجان النفوس وأحاديثها ومطيةً للخيال يحلق فى سماواته الواسعة ، أو مفصحاً عن فكرة اختمرت فى عقل الشاعر وأبت إلا أن تظهر جلية واضحة ، كما يجب أن يكون الشعر .

ولم يكن مع هـذا شعر السيد على أبو النصر متين النسج ، قوىَّ العبارة بل هو وسط بين القوة والضعف . و بذلك يكون خير مثال للنظامين أو العروضيين . ومن شعره وقد أُهدى إليه قدح :

أهدى الحبيبُ لمن أحبْ ... قدحاً تحـلى بالذهب
لو أُفرغت فيـه الطَّلا ... لأطَلَّ ينظره الحبب
قد راق منظرُ حُسْنه ... ودعا له داعى الطَّرب
لما نظرتُ لشكله ... فى رسم تيجان العرب
قبَّلتُـه وقبِلتـه ... ووعـدته بِنْتَ العِنب
ولأجـله لو لا التُّقى ... لخلعتُ أثوابَ الأدب
ومـلأته راحـاً بها ... يُنْفى عن الصَّب الوَصَبْ
لكننى أودعتـهُ ... بخزانة تحـوى الأدب
ومدحتُ من أهـداه لى ... ومنحته شُكْراً وجب
وجعلته بُشرى المنى ... والدهر يأتى بالعجب

وقال ملغزاً :

ما اسم الحبيب أفيـدوا أيها الأدبا ... فإن بُقْراط عنـه ساءَ منقلبا ؟
فقال لى بعضهم : حرفٌ أضيف له ... حرفان دلاّ على شىء حـوى ذَنبَا
فقلت : هـذا جوابٌ رائق فعلى ... مثلى لمثلك شكرُ الفضل قد وجبا

ومن قوله يتغزل :

نَوْرٌ زاهى الروض أم نور الصباح ... وابتسامُ الثغر أم زهر الأقاح
ونجـــومٌ تزدهى فى أفقها ... بوميض البرق أم كاساتُ راح
لا ، ولا ، بل بدرُ تِمٍ يتجلى ... للنَّـدامى فى اغتباق واصطباح
بمحيًّا يزدرى شمسَ الضحى ... فى معانى حسنه تعيا الفصاحُ

وقال مهنئاً مصطفى باشا نعمانى برتبة الباشوية مؤرخاً فى كل شطر من أبيات القصيدة بتاريخ هذه الرتبة وهو سنة ١٢٩٥

بشير الهنـا لاحت بيمن قدومه ... بدورٌ بها نورُ البشائر قد صفا
وبدرُ التهـانى فاق بالأنس نورُه ... فأهدى لنا أسنى السرور وأتحفا

وهكذا حتى أتم خمسة عشر بيتاً كل شطر منها يؤرخ سنة ١٢٩٥ مُظهراً بذلك مهارته وقدرته على الصياغة والنظم .

ومن أحسن ما قاله من الشعر هذه القطعة التى يتأسف فيها لفراق أحبابه :

لقـد ذهب النَّوى بجميل صبرى ... وأودع فى حُشـاشتى الوُلوعا
وألبسنى الأسى خِلعَ التمنى ... وألزمنى التذلُّلَ والخضوعا
ونارُ الشـوق أغراها غرامى ... على كبدى فقوَّمت الضلوعا
ولى قلب تُقلِّبُهُ شجونى ... وتمنعُه السكينـة والهجوعا
يبيت مع الأحبـة حيث كانوا ... ويصبح راجياً منهم رُجوعا
يرى أضغاثَ أحـلامِ الأمانى ... حقائق لا يزالُ بهـا وَلُوعا
تطوف به الحوادثُ وهو لاهٍ ... كأنَّ الوهم ألبسه دروعا
وقائلةٍ : إلامَ تحِنُّ شوقاً ... إلى حى أحلَّ بك الهلوعا
فقلتُ لها : وقيتِ البأسَ إنى ... أودُّ بحبِّهم أُدعى هَلُوعا

أبعد فراقهم ترتاح روحي
وترجو ساعة ألا تلوعا
فهم روحي وريحاني وراحي
فكيف أرى إلى السلوى نزوعا

أبعد فِراقهم ترتاح روحى وترجو ساعة أن لا تَلُوعا[١]
فهم روحى وريحانى وراحى فكيفَ أرى إلى السلوى نزوعا[٢]

وفى هذه النماذج التى سقناها من شعره يتبين مدى ماذكرناه عن أدباء هذه المدرسة وتقليدهم وعدم ظهور شخصيتهم ، مع افتتانهم بالبديع والجرى وراءه ، وضعف أسلوبهم ، وقد مات سنة ١٨٨٠ ، وله ديوان مطبوع .

٢ - الشيخ على الليثى :

ولد سنة ١٨٣٠ ببولاق ، وتيتم صغيراً ، فتحولت به أمه إلى جهة الإمام الليث وإليه ينسب ، وطلب العلم بالأزهر مدة ، ولكنه لم يتم به تعليمه ، ثم رحل إلى طرابلس الغرب وأخذ عن الشيخ السنوسى الكبير ، والشيخ القوصى الكبير الطريقة والعلم ؛ ولما عاد اتصل بالبيت الخديوى ، وكان مقرباً لدى الخديو إسماعيل ؛ لأنه كان مثالا للنديم المحبوب الذى لا يُمل حديثه ، ولا يُطاق فراقه ، وتُروى له فى باب المنادمة نوادر لاتزال تتردد حتى اليوم على ألسنة السمار فى مجالس الأنس ، ولعل كثيرين منا يعرفون قصته مع (المهردار) بقصر الخديو إسماعيل حين كتب على باب حجرة الشيخ الآية الكريمة : « إنما نطعمكم لوجه الله » إذ لم يجد لقباً سواها يُعطى لهذه الحجرة كما أعطيت الحجرات الأخرى بالقصر ألقاباً ، من مثل حجرة أمين المخازن ، ورئيس الحرس ، وغير ذلك ، وقد كانت هذه مداعبةً من (المهردار) ، أثارت فى نفس الشيخ الليثى الرغبة فى الانتقام منه ، وجعله سخرية أمام رجال الحاشية ، فانتهز فرصة وجوده معه بحضرة إسماعيل باشا ، والمجلس عامر بعلية القوم يخوضون فى أحاديث شتى ، ولما سنحت الفرصة قال الشيخ على الليثى للخديو : عندى قصة صغيرة يا مولاى ؛ فقال : ماهى ؟ قال :

لنا طحونة فى البلد لكن ثقيلة ع الحمار
علقت فيها الطور عصى علقت فيها المهر دار

---

(١) تلوع : تجزع (٢) الراح : الخمر ، والنزوع : الميل

فكانت أضحوكة سارت على الألسنة ، وطرب لها الخديو وأفراد حاشيته ، ونال الشيخ الليثى لدى إسماعيل حظوةً ومنزلة ، وعرف رجال الدولة مكانته فكان مقصد طلاب الحاجات ، ولا يرد له رجاء عند أولى الأمر . ولما مات إسماعيل أبقى عليه توفيق ، وقربه وأكرمه ، وبقى مخلصاً له فى أحلك أوقات الثورة حين تنكر له كثيرون ممن أكرمهم توفيق فأسبغ عليه من نعمه وكافأه على إخلاصه .

وللشيخ على الليثى ديوان لم يطبع ، بل يقال : إنه لعن من يطبعه . ولسنا ندرى سبباً واضحاً لعزوف الشيخ عن تخليد أثره الأدبى إلا أنه نال ثراءً واسعاً فى أخريات حياته ، وصار من سراة مصر ، وليس من اللائق بسرى وجيه مثله أن يكون له ديوان شعر يروى ، وبه ما به من عبث ومجون ، وتزلف لكثيرين ممن يتسامى فى حالته الأخيرة لمنزلتهم . ومن المستبعد أن يكون الشيخ قد أدرك أن شعره لا يستحق الخلود ، وأنه ركيكٌ ضعيف ، فكل إنسان مهما كان شأنه يُعْجب بما يقول ، ولا يَفْطن إلى ما به من عيوب ؛ ثم إن الذوق الأدبى والنقد لم يكونا قد وصلا إلى منزلة تمكِّن الشيخ من الاطلاع على مساوئ شعره ، بل على العكس كان الشيخ محسود المكانة الأدبية ، ويتهافت أدباء عصره على مكاتبته ومطارحته الشعر (١) وقد طال عمر الشيخ وتوفى سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٦ م

وإذا نظرنا إلى ما روى لنا من شعره ، لم نجده يتميز عن زميله السيد على أبى النصر فى شئ ، ونجده يقول فى المناسبات المختلفة شأن الندماء ، وقلما يطلق نفسه على سجيتها ، وينظم الشعر لأنه يشعر بدافع نفسانى يلهمه القول . ومن شعره على البديهة قوله ، وقد كان أحد العظماء يفرغ تفاحة بمدية ليشرب فيها ، فانكسرت المدية ، فنظر إلى الشيخ نظرة من يسأله وصف هذه الحال ، وخليق بنديم الخديو إسماعيل أن يسجل مثل هذه الحادثة ، فقال الشيخ مرتجلا :

عزت على الندماء حتى إنهم ... تخذوا لها كأساً من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية ... لأنَ الحديد كرامةً للراح

---

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو

ومن شعره فى رثاء عبد الله باشا فكرى :

نذم المنايا وهى فى النقد أعدلُ ... غداة انتقت مولى به الفضل يكمل
كأن المنايا فى انتقاها خبيرةٌ ... بكسب النفوس العاليات تعجِّل
فتمَّ لها من منتقى الدر حلية ... بها العالم العلوى أنساً يهلل

ويقول فى وصف الفقيد :

لقد كان ذابرٍ ، عطوفاً ، مهذباً ... سجاياه صفوُ القطر بل هى أمثل
رقيقَ حواشى الطبع سهلٌ محببٌ ... إلى كل قلب حيث كان مبُجَلٌ

وله فى مدح السلطان عبد العزيز فى عيد جلوسه سنة ١٢٩٠ ١٨٧٣

مولى الملوك الذى من يُمنْ دولته ... ظِل العدالة فى الآفاق ممدودُ
عبد العزيز الذى آثاره حمدت ... أب الألى جَدُّهم فى المجد محمود
أجاد نظمَ أمور الملك فى نَسَقٍ ... لا يعتريه مدى الأزمان تبديد
فلا تقسه بأسلاف له كَرمت ... والشبل من هؤلاء الأسد مولود
ففخرهم عِقْدُ در وهو واسطةٌ ... فى جيد آل بنى عثمان معقود

وهذا نظم ليس فيه شئ من الخيال أو المعانى السامية ، ولفظه وسط بين القوة والضعف . وهكذا كان شعر الشيخ ، بل له شعر ملىء بالمحسنات والزخارف اللفظية التى زادته ضعفاً على ضعف ، من مثل قوله يرثى محمود باشا الفلكى وقد تصادف أن تهاوت نيازك ليلة وفاته :

أرى النيازكَ عن سام من الفلك ... مذعورةً أصبحت تصبو إلى الدرك
كالطير فاجأها البازى وأذهلها ... فحاكت البرق ، وانقضت عن الحُبك

إلى أن يقول :

أليس نَسْر سماء العلم قد عَلِقتْ ... كفُّ المنون به فانحاز فى الشَّرك
الصبرَ يا نفس ، واستبقى منايحه ... أو فالتصبرَ إن تبغى الهدى فلك
حل القضاء وناعى المجد أرخنا ... قد مات محمود باشا المسند الفلكى

(فقد أرخ وفاته سنة ١٣٠٣ فى هذا البيت) .

وهو شعر ليس فيه من أثر الحزن شىء ، بل هو مصنوع ليظهر قدرة الناظم على تلفيق مثل هذا الكلام . وقد حاول مرة أن يَفْتَنَّ ويصف السّفينة التى أقلته إلى مصر وهو عائد من برلين ، فلم تمكنه اللغة القوية ، ولم يسعفه الخيال ، وأتى الشعرُ ضعيفاً ، وأغلب الظن أنه لم يقله بدافع نفسى ، وإنما طلب إليه أن يسجل هذه الرحلة فصنع الأبيات التى منها :

أصبح الوقت باسماً بالسرور ... كابتسام الربيع وقت الزهور
أين ألقى ظريفَ طبعٍ لطيفاً ... كى نديرَ الحديث مثل الخمور
فوق ظهر السفين نحسن وصفاً ... حيث يجرى على صفاء البحور

* * *

وتراه يختال وهو مُعنًى ... ويحه كم يجر ذيل الفخُور
ذيله يرسم المجرة عُجباً ... بين موج يضىء مثل البدور

وهو وصف غنى عن التحليل ، وإظهار ما به من ركاكة ، ففى كل بيت عوار لا يغفر ، ودليل قاطع على أن الشيخ ينتمى إلى مدرسة النظامين والعروضيين ، ولعل خير ما روى له قصيدته التى قالها مستعطفاً الخديو توفيق عقب الثورة العرابية ، وطالباً الصفح عمن أجرم :

كل حال لضده يتحولْ ... فالزم الصبر إذ عليه المعوَّل
يا فؤادى استرحْ فما الشأنُ إلا ... ما به مظهر القضاء تنزل
ربَّ ساعٍ لحتفه وهو ممن ... ظن بالسعى للعلا يتوصَّل
قدرٌ غالبٌ وسرُّ الخفايا ... فوقَ عقل الأريب مهما تكمل
غايةُ العقل حسرةٌ وعِقال ... واللبيبُ الذكى من قد تأمل
كيف ننسى ، وحادثات الليالى ... فاجأتنا بكارث ليس يُحْمل
أذهبت أنفساً وغالت نفيساً ... وذوى مربعُ الحظوظ وأمحل

وإذا المرْء كان بالوهم يبنى فخيال الظنون ما قد تمثلْ
ويحَ قومٍ سعَوْا لإدراك أمرٍ دون إدراكه الجبالُ تزلزل
ما أصروا عليه إلا أضروا بأناسٍ من نابهٍ أو مغفل
ذاك يسعى على التَّقيَّةِ خوفاً وسواه سعى لكيما يُجمَّل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء كانت الغايةُ الجميلة أجملْ

وهذه القصيدة على بها من سهولة ، فمعانيها مطروقة ليس فيها جديد وحِكمها مألوفة ، وبها كثير من أثر الصنعة والتكلف ، أما الخيال وهو روح الشعر وجناحه الذى يحلق به فلا أثر له . ونعود فنقرر أن هذه المدرسة التى ينتمى إليها على أبو النصر ، وعلى الليثى هى مدرسة التقليد للشعر الذى كان سائداً فى عصور ضعف اللغة ، وليس لهذين الشاعرين وأضرابهما شخصية قوية تهتك ستار هذه الحجب الكثيفة من الزخارف السمجة ، وليس لهما قوة عارضة ، وفحولة نسج لتستر مساوئ هذا الذى يسمى شعراً . وهما نظَّامان أكثر منهما شاعران ، يقولان فى المناسبات نظماً غير صادر عن شعور إلا القليل النادر .

٣ — محمود صفوت الساعاتى :(١)

وهاك مثلا لشاعر استطاع بمواهبه أن يفصح عن شخصيته ، وإن تراءت من بعيد حائلة اللون ، غير واضحة المعالم تحاول جهدها أن تظهر من خلال هذه السُّدُف الغليظة من التقاليد الموروثة فى الشعر العربى ، ولا سيما عن عصور الركة والانحلال . وقد أوتى حظاً من اللسن والفصاحة فاستطاع أن يجيد فى غير ما موضع من شعره ، حتى ليعده بعضهم طليعة للنهضة الحديثة ، وممهداً للطريق الذى سلكه البارودى من بعد .

ولد الساعاتى بالقاهرة سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٥ ، وظل بها إلى أن بلغ الثانية عشرة ، ثم ارتحل إلى الإسكندرية فأقام بها ثمانية أعوام . ولم يدخل الساعاتى الأزهر كما دخله

(١) هو محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيلع الشهير بالساعاتى ، والساعاتى لقب غلب عليه ؛ لأنه مهر فى إصلاح الساعات ، ولا ندرى على التحقيق أكان إصلاح الساعات حرفة له أم هواية كما يقول بعضهم .

على أبو النصر ، وعلى الليثى ، ومحمد شهاب ، وعبد الله فكرى وغيرهم ، بل يقال : إنه لم يتعلم النحو ، وإنما استظهر ديوان المتنبى وكثيراً من أشعار القدماء ، فاستقام لسانه ، وعظم مخزونه من الأدب . وقد ظهر تأثير المتنبى فى شعره واضحاً ، وكان بينه وبين النحاة مناقشات طويلة كما سنرى .

وكان تلميذاً للشيخ حسن قويدر يغشى مجلسه ويأخذ عنه الأدب ، وكان الشيخ قويدر غنياً كريماً ، ومات سنة ١٨٤٥ م وكانت سن الساعاتى حينئذ عشرين سنة . وهذا كل ما نعلمه عن ثقافة هذا الشاعر وحياته حتى هذه السن ، وقد رثى الشيخ قويدر بقصيدة مطلعها :

بكت عيون العلا وانحطت الرُّتَبُ ومزقت شملَها من حزنها الكتبُ

وفيها يقول ، وقد حشاها بالمبالغات السخيفة ، وهى ليست قوية النسج مما يدل على أنها من أوائل ما نظم :

ياشمسَ فضل فدتكَ الشهبُ قاطبةً إذ عنكَ لا أنجمٌ تغنى ولا شهب
لما أصابكَ لا قوسٌ ولا وتر سهمُ المنيةِ كادَ الكونُ ينقلب
ما حيلةُ العبدِ والأقدار جاريةٌ العمر يوهب والأيام تُنْتهب
لو افتدتك المنايا عندما فتكت بخيرنا لفدتك العُجْم والعرب
أمست لفقدك عينُ العلم سائلةً ترجو الشفاء وأنَّى ينجح الطلب

إلى آخر هذا النظم الذى ينبئنا بأن ذوق الشاعر لم يكن قد تهذب بعد ، وأنه يحاكى الشعراء المتأخرين فى نسجهم الضعيف واستعاراتهم السمجة ، مثل (عين العلم سائلة) وغير ذلك .

وفى سن العشرين بدا له أن يحج إلى بيت الله الحرام ، وهناك اتصل بأشراف مكة (آل عون) ، فأكرموه ، واصطحبوه معهم فى غزواتهم وحروبهم مع آل سعود وأمراء اليمن ، وظل بجوارهم خمس سنوات يسجل انتصاراتهم ، ويسبغ عليهم مديحه . ولما عُزل الأمير محمد بن عوف عن إمارة مكة ، ورحل إلى الأستانة صحبه الشاعر ثَمَّةَ ، ومكث معه قليلا ، ثم تركه ، ورجع إلى مصر ، ولسنا ندرى سبباً لتركه : أيئس من عودة الأمير إلى

أريكته فأراد أن يبحث عن شخص آخر يستظل بظله ؟ . أم أن الأمير رأى نفسه معزولا قليل المال فبَرِم بصحبة شاعر يعوله و ينفق عليه فى غربته ؟ ولما عاد الأمير إلى إمارته لم يستدع شاعره الصداح ، وفى شعر الساعاتى ما يدل على أن القطيعة كانت من الأمير من مثل قوله يخاطبه :

أوليتنى الآلاء ثم تركتنى ... مثل الذى حَلّتْ به اللأواء
ما كان ذا أملى الذى أمّلْتُه ... فيكم وأنتم سادةٌ كرماء

و يقول :

وحبوتمونى بعدها بقطيعة ... أكذا يكون تكرم وحِباء

وقال مرة يعاتبه ، و يظهر يأسه منه ، وكأنه يودعه إلى غير رجعة :

قضى العبد بعضَ الواجبات بقصده ... إليكم وقد جُوزِى بما هو أعظم
ونالَ الذى قد كان يرجوه وانقضت ... أمانيه منكم ، والسلامُ عليكم

وعلى الرغم من هذه القطيعة فقد ظل الشاعر يتحسر على أيامه الخاليات ، وعلى المودة المفقودة ، و يعتذر عن جُرم لا ندرى كنهه للشريف محمد ، ولأولاده من بعده عبد الله ، وحسين وعلى ، فيقول للشريف عبد الله :

شددت بكم بعد الإله عزائمى ... فكنت عليهم بالعذاب شديدا
وإنى أعيذ النفس بعدُ لعفوكم ... وإن جَلّ ذنبى أو مكثتُ بعيدا

و يقول مرة أخرى للشريف عبد الله :

فإنى لم أبرح على العهد مخلصاً ... وإن طال عهد البعد واشتقت مَعْهدا

و يبدو أن الشريف عبد الله كان يصله على البعد ، ولكنَّ الشاعر كان يأمل أن يستدعيه لديه :

يقلدنى فضلا على البعد بيننا ... وأطمع حِرصاً فى شُنوف المسامر

و يتذلل للشريف حسين و يطلب العفو :

أقِلْنى وبادرْ بالجميل فإننى ... أرى العفو دوماً من صفات الأماجد

ولما يئس الشاعر من صلاتهم ، والعودة إليهم بعد كل ما قدمه من زلفى ومن قصائد يرسلها إليهم فى كل المناسبات قال للشريف حسين :

عللت نفسى غروراً بالمواعيد ... فكان تعليلُها عنوانَ تفنيد
إلى متى وإلى كم لا أرى زمنى ... إلا كذا بين تقريب وتبعيد ؟؟
قالوا ذكاؤك محسوبٌ عليك كما ... يُرى ، فقلت : حديث غير مردود

وما كان أغنى الشاعر عن هذه الضراعة والذِّلة ، وهذا الإلحاح المشين فى الطلب ، وأغلب الظن أنه لم يكن يراه بهذا المنظار ، وإنما يقتفى آثار الألى عَبَّدوا له طريق المدح والإلحاف فى المسألة من لدن النابغة الذبيانى حتى عصر إسماعيل ، ولم يجد فى قوله هذا ما يخل بالكرامة أو يَشين المروءة ؛ ونحن إنما نحكم عليه وعلى أمثاله من الذين طَبعوا الشعر العربى بهذا الطابع ، لأننا فى عصر تغيرت فيه قيم الأشياء ، وصرنا نعتد بالأدب الشعبى القومى ، وبالشعور الخاص ، والعواطف الكامنة فى نفس الأديب ، ونجوى خياله وروحه أكثر من التفاتنا إلى شعر المناسبات ، والسير فى ركاب العظماء ، والتمدح بمناقب الأغنياء ، ولكننا نتساءل : ألم يكن بمصر أمراء يكفون الشاعر لو تقرب منهم مؤنة هذا التسول ؟ ؟ ولماذا قصَّر فى مدح اسماعيل العظيم إذا لم يثبه سعيدٌ على مديحه إياه ثواباً يرضيه ؟ وهل ثلاث قصائد تكفى فى اسماعيل وهو من هو حَدَباً على الأدب والأدباء ، وهو الذى أظل بعطفه العَلَيَّين أبى نصر والليثى ، وهما دون الساعاتى قدرة على النظم ، ومتانة شعر ؟ وسمو خيال ؟ ، أيهما المقصر : إسماعيل إذ لم يضم إلى حاشيته وندمائه هذا الشاعر ؟ أو الساعاتي إذ انصرف إلى مديح آل عون بمكة . واشتهر بإخلاصه لهم ، وجعل شعره حبساً عليهم إلا القليل ، ورأى أن باب اسماعيل قد سبقه إليه شاعران آخران واحتلا لدنه مكانة ومقاماً ؟ فلم يشأ أن يدع طريقاً عرفه ، ونوالا جربه وذاق حلاوته ، وينافس آخرين فى أمر لا يعرف مصيره ، فظل على ولائه لآل عون يمدحهم فى كل مناسبة : إذا غزوا ، وإذا أَبلوا من مرض ، وإذا ولد لهم مولود ، ويقول فيهم :

أُحبهم ما دمتُ حياً ديانةً ... وأرغب لكن عن سواهم ترفعا

وقد سار شعرى بين شرق ومغرب ... فما اختار غير البيت والآل موضعاً
وما طار فى الآفاق بدعا مديحهم ... ولكنه نَشْرٌ ذَكِيٌّ تضوعا

وكان يرى أنهم هم الذين أطلقوا لسانه بعطاياهم ، وعلموه الشعر ، ولولاهم ما نظم قصيداً :

نظمت حالى ولولا سِلْكُ فضلكم ... ما كان قولى ولا فعلى بمنتظم
علمتنى الحمدَ والشكر الجزيل على ... فعل الجميل بما توليه من نعم
ما كنت لولاكم أبغى الفوائد من ... نظم الفرائد فى اسم ولا علم

وعلى الرغم من هذا الولاء ، ومن دءوب الشاعر على مدحهم فى كل مناسبة وهو عنهم بعيد ، فإنهم لم يستجيبوا لرجائه بدعوته إليهم ، ولعل للمنافسات التى كانت بين الشاعر ، وبين بعض الحجازيين (١) أثراً فى هذه الجفوة ، فقلما خات حاشية أمير عظيم سمح النفس سخى اليد من أمثال هؤلاء الحساد لكل من نال لديه حظوة أو نبغ وقصروا . وما أمر المتنبى وسيف الدولة بمجهول ، ولقد بُلى الساعاتى بمثل ما بلى به المتنبى من هؤلاء النحاة الذين يحاولون الوقيعة بينه (٢) وبين ممدوحه كما فعلوا مع أبى الطيب من قبل ، ولكنه انتصر

---

(١) من المنافسين للشاعر فى الحجاز الشيخ زين العابدين المكى ، وكان نحوياً ، اعترض مرة على قول الساعاتي .

وأبصرت فى كف ابن عون مهنداً ... يرويه قرم بالضراب خبير

بأن الضراب فى اللغة : النكاح ، وليس فيها ضراب بمعنى الضرب ، واحتج الشاعر مؤيداً رأيه بقول الحارث بن ظالم المرى :

وقومى إن سألت بنى لؤى ... بمكة علموا الناس الضرابا
أقاموا للكتائب كل يوم ... سيوف المشرفية والحرابا

واستشهد بقول المتنبى وكان من الحفاظ لشعره :

كل السيوف إذا طال الضراب بها ... يمسها غير سيف الدولة السأم

وقوله : إنما بدر رزايا وعطايا ... ومنايا وطعان وضراب

وقوله : بغيرك راعياً عبث الذئاب ... وغيرك صارما ثلم الضراب

فأفحمه بهذا الاستشهاد وفات المكى أن الضراب مصدر قياسى لضارب كقاتل وناضل ، ولكنها حزازات النفوس تزل الخطا .

(٢) من ذلك أنهم خطئوه فى قوله يمدح الشريف ويصف أعداءه بالجبن .

كأنهم فوق السوابق خرد ... لهن متون الصافنات جياد

بأن فى ذلك انحطاطاً لمقدار من يقاومه حيث شبههم بنسوة ، فكأنه انتصر على نساء لا على =

عليهم فى كل مرة تعرضوا فيها لأدبه ، وأغلب الظن أنهم لم يتركوه يهنأ بهذه المنزلة ، وحاولوا جهدهم أن يزحزحوه عن مكانته ، وفى ذلك يقول معرضاً بهم :

لا تَعْدلوا بالشعر كلَّ مُعَمَّم ... كالثور ذى القرنين بالأسكندر
ما كلُّ من يملى القصيدة ناظم ... قد ينتمى للشعر من لم يشعر
لو كان فيهم شاعر لوقفت فى ... ديوانه أدباً ، ولم أتكبر
يا آل محسن لم يزل إحسانكم ... يدع الدنىء على حماكم يجترى

بل يحاول أن يوقع بهم كما حاولوا الوقيعة به ، وأن يفسر بغضهم له لإخلاصه لآل عون:

فما أبغضوا مثلى سُدى غير أنهم ... يَعدُّون مدحى فيكم كالمآثم
ألم ترى حساناً ولى أسوةٌ به ... وما كان يلقى من عدا آل هاشم
إذا زعموا أنى مع الفضل جاهل ... فقل لهمُ : هاتوا فصاحة عالم
فدعنى من قول النحاة فإنهم ... تعدَّوْا لصرف النطق فى غير لازم
وما أنا إلا شاعرٌ ذو طبيعة ... ولست بسراق كبعض الأعاجم

شعره :

قدمنا عند الكلام على الساعاتى ، والمدرسة التى ينتمى إليها بأن له شخصيةً فى شعره ، وأن هذه الشخصية استطاعت البروز والوضوح على الرغم من كثافة التقاليد الشعرية الموروثة.

أجل ! استطاع أن يتخلص فى بعض قصائده من المحسنات البديعية ، وأن يرتفع بديباجته عن درك الغثاثة والرِّكَّة ، وأن يعبر عن شعوره تعبيراً واضحاً وأن يشعرك على الرغم من معانيه المطروقة بأنه أحسن التقليد وأضفى عليه شيئاً من نفسه وروحه . ومع كل هذا فمعظم شعره من ذلك النوع الذى ساد أيام المماليك و بنى عثمان ، وقلما خلت قصيدة من تأريخ شعرى ، وتعمد للصناعة والزخرف .

= أبطال ، ومكنته ذاكرة واعية لما استظهر من شعر المتنبى فى الصغر من إفحامهم بقوله يمدح سيف الدولة :

فصبحهم وبسطهم حرير ... ومساهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة ... كمن فى كفه منهم خضاب

١ — ترى الشاعر يجيد فى الحماسة ، ويقوى شعره وتشرق ديباجته ، اسمعه يقول مادحاً سعيداً باشا ، وقد عزم على زيارة المصطفى عليه السلام :

ملأتَ قلوبَ العُرب رعباً فما درَوْا ... بعثت لهم بالكُتب أم بالكتائب
تركتهم فى أمرهم بين صادقٍ ... وآخر فى تيهٍ من الظن كاذب
تسير لهم فى بحر جيش عرمرم ... يفيض بموج الحتف من كل جانب
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت ... جبالٌ عليها الذلُّ ضربةَ لازب
فكيف إذا يممت بالشهب أرضهم ... وزاحمت ما فى أفقهم بالنجائب
وجُرْد عليها الأسدُ فى قصب القَنَا ... ترى الأسد فى الآجام مثل الثعالب

وخيرٌ من هذا قوله يمدح الشريف ابن عون ويصف غزوته لبنى سليم :

وأضرمتمُ النيران فيهم وأضرموا ... لهم نار حرب مثل نار الحُباحب (١)
كررتمْ على أهل الجبال بمثلها ... جبالُ رجال سُيِّرَتْ بالركائب
وما ثبتوا إلا قليلا وزلزلوا ... وأبطالُكم ما بين ضار وضارب
رأوا باتراتِ البيض تُغْمد فيهم ... وتخرجُ من أصلابهم والترائب
فملّوا ومالوا للهزيمة بعدها ... ومِلتم على أرواحهم مَيْلَ ناهب

فهذه الديباجة القوية ، وهذه الفحولة قد طال انتظار الشعر العربى لها ، ولعل فى حفظ الشاعر للمتنبى ما جعله يجيد فى الحماسة ووصف المعارك ، كما كان المتنبى يجيدها وهو يمدح سيف الدولة ، وقد شهد الساعاتى معارك آل عون مع أعدائهم كما شهد المتنبى معارك سيف الدولة مع الروم وغيرهم .

٢ — ومن الأغراض التى وُفِّق الشاعر للقول فيها العتاب ، وقد سلمت له أبيات جيدة فى هذا الباب مثل قوله يعاتب آل عون :

إنى على العهد القديم وإنما ... حَظُّ الأديب عداوةُ الأرزاق
عاملتمونى بالجفاء ، رويدَكم ... الوردُ ذو أَرَجٍ بلا إحراق

---

(١) الحباحب : فراشة صغيرة تضىء بالليل.

مالى أراكم تنكرون مكانتى ... الشمس لا تخفى مع الإشراق
قلدتمُ غيرى الجميلَ وقلتمُ ... حسْبُ المغرِّد زينةُ الأطواق
أسديتمُ الجدوى له وسددتم ... طُرَقَ الرجاء علىّ بالإطراق
إن لم يكن مثلى يسىء ومثلكم ... يُغْضى ، فأينَ مكارم الأخلاق ؟

ويقول معاتباً صهراً له :

هلا اتخذتمْ سوى أعراضنا غَرَضاً ... يُرمى وصيرتمُ الإكثار تقليلا
إنا لنضرب صفحاً عن بوادركم ... ولو أردنا أسأنا الرد تنكيلا
لكن نصون عن الفحشاء ألسنة ... هى الأسنةُ تجريحاً وتعديلا
فليتكم تحسنون الظن إذ حَسُنَتْ ... منا الظنونُ ، وكان الود مأمولا
رأيتُ وصلكم قطعاً وحبَّكم ... بُغضاً ونصرَكم للصهر تخذيلا

ومن عتابه الرقيق قوله :

كنا وكنتم فأكثرنا زيارَتكم ... ونحن مثلان فى فقر وإفلاس
كانت مناسبةُ الحالين تجمعنا ... ومن يدوم على حال من الناس ؟

والعتاب كما نعلم ليس باباً جديداً فى الشعر العربى ، بل طرقه قبلَ الساعاتى كثيرون ، وأتت معانيه فيه مما وردت عند غيره من شعراء العتاب ، وكان الساعاتى أحياناً يستعمل الكلام المألوف العادى فى العتاب حتى يفهم المعاتب ما يقول .

٣ — وقد ظهرت شخصيته فى نصائحه التى قدمها لممدوحيه ، والتفاته للشعب ، وطلب الرأفة به ، وحسن معاملته ، كقوله للشريف ابن عون :

فما استقام عمادُ الملك منتصباً ... إلا إلى قائم بالعلم والعمل
ودولةُ المجد ما انقادت ولا خضعت ... إلا إلى عادلٍ للشرع ممتثل
ما راقب الله مولىً فى رعيته ... إلا وأدركَ منها غاية الأمل

ويطلب العفو لأعداء ممدوحه محاكياً المتنبى فى توسطه لدى سيف الدولة لبنى كلاب ، فمن ذلك قوله :

للسلم قد جنحوا فمنُّوا واصفحوا ما قتلُ نصفهم من الإنصاف
وإذ أساءوا أحسنوا لمسيئهم وارعوْا مقام بقية الأحلاف
وإذا همُ اقتتلوا وشدوا أصلحوا ما بينهم خيرٌ من الإجحاف

٤ — وكانت له دعابات طريفة تدل على روح مرحة ، وبديهة طيعة ، ونكتة رائقة وهذا طابع المصريين غالباً لا يستطيعون عنه حِوَلا ، فمن ذلك قوله يعزى منافسه وحاسده الشيخ زين العابدين المكى ، وقد نفقتْ فرسه فى طريق جده :

قضت وهى تدعو فالقَ الحبِّ والنوى بقلب كئيب دقَّه الحب والنوى
فكيف نعزى الشيخ فى الفرس التى به طوت الأسفار صبراً على الطوى
وكانت به تجرى مع الريح خِفَّةً وأشبعها جرياً فعاشت على الهوى
وإن حملت مالا تُطيق لضعفها تعوَّجَ منها الظهرُ والذنبُ استوى
قضت ، وهى ما ذاقت شعيراً لزهدها فما شعَرت إلا وعُرقوبها التوى
ألا أيها الخِلُّ الذى طال حزنُه عليها وفى أحشائه التهب الجوى
فعش أنت واسلم والحميرُ كثيرةٌ ومثلُك معدومُ النظير لما حوى

ألا تذكرنا هذه القصيدة بالبهاء زهير حين يقول :

لك يا صديقى بغلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسب أنها فوق الطريق مشكله

هى روح الدُّعابة المصرية تتجلى دائما حين ينطلق شعراء مصر على سجيتهم لا يتكلفون القول ، ولا يتزمتون .

ومن دُعاباته الظريفة قوله مُعَرِّضاً ببعض النحاة وواصفاً لهم ولحركاتهم ولخلطهم :

إذا ارتفعت بالنحو أعلامُ علمنا جعلنا جواب الشرط حذفَ العمائم
ليعلمَ من بالنَّصْب يرفعُ نفسه بأن حروف الخفض غيرُ الجوازم
ويعلمَ من أعياه تصريفُ إسمه بأنّا صرفناه كصرف الدراهم
نصبنا على حال من العلم والعلى وكنا على التمييز أهلَ المكارم

لأنا رأينا كلَّ ثور معمم يكلِّف قرنيه بنطح النعائم
يجر من الإذلال فضل كسائه كأن الكسائى عنده غير عالم
إذا نظر الكرّاس حرك رأسه وصاح : أزيد قام أم غير قائم ؟
وقال : المنادى اسمُ شرطٍ مضارع وظرفُ زمان نحو جاء ابن آدم
وجمعكُ للتكسير اسم إشارة كقولك نام الشيخ فوق السلالم

٥ — وقد تغنى الشاعر فى بعض قصائده بمصر وأمجادها ، وإن لم يُظهر من الروح الوطنية مثل الذى أظهره رفاعة الطهطاوي ، فمن ذلك قوله مادحاً إسماعيل باشا .

على أنها من جنة الخلد غيضةٌ رياضٌ بها عين وأنت ضياء
فأبصرتَ فردوساً تدانت قطوفها وللنيل فيها كوثر وشفاء
ومصر هى الدنيا جميعاً وربُّها عزيزٌ وأهلوها هم النجباء

وكان الساعاتى يدرك أنه مطبوع على قول الشعر ، وأنه استطاع أن ينجو ببعض شعره من آفات القول ، وأوضار الشعر التى انتشرت فى زمانه ، وقبل زمانه ، ويقول فى هذا :

فلا تحسبَنِّى بالوضيع مكانةً فى القائلين وما أقول هُذاء

ويقول :

رويتُ جليلا فى جليل من الثنا فكان عقوداً لا كلاماً معقدا

ويقول :

وما أنا إلا ناظمٌ دُرَّ فكرتى ولم أنتحل فيما أقول وأسرق

ويقول :

وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم

على أن هذا كله لايعفى الشاعر من أنه أراق ماء وجهه فى الطلب حيث يقول مادحاً توفيق باشا :

أريد وروداً من نداكم لأرتوى كما يطلبُ الصادى على البعد موردا
فسيرت آمالى دليل قصائدى لنيل الأمانى علَّ أبلغ مقصدا

وأنه كان يرى الشعر ثمناً للمال ، وأن المسألة بيع وشراء ، وأخذ وعطاء :

منى المدائحُ والمنائحُ منكم لا غَبْنَ إن كليهما آلاء

تعتاض من بذل النضار جواهراً هذا بذاك وفى البقاء نماء

وأنه أسرف فى الصناعات اللفظية ، واستعمال المحسنات البديعية كما يدل على ذلك معظم شعره ، وقد نظم قصيدةً كاملة فى مدح الرسول عليه السلام معارضاً بها ابن حجة الحموى ، والبوصيرى ، وكل بيت منها يشتمل على محسن بديعى ، وفيها يقول ، وقد بلغ عدد أبياتها مائة وخمسين بيتاً :

براعة استهلال

سفحُ الدموع لذكر السفح والعلم أبدى البراعةَ فى استهلاله بدم

التورية

وكم بكيت عقيقاً والبكاء على بَدْر ، وتوريتى كانت لبدرهم

الجناس التام

أقمار تِمٍ تعالَوْا فى منازلهم فالصَبُّ مدمعه صَبٌّ لبعدهم

وأن الشعر عنده ، كما كان عند معاصريه ، مهارةٌ لفظية ، وصناعة خالية من الروح والشعور ، ومقدرة على صياغة منظومة فمن ذلك قوله موريا :

قالوا : اتخذ لك خادماً فأجبتهم أنى يكون لناظم الشعر الرقيق

قالوا : التمس لك طيب عيش قلت لا يُرْجى لرب اللفظ والمعنى الدقيق

وقوله فى الجناس ، وكل القصيدة على هذا المنوال :

أيا من به صار الزَّمان سعيداً ومن كل من وافاه آنس عيدا

أما التاريخ الشعرى ، والأحاجى والألغاز فكثيرة . وهذا وقد شغل الساعاتى عدة مناصب فى الدولة ، فمن موظف بالمعية ، إلى موظف فى مجلس الأحكام المصرية (وكان بمثابة هيئة الاستئناف العليا فى عهدنا) ، وكان يرأسه الأمير إسماعيل باشا فى عهد سعيد .

ومدح من أمراء مصر سعيداً ، وإسماعيل ، وتوفيقاً ، ومات فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م قبل أن تندلع الثورة العرابية .

٤ - عبد الله باشا فكرى :

وهو يمثل المدرسة الثالثة من المقلدين ، تلك المدرسة التى قلد أربابها بلغاء القرن الرابع كالصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وقلدوا كذلك فى حياتهم وأسلوبهم وتنميق رسائلهم القاضى الفاضل ، وابن مطروح ، واستطاعوا بما أوتوا من تضلع فى اللغة ، وتمكن من الأدب ، وذوق مرهف حساس ألا يكونوا صدى لهؤلاء الكتاب القدامى ، بل أضفوا على ما كتبوا طابعهم وشخصيتهم ، ومثلوا عصرهم بعض التمثيل ، فتشعر حين تقرؤهم أنك تقرأ كتاباً فى القرن التاسع عشر ؛ وذلك لخوضهم فى الموضوعات الحيوية للبلاد ، ولتخلصهم فى بعض الأحيان من قيود الماضى جملة ، فلا سجع ولا تنميق ولا تزويق ولا محسنات ، وإنما يتبعون طريقة ابن خلدون فى الترسل مع متانة نسج وحسن عرض . وإن كانوا فى كثير من الأحيان ، ولا سيما حين يحتفلون بكتاباتهم ، أو يراسلون عظيماً أو أديباً ، أو يتحدثون عن لسان السلطان أو الأمير ، يعمدون إلى الأسلوب الشعرى المنثور ، بما فيه من خيال وسجع ، وفقرات تختلف طولاً أوقصراً ، ويزخرفون كتابتهم ويرصعونها بشتى الحلى اللفظية والمعنوية ، وهنا تتضاءل شخصية بعضهم وتحافظ شخصية آخرين على وجودها فى وسط هذه الزينات والتقاليد تبعاً لتمكن الكاتب من موضوعه ، وحذقه للغة ، ومتانة شخصيته وتميز خصائصها .

كان لديوان الإنشاء فى الدول العربية منزلة سامية ، يتوصل به الكاتب والشاعر إلى أرقى مناصب الدولة ، منذ سهل بن هارون ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وابن العميد والقاضى الفاضل ، وابن مطروح . وقد مضى على مصر حين من الدهر استعجمت فيها لغة الدواوين ، وسادت التركية ، وصدرت بها قوانينها ورسائلها ، ووصلت العربية إلى الحضيض ولم يبق فيها إلا ذماء يسير . وحاول إسماعيل — كما ذكرنا — بعث اللغة العربية ، وترجمة

القوانين التى صدوت من عهد محمد على حتى أيامه من التركية إلى العربية ، كى يسهل عليه الانفصال عن الدولة العثمانية حينما تلوح الفرصة ، وقد كان لعبد الله باشا فكرى يد كريمة فى هذا العمل الجليل ، فبعثَ اللغة الديوانية ، لا ركيكة ولا سخيفة بل ممتلئة رونقاً وقوة ، فصار نموذجاً يحتذى ، وأستاذاً يأخذ الناس عنه طريقة الكتابة الديوانية ، وتدبيج الرسائل الأدبية .

ولد بالحجاز سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م من أب مصرى (١) وأم من بلاد المورة وعاد به والده إلى مصر بعد عودة جيوش محمد على من الحجاز ، ولكنه توفى ولما يبلغ عبد الله الحادية عشرة من عمره ، فكفله بعض أقاربه ، ودخل الأزهر وتلقى العلوم المتداولة على كبار مشايخه ، وكان فى نفس الوقت يدرس اللغة التركية فلما حذقها عين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدائى ، وظل مع اشتغاله بالوظيفة يتردد على الأزهر و يتزود من علوم اللغة والشريعة، إلى أن ضاق وقته عن الجمع بين طلب العلم والوظيفة فانصرف عن الأزهر ، والتحق بعدة وظائف ديوانية ، ثم عين بمعية سعيد باشا ، وتولى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية والعربية ، وظل فى منصبه حتى تولى إسماعيل عرش مصر فأبقاه ، وقربه وسافر معه مرات إلى الآستانة ؛ ثم عهد إليه بتثقيف أولاده وغيرهم من أمراء الأسرة ، فكان يباشر تعليمهم أحياناً ، أو يشرف على المدرسين أحياناً أخرى . ولما نقل إلى وزارة المالية كان له الفضل فى جمع الكتب الموجودة بها ، وضمها إلى دار الكتب حين أنشأها على باشا مبارك . و بعد ذلك عهد إليه بترجمة اللوائح والقوانين وتنقيحها فأدى هذه المهمة الجليلة على أكمل وجه ؛ ثم عين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية ، فرفع مستواها وجعلها صالحة لتغذية المدارس الأميرية ، فوكيلا لنظارة المعارف مع شغله منصب الكاتب الأول فى مجلس النواب ، وقد ارتقت طريقة تعليم العربية على يده وهجرت طريقة الأزهر ؛ ثم عين وزيراً للمعارف فى

---

(١) أبوه محمد بليغ بن الشيخ عبد الله ، وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين بالأزهر ، أما محمد والد عبد الله فكرى فكان مهندساً بالجيش ، ووصل فيه إلى رتبة صاغ ، وحضر عدة مواقع حربية منها حرب المورة ، وفيها تزوج أم عبد الله فكرى ، وولدته بالحجاز حين ذهبت مع زوجها فى الحرب السعودية .

وزارة محمود باشا البارودى ، ولما استقالت الوزارة بسبب الثورة العرابية ، اتهم بممالأته للثوار بعد انتهاء الثورة ، وقبض عليه ولكنه برئ ، فأطلق سراحه وعاقبوه بقطع راتبه ، فراح يستعطف الخديو توفيق ، وقال فى ذلك قصيدته المشهورة :

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا

فعفا عنه توفيق ، وأعاد إليه راتبه . وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الحجاز ولبنان ولقى فيهما كل ترحاب و إجلال لمكانته الأدبية ، و لما رأى فيه أهلهما من سعة علم وعظيم فضل ، وحسن حديث .

وفى سنة ١٨٨٨ مثل مصر فى مؤتمر المستشرقين باستكهلم عاصمة السويد وصحبه نجله أمين باشا فكرى ، وقام بسياحة عظيمة شهد فيها معظم عواصم أوربا ؛ ولما عاد عكف على تدوين رحلته ، ووصف ما شاهد من المناظر فى أوربا ، وما رأى من آثار الغرب ، وكيف استطاع العقل البشرى أن يسخر الطبيعة ومواردها لخدمة الإنسان ، غير أن المنية لم تمهله فقضى بعد عودته بزمن وجيز ، وأتم نجله أمين باشا كتابة الرحلة وسجلها فى كتاب أسماه (إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا) فى سنة ١٨٩٢ هذا وقد توفى عبد الله باشا فكرى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م .

ونرى من حياته التى سردنا تاريخها موجزاً أنه ديوانى بالنشأة والمربى والعمل ، فلا بدع إذا تجلى أثر عبد الله باشا فكرى فى الكتابة الديوانية ولما كنا فى صدد ذكر الشعراء الذين ظهروا فى عصر اسماعيل والمدارس التى ينتمون إليها ، وقدمنا أن عبد الله باشا يمثل إحدى هذه المدارس التقليدية كان حرياً بنا أن نذكر نماذج من شعره ؛ على أنه يمثل بكتابته تلك المدرسة التى تظهر فيها شخصية الكاتب والأديب واضحة بعض الوضوح أكثر مما يمثلها بشعره ، بل إن شعره ينتمى إلى مدرسة على أبى النصر أو الساعاتى ؛ وذلك لأن عبد الله باشا تفوق فى نثره تفوقاً باهراً وكان كاتباً أكثر منه شاعراً :

كان يمثل فى شعره مدرسة الصنعة لا مدرسة الطبيعة ، يؤرخ لكل مناسبة ، ويشطر ويقول الألغاز والأحاجى ، ويقول كما يقول الندماء فى وصف الآنية ومجالس

الأنس والأزهار وغير ذلك ، ويكثر من المحسنات ينتزعها انتزاعاً ، ويحشرها حشراً شأن هذه المدارس التقليدية ، وقلما انطلق على سجيته ، وترك نفسه لطبيعتها .

اسمعه يؤرخ زواج الأمير حسين كامل بالأميرة عين الحياة :

بَشِّر بأحسن فألٍ يقول والقولُ يصفو
أرِّخ لنحو حُسينٍ عَيْنُ الحياة تُزَف

ويقول فى المناسبة :

بشرى بطالع سَعدٍ بالبشر واليمن آتى
تزف للبدر شمس تسمو على النيرات
بخير فأل سعيد يُومِى لطول حياة
يقول والفأل حقٌ عن سيد الكائنات
أرخْ لنحو حسين تزف عين الحياة

٩٤ ١٢٨ ٤٨٧ ١٣٠ ٤٥٠ المجموع ١٢٨٩

ويؤرخ لانتصار الأتراك على الروس ، وأخذهم ميناء سباستبول بعد تخريب قلاعها سنة ١٢٧٢ هـ ، وكل مصراع من المطلع يساوى هذا التاريخ .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القِرْم هان لنا الصعب
وقد ذَلّت الأعداء من كل جانبٍ وضاق عليهم من فسيح الفضا رَحْبَ
بحرب تُشيب الطفلَ من فَرْط هولها يكاد يذوب الصخرُ والصارم العضب
إذا رَعَدَتْ فيها المدافع أمطرتْ كئوسَ مَنُونٍ قَصَّرت دونها السُّحْب
تجرع آلُ الأصفرِ الموتَ أحمراً وللبيضِ فى مُسْوَدِّها ماتهم نَهْب
تراهم سكارى ، للظُّبا فى رءوسهم غناء ، ومن صرف المنايا لهم شرْب

وقد سقنا مع البيت الأول الذى فيه التاريخ بعض أبيات من هذه القصيدة لنرى مدى قوته فى وصف الحرب ، وقد مر بنا شاعر معاصر له أو قريب منه أجاد فى هذا الغرض ، ألا وهو الساعاتى . إن أثر الصنعة ، وضعف النسج ، وضحالة الخيال ، وتفاهة المعانى ،

واقتناص المحسنات ، كلها محشودة فى هذه الأبيات .

وهاك مثلاً آخر يقلد فيه القدماء فى معانيهم وأخيلتهم بما لا يناسب قاهريته وحضارته فتشبيهات قديمة ، وخيال سخيف ، وديباجة ضعيفة ، وجرى وراء المحسنات ، وموضوع هذه القصيدة المديح ، وقد ابتدأها بالنسيب كما كان يفعل القدماء قال :

أزاحت ظلامَ الليل عن مطلع الفجر ... وقامت تُدير الشمسَ فى كوكب دُرِّى
وهزت على دِعْصِ النَّقَا غُصنَ بانة ... ترنَّح فى أوراق سندسه الخضر
ومالت بها خمر الصِّبا مثلما انثنت ... نسيم الصَّبا بالأملد الناعم النَّضْر
من الترك لم تتركْ لصبٍ مَحَجَّةً ... إلى الصبر أو نهجاً لعذل إلى العذر
وبيضاء سوداء اللحاظ غريرةٍ ... من الغيد رَيَّا الرِّدْف ظامئة الخصر
ممنعةٍ لا تجتنى وردَ خدِّها ... يدُ اللحظ إلا بين شوك القَنَا السمر
من الروم مثلَ الرِّيم جِيداً ولفتةً ... ولحظاً ومثلَ الغصن والشمسِ والبَدْر

فهى لم تترك لصب محجة إلا لأنها من الترك ، وهى مثل الريم جيداً ولفتة لأنها من الروم ، ومالت بها خمر الصِّبا مثلما انثنت نسيم الصَّبا بالأملد النضر ، وهزت على دِعْص القنا غصن بانة ... وغير ذلك من هذه العبارات المحفوظة والقوالب المعدة ، وذلك الوصف المادى الرخيص الذى لا يمثل المرأة إلا سلعة .

وقد قال فى الأغراض التى نظم فيها كتاب الدولة الأيوبية ورؤساء دواوين الإنشاء ، فكان يصف الآنية والأزهار ، ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم فى عصر الأيوبيين وما بعده ، خلال المنادمات والمطارحات ، فمن ذلك قوله يصف ناراً موقدة فى فحم حوله رماد .

كأنما الفحمُ ما بين الرَّماد وقد ... أذكت به الريح وَهْنا ساطع اللهب
أرضٌ من المسلك كافورٌ جوانبُها ... يموج من فوقها بحرٌ من الذهب

وقال فى الورد :

كأن ورداً لاح فى كُمِّه ... يزهو بثوبَىْ خضرة واحمرار
يا قوتة فى سندس أخضر ... أو وجنة خُطَّ عليها العذار

ياقوتةٌ فى سندس أخضر أو وجنة خُطّ عليها العذار

وكان يقول الشعر فى أغراض التظرف مثلماً ما قالوا ، وله فى هذا بعض المقطوعات الصغيرة ، فمن ذلك قوله مجيباً مليحاً قال له كيف أصبحت ؟

أصبحتُ من فَرْط وجدى فيكَ ذا شجن وكانت الروحُ كادت أن تفارقنى

فمذ لقيتك كلُّ الهم فارقنى وألف الله بين الروح والبدن

وقال فى مليح رآه أول الشهر مستعملا الجناس التام :

وبدرٍ تبدى شاهراً سيفَ جفنه فروَّع أهلَ الحب من ذلك الشهر

وليلةَ أبصرنا هلال جبينه علمنا يقيناً أنها غرة الشهر

وقال يتغزل :

كتبتُ ولولا دمعُ عينىَ سائلٌ تلظى جوابى من تلهب أنفاسى

وعندى من الأشواق ما لم يَبُحْ به لسانُ يراعٍ فى مسامع قرطاس

ولى من تباريح الهوى وشجونه أحاديثُ تُلْهى الشَّرْب عن لذة الكاس

ولو كنتُ من دهرى أنال مآربى لسِرْتُ لكم سعياً على العين والراس

وكتب يعتذر للشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى عن دعوة وصلته منه متأخرة[1] .

يا من بديعُ حُلاه تزرى البديع وتنسى

وافت عقيلةُ نظم تتلو فصاحة قُسِّ

كالبدر لاح سناه من بعد مغرب شمس

فغادرتنى صريعاً نشوانَ من غير كأس

فمُنَّ بالعفو إنى منه على غير بأس

---

(١) وصلت رقعة الشيخ الإبيارى بعد غروب الشمس وفيها يقول :

يا نور فكرى وسرى وروح روحى ونفسى

لدى شامة شام لطيف معنى وحس

يود كل أديب لقياه رغبة أنس

فإن تمن فشرف من قبل مغرب شمس

وإن عتبتَ فحقٌ وما أبرئ نفسي

وكتبَ إلى أحمد فارس الشدياق رَدًّا على قصيدة له :

تَفْدِيكَ نفسُ شجٍ عليلٍ آسى عَزَّ الدواءُ له وحارَ الآسى
أضناهُ طولُ أساه حتى إنّه يحكى لفَرْط ضَناه ذاوى الآسِ
هزَّته ساريةُ النسيم ، وقد جرَتْ بشَذَا فَرُوقَ أريجةَ الأنفاس (١)
فكأن فى طىِّ الشَّمالِ ، إذا انثنى من نَشْرِها طَرَباً ، شمولُ الكاس (٢)
وكأنها حملت إلىَّ رسالةً غرَّاءَ جاءَتْ مِنْ أغرَّ مُواسى
كمليحةٍ عذراءَ وافتْ صَبَّها من بعد طُولِ تعذُّرٍ وشماسِ
يَفترُّ مَبْسِمُها بحسن حديثها عن سحر فاتنِ جَفْنِها النَّعَّاسِ
تدنو فيُطمِعُ عاشقيها أُنْسُها ويُشير عِزُّ دلالها بإياسِ
أو رَوْضةٍ فيحاءَ حيَّاها الحيا من صَوْبِ محلول العُرى رَجَّاسِ (٣)

وكل هذا الذى رويناه له شعر مصنوع لا يُفْصح عن طبع وسليقة ، أو شعور دفعه إلى القول بما يختلج فى نفسه . ومن هذا النمط قوله فى الحكمة والمواعظ :

إذا رمت المروءةَ والمعالى وأن تلقى آله العرش برًّا
فلا تقربْ لدى الخلوات سراً من الأفعال ما تخشاه جهراً

وقوله ينصح ولده أمين باشا وهو صغير :

إذا نام غِرٌّ فى دُجى الليل فاسهر وقم للمعالى والعوالى وشمِّر
وخلِّ أحاديث الأمانى فإنها عُلالةُ نفسِ العاجزِ المتحير
وسارع إلى ما رُمْتَ ما دمت قادراً عليه ، فإن لم تُبصر النُّجْح فاصبر
ولا تأتِ أمراً لا تُرَجِّى تمامه ولا مَوْرداً ما لم تجد حُسْنَ مصدر
وعَوِّد مقالَ الصِّدْق نفسك وارْضه تُصَدَّق ، ولا تركن إلى قول مفترى

---

(١) فروق . من أسماء استامبول . (٢) الشمول الخمر .
(٣) محلول العرى : المطر الغزير الذى لا يحجبه شىء ، والرجاس : الشديد الصوت .

ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن لكفيك فى الإنفاق إمساكُ مُقْتر
ولا تَقْفُ زلاتِ العباد تَعَدُّها فلستَ على هذا الورى بمسيطر

وهذا من الشعر التعليمى الذى لا ينبئ عن خيال عميق ؛ لأن الحكمة نظم للحقائق المجردة ، والحقيقة المجردة منتزعة من صميم الوجود ، وقائل الحكمة السائرة عالم بطباع الناس يضع العالَم أمام ناظريه ويشرف عليه من عَلُ ، وكأنه ينظر فى كفه فيستقرى الحوادث والطباع ، ثم ينطق بالحكمة تصلح لكل زمان ومكان ، من أمثال ما نظم المتنبى وغيره من فحول الشعراء ، وأين منهم عبد الله فكرى فى مواعظه المدرسية هذه ؟ على أنها تُعَدُّ من خير شعره ، وأسلسه وأوضحه .

ومن شعره ، وربما كان فيه شىء من الشاعرية ، لصراحته وتصويره نفسيةَ امرأة فرنجية تتجر بعرضها وتتهافت على المال ، وما حدث له معها :

وهيفاءَ من آل الفرنج حجابُها على طالبى معروفها فى الهوى سهلُ
تعلقتها لا فى هواها مُراقِبٌ يُخافُ ولا فيها على عاشق بخل
إذا أبصرتْ من ضرب باريز قطعةً من الأصفر الإبريز زَلَّ بها النعل
فلما تعارضنا الحديثَ تعرَّضت لوَصلٍ ومن أمثالها يُطْلب الوصل
فرُحْتُ بها فى حيثُ لا عينُ عائن ترانا ، ولا بَعْلٌ هناك ولا أصْل
وبِتُّ ولى سُكران من خمر لحظها وراح ثناياها ، ومن خَدِّها نُقْل
وقمت ولم أعلم بما تحت ثوبها وإن كان شيطانى له بيننا دخل

ومن أحسن شعره قصيدته التى يعتذر فيها للخديو توفيق ، ويتنصل من اشتراكه فى الثورة ، ويطلب إرجاع راتبه المقطوع ؛ وإن كانت معانيها مما يخطر لكل شاعر وليس فيها جديد !

كتابى توجه وجهةَ الساحة الكبرى وكَبِّر إذا وافيتَ واجتنب الكِبرا
وقف خاضعاً واستوهبِ الأذن والتمسْ قَبولاً وقَبِّل سُدَّة الباب لى عشرا

وفيها يقول :

مليكى ومولاىَ العزيز وسيدى ... ومن أرتجى آلاءَ معروفه العُمْرا
لئن كان أقوامٌ علىَّ تقولوا ... بأمرٍ فقد جاءوا بما زوَّروا نُكْراً
حلفتُ بما بين الحطيم وزمزمٍ ... وبالباب والميزاب والكعبة الغرَّا
لَماَ كان لى فى الشَّرِباعٌ ولا يد ... ولا كنتُ من يبغى مَدى عمره الشرا
ولكنَّ محتومَ المقادير قد جرى ... بما الله فى أم الكتاب له أجرى
أتذكرُ يا مولاىَ حين تقول لى ... وإنى لأرجو أن ستنفعنى الذكرى
أراك ترومَ النفع للناس فِطرةً ... لديكَ ، ولا ترجو لذى نَسْمَة ضُرَّا
فعفوا أبا العباسِ لا زلتَ قادراً ... على الأمر ، إن العفوَ من قادرٍ أحرى
أيجملُ فى دين المروءة أننى ... أكابد فى أيامِك البؤس والعُسْرا

ولعلنا بعد كل هذا الذى رويناه له قد أخذنا فكرة واضحة عن منزلته بين الشعراء ، وقد ذكرنا آنفاً أنه اشتهر بالكتابة ، وأنه كاتب أديب أكثر منه شاعر ؛ وشعره فى الواقع قليل إذا قيس بما ترك من مقالات ورسائل ، وكُتُب وشروحٍ وغير ذلك .

نثره

استطاع عبد الله فكرى أن يرتقىَ بالكتابة الديوانية ، وأسلوبِ الرسائل والمكاتبات إلى منزلة سامية ، وأعاد إلى الأذهان عصر رؤساء ديوان الإنشاء فى العصور القديمة ، واتخذ له خاتماً : « إنى عبدُ الله آتانىَ الكتابَ » ؛ لأن هذه الآية وافقت سنة ميلاده ١٢٥٠ هـ ، كما كان لهؤلاء الرؤساء خواتم .

وكان له أسلوبان فى نثره : أحدهما وهو الغالب وبه كتَب أكثر رسائله ، هو ذلك الأسلوب الذى يحتفى بعبارته ، وموسيقاه ويختار ألفاظه ، وبه خيال شعرى ، ومعان دقيقة معارضاً فيه أسلوب القاضى الفاضل ، أو بديع الزمان ، أو الخوارزمىِّ أو ابن العميد . وثانيهما أسلوبٌ مرسل سهل يجرى مجرى الكلام العادى وهو أسلوب الصحافة فى عهده ولكنه قليل فيما ترك من آثار .

ومن الأسلوب الأوّل قولهُ من رسالة لصديق ، بَيَّنَ فيها أحوالَ أهل العلم فى عصره ، منتقداً هذه الأحوال ، متهكّماً بهم فى لهجة ساخرة لاذعة ، قال : « كتبتُ والذهنُ فاتر ، من وَهْن الدفاتر والتبييضِ والتسويد ، والتقييد والتّسديد ، والترجمة وكثرتِها ، والهمةُ وفَتْرتها ، والماهيَّة وقلتها ، والنفسِ وذلتها ، وراتبى لا يكفى أجرةَ البيت ، ولا يفى ثمنَ الماء والزيت . وبالأمسِ وَعدَ الوكيلُ بالزيادة ، واعتذرَ اليوم بالأصيل على العادة ؛ على أنه لو حصلت زيادة ، فلزيدٍ ولعمرو ، إلى آخر الزَّمْر ولله الأمر . أحوالٌ متبدِّدة ، ونفوس متبلِّدة ، وأشغال متعددة ، وإخوان خُوّان ، وخِلان غيلان ، ورِفاق وما أجملَ الفراق ، وقلت :

إلام أعانى الصبرَ والدهرُ غادرٌ ... وحتى متى أشكو ومالىَ عاذر

ولو أننى أشكو عظائم شِدتى ... لميْتٍ لرقت لى العظامُ النواخر

وسألتَ عن فلان وفلان ، وهيَّان بن بَيَّان ، ممن ينتسب للعلم وأهله ، ويتظاهرُ بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحيةٍ تعظمُ وتُطوّل ، وشواربَ تُحَفُّ وتستأصلَ ، وعيونٍ على ما بها غَمض ورَمَضٍ تكحل ، وعمامة تعظم حتى ترْذُل ، وطيلسان يُلَفُّ ويسدل ، وكُمٍ يُوسَّع ويُسْبَل ، وأحاديثَ خرافةٍ تُقَصُّ وتنقل ، ومحفظة تُفْعَمُ وتَثْقُل ، وسِواكٍ يظهر من العمامة نصفُه ، وكتابٍ يخرجُ من الجيب طَرْفه ، ثم بتشدق فى الكلام ، وبتباله فى المرام ، وتعسف فى الأفهام ، وحِرْص على الحُطام ، ثم يقول الإنسان : حضرتُ درس فلان ، وسمعتُ من لفظه باللسان وقضيت فى العلم كذا سنةً من الزمان ، فهم أعلمُ مَن أقلته الغبراء وأفقه من أظلته الخضراء ، وإن كان للعلم غيرُ هذه الآلات ، فما لهم سوى هذه الحالات . غايةُ الأمر أنهم قَضَوْا أرذلَ العُمُر فى كتب معدودة وشروح موجودة ، وهم يكررونها ولا يدرونها ، ويقرِّرونها ولا يُحررونها ، ويتداولونها ولا يعلقونها ، ولو صرف حمارى هذا العمرَ فيها لأصبحَ فقيها ، وأضحى نبيها ؛ والذى يُظْهر مَيْنَهم وشينهم ، وعلامةَ ما بيننا وبينهم أن يؤمر أحدُهم برقعة تكتب لحاجة معهودة ، ويمتحن بكتاب غيرِ هذه الكتب المعدودة ، فيه بعض كلام العرب وأشعارها ، وشىء من وقائعها وأخبارها ، فإن كتب فصيحاً

وقرأ صحيحاً وفهم مليحاً ، عرفنا أنه شم عَرف العلم ، وذاق طعم الفهم ، وسلمنا إليهم ما يَدَّعون ، وتركنا لهم ما يأتون وما يَدُعون ، وإن ارتبك للرقبة ، ووقف حمار الشيخ فى العقبة عرفنا حاله وقلنا له :

أيها المدعى سُلَيْما سفاها لست منها ولا قُلامة ظُفر
إنما أنت من سُليم كواو أُلحقت فى الهجا ظلم بعمرو

وقد مررتُ بالأمس على أحدهم فى الدَّرس ، يقرأ القَطْر لابن هشام ، ويلحن لحن العوَام ، ومررتُ بآخرَ يدرس الكافى فى عِلْمَيِ العروض والقوافى يقرر قوله :

قف على دارهم وابكِيَنْ بين أطلالها والدمن

فلا ورِّبك ما أقام له وزناً ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه وظهور معناه . . الخ

ومن هذا النثر المسجوع قوله يصف حديقة :

ثم خرَجْتُ إلى حجرة خالية ، أعِدَّت فيها فُرُشٌ عالية ، وأدوات غالية ، وسطعت بها روائحُ الطيب والغالية ، وقد أُكملت وجوه تحسينها ، وأُتمت أسبابُ تزينتها ، وهى على حديقة ذاتِ أفنان ، وأنواع من الزهور وألوان ، وثمراتٍ حِسان ، وقد فاح الطيبُ من محاجر أزهارها ، وصاحَ الخطيبُ العندليبُ على منابر أشجارها :

رياضٌ كديباجِ الخدودِ نواضرٌ وماءٌ كسلسال الرُّضاب بَرود

فجلست أجيل فيها النظر ، وأتأمل محاسن الروض غب المطر ، وأطالع ما رَقَّمه الطَلُّ فى صحائف الغُدْرانِ ، وأرى خواتم الزَّهْر حين تَسْقُط من أناملِ الأغصان :

من قبل أن تَرْشِف شمسُ الضحى ريقَ الغوادى من ثُغور الأقاح

ومن ذلك الضرب من النثر الذى يذكرنا بكتاب الإنشاء فى الدولة الأيوبية وما قبلها . وفيه بعض القوة والعافية ، فى سجعات قصيرة الفقرات نوعاً قوله من رسالة :

« سلامٌ يعبِّر عن الوِداد طيبُ عَبيره ، ويُخبر عن إخلاصِ الفؤاد لُطْف تعبيره ، وثناءٌ على محاسن تلك الشمائل ، أرقُّ من نسمات الشمائل (١) . وتحيةٌ بهيَّةٌ تُباهى الخمائل

---

(١) الشمائل الأولى : الطباع ، والشمائل الثانية جمع شمال .

بنفحات أورادها ، وأدعيةٌ مَرْضيةٌ جعلتها الألسنةُ خيرَ أورادها ، وسؤالٌ عن المزاج الزاهر وصحة الخاطر الباهر . لا زلتم مَحَلَّ نعمةٍ يتصل على مدى الأيام بقاؤها ، ويزيد على مَرِّ الشهور والأعوام بهاؤها ؛ ولا بَرحت ثُغورُ الإقبال إليكم بواسم ، ورياحُ الآمالِ لديكم نواسم .

وبعد فإنى من الأسواق ، ما تضعُف عن حمله إلى حماكم الأوراق ، ومن التأسف على ما حُرمته من لُقْياكم ، والتلهف إلى مطالعة مُحَياكم ما يقصِّر عن وصفه لسانُ اليراعةَ ، ويَقْصُر دون وصفه بيانُ اليراعة ويضيقُ عنه نطاق العبارة ، ولا ينفسح له ميدان الإشارة .

ومن رسائله التى تذكرنا بأسلوب العصر العباسى الثانى عصر الصاحب بن عباد والخوارزمى . وابن العميد قوله معزياً :

« يَعِزُّ علىَّ أن أكاتبَ سيدى مُعزِّيا أو ألم به فى مُلمة مسلياً ، ولكنه أمر الله الذى لا يُقابل بغير التسليم . وقضاؤه الذى ليس له عُدَّةٌ سوى الصبر الكريم . وقد علم مولاى (أجمل الله صبره ولا أراه من بعدُ إلاَّ ما سَرَّه وشرح صدره) أن الله جل ثناؤه وتباركت آلاؤه — إذا امتحن عبده فصبرَ آجرَه وعوَّضَه بكرمه ، كما أنَّه إذا أنعم عليه فشكره زاده ، وضاعفَ له نِعمه ، وقد عُرِف من حال سيدى فى الشكر على السَّراء ، ما يستوجب المزيد منها ، والظَّنُّ بحزمه وعلمه أن يكونَ حالهُ فى الصبر على الضراء ما يستجلب الأجر عليها والتعويض عنها .

وقد استعمل عبد الله باشا فكرى الأسلوب المسجوع فى كل باب وغرض ، حتى فى التقارير الفنية ، والمنشورات العامة و (الفرمانات) فمن ذلك صورة (الفرمان) الآتى بتنصيب محافظ :

« صدر هذا الفرمان المُطاع ، الواجب له القبولُ والاتِّباع ، خطاباً إلى الحكام والعلماء ، والقضاة والأعيان ، والوجوه والعمد ومشايخ البلدان ، وعموم الأهالى المتوطنين فى محافظة كذا بجهات السودان . ليكن معلوماً لديكم بوصول هذا المنشور إليكم ، أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيبَ فلان محافظاً عليكم ، لما توسمناه فيه من الدراية والاستعداد والسلوك فى طرق

الرشاد ، و بذل الهمة فى أمور المصلحة ومزيد الاجتهاد الخ » .

ومن هذه النماذج المتقدمة نرى أن هذا الأسلوب على ما به من سجع ، فإنه سهل متين العبارة ، تقل فيه المحسنات المتعمّدة ، و يطرق أغراضاً متعددة منها : الديوانى البحت ، ومنها ما يستعمل فيه الشعر . وقد أفاد هذا الأسلوب الكُتَّاب من بعده ، وصار لهم قدوة ، ولكنه أخر تخلص النثر من طريقة هذه المدرسة الديوانية حتى أوائل عصرنا الحاضر ؛ لأن أرباب هذا الأسلوب شغلوا المناصب الرفيعة فظن الشادون فى الأدب أنهم لو قلدوهم لوصلوا إلى ما وصلوا إليه ، فتمسكوا بأسلوبهم أمداً غير يسير . والحق أن الغرض الأدبى المهم يحتاج إلى عبارة خاصة يحتفى بها الكاتب بعض الاحتفاء ، و يضعها فى قالب جميل تناسب الغرض الذى قيلت فيه حتى لا تذهب بنفاسة الموضوع تفاهة العبارة . وتجويد العبارة محبوب مرغوب فيه على شريطة ألا يُضحى بالمعنى من أجل لفظة أو سجعة أو محسن خاص . ولقد استطاع عبد الله باشا فكرى أن يسترد بأسلوبه هذا للغة العربية مكانتها التى فقدتها عدة قرون ، وأن يزيح التركية من أمامها ، و يثبِّت قدميها فى الدواوين وفى لغة الرسائل ، واضحةً ، أدبيةً ، جذابةً .

أجل ! لم يكن عبد الله فكرى من هؤلاء الذين طرقوا موضوعات جديدة فى كتاباتهم ، بل استخدموا مقدرتهم البلاغية فى الأغراض القديمة من تعزية وتهنئة ، ووصف ومدح واعتذار وعتاب ، ومنشورات على لسان الأمير ، وتقارير عن مهمات وكلت إليهم وغير ذلك من الأغراض المطروقة . ولم يكن للأفكار الجديدة ، ولا للأغراض القومية أى تأثير عليه ، وقد زاد نفوذ الأجانب ، وقامت الثورة العرابية ، ونكبت مصر بالاحتلال ، ولم نسمع له كلمة تعبر عن هذه الأحداث ، ولم يتألم لألم وطنه وذلته كما تألم الشدياق ، وأديب إسحاق ، وعبد الله نديم ، وجمال الأفغانى وغيرُهم ، وما ذلك إلا لأنه كان مثال الموظف الديوانى المخلص ، البعيد عن الاشتغال بالمسائل العامة ، والأمور الهامة .

ومن الأسلوب المرسل الذى تأثر فيه برجال الصحافة لعهده ، ولا سيما أسلوب الجوائب قوله من رسالة بعث بها إلى المرحوم عبد الله أبى السعود صاحب جريدة « وادى النيل » :

« قد كنت وعدت فيما حررته سابقاً أنى أكاتب حضرتكم بعد بما تيسر على حسب الإمكان ، ومساعدة الزمان ، والآن أريد أن أخبركم بمحاورة جرت بينى و بين بعض المتورعين من الناس فيما يتعلق بصحيفة « وادى النيل » وكتاب الجغرافية المطبوع فى وريقاتها ؛ وذلك أني رأيته ينكر على حضرتكم بعض المباحث المندرجة فى ذلك الكتاب كبكون الأرض كرة ، والقبة السماوية متخيّلة ، وما قيل فى كيفية الكسوف والخسوف ونحو ذلك ، بعد الاعتراف منه بأن الكتاب المذكور كتاب مناسب فى موضوع مهم تدعو إليه الحاجة لمعرفة مواقع البلاد ومحالّها ، وأقسام الأرض وأحوالها ، فإن هذا لا تُنكر مزيته وفائدته فى السياحة والتجارة وأمور التمدن والحضارة ، فقلت له : قد علمت أن منشئ « وادى النيل » ليس مؤلف الكتاب المذكور ، وإنما هو مترجم له ، والمترجم ناقل ليس عليه عُهدةُ ماينقله ، وإنما يلزمه صحة النقل ، وتوفية حق الأداء على صحته ، ولايلزمه مايترتب على الأصل المنقول عنه من نقد ومؤاخذة ، بعد عزوه لأصله ، ونسبته إلى قائله ، فلو سُلِّم أن جميع تلك المباحث مما ينكر فما عليه شىء من ذلك ، فقد قالوا : إن ناقل الكفر ليس بكافر . . الخ »[1] وهى رسالة طويلة تقع فيما يقرب من عشرين صفحة .

ومن نثره المرسل كذلك قوله فى تقرير عن رحلته إلى استوكهلم حيث حضر مؤتمر المستشرقين :

« ثم أشير إلىّ فقمت ، وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس فأتممتها فى الطريق ، و بيضتها فى استوكهلم ، فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهار وبدت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها إلى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب ، و بالجملة لى لما أتممت الأنشاد ، وخاطبنى أناس منهم باستحسانها فى اليوم ، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وساورنى يطلب نسختها ، فأخذها فى الحفلة ، وخطب بعد ذلك أناس منهم (المسيو شفر) وافد فرنسا ، وكانت هذه الحفلة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية . الخ »

---

(١) راجع الآثار الفكرية ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

على أن عبد الله فكرى لم يكثر من هذا الأسلوب المرسل ، وإنما كان من غواة النثر المسجوع ؛ وهو بأسلوبيه يمثل دوراً هاماً مر فيه النثر العربى من مرحلة الغثاثة والركاكة إلى مرحلة القوة وتوخى الفصاحة وقواعد اللغة ، بل والتأنق فى الأسلوب ، ولم يذهب تقليده لرؤساء ديوان الإنشاء فى القديم بشخصيته وطابعه ، بل لا يزال يعطينا صورة عن عصره ، ولم يأسره حب البديع ومحسناته فيذهب بمعانيه بإغراقه فيه .

آثاره :

وتوفى سنة ١٨٩٠ ، وله عدة مؤلفات منها : المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية المطبوعة سنة ١٢٨٩ هـ ، ومنها الفوائد الفكرية ، وشرح بديعية محمود صفوت الساعاتى ، ومنها جزء من شرح ديوان حسان بن ثابت ، وكتاب « نظم اللآل فى الحكم والأمثال » وكتاب آثار الأفكار ومنثور الأزهار (طبع منه تسع ملازم بروضة المدارس) ، ومنها الفصول الفكرية للمكاتب المصرية ، ورسالته التى كتبها فى المقارنة بين الوارد فى نصوص الشرع والمقرر فى علم الهيئة الفلكية ، وغير ذلك من المراسلات والمقالات . وله أيضاً « إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا » وقد أتمه ولده أمين باشا بعد وفاته . وقد جمعت معظم آثاره فى كتاب الآثار الفكرية ، وترجم له فى أوله المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده .

هذا وقد كان لعبد الله فكرى عناية برواية الحديث وله فيها طرق عديدة وأسانيد سديدة[١] .

٥ — السيد عبد الله الألوسى[٢] :

ولد فى بغداد من أسرة مشهورة بالعلم سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢ م ، وتلقى العلم على والده ، فعرف شيئاً من النحو وروى الشعر ، وقرأ القرآن ، والتفسير والحديث وغير ذلك من العلوم

---

(١) راجع الآثار الفكرية ص ٩ — ١١ .

(٢) هو ابن السيط بمحمود الألوسى (أبو الثناء) الذى ترجمنا له سابقاً .

التى كانت تدرس فى المساجد ، والتى لا تزال تدرس فى الأزهر حتى اليوم فى الكتب الموروثة[٣] .

ولم نترجم للسيد عبد الله الألوسى ؛ لأنه أديب نابغة ، أو شاعر ملهم ، وإنما لنعطى صورة من الأدب فى البلاد العربية إبان هذه الفترة التى نتحدث عنها ، حتى نصدر حكما صائباً عن الأدب العربى وتطوره ، وأنه لم يكن فى بلد أحسن منه فى أخرى ، وأن النهضة أخذت تدب فيه شيئاً فشيئاً .

لم يعمر السيد عبد الله طويلا ، فقد مات سنة ١٢٩١هـ — ١٨٧٤م عن ثلاثة وأربعين عاماً ، وقد قضى هذه السنين القصيرة عليلا سقيما ، واشتغل بالتدريس حقبة فى بغداد ، واشتهر بحسن إلقائه ، وتوضيحه لعويص المشكلات العلمية ، ولكن الحياة لم تكن ميسرة له ، فمن أسرة كبيرة العدد ، وصحة سقيمة ، إلى فقر وعدم تقدير ، فعزم على الرحلة ، وباع كل ما يملك ويمم صوب الآستانة ، ولكنه لم يصل ، لأن قطاع الطرق سلبوه كل عتاده ، وتركوه عارياً فى الصحراء ، ولولا أن منّ الله عليه بمن التقطه وأرجعه إلى بغداد لقضى جوعاً وعرياً . رجع صفر الكف من زاد الدنيا ، ولم يكن ممن يجيدون التزلف والملق فساءت حاله وطالما عرض عليه القضاء قبل هذا وكان يرفضه ورعاً وزهداً ، بيد أن الضائقة أحرجته فاضطر إلى قبوله وتولى قضاء البصرة سنتين ثم مات . وقد ترك عدة مؤلفات فى علوم اللغة ، وله شعر لطيف ومقالات أدبية جمعها ابنه السيد محمود شكرى الألوسى فوقعت في مائة صفحة ؛ ومن نثره يصف مطراً شديداً متوالياً ، وفيضان نهر دجلة . وهو نثر يمثل مدرسة الصنعة والسجع والتكلف وانتزاع الاستعارات وحشدها ركاماً عجيبا ، وهو دون عبد الله فكرى منزلة ولا ريب من حيث الأسلوب ، والفكرة ، وتنوع الموضوعات . قال من رسالة بعث بها لأخويه يصف هذا المطر :

« . . . إنه (المطر) عند غروب شمس الأربعاء ، تنفس بفم الشوق الصُّعَداء ، ورمى بوجه الأرض حصىً من كف السماء . فناداه الليل — وقد تحقق أن الدائرة على الأرض —

(١) راجع أعلام العراق لبهجت الأثرى ص ٨٩ .

ما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى ، وحاك الدوى بمكوك الريح من سدى البخار ولحمته شُققا سوداً ، وصبغها الليل فكانت ظلماتٍ بعضُها فوق بعض ، وطنّبها خيمةً خيمةً على أكتاف العراق فى الطول والعرض . واشتد الريح والظلام ، وشرع جِنِّيُ الليل يخوِّف صبيَّ النهار كلما أحس منه بقيام ؛ حتى سل الفجر قِرْضاً به الأبيض من غِمده الأسود ، وأغمد الليلُ قامة الجوزاء بعد أن كان بها على النهار يتهدد »[١] .

٦ — حسين بيهم[٢] :

ولد حسين ببيروت سنة ١٢٤٩ هـ ١٨١٣ م ، وأخذ من العلم المعروف فى عصره قسطاً غير قليل ، ثم انقطع للتجارة ، ولكن حنينه إلى العلم جذبه إليه ثانية فنال شهرة . وتولى عدة مناصب كبيرة كنظارة الخارجية ورئاسة الأحكام العدلية ، ومثل بلاده فى مجلس النواب التركى مدة ، ولما عاد ترك الوظائف وتفرغ للأدب . ومن آثاره رواية أدبية وطنية مثلت مراراً ، وقرظها الأدباء ، وشعره لا يتميز عن مدرسة أبى النصر والليثى ، وقد وفيناه نعتاً عند الكلام عليهما ومن ذلك قوله يؤرخ إنشاء (التلغراف) فى بيروت :

لله در السلك قد أدهشت عقولنا لما على الجو ساق
فأعجب الكون بتأريخه شبيه برق أو شبيه البُراق (١٢٧٧)

وقال مشطراً :

وإذا العناية لاحظتك عيونُها وحَبَاكها من فضْلِه الرحمن
ناداك طائرُ يمنها وسعودها نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهى حُبالةٌ واملك بها الغبراء فهى سِنان
واصْعَدْ بها العلياء فهى معارج واقتدْ بها الجوزاء فهى عِنان

وقال يعزى صديقاً له بفقد ماله :

---

(١) راجع أعلام العراق تجد فيها الرسالة كاملة ص ٤٨ — ٥٠ .

(٢) أبوه السيد عمر بيهم وكان من أعيان بيروت وأدبائها ، ولا تزال أسرة بيهم حتى اليوم ذات مكانة فى بيروت .

لقد غمّنا والله والصحبَ كلَّهم ... مصابٌ دهاكم بالقضا حكم قادر
كأن شراراً منه طار لأرضنا ... فأحرق أحشاء الورى بالتطاير
ولكننا قلنا مقالة عاقل ... يسلم للبارى بكل المظاهر
إذا سَلِمَت هامُ الرجال من الردى ... فما المالُ إلا مثلُ قص الأظافر
فكن مثل ظن الناس فيك مقابلا ... لذا الخطب بالصبر الجميل المصادر
ولا تأسفن إذا ضاع مالٌ ومقتنى ... فربُّك يا ذا الحزم أعظمُ جابر
و إن حياة المرء رأسٌ لماله ... سلامَتُه تعلو جميع الخسائر

وهو شعر بادى الضعف ، كثير العوار لايحتاج منا وقفة أو نقداً .

الفصل الرابع

بعث الشعر العربى

مر الشعر العربى منذ عهد امرئ القيس إلى عصر البارودى فى أطوار مختلفة : كان فى الجاهلية وصدر الإسلام شعرَ الفِطْرة والسليقة المنبعثة عن الشعور والإلهام ، تَعْرِض الحادثة أو المنظر للشاعر فينفعل ويتأثر ، ويلهج لسانه بما يختلج فى فؤاده ، وقد ينبعثُ من طيات ضميره لا بوحيٍ خارجى ؛ وهو فى كلتا الحالتين لا يعمد إلى تنميق أو تزويق ، أو يعتمد لفظاً بعينه ، وإنما كانت اللغة مِلْكَ يمينه وطوعَ لسانه ، وكأنها بمفرداتها الزاخرة ، ومعانيها المتباينة موضوعةٌ فى كفه يختار منها ما يكفى لأداء المعانى التى تتجاوب فى خاطره . وكثيراً ما يعتمد إلى هذا الأداء بأوجز لفظ وأمتنه دون إسهاب أو حشو ، ولا سيما إذا كان شاعراً فحلا طويل الباع فى فن الشعر ، وله دراية بوجوه تصريف الكلام . ولذلك جاء الشعر العربى القديم صورة صادقة لمن قالوه ، ولأمر مّا قال نقاده منذ القرن الثانى : « الشعر ديوان العرب » . لم يكن العربى الأول يعمد إلى الخيال المجنح الذى يخلق الصور ويغوص وراء المعانى فى أعماق الفكر ، وإنما يصور إحساسه وشعوره دون تزيد أو نقصان ، ودون فلسفة أو منطق ، وقد كان دستورهم فى ذلك قولَ أحدهم :

وإنَّ أحسن بيتٍ أنت قائلُه ... بيتٌ يقال إذا أنشدتَه صدقا

وكأن الشعر العربى حين ذاك بيت مشيد بالحجارة المتينة العارية عن الزخرف والطلاء ، يروعك بسذاجته ، وشموخه ، ومتانته . وفى السذاجة جمال الفطرة .

ثم أخذ العرب بنصيب غير قليل من حضارة الأمم التى فتحوا بلادها . وأَلِفوا أنواعاً من العيش ، وألواناً من الحياة ونظام الحكم ، لم يعرفوها من قبل ، وشاهدوا مناظر

جديدة اختمرت فى عقولهم زمناً ، واطلعوا على ثقافات متباينة من يونانية وفارسية وهندية ونبطية وما شاكل هذا ، وكان من الطبيعى أن يتأثروا بكل ذلك . وكنا ننتظر أن يتطور الشعر العربى تطوراً جديداً خليقاً بهذا الانقلاب الكبير فى حياة الأمة العربية ، وأن يحتذى العرب حذو الإغريق مثلا فى ملاحمهم وقصصهم ومسرحياتهم . ولكنّ ما طرأ على الشعر العربى لم يَعْدُ الشكل الظاهرى ، وظَلَّ البناء القديم ، والقالَب الموروث تُصب فيه المعانى فى العصر العباسى كما كانت تصب فى العصر الجاهلى والإسلامى الأول . أجل ! لقد رقَّ الخيال ولَطُف ، وتولدت المعانى وابْتُكرت ، وتناول الشعر ألواناً جديدة لم يقل فيها السابقون ، ولكن ظل البيت الذى شاده الجاهليون ، والطريق الذى سلكوه فى التعبير عن شعورهم هو المثل الأعلى لشعر العصر العباسى ؛ بيد أن مقتضيات الحضارة دعت الشعراء أن يؤثثوا هذا البيت الذى ورثوه عن أسلافهم فحشدوا فيه أنماطاً شتى من المعانى العميقة والأخيلة البعيدة ، والفلسفات والحِكَم ، وكثيراً من صور الحياة فى عصرهم ، وابتدأوا مع هذا يدخلون شيئاً من الزخرفة بقدر ، وكانت زخرفة منسجمة مع الرياش والأثاث ، وبدا الشعر العربى فى عنفوان قوته وازدهاره وغناه .

ثم خلف من بعدهم خَلْف أضافوا إلى هذا القصر الفاخر كثيراً من الحلى والزخارف ، وكان الضَّعف ابتدأ يتسرب إلى البناء ، ويدب فيه الوهن ، وعجز الشعراء عن مجاراة الأقدمين فى متانة عباراتهم ، وتملكهم زمام اللغة ، وعجزوا عن مجاراة المولَّدين فى معانيهم العميقة ، وأخيلتهم الجميلة ، فأكثروا من الزخرف والزينة ليستروا بهما الضعف الشائن وكانوا على شىء من الإلمام باللغة وبالأساليب الصحيحة فلم يستعجم قولهم ، وظل فى الشعر ذَمَاء يحفظ عليه حياته ، وبقى البناء فى مجموعه سليما .

ثم أخذ البناء يتداعى بضعف الأمة العربية ، وخضوعها للأعاجم الذين لا يقدرون هذا التراث الجميل ، ولا يعرفون لسانَ أهله ، ولا هَمّ لهم إلا ابتزاز الأموال من الشعوب المظلومة دون مقابل من علم أو صحة أو غنى ، فتفشى الجهل ، وساد الظلم ، واستعجم الشعراء ولحنوا لحناً فاحشاً ، وكانوا أبعد الناس عن الأساليب الصحيحة ، والمعانى الواضحة ، والشعور

السليم ، وخانتهم الأداة المعبرة ، وأصبح همهم النظم الذى لا روح فيه ولا معنى له ، والذى يساق فى عبارة ركيكة غثة ، وفى حشد زاخر من الزينات والمحسنات لتستر عواره ، وقد كان الشعر يلفظ أنفاسه الأخيرة عِياً ومرضاً حين ابتدأ العصر الحديث .

ابتدأت النهضة الشاملة منذ عصر محمد على ، وقد رأيت شيئاً من معالمها ، ورأيت كيف كان الشعر يتردد بين المرض والعافية ، فيصح أحياناً وينتكس أحياناً كثيرة ، والنهضة سائرة فى طريقها على يد اسماعيل ، واللغة يدب فيها شىء من القوة ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبدد سُدَف الجهل والظلام ، والصحافةُ تكشف الطريق ، وتزيل مابه من أوضار وعوائق ، ولكنَّ الشعرَ ظل على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلا بقيود ثقيلة ، تحت أنقاض هذا البناء المشمخر الذى تداعى أيام الانحلال .

وشاء الله أن يَبْعَث من يُنهِضه من كبوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقى بهذه الآفات والأوضار بعيداً ، ويعيد للبناء قوته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة دَفْعَةً واحدةً ، كأنما هى عصا ساحرٍ قلبت الميت حياً ، والضعيف قوياً ، والمعدم ثرياً ؛ كان هذا على يد إمام النهضة الشعرية فى العالم العربى .

محمود البارودى

١٢٥٥ — هـ — ١٣٢٢ هـ ، ١٨٣٨ م — ١٩٠٤ م

حياته :

محمود سامى البارودى من أسرة جركسية ذات جاه ، ونسب قديم[1] ، تنتمى إلى حكام مصر المماليك ، وكان البارودى يعرف هذا النسب ويعتز به .

أنا من معشرٍ كرامٍ على الدهـ ـر أفادوه عِزَّة وصلاحا

(١) أبوه حسن حسنى بك البارودى من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقله فى عهد محمد على باشا ؛ وجده لأبيه عبد الله بك الجركسى ، والبارودى نسبة إلى (إبتاى البارود) بمديرية البحيرة وكان أحد أجداده ملتزماً لها . وأجداده ينتسبون إلى حكام مصر المماليك .

عَمَرُوا الأرض مـدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحا

ويقول :

نمانى إلى العلياء فرعٌ تأثلتْ أرومتُه فى المجد ، وافترَّ سعدُه

وحسبُ الفتى مجداً إذا طلب العلا بما كان أوصاه أبوه وجده

وتيتم محمود البارودى صغيراً ، وهو فى السابعة من عمره ، فحرم بذلك حنان الأب ورعايته ، وتلقى دروسه الأولى فى البيت حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والترك ، وأبناء الطبقة الحاكمة . وتخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو فى السادسة عشرة من عمره فى عهد عباس الأول ، وكان من المعوقين للنهضة كما مر بنا ، وقد خمدت فى عهده روح الحماسة التى شَبّها محمد على الجيش ، بل سَرَّح معظمه ، وأقفرت ميادين القتال من ألوية مصر ؛ ولم يكن عهد سعيد أحسن حالا من عهد عباس ، فلم يجد البارودى — كما لم يجد زملاؤه — عملا يعملونه ؛ أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدَّعة وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولكنه أحس دونهم بألم ممض ، إذ لم يشترك فى حرب كما اشترك آباؤه ، وكم كان يود أن يحقق عن طريق الجندية والجيش أمالا ضخمة ، وأمانىَّ عريضة . ودفعه هذا الألم إلى طلب العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة فى صفحات التاريخ ، فعكف على كتب الأقدمين يلتهمها التهاماً . وكانت ملكة الشعر كامنة فى حنايا فؤاده فراقه من التراث الأدبى شعرُ الحماسة والفخر ، ووصفُ ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى فى هذا الأدب تصويراً للحياة كلها حلوها ومرها : من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ، وكل ما يخطر ببال الناس ؛ فازداد شغفُه به وحرصُه على حفظه وتدوينه ؛ وتحركت نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء فى أروع قصائدهم . وهل على مثله من بأس أو عار إذا هو قال الشعر ؟ إذا توهم هذا معاصروه من أبناء طبقته لجهلهم وخمود قريحتهم ولتقاليدهم الموروثة ، ولهوان شعراء زمانهم وضعة شأنهم فإن البارودى كان على ذُكْر من أن أمراء كثيرين قبله ، أعرق نسباً ، وأعلى حسباً ، قد برزوا فى الشعر العربى وسطروا تاريخهم فى سجل الخلود ، كامرىء القيس وابن المعتز ، والشريف الرضى ،

وأبى فراس وأضرابهم . فلم لا يكون مثل هؤلاء ؟ ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ لن لن يكون مَدَّاحا متملقا ، أو نديماً منافقاً ، ولكنه سيقول فى أغراض شريفة تليق به و بمكانته :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذم
قد طالما عز به مَعْشَرٌ وربما أزرى بأقوام
فاجعله ما شئت من حكمة أو عِظة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوبٌ إلى الرامى

وقد عرف فيما عرف من أدب العرب منزلة الشعر وعبر عنها بعد بقوله :

صحائفٌ لم تزل تُتْلى بألسنة للدهر فى كل ناد منه معمورِ
يُزهى بها كل سام فى أُرومته ويتقى البأس منها كلُّ مغمور
فكم بها رسخت أركانُ مملكة وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجداً ، وكم أوْدى بمنقبة رفعاً وخفضاً بمرجو ومحذور

هكذا رأى البارودى الشعر ، وما كان له أن يعرض عنه ، ولو حاول ما استطاع وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أداته اللغوية المعبرة .

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت به عادةُ الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالإساءة غافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما

فهو مطبوع على قول الشعر مثلُه فى ذلك مثل الهزار أو البلبل ، ينطق كلاهما بالغناء فطرة وجِبِلَّة . ولكن مصر ضاقت به ، أو ضاق بها حيث لم يجد غُنية لدى الدولة تحقق آماله ؛ فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وهناك تعلم التركية والفارسية ودرس آدابها ، وحفظ كثيراً من أشعارهما ، ودعته سليقته الشاعرة فقال بالتركية و بالفارسية كما قال بالعربية ، ومع ذلك لم يهجر لسانه الأول . ولما سافر إسماعيل باشا إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ليقدم آى الشكر على توليته ألحق البارودى بحاشيته ،

ورأى فيه ما لم يره فى غيره فرجع به إلى مصر .

وابتدأ إسماعيل نهضته بعد عودته ، مترسماً خطا جده . وأعاد للجيش مكانته ، ووجد البارودى المجال أمامه فسيحاً ، فظل يرتقى فى مناصب الجيش ، وفى فرسان الحرس الخاص حتى وصل إلى رتبة (قائمقام) . وتحقق له مُناه بالاشتراك فى معارك جزيرة (كريت) حين ثارت على الدولة فأسهم إسماعيل بجيشه فى إخماد الثورة ، وقد فتنت البارودى مناظرُ الجزيرة ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كلَّه فى شعره ، وسمع الناس نغما جديداً فى الشعر لم يألفوه منذ عهد طويل ، وأخذوا يتطلعون فى لهفة وشوق إلى المزيد من هذه النفس العالى ، ومن هذا الطراز الجديد فى الشعر (١) .

وتقلب البارودى فى مناصب الدولة ، وكان ذا حُظْوة لدى إسماعيل ، فاتخذه كاتم سره وسافر فى رحلتين سياسيتين إلى الآستانة فى مهمة خاصة . ومكث اثنتى عشرة سنة بجوار إسماعيل ، يرى نشاطه الجم فى إحياء مصر وإنهاضها ويشاركه فى عمله المجيد . وفى سنة ١٨٧٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون الخليفة فى حربه مع عدوه ، وسافر البارودى مع الجيش ، وأبلى فى المعارك بلاء حسناً ، فأنعم عليه برتبة (اللواء) وبأوسمة عدة . وكان فى ميدان القتال ، والمناظر الخلاّبة ، والعالم الذى رآه ما ألهب شاعريته ، فوصف المعارك والناس والمناظر بشعر أخّاذ بلغ به الذروة فى الوصف . وأخذ يهتف باسم مصر ، ويحن إلى الأهل والوطن ، فانبعث منه الشعر قوياً مليئاً بالحياة .

مولاى قد طال مرير النوى ... فكل يوم مرَّ بى ألفُ عام (٢)
يقتبل الصبح ويمضى الدُّجى ... وينقضى النور ويأتى الظلام
ولا كتابٌ من حبيب أتى ... ولا أخو صدق يرد السلام
من خلفنا البحر وتلقاءنا ... سواد جيش مكفهر لهام

ويقول فى قصيدة أخرى :

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولا ردُّ ... ولا نظرة يقضى بها حقَّه الوجدُ

---

(١) سنتكلم عن شعر البارودى فيما بعد بالتفصيل إن شاء الله .

(٢) الخطاب للأديب العالم الشيخ حسين المرصفى وإليه أرسل هذه القصيدة ، والتى تليها .

ومنها يقول :

ولكن إخواناً بمصرَ ورفقة نسوا عهدنا حتى كأنْ لم يكن عهدُ
أحِنُّ لهم شوقاً على أن دوننا مهامه تعيا دون أقربها الرُّبد
فياساكنى الفسطاط ما بالُ كتبنا ثوَتْ عندكم شهراً وليس لها ردُّ
أفى الحق أنا ذاكرون لعهدكم وأنتم علينا ليس يعطفكم ود
فلا تحسبونى غافلا عن ودادكم رويداً فما فى مهجتى حجر صلد
هو الحب لا يَثنيه نأىٌ وربما تأرج من مَس الضرام له النَّد

وعاد من حرب البلقان وهو فى الأربعين من عمره فعين مديراً للشرقية ، فمحافظاً للعاصمة — ثم عصفت ريح السياسة بإسماعيل ، وأرغمه الأجانب على التخلى عن العرش ؛ فألهب هذا التدخل الشائن نفوس المصريين ، وبعث الحمية الوطنية فى صدورهم ، فطالبوا بالشورى وبالحكم النيابى حتى يطمئنوا إلى تحقيق العدالة ، ولا تتكرر المأساة ، وزاد رجاؤهم فى تحقيق آمالهم لما تولى توفيق العرش بدل أبيه ؛ لأنه كان من المعجبين بآراء السيد جمال الدين الأفغانى الإصلاحية . بيد أنه تنكر لهذه المبادئ بعد توليه العرش وأرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابى ، وحكم البلاد حكما مطلقاً ، وإنما فعل كل هذا بإشارة الأجانب ، واستجابة لتدخلهم ، فعز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار .

كان البارودى من المقربين لتوفيق ، وولاه وزارة الأوقاف ، فأصلح فيها ما وسعه جهده . وكان فى نفس الوقت وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح فحار فى أمره بين ولائه للعرش وبين نزعاته الإصلاحية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا فيه ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا فى منتهى الغلظة والقسوة ، فثار الجيش وخلع وزير الحربية عثمان رفقى ، فولى توفيق البارودىَّ وزارة الحربية مع وزارة الأوقاف ، ولكن رياض باشا رأى نزعاته الشعبية فدس عليه عند توفيق فعزله ، ودفعه هذا إلى اعتزال السياسة

والعيش بعيداً عن جو القلق والاضطراب فى الريف ، وفى هذا يقول :

صبحٌ مطير ، ونَسْمة عَطِره وأنفس للصَّبُوح منتظره
قَدِّر بعينيك حيث شئت تجدْ ملكا كبيراً وجَنَّة خَضِره
وخَلِّنا من سياسة دَرَجت بين أناس قلوبهم وَغِره
يقضون أيامهم على خطر فبئس عقبى السياسة الخطِره
خديعةٌ لا يزال صاحبُها بين هموم وعيشةٍ كَدِره

ولما اشتدت حركة الجيش عُزل رياض باشا ، وتولى شريف باشا ، ولم يقبل البارودى الوزارة حتى ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً وأقسم أنْ ليس بنفسه شىء منه . ثم استقال شريف باشا وتولى البارودى رئاسة الوزارة[1] ، وكان محبوباً من الشعب ومن الجيش على السواء ، وأراد أن يصلح الأمور فى الجيش بالرفق والهوادة ، ولكن الأمور سارت على غير ما يهوى ، وطالب الجيش بعزل توفيق ، ونازعته نفسه يومئذ إلى المجد المؤمل ، وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر ، فخاض الثورة مع الخائضين ، ولكنَّ التيار كان شديداً ، وتدخلت انجلترا وفرنسا فى الأمر ، فأحسَّ البارودى الخطر ، وعلم أن لا قبل له بمواجهته ، فنصح لعرابى وإخوانه وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال فى مزارعه ، ولكن هيهات وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً وربط حظه بحظهم .

وفى هذا يقول :

نصحتُ قومى وقلتُ الحربُ مُفجعة وربما تاح أمرٌ غير مظنون
فخالفونى وشبّوها مكابرةً وكان أَوْلى بقومى لو أطاعونى
تأتى الأمور على ما ليس فى خلد ويخطئ الظن فى بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعةٌ وأصبح الشرُّ أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمى ومن شيمى صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وأخفقت الثورة ، ونفى مع زملائه إلى (سرنديب) فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ؛ وظل وزملاؤه سبعة أعوام فى (كولومبو) ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كلٌ منهم

التبعة على زميـــله ؛ فارقهم البارودى ، وأمضى عشرة أعوام فى (كِندى) ، وفيها تعلم الإنجليزية . وفى المنفى قال القصائد الخالدة ، يبثها شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ما حوله ، ويراسل الأدباء ، ويتلهف على ذكر الوطن ويتتبع أخباره ، فيرثى من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام شبابه وأويقات أنسه وما آل إليه حاله . ووجد فى الشعر عزاء أىَّ عزاء ، وصار إمامه فى العالم العربى دون منازع ، ولـكن طول النفى أورثه السقام والعلل ، فـكُفَّ بصره وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، ولست أجد أروع ولا أوفى من قوله يصف ما أصابه :

كيف لا أندب الشبابَ ؟ وقد أصـ ... ـبحت كهلا فى محنة واغتراب
أَخْلَق الشيب جِدَّتى وكسانى ... خِلْعةً منـه رَثَّةَ الجلباب
ولوى شَعْرَ حاجِبَىَّ على عَيْـ ... ـنىَّ حتى أطل كالهـــدّاب
لا أرى الشىء حين يسنح إلا ... كخيال كأننى فى ضباب
وإذا ما دُعيت حِرْت كأنى ... أسمع الصوت من وراء الحجاب
كلمـا رُمْت نهضـة أقعدتنى ... وِنْيَةٌ لا تُقِلُّها أعصابى
لم تدع صـولة الحوادث منى ... غيرَ أشـــلاء همة فى ثياب

وزاد أمرَه بؤساً أن المـوت تخطّف ابنته وزوجه وأصحابه ، فابتدأ الفناء يدب إليه ، هنا لك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم ، وعاد البارودى معهم (أشلاء همـة فى ثياب) كما يقول ، ولـكن جاء وفى يمينه سفرُ الخلود ، وهو ذلك الشعر العُلْوى ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٠ م ، واستقبل مصر بقصيدته .

أبا بل مرأى العين أم هذه مصر؟ ... فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عيداً للأدب الرفيع ، وصارت داره ندوة يؤمها الأدباء والشعراء القدامى والشادون فيه ، يأنسون إليـه ويأنس إليهم ، وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا يروق له منه ، وتدوين مختاراته وترتيبها ، وأخيراً فاضت روحه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجة فى ديسمبر ١٩٠٤ م شوال ١٣٢٢ هـ

إلى الأجيال من بعده يتلقفها كابر عن كابر وكلهم يذكر فضله ، ويمجد ذكره ، لأنه أورثهم شعلة خالدة .

أخـــلاقه :

شب معتداً بحسبه ونسبه ، فى عصر ساد فيه جنسه ، وتبوأ أبناء جلدته من الجراكسة والأتراك أسمى مناصب الدولة ، ثم تزود من فنون الجندية ، ونُشِّيءَ نشأة عسكرية فكان لهذه النشأة ، وهذا الحسب تأثير عميق فى أخلاق البارودى ، ولـكن الزمن قد حور فى هذه الأخلاق ؛ ومن يدرس شعره دراسة فاحص مدقق يستطيع أن يتبين هذا التغيير أو التحوير فى أخلاق البارودى مجاراةً لزمنه وعادات الناس الذين يخالطهم إن طوعاً وإن كرهاً . بيدَ أن كثيراً من صفات الشباب التى اعتدَّ بها لازمته حتى مماته ، لم تتبدل ولم تتأثر بعوامل الزمن ، ومحن الناس .

كان البـارودى فى صباه متوثب العزيمة ، واسع الآمال ، عزوفاً عن الملاهى يود أن يعتلى ذِروة المجد قفزاً :

لَهِجٌ بالحروب لا يألف الخفـ ... ـض ولا يصحب الفتاة الرَدَّاحا
مِسْعَرٌ للوغى أخو غدوات ... تجعل الأرض مأتماً وصياحا
لا يُرى عاتباً على شيم الدهـ ... ـر ، ولا عابثاً ولا مزَّاحا
يفعل الفَعلة التى تَبْهر النا ... س ، وترنو لها العيون طِماحا

وظلت نغمة المجد تتردد على أَسَلَةِ لسانه أنشودة حلوة ، وكان فى نفسه شىء يود تحقيقه ويرجو نَيْله ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولـكنه لم يصرح به .

وبى ظمأ لم يبلغ الماء ريه ... وفى النفس أمر ليس يدركه الجُهْد
أود ، وما وُدُّ امرىء نافعاً له ... وإن كان ذا عقل ، إذا لم يكن جد
وما بىَ من فقر لدنيا وإنما ... طلاب العلا مجد ، وإن كان لى مجد

وما أن عضته الحوادث عضة دامية ، ونكأه الزمان نَكْأَةً قاسية ، حتى تطامن فى مطلبه وقال :

وكن وسطاً ، لا مشرئباً إلى السُّها ولا قانعاً يبغى التزلف بالصُّغْر

وقال :

يود الفتى ما لا يكون طَماعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلَّب
ولو علم الإنسان ما فيه نفعُه لأبصر ما يأتى وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجرى بحكمها علينا ، وأمر الغيب سر مُحَجَّب
نظن بأنا قادرون ، وإننا نقاد كما قيد الجنيب ونُصْحَب

وإذا كان فى صباه قد عزف عن النساء جداً منه وتزمتاً ، وأبى اللهو والمجانة حتى لا ينصرف عن طلب العلا فإن الشباب والجاه والمال قد غيرت نظرته إلى الحياة ، وبات ذلك الفارس الذى يُدِلُّ بشبابه وجاهه على الحسان ، ويجرى وراء اللهو ، ويَعُبُّ الخمر عباً ، ويتصيد مجالس الأنس والسمر . يقول :

ودعنى من ذكر الوقار فإننى على سَرَفٍ من بغضة الحلماء
فما العيش إلا ساعة سوف تنقضى وذا الدهر فينا مولع برماء

ويقول :

لو حَذِرَ المرء كلَّ لائمة لضاع منه الصواب والرَّشد
ولو أصخنا لكل منتقد فكل شىء فى الدهر منتقد
واله بما شئت قبل مندمة يكثر فيها العناء والكمد
فليس بعد الشباب مُقْتَرح ولا وراء المشيب مفتقد

ومن أى شىء يخشى ؟ . وعلام ينتقده الناس ؟ ينتقدونه على أنه ممتلىء بالحياة ، مستهين بالتقاليد والعادات .

فرحنا نجرُّ الذيل تيهاً لمنزل به لأخى اللذات واللهو ملعب
مسارح سكير ، ومربض فاتك ومخدع أكواب به الخمر تُسْكب

أما الدين فله فى النفس حرمته ولكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه فليس علينا فى الخلاعة من عذر

أجل ! لقد صار فارساً مرحاً ينهل من اللذات ويعل

فطوراً لفرسان الصباح مطارد وطوراً لإخوان الصفاء سمير

ويارب حى قد صبحت بغارة تكاد لها شم الجبال تمور

وليل جمعت اللهو فيه بغادة لها نظرة تسدى الهوى وتنير

عقلنا به ما ند من كل صبوة وطرنا مع اللذات حيث تطير

أما أخلاقه الطبيعية فكان كثير الافتخار بها ، يرددها مراراً فى شعره ، فهو مخلص فى صداقته :

واختبرنى تجد صديقاً حميما لم تغير وداده الأهواء

صادقاً فى الذى يقول وإن ضا قت عليه برحبها الدهناء

أما الوداد فهو يرعاه ، ويعد ذلك من كرم الأصل :

ليس يرعى حق الوداد ولا يذ كر عهداً إلا كريم النصاب

ولا بد أن يتجلى أثر هذا الوداد القلبى فى أعمال الإنسان ، وإلا كان وداداً كاذباً .

وإن وداد القلب ما لم يكن له دليل على إخلاصه لمريب

وكان عالى الهمة يمثل لك فى شعره الفروسية والنجدة ، والإباء والأنفة فيقول :

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب فكل زهيد يمسك النفس جابر

من العار أن يرضى الدنية ماجد ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر

إذا كنت تخشى كل شىء من الردى فكل الذى فى الكون للنفس ضائر

ويقول :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

إذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزنى خال ، ولا ضمنى أب

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة علىّ يداً أغضى لها حين يغضب

أما جوده فطالما تغنى به فى شعره ، وحث الناس على الجود ، ووضع من شأن المال والتباهى به فيقول :

فلا تحسبن المال ينفع ربه ... إذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائب ... وقد لا يكون المالُ والمجد حاضر
ولو أن أسباب السيادة بالغنى ... لكاثر ربَّ الفضل بالمال تاجر

ويقول :

وجُدْ بما ملكت كفاك من نَشَبٍ ... فالجود كالبأس يحمى العرض والنسبا
لا يقعد البطل الصنديد عن كرم ... من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا

وكان يتمدح بصراحته وشجاعته ، فهو لا يسكت عن القبيح وإلا عد منافقاً ، وإذا كان الإنسان على ثقة من أمره ونفسُه حرةٌ وهو شجاع فعلام يُغْضى على القذى ، أو لا يصارح الناس بعيوبهم علهم يصلحونها ؟

أنا لا أقر على القبيح مهابةً ... إن القرار على القبيح نفاق
قلبى على ثقة ونفسى حرة ... تأبى الدَنِىَّ ، وصارمى ذَلاَّق
فعلام يخشى المرء فُرقة روحه ... أوَ ليس عاقبةَ الحياة فراق ؟
لا خير فى عيش الجبان يحوطه ... من جانبيه الذل والإملاق
عابوا على حميتى ونكايتى ... والنار ليس يعيبها الإحراق

ولكننا نرى البارودى كثيراً ما ينصح بمداراة الناس ، ودفع القسر باللين ، والغضب بالحلم ، وقد صور جملة من صفاته ومداراته الناس ، ومودته لأصدقائه ووفائه لهم فى قوله :

ملكت يدى عن كل سوء ومنطقى ... فعشت برىءَ النفس من دنس العذر
وأحسنت ظنى بالصديق وربما ... لقيت عدوى بالطلاقة والبشر
فأصبحت مأثور الخلال محبباً ... إلى الناس مَرْضِىَّ السريرة والجهر
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن ... لدوداً ، ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما ... لقيتَ به شهما يَبَذُّ على المثرى

ولا تعترف بالذل في طلب الغنى فإن الغنى فى الذل شر من الفقر
ودَارِ الذى ترجو وتخشى وداده وكن من مودات القلوب على حِذر

ويقول فى غير هذا الموضع :

مداراة الرجال أخف وطئاً على الإنسان من حرب الفساد
يعيش المرء محبوباً إذا ما نحا فى سيره قصد السداد

ولعل لتجاربه الكثيرة أثراً فى إملائه هذا النصح ، وتحوله من الصراحة إلى المداراة . وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يدارى الناس ، ويكون منهم على حذر ، فإنها قد علمته كذلك أن المرح والحياة الصاخبة باللذات تورث الأسقام والعلل :

ولقد جريت مع الغَواية والصِّبا جرى الكُمَيْت وللغرام سباق
ولبست هذا الدهر من أطرافه ونزعته وقميصُه أخلاق
فإذا الشباب وديعة وإذا الفتى هَدْىٌ لفاغرة المَنون يساق

هذا هو البارودى كما صور نفسه فى شعره ، وإذا كان صادقا فى تصويره ، ولا نحسبه إلا كذلك ، فالأخلاق التى تغنى بها تبعث فى النفس الإكبار والإعجاب .

ثقافته :

أعد البارودى ليكون جندياً ، ولم يعد ليكون أديباً ، بيد أنه حين وجد نفسه بعد أن تخرج فى المدرسة الحربية متعطلا أبت عليه نفسه الطموح أن يستمرئ اللهو والدعة ، وعكف على كتب الأولين يقرؤها بشغف ونَهَم ، ولم يقرأ كتاباً من كتب اللغة ، ولكنه قرأ كتب الأدب ، ويقول الشيخ حسين المرصفى صديقة ومرشده[1] « لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله. فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى حتى تصور فى برهة يسيرة هيئاتِ التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات

(١) الوسيلة الأدبية ص ٤٧٤ .

والمحفوظات حسبما تقتضيه المعانى والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، وسمعته مرة يسكِّن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له فى ذلك فقال : هو كذا فى قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب ؛ فقلت تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غير شاذة ؛ ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها واقفاً على صوابها وخطئها ».

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر فى شعر البارودى . ومن يطلع على (مختارات البارودى) يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنقه فى غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه ، ولا نعجب بعد هذا حين نرى البارودي متملكا ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير العليم بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها ؛ وأغلب الظن أن مختاراته لم تحو كل ما حفظ من جيد الشعر العربى ؛ لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلى فى شعره : من كلمات ، وعبارات ، ومعارضات ، وتشبيهات . مع أن مختاراته لم تحو إلا شعراً عباسياً .

كانت عند البارودي الملكة الكامنة ، والملكة وحدها لا تكفى ، بل لا بد لها من عُدَّة تصقلها وتنميها ، وتُعِدَّها للبروز ناضجة قادرة خالقة . ودراسة البارودى الأدبية قد غذت هذه الملكة غذاء كاملاً ، لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجاعتهم وعَدَّائيهم وأمثالهم وحكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه أديب . والأدلة على هذه المعرفة متوفرة فى ديوانه (١) .

---

(١) من مثل قوله :

لك عرض أرق نسجاً من الري ح وأوهى من طيلسان (ابن حرب)

وكان ابن حرب أهدى إلى الحمدونى طيلساناً خلقاً . وكان الحمدونى يحفظ قول أبى حمران السلمى فى طيلسانه .

يا طيلسان أبى حمران قد برمت بك الحياة فما تلتذ بالعمر
فى كل يوم له رفا يجدده هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعته تنكب الناس لا يبلى من النظر

فاحتذى الحمدوني حذو أبى حمران ، وقال فى وصف طيلسان ما يقرب من مائتى مقطوعة من مثل قوله:

يا ابن حرب كسوتنى طيلسانا مل من صحبة الزمان وصدا
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحده لتهدي =

كانت إذاً قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المنتقى الجيد هى عماد ثقافته الأدبية . على أن البارودى قد اطلع على آداب أخرى غير الآداب العربية ، فقد مر بنا أنه حينما ذهب إلى الآستانة وهو فى شبابه ، والتحق بوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية ، ونظم الشعر بهما كما كان ينظمه بالعربية . أضف إلى هذا ما روى من أنه تعلم الإنجليزية وهو فى منفاه ، وترجم بعض آثارها ؛ وهذه اللغات المتعددة لها أثرها ، ولا ريب ، فى معانيه وأخيلته ، وتصويره للحوادث .

هذا وقد حفل زمان البارودى بأحداث عظام ، فمن نهضة شاملة ، وخلق لأمة متمدينة ، إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك ، ونفى وتشريد ، وقد سافر البارودى إلى الآستانة مراراً ، وشهد حرب (كريت) وحرب (روسيا) ورأى عالماً لم يعرفه من قبل ، ومناظر جديدة ، فتأثر بكل ذلك وانفعلت نفسه له ، وهاجت هذه الأحداث شاعريته فانطلق لسانه يردد خواطره وأحاسيسه فكانت هذا الشعر الخالد .

وإذا أضيف إلى هذه الموهبة العظيمة ، والدراسة الواسعة ، والتجارب الحافلة وراثة فى قول الشعر سجلها البارودى بقوله :

أنا فى الشعر عريق لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالى فيه مشهور المقالة

زالت دهشتنا حين نرى البارودى قد كملت عدته ، وهيأته الأيام ليبعث الشعر من رقدته ، وينهض به هذه النهضة السامية .

شعره :

يقول البارودى فى مقدمة ديوانه : « الشعر لُمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة

= ومما يدل كذلك على سعة اطلاع البارودى قوله :

إن شوقى إليه أسرع شأواً من « سليك » والوصل فى بطء « فند »

وأمر سليك بن سلكة معروف ، أما فند (بكسر الفاء) فهو مولى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص ، وكانت قد أرسلته ليأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر فتبعهم ، وأقام بها سنة ، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يعدو ، فعثر وتبدد الجمر فقال : « تعست العجلة » . فقيل : « أبطأ من فند » .

الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأَسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمه ينبلج بها الحالك ، ويهتدى بدليلها السالك . وخير الكلام ما ائتلف ألفاظه وائتلقت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفِكْرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظاً ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لِذى رغبة مَسْرح ، وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح » .

وتعريف البارودى للشعر غامض ؛ لأنه لفَّه فى ثوب كثيف مزخرف بالمجازات والاستعارات ، ولم يحدده تحديداً علمياً . وهو يعنى أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد ، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته . والخطرة الذهنية تأتى مثلا من نظرة إلى شىء جميل ، أو شىء يبعث الرثاء والأسى ، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجى . وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب فى الشعر ، وهو أنه (لمعة خيالية) تومض إيماضاً ، فتأتى هذه الخطرات الخيالية غير متصلة أو مرتبط بعضها ببعض فى حلقة متماسكة ، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل فى ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتتابع حوادثها ، وإنما هو ومضات تتألق فى أبيات وقصيدة لا تربطها وحدة فكرية .

والشعر الجيد فى رأى البارودى « ما كان قريب المأخذ سليما من وصمة التكلف ، بريئاً من عَشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة » ، وهذه صفة الشعر الغنائى ، وهى سمة الشعر العربى غالباً ، ليس فيه عمق المعنى والتوغل فى الخيالات ، أو تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس ، كما نرى ذلك عند أبى تمام والمتنبى أحياناً ، وعند أبى العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعراء العصر الحاضر . والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً ، وقد لا يحتوى البيت كبير معنى ، وإنما تطرب له النفوس وتهتز عجباً ، وذلك لأن الشعر غناء القلوب ، وليس مهارة العقول . وهذا ما جعل

النقاد قديماً ينعتون البحترى بأنه الشاعر ، وأن المتنبى وأبا تمام حكيمان ؛ لأن البحترى لم يكن يتكلف فى شعره الغوص على المعانى وابتكارها ولا يستعمل المنطق والفلسفة ، بل كان يحذو حذو شعراء الجاهلية والصدر الأول فى قرب معانيه وانسجام ألفاظه بعضها مع بعض وهو القائل رداً على من عاب عليه بعده عن ثقافة عصره ، وعدم أخذه بشىء من الحكمة والمنطق وهو يمثل نظرة العرب إلى الشعر :

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغنى عن صدقه كذبه
لم يكن ذُو القُروح يلهج بالمنـ ... ـطق ما نوعه وما سببه (١)
والشعر لَمْحٌ تكفى إشارته ... وليس بالهذْر طُوِّلت خطبه

ويرى البارودى أن وظيفة الشعر : « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » وقد ردد هذه المعانى فى شعره ، بيد أن الشعر قد لا يؤدى وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ؛ وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مستفيض نقرر فيه نظرة العرب إلى وظيفة الشعر بخاصة والأدب بعامة ، ونظرة الغربيين إلى الشعر ومذاهبهم فيه ، وهل للأدب وظيفة ، أو هو التعبير لمجرد التعبير ، أو الفن للفن كما يقولون ؟ . ومهما يكن من أمر فإن البارودى لم يفطن إلى كل أغراض الشعر وما يمكن أن يستخدم فيه ، وما قرره فى مقدمته من تعريف للشعر ، ووظيفته يعبر عن مذهبه .

والبارودى مطبوع على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ويتعسف فى نظمه بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرؤه أنه يجرى فى رفق وهوادة ولين غير قلق أو مضطرب أو متكلف . وقد كان البارودى يدرك هذه المزية فى شعره ويقول :

أقول بطبع لست أحتاج بعده ... إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
إذا جاش طبعى فاض بالدر منطقى ... ولا عَجَبٌ فالدر ينشأ فى البحر

وعلى الرغم من سليقته المواتية ، وحافظته الواعية التى تمده بمخزون الآداب ألفاظاً منمقة

---

(١) ذو القروح : امرؤ القيس ، ولقب بذلك كما يقولون لأنه أصيب بمرض جلدى فى طريق عودته من لدن ملك الروم حينما ذهب إليه يستنجد به على قتلة أبيه .

ومعانى سامية ، فإن البارودى كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفى ؛ ولذلك كان يتعهد شعره بالتهذيب والرعاية ، فقد رُوى أنه رتب ديوانه بعد عودته من المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من قصائد ، وحذف الأبيات التى لم ترقه ، حتى لا يخلف للأجيال المقبلة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تُبْنَ قافيةٌ فيه على خلل ... كلا ! ولم تختلف فى وصفها الجمل
فلا سِنادٌ ولا حشو ولا قلق ... ولا سقوط ولا سهو ولا علل
لا تنكر الكاعبُ الحسناء منطقه ... ولا يعاد على قوم فيُبْتذل

وكان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويُصْغى إليه ليتبين ما فيه من عيوب فى الموسيقى وعدم انسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوى ، والقافية القلقة المضطربة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، ويقول :

واهتف به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوب إلى الرامى (١)

فجاء والحق يقال — شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ، وتماسك أبياته وقوافيه ، وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهم :

فألْقِ إليه السمع ينبئْك أنه ... هو الشعر لا ما يدعى الملأ الغُمْر (٢)
يزيد على الإنشاد حسناً كأننى ... نَفَثْتُ به سحراً ، وليس به سحر

كان البارودى يتخير الألفاظ المناسبة للمعانى التى يريدها فيرق ويلطف حين يقتضى المقام والرقة واللطف كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظراً جميلا أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ، ويشتد أسره حين ينشد فى الحماسة ، والفخر والمديح ، وحين

---

(١) يقول الشيخ حسين المرصفى فى هذا : « ونبه بقوله : واهتف به من قبل تسريحه على أنه لا ينبغى أن يكتفى بالنظرة الأولى فللنفس خداع وربما تنبهت بعد أن غفلت ، واستقبحت ما استحسنت » ولذلك يقول الأول .

لا تعرضن على الرواة قصيدة ... ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب ... عدوه منك وساوساً تهذى بها

(٢) الغمر : مثلثة الغين ، ومعناها الذى لم يجرب الأمور .

يصف البحر الهائج ، والريح الزفوف والحرب الضروس .

إذا اشتد أروى زندة الحرب لفظه ... وإن رقّ أزرى بالعقود فريدُه

إذا ما تلاه منشد فى مقامة ... كفى القومَ ترجيعَ الغناء نشيدُه

فجاء شعره مما يلذ للإنسان حقاً أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليطرب ويتأمل فى نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولى كلمٌ ملساء المتون غريبة ... إذا أنشدت أفضت لذكر بنى سعد (١)

أخفُّ على الأسماع من نغم الحُدا ... وألطف عند النفس من زمن الورد

كان البارودى يعلم أنه سيخلد بشعره لا بحسبه ونسبه ، وإذا كان قد أخفق فى بلوغ مناه وتحقيق آماله فى هذه الدنيا ، فإنه أدرك الغاية من السعى فى الحياة بالعمل الصالح والمجد المؤثل ، ألا وهى الخلود بعد الموت وترديد اسمه عَطِراً على كل لسان ، وفى ذلك يقول فى شعره :

سيبقى به ذكرى على الدهر خالداً ... وذكر الفتى بعد الممات خلوده

ويقول :

سيذكرنى بالشعر من لم يلاقنى ... وذكر الفتى بعد الممات من العمر

هذا وفى شعر البارودى هَنَات ، وعليه مآخذ قليلة سنذكرها فى موضعها من هذا الفصل ، بيد أنها لا تزرى به ولا تغض من شأنه ، وحسبه أنه سما بالشعر العربى إلى الذروة وأنه حلق فى السماء التى جاب آفاقها من قبل بشار وأبو نواس والبحترى وأبو تمام والمتنبى وأبو فراس وأضرابهم ، بعد أن وصل الشعر العربى قبيل عهده إلى الحضيض وكاد يلفظ أنفاسه الواهية .

والآن علينا أن نتعرف على هذا الشعر الذى مدحه وافتخر به ، وصقله وهذبه ، لنرى أمحق هو فى الثناء عليه ، أم هو غرور شاعر زين له خيالُه الباطل حقاً ، والسيئ حسناً ؟

---

(١) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان بنو سعد من أفصح العرب ولذلك أرسل رسول الله إليهم كى ينشأ على الفصاحة واللسن ، ويريد البارودى أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

ولنرى القديم والجديد فى شعره ، ومنزلته فى موكب الأدب العربى وهل كان صدى للشعراء الذين عارضهم وجاراهم فى مضمارهم أو أنه استقل وابتكر وخرج على المألوف ، وتكونت له شخصية يذكرها التاريخ غير معتمدة على سواها ؟ وهل هى شخصية قميئة هزيلة ، أو شخصية قوية فارعة ذات مزايا واضحة ؟

١ — القديم فى شعره :

١ — لم يجدد البارودى فى أغراض الشعر التى عرفها شعراء العصر العباسى فهو يمدح ، ويصف ، ويهجو ، ويرثى ؛ ويعتب ، ويفتخر . . . الخ ما هنالك من أغراض معروفة مألوفة ، وياليته وقف عند هذا ؛ فقد تكون الأغراض قديمة والمعانى جديدة . ولكنه حاكى القدماء فى أسلوبهم كما حاكاهم فى أغراضهم وقد بلغ به التقليد حداً نسى معه أنه فى مصر وأنه بعيد عن نجد ورباها ووديانها وآرامها وخمائلها ، فقال .

يا سعدُ قل لى فأنت أدرى ... متى رِعانُ العقيق تبدو (١)
أشتاق نجداً وساكنيه ... وأين منى الغداةَ نجدُ

وقال :

أين ليالينا بوادى الغَضَا ... ذاك عهد ليته ما انقضى (٢)
كنتُ به من عيشتى راضياً ... حتى إذا وَلَّى عدمت الرضا
أيام لهو وصباً كلما ... ذكرتها ضاق علىَّ الفضا

٢ — وقد وقف على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلى الروح والمعنى ، والوجه والزى ، لا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة . وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذى عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته . وهل فى استطاعته أن يحاكى القدماء حتى فى وقوفهم على الأطلال والدمن ؟

(١) العقيق : الوادى ، وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة والطائف واليمامة ونجد والمقصود هنا عقيق نجد ، ورعان : جمع رعن «بفتح فسكون» وهو أنف يتقدم الجبل .
(٢) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة . ووادى الغضا : مكان بنجد .

وليس أمامه أطلال ودمن تَهيجُ شاعريته ، وتثير عَبْرته فإذا استطاع أن يقول مثلما قالوا فهو شاعر فحل ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف . استمع إليه يقول :

ألا أحى من أسماء رسمَ المنازل ... وإن هى لم ترجع بياناً لسائل
خَلاءٌ تعفتها الروامس والتقت ... عليها أهاضيب الغيوم الحوافل
فلأياً عرفت الدار بعد ترسم ... أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى
غدت وهى مرعىً للظباء وطالما ... غَنَتَ وهى مأوى للحسان العقائل

إلى أن يقول :

فياليت أن العهد باق وأننا ... دوارجُ فى غفل من العيش خامل
تمر بنا رُعْيان كل قبيلة ... فما يمنحونا غير نظرة غافل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً ... بعيداً ولم يسمع لنا بطوائل (١)
نسير إذا ما القوم ساروا غُدَيَّةً ... إلى كل بَهْم راتعات وجامل (٢)

فأى أطلال ، وأى رسوم رآها البارودى فوقف عندها ؟. وأين رأى الظباء وهو يعيش فى أحضان القاهرة المتمدينة ؟ وأين مرت بهما رعيان القبائل ؟

وما هذه البَهْم والجمال السائمة ؟ اللهم إنه التقليد ورياضة القول وإظهار المقدرة على النظم فى مثل هذه الأغراض ، وعلى هذه النمط كما فعل القدماء .

٣ — ونراه فى النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهى تحكى الظَبْى فى كِناسه ، والبدر فى سمائه ، وهى مهاة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى . . الخ هذه القوالب الموروثة .

إذا نظرت أو أقبلت ، أو تهللت ... فويلُ مهاة الرمل ، والغصن والبدر

---

(١) الطوائل : جمع طائلة وهى الوتر والذحل ، والمعنى : لم نقترف إثماً .
(٢) البهم : جمع بهمة وهى صغار المعز والضأن ، والجامل : الإبل .

ويقول :

أيها الساهرون حول وسادى ... لست منكم أو تذكروا لى نجدا
لا تخوضوا فى غيره من حديث ... فهو حسبى ، وأى ماء كصدّا[1]

ويتغزل :

غصن بان قد أطلع الحسنُ فيه ... بيد السحر جُلَّنارا ووردا
ما هلال السماء ؟ ما الظبى ؟، ما الور ... د جَنياً ؟ ما الغصن إذ يتهدى ؟
هو أبهى وجهاً وأقتلُ ألحا ... ظاً وأندى خَداً ، وألين قداً

ويصف المرأة بقوله :

كالورد خداً ، والبنفسج طرة ... والغصن قداً ، والغزالة ملفتا

ويصفها وصفاً مادياً كما كان يفعل القدماء ، كأنها تباع وتشترى :

خفت معاطفها ، لكن روادفها ... بمثل ما حملتنى فى الهوى رجحت
ويلاه من لحظها الفتاك إن نظرت ... وآه من قدها العَسَّال إن سنحت
كالبدر إن سفرت والظبى إن نظرت ... والغصن إن خطرت، والزهر إن نَفَحَتْ

ويقول :

والوعةَ القلب من غُزلان أخبية ... تكاد تكسر من أحدقها الراحُ
من كل مائسةٍ كالغصن قد جمعت ... بدائعاً كلها للحسن أوضاحُ
فالعين نَرْجَسة ، والشعر سوسنة ... والنهد رمانة ، والخد تفاح

٤ — نرى البارودى الذى حاكى فحول الشعراء حتى الجاهليين منهم ، يقلد شعراء الصنعة ، وعصر الضعف فيؤرخ أحياناً فى شعره كما أرخوا — وإن كان قليلا ما فعل حتى لا يكاد يذكر — فمن ذلك قوله يؤرخ عودة (إسماعيل باشا) خديو مصر من دار الخلافة العلية سنة ١٢٨٩ هـ

رجع الخديو لمصره ... وأتت طلائع نصره

---

(١) صدا بالقصر ضرورة من صداء : اسم عين يستعذبها العرب وفى أمثالهم . (ماء ولا كصداء) .

وتهللت بقدومه فرحا أسرة عصره
فلتبتهج أوطانه بحلوله فى قصره
وليشتهر تاريخه رجع الخديو لمصره

وقال فى تهنئة الخديو عباس الثانى بعيد الفطر :

أمولاى دم للملك ربا تسوسه بحكمة مطبوع على الحلم والباس
ولا زالت الأعياد تجرى سعودها عليك وتحظى من علاك بإيناس
فلولاك ما فازت يد القطر بالمنى ولا نشأت روح العدالة فى الناس
وهذا لسان الشكر يدعو مؤرخاً حوى العيدُ أنواع الفخار بعباس
١٣١٤ هـ ٢٤ ١١٥ ١٢٨ ٩١٢ ١٣٥

٥ — واستعمل البارودى المحسنات البديعية أحياناً ، ولا سيما الطباق من مثل قوله :

يموت قلبى ويحيا حيرةً وهُدى فى عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

وقوله :

وبنفسى حلو الشمائل مرُّ الـ ـهجر يحيى وصلا ، ويقتل صدا
ما على قومه وإن كنت حراً أن دعتنى له المحبة عبداً

٦ — أما معانيه فكثير منها قديم والقليل فيه جدة . وهو مقلد فى المعانى كما هو مقلد فى الشكل ، ولا أستطيع أن أحصى المعانى القديمة لكثرتها ولكن أدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله فى الغزل :

طربت وعادتنى المخيلةُ والسُّكر وأصبحت لا يُلوى بشيمتىَ الزَّجْر (١)
كأنى مخمور سرت بلسانه معتقة مما يضن بها التَّجْرُ
صريع هوىً يُلوى بى الشوق كلما تلألأ برق أو سرت ديمٌ غر
إذا مال ميزان النهار رأيتنى على حسرات لا يقاومها صبر
يقول أناسٌ إنه السحر ضَلَّةً وما هى إلا نظرة دونها السحر

(١) المخيلة : الظن والمراد ذكريات الماضى ويلوى به : يذهب به .

ويقول مفتخراً فى هذه القصيدة بقومه :

لهم عُمدٌ مرفوعة ومعاقل وألويةٌ حمرٌ وأفنية خضر
ونار لها فى كل شرق ومغرب لمدرَّع الظلماء ألسنة حمر

ويقول فى القصيدة من الحكمة :

لعمرك ماحى وإن طال سيره يعد طليقاً والمَنُون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سَفْرٌ ويتركها سفر

فهذه أغراض ثلاثة فى قصيدة واحدة لم يأت فيها بجديد من المعنى ؛ ففى الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعب

وحاكى الأقدمين فى ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة فى الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، والغيث والبرق كان فيهما حياة العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذ لمع البرق أو هطلت السحب هلل الناس وفرحوا ، وإذا ذكر المحب محبوبته فى ذلك الوقت فكأنه يريد أن يشاركها سرورها ، أو تشاركه سروره . والسرور من الأشياء التى لا تتم إلا إذ اقتسمها الإنسان مع سواه . أما فى بيئة البارودى فليس لهذه الأشياء من التأثير والاهتمام ما يدعو لذكرها ، بل قد يسبب المطر من المضايقات لأهل القاهرة الذين يعتمدون على النيل ، ولأهل الريف فى ضرر زرعهم ما يذكرونه بشر ، ولكنه التقليد للقديم ؛ وقوله : (على حسرات) : يعنى به أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ، وكأنه يتقلب على حسرات ؛ لأن الليل مصدر الذكريات لفراغ الإنسان من الشواغل والأعمال ، وقديماً قال النابغة :

وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همه تضاعف فيه الحزن فى كل جانب

ويقول النابغة كذلك :

فبت كأن العائدات فرشن لى هراساً به يُعْلى فراشى ويُقْشَبُ

وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم معروف .

وفى الفخر نرى البارودى يذكر العمد المرفوعة وهو فى القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو ، ولا سيما فى الجاهلية إذ كانوا يشبونها على يفاع من الأرض كى يهتدى بها السارى ، ويلجأ إليها الجائع ويطلب القرى ، ورحم الله حاتماً الطائى حين قال لغلامه .

أوقد فإن الليل ليل قُرّ والريح يا واقد ريح صِرُّ(١)

عَلَّ يرى نارك من يمرُّ إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

وقوله فى الحكمة إن الإنسان لا يعد طليقاً فى حياته وهو فى أسر المنون ، مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّوَل المُرْخى وثِنْياه باليد(٢)

وبيت طرفة أحسن وأمتن حيث شبه الإنسان بدابة ، وحبلها بيد الموت يرخى لها فيه وإذا شاء جذبها إليه فانقضى العمر . وأما أن الأيام منازل ، وأنا فيها على سفر فمعنى قديم مطروق ، وقد تكرر فى الأحاديث النبوية ، وفى أقوال الزهاد والوعاظ .

وهكذا إذا أخذت أى قطعة للبارودى تجده يردد فيها كثيراً من المعانى القديمة المعروفة المشهورة . ولا يعنى هذا أن البارودى لم يجدد فى شعره وفى معانيه ، بل له تجديد ملحوظ فى شعره سنذكره فيما بعد .

وإذا كان البارودى قد طرق أبواب الشعر العربى الموروثة ، ولم يجدد فى أغراضه ، فإنه كان واضح الشخصية فى كثير من هذه الموضوعات المطروقة فتراه يمثل نفسه ، وزمنه ، وبيئته فى قصائد شتى . فالبارودى ذاق حلو الزمان ومره ، وارتفع فى مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ، ثم شرد ونفى ، وقضى زمناً طويلاً يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ، ويندب فيه حظه ، وينعى على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم وغدرهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السباب . وهو فى كل ذلك صادق الشعور يصف ما به

---

(١) قر : بارد ، وصر شديد البرودة .

(٢) الطول : الحبل .

على طبيعته فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وإذا كان البارودى قد قلد القدماء وحاكاهم فى أغراضهم وطريقة عرضهم للموضوعات وفى أسلوبهم ، وفى معانيهم ، فإن له مع ذلك تجديداً ملموساً فى شعره من حيث التعبير عن شعوره وعن مشاهداته ؛ وله معان جديدة ، وصور لم يسبق إليها ، وإذا أردنا أن ننصفه فعلينا دراسة الجديد فى شعره حتى يكون حكمنا عليه عادلا ، ونستطيع أن نضعه فى منزلته الجديرة به فى موكب التاريخ والأدب والنهضة .

(ب) الجديد فى شعره :

١ — الوصف :

ولا تعجب إذا عددنا الوصف جديداً عند البارودى ، وإن كان قديماً منذ أن كان الشعر العربى وما من شاعر إلا له فى الوصف أبيات وقصائد . ولكن الجديد فى وصف البارودى أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت به عرضاً فى ثنايا القصائد . كان يصف لمجرد الوصف ؛ ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته لا كما هى فى الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودى مفتوناً بالطبيعة ، يرى شعرها لا ينضب منه معين الإلهام ، ويرى فى كل سطر من هذا الشعر آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ، ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب . وديوان البارودى غاص بالموصوفات وبقصائد الوصف . وما دام الشاعر قد انصرف عن المديح وعن أن يكون شعره مظهراً للنفاق والخداع والاستجداء ، والوقوف بأبواب الملوك والإمراء ، فقد أصبح شعره طوع يده يسجل به مشاعره الخاصة . وشعراء العربية الوصافون — أى الذين أكثروا من الوصف — قليلون ؛ لأن المديح وللأسف قد ألهاهم عن قراءة محاسن الكون ، ويعد البارودى من أكثر شعراء العربية وصفاً ، بل يعد فى الطليعة . وشعره الوصفى يفخر به الشعر العربى

ويستطيع أن يباهى به خير ما عند الغرب من شعر وصفى ، وموصوفات البارودى كما ذكرنا عديدة ومنوعة ، فمنها :

١ — مظاهر الطبيعة فيصف الليلة العاصفة المطيرة ويجعلك تحس معه هزيم الرعد ، وعزف الريح ، وتواصل المطر وشدته ، وترى سوداها ووحشتها ، ويصف الليلة الحالية بالنجوم فتلمس جمالها ، ويصف السحاب الممطر والبرق والرعد وأثرها فى الإنسان والأرض ، ويصف البحر الهائج الغاضب ، والريح الزفوف تعلو بالموج فتحيله جبالا سامقة الذرى ، وتنخفض به إلى وهاد عميقة الأغوار ، ويصف الجبل والغابة وغير ذلك .

وهو فى وصف الطبيعة مصور ماهر ، بل هو مصور دقيق بارع فى كل ما يتناول من وصف وهو فى وصف الطبيعة قد يُغرب فى لفظه ، ويأتى بتشبيهات جديدة منتزعة من بيئته أحياناً ، وأحياناً يردد معانى القدماء وأخيلتهم . استمع إليه يصف ليلة مطيرة حتى مطلع الفجر :

وليلةٍ ذات تهتان وأندية ... كأنما البرق فيها صارمٌ سَلِط (١)
لفَّ الغمام أقاصيها ببُرْدته ... وانهل فى حجرتيها وابل سَبِط (٢)
بهماء لا يهتدى السارى بكوكبها ... من الغمام ولا يبدو بها نَمَطُ (٣)
يكاد يجهل فيها القومُ أمرَهم ... لولا صهيل جياد الخيل واللَّغَطُ
يَطغى بها البرق أحياناً فيزجرُه ... مُخَرْنطِمٌ زَجِلٌ من رعدها خَمِط (٤)
كأنما البرق سَوْط والحيا نُجُبٌ ... يلوح فى جسمها من مَسِّه حَبَط (٥)
كأنه صارمٌ يرفض من عَلَقٍ ... بالأفق يُغْمَدُ أحياناً ويُخْتَرَطُ (٦)

---

(١) أندية : ج ندى وهو البلل ، وسلط : لا نتوء فى نصله .
(٢) حجرتاها : ناحيتاها . وسبط : شديد متدارك .
(٣) النمط : الطريق (٤) مخرنطم : غضبان وهو اسم فاعل : من اخرنطم الرجل أى رفع أنفه واستكبر وغضب ، وزجل : عالى الصوت ، ومن رعدها : بيان لزجل وخمط : غضوب ثائر .
(٥) الحيا : المطر ، والنجب : كرام الخيل والإبل وعتاقها وجيادها المفرد نجيب ، من مسه : أى بسبب مسه وأذاه ، والضمير يعود على السوط ، والحبط : آثار السياط بالبدن أو الآثار لوارمة التى لم تشقق .
(٦) كأنه : أى البرق ، يرفض : يسيل ويقطر ، والعلق الدم ، يختر ط : يسل ويجرد من غمده .

مزّقتُ جلبابها بالخيل طالعةً ... مثلَ الحمائم فى أجيادها العُلُطُ (١)
وقد تخلل خيط النور ظلمتها ... كما تخلل شعرَ اللِّمةِ الوَخَطُ
كأنها وصديعُ الفجر يصدعها ... من جانبٍ أدهمٌ قد مسه نبَطُ (٢)
ومَرْبَعٍ لنسيم الفجر هَيْنَمَةٌ ... فيه وللطير فى أرجائه لَغَطُ
كأنما القَطْرُ دُرٌّ فى جوانبه ... يكاد من صَدَف الأزهار يُلْتقط
وللنسيم خلال النبت غَلْغَلَةٌ ... كما تغلغلَ وَسْطَ اللِّمة المُشُطُ
والريح تمحو سطوراً ثم تثبتها ... فى النهر لا صحةٌ فيها ولا غلط
وللسماء خيوطٌ غير واهية ... تكاد تُجْمَعُ بالأيدى فتُرْتَبَطُ
كأنها وأكف الريح تضربها ... سلوكُ عِقْدٍ تواهت فهى تَنْخَرِطُ

وفى هذه القطعة أبيات يسمو فيها البارودى بإحساسه وبراعة تصويره ، وإدراكه للأمور الدقيقة ، كوصفه النسيم وهو يتخلل النبت ، أو وصفه خيوط المطر وهى نازلة .

وقال يصف النجوم :

أرعى الكواكبَ فى السماء كأن لى ... عند النجوم رهينةً لم تدفع
زُهر تألق بالفضاء ، كأنها ... حَبَبٌ تردد فى غدير مُتْرَع
وكأنها حول المجرِّ حمائم ... بيضٌ عكفن على جوانب مَشْرع
وترى الثريا فى السماء كأنها ... حلقاتُ قُرْط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعةٌ كبيض نعامة ... فى جوف أُدْحِيٍ بأرضٍ بَلْقَعٍ
وكأنها أُكَرٌ توقدَ نورُها ... بالكهرباءة فى سَماوة مَصْنَع (٣)
والليل مرهوبُ الحمية قائم ... فى مِسحه كالراهب المتلفع (٤)

---

(١) العلط ، ككتب جمع علاط ككتاب وهو من الحمامة طوقها فى صفحتى عنقها بسواد .
(٢) النبط : بياض فى بطن الفرس ، وصديع الفجر : أى طلوعه لأنه يصدع الليلة أى يشقها .
(٣) المصنع : القصر العظيم
(٤) مسحه : مسوحه أى لباسه الأسود . كمسوح الراهب

متوشح بالنيرات كباسل ... من نسل حامٍ ، باللُّجين مدرع
حَسِبَ النجومَ تخلفت عن أمره ... فوحى لهن من الهلال بإصْبع (١)

٣ — ويصف مناظر الريف ، ويصورها تصويراً بديعاً ، فيصف القطن والسفن فى النيل ، والساقية ، والمزروعات ، والطيور وهى تحوم على صفحة النهر وحركات الطيور ، والنحلة وهى تنتقل من زهرة لزهرة . كل هذا فى حساسية غريبة ، وشغف بالطبيعة وحب لها كأنه يعيش معها .

فمن قوله يصف القطن :

والقطنُ بين ملوَّز ومنوَّر ... كالغادة ازدانت بأنواع الحلى
فكأن عاقدَه كراتُ زمرُدٍ ... وكأن زاهرَه كواكب فى الرُّوا (٢)
دبَّتْ به روحُ الحياة فلو وَهَتْ ... عنه القيودُ من الجداول قد مشى
فأصولُه الدكناء تسبح فى الثرى ... وفروعُه الخضراء تلعب فى الهوا
لم يَسْرِ فيه العقلُ مَذْهَبَ فكرة ... محدودةٍ إلا تراجع بالمنى

واسمعه يصف الريف المصرى إبان الربيع فى أرجوزه :

عم الحيا واستنَّتِ الجداول ... وفاضت الغُدْرانُ والمناهل
وازَّينت بنورها الخمائلُ ... وغردت فى أيكها البلابل
وشمل البقاعَ خيرٌ شامل ... فصَفْحَةُ الأرض نبات خائلُ
وجبهة الجوِّ غمام حافل ... وبين هذين نسيمٌ جائل
تَنْدىَ به الأسحارَ والأصائل ... كأنما النباتُ بحرٌ هائل
وليس إلا الأكمات ساحلُ ... وشامخ الدَّوح سفينٌ جافل
معتدل طوراً وطوراً مائل ... تهفو به الجنوبُ والشمائل
والباسقات الشُّمَّخُ الحوامل ... مشمورةٌ عن ساقها الذَّلاذل (٣)

---

(١) وحى : أشار .
(٢) عاقده : ما انعقد من اللوز قبل أن يتفتح ، الروا : مقصور الرواء ، وهو الحسن والبهاء .
(٣) الذلاذل : الأطراف .

مَلْوِيةٌ فى جيدها العَثَاكِلُ ... معقودةٌ فى رأسها الفلائل (١)
للبُسْر فيها قانىء وناصل ... مُخَضَّبٌ كأنه الأناملُ
كأنه من ذَهبٍ قنادلُ ... من العراجين لها سلاسل
للمَنْجَنون بينها أزاملُ ... تخالها محزونةً تُسائل (٢)
لها دموع ذُرَّفٌ هوامل ... كأنها أمُّ بنينَ ثاكل
فى جيدها من ضَفرها حبائلُ ... من القواديس لها جَلاجل
تدور كالشهب لها منازل ... فصاعد ودافق ونازل

ففى هذه القصيدة يصور مناظر الريف تصويراً سريعاً دون تعمق أو طويل وقوف على المشاهدات ، ومعانيه قريبة ، وتشبيهاته واضحة غير متكلفة ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود .

ومما يدل على دقة حسه ، وتدفق شعوره ، وأنه مصور بارع ، وأن الأمور التى لا تسترعى نظر جمهرة الناس يجد فيها ما يثير عاطفته ، ويحرك شاعريته قوله يصف طائراً تحرك فأيقظه من سنته ، وتتبع حركاته بدقة ، فأعطى صورة واضحة عنه :

ونبأةٍ أطلقت عينىَّ من سِنَةٍ ... كانت حُبالة طيف زارنى سحرا
فقمت أسألُ عينى رَجْعَ ماسمعت ... أذنى ، فقالت : لعلى أبلغُ الخبرا
ثم اشرأبَّتْ ، فألفتْ طائراً حَذِراً ... على قضيب يديرُ السمع والبصرا
مستوفزاً يتنزى فوق أيكته ... تَنَزِّيَ القلب طال العهدُ فاد كرا (٣)
لا تستقر له ساقٌ على قدم ... فكلما هدأت أنفاسه نفَرا
يهفو به الغصن أحياناً ويرفعُه ... دَحْوَ الصوالج فى الديمومة الأكرا (٤)

---

(١) العثاكل : ج عثكول وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى الكرم ، والفلائل ج فليلة : وهى الشعر المجتمع :

(٢) المنجنون : دولاب السانية التى يسقى بها الزرع : وأزامل : ج أزمل (كجعفر) وهو الصوت المختلط .

(٣) مستوفزاً : غير مطمئن قد تهيأ للوثوب ، ويتنزى . يثب .

(٤) دحا اللاعب الكرة : دفعها ورماها بيده ، والديمومة : الأرض المستوية .

ما باله وهو فى أمن وعافية ... لا يبعث الطَّرف إلا خائفاً حَذِراً
إذا علا بات فى خضراء ناعمة ... وإن هوي وَرَد الغُدْران أو نقرا

فأنت تراه يتتبع الطائر فى أقل حركة له ، ويحاول أن يستشف دخيلة قلبه الصغير ليعرف سر فزعه ، وترقبه ، ويتعجب لهذه الحياة القلقة المضطربة مع أن ظاهر الأمر ينبئ أنه فى نعمة وعافية . وهذه لعمرى خطرات شاعر مرهف الأحساس جياش العاطفة .

واستمع إليه يصف غَيضةً احتلها فى (قندية) أيام حرب كريت :

ومُرْتَبَعٍ لُذْنا به غِبَّ سُحْرة ... وللصبح أنفاسٌ تزيد وتنقص (١)
وقد مال للغرب الهلالُ ، كأنه ... بمنقاره عن حبَّةِ النجم يفْحَصُ (٢)
رقيق حواشى النبت ، أمّا غصونه ... فرَيّا ، وأما زهرُه فمنصَّصُ (٣)
إذا لا عبت أفنانَه الريحُ خِلْتها ... سَلاسِلَ تُلْوى ، أو غدائر تُعْقَصُ (٤)
كأن صِحاف الزهر والطَلُّ ذائبٌ ... عيونٌ يسيلُ الدمع منها وتَشْخَصُ (٥)
يكادُ نسيمُ الفجر إن مَرَّ سُحْرَةً ... بساحته الشجراء لا يتخلَّصُ
كأن شعاعَ الشمس والريحُ رَهْوَةٌ ... إذا رُدَّ فيه سارق يتربَّصُ (٦)
يَمُدُّ يداً دون الثمار ، كأنما ... يحاول منها غايةً ثم يَنْكُصُ

٣ — وإذا أردت أن تعرف متى يحلق البارودى فى الوصف ، فاقرأ أوصافه فى الأشخاص إنه لا يقل عن أمهر مصور ، بل أين منه المصور ؟ وهو لا يستطيع أن يبرز على (لوحته) دخائل النفوس ، وأسرار القلوب والحركات والأشارات ، وكذلك أوصافه للمعارك وميادين القتال وأدواته ، وإذا كان وصف الحروب من الموضوعات القديمة التى تناولها قبله

---

(١) المرتبع : المكان الذى يرتبع فيه القوم ، أي يقيمون زمن الربيع .

(٢) فى هذا البيت إشارة إلى أن الليلة التى يصفها كانت فى آخر الشهر العربى ، وحبة النجم : أى النجم الشبيه بالحبة .

(٣) رقيق : صفة لمرتبع ، منصص : ظاهر مرتفع بعضه فوق بعض .

(٤) الغدائر ج غديرة وهى الذؤابة من الشعر إذا كانت مرسلة ، غير ملوية ولا معقوصة ، وتعقص : تضفر .

(٥) تشخص : تنفتح ولا تطرف (٦) الرهو : الرقيق ، ورد فيه : أى إذا تردد الشعاع فى المرتبع

الشعراء ، فإن تصوير الأشخاص من الموضوعات النادرة التى مهر فيها قِلّةٌ من فحول الشعر العربى كابن الرومى ، اسمعه يصف البلغار فى بلادهم حين ذهب مع الحملة المصرية لحرب الروس :

بلاد بها ما بالجحيم ، وإنما ... مكانُ اللَّظى ثلج بهـا وجليد
تجمعت البلغار والروم بينها ... وزاحمها التاتار ، فهى حُشود
إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم ... هَديداً تكاد الأرض منه تميد
قِباحُ النواصى والوجوهِ كأنهم ... لغير أبى هـذا الأنام جنود
سواسيةٌ ، ليسوا بنسل قبيلة ... فتعرف آباء لهم وجدود
لهم صورٌ ليست وجوهاً وإنما ... تناط إليهـا أعين وخدود
يخورون حولى كالعجول ، وبعضهم ... يهجن لحن القول حين يجيد

فهو يصف رطانتهم وعجمة ألسنتهم ، وقبح وجوههم ورءوسهم حتى كأنهم ليسوا من البشر ، وأن وجوههم متشابهة لا تستطيع التفريق بينها ، بل لا يريد أن يعترف بأن لهم وجوهاً وإنما هى صور وضعت فيها أعين وخدود ، ويخورون حوله كالعجول ، وإذا حاول بعضهم النطق بالعربية أفسدها .

ومن قوله يصف حرب إقريطش (كريت) :

فى كُلِّ مَرْبَأَةٍ وكل ثَنِيَّةٍ ... تَهْدارُ سامرة وعزفُ قيانِ (١)
تَسْتنُ عاديةٌ ، ويصهلُ أجردٌ ... وتصيحُ أجراسٌ ، ويهتف عانى (٢)
قومٌ أبى الشيطانُ إلا خُسْرَهم ... فتسلّلوا من طاعة السلطان
ملئوا الفضاء ، فما يبين لناظر ... غيرُ التماعِ البيض والخُرْصانِ (٣)

---

(١) المربأة : مكان المرقب ، والتهدار : التصويت وقرقرة الحمام ، والقينة : المغنية وجمعها قيان.
(٢) استن الفرس : عدا إقبالا وإدباراً ، والأجرد : الحصان القصير الشعر وهو من أمارات العتق والأصالة ، والعاني : المتعب .
(٣) الخرصان : الدرع والرماح .

فالبدر أكدرُ والسماء مريضةٌ ... والبحرُ أشكلُ والرِّماح دَوانِ (١)
والخيل واقفةٌ على أرسانها ... لطراد يوم كريهةٍ ورهان
وضعوا السِّلاح إلى الصباح ، وأقبلوا ... يتكلمون بألسُنِ النيران
حتى إذا ما الصبحُ أسفر وارتمتْ ... عينان بين رُبىً وبَيْن مجان
فإذا الجبال أسنَّةٌ ، وإذا الوها ... دُ أعِنَّةٌ والماء أحمرُ قانى
فتوجَّستْ فُرُطُ الركاب ، ولم تكن ... لِتهابَ ، فامتنعت على الأرسان (٢)
فزعت فرجَّعت الحنينَ ، وإنما ... تحْنانُها شجنٌ من الأشجان
ذكرت مواردَها بمصر ، وأين من ... ماءٍ بمصرَ منازلُ الرُّومان

ومن المقطوعات اللطيفة فى وصف الأشخاص قول البارودى يذم شخصاً ويصفه بالنهم والجشع :

وصاحبٍ لا كان من صاحب ... أخلاقه كالمعدة الفاسده
أقبحُ ما فى الناس من خصلة ... أحسن ما فى نفسه الجامده
لو أنه صُوِّر من طبعه ... كان لعمرى عقرباً راصده
يصلح للصفع لكيلا يُرى ... فى عَدَد الناس بلا فائده
يغلبه الضعف ولكنه ... يهدم فى قعْدته المائده
يراقب الصَّحْنَ على غفلة ... من أهله كالهرة الصائده
كأنما أظفوره منجل ... وبين فكيه رحىً راعده
كأنما البطة فى حلقه ... نعامة فى سَبْسَبٍ شارده
تسمع للبلع نقيقاً كما ... نقت ضَفَادِى ليلة راكده
كأنما أنفاسُه حَرْجَفٌ ... وبين جنبيه لظًى واقده

---

(٤) الأشكل : الذى يضرب بياضه فى حمرة .
(٥) الفرط : الفرس السريعة التى تتقدم الخيل ، وامتنعت على الأرسان : حرنت وصارت لا تقاد بالأرسان .

٤ — وقد وصف البارودى كثيراً من الأشياء كالسجن ، والقطار ، والخمر وغير ذلك وربما كان وصفه للقطار أول وصف من نوعه فى اللغة العربيـة ؛ لأن السكة الحديدية دخلت مصر فى أخريات أيام سعيد ، ولم يفطن شعراء عصره له أو لم يهتموا بوصفـه ، ويقول فيه وإن لم يصفه بدقة :

ولقـد علوت سَراة أدهم لو جرى ... فى شأوه برق تعثر أو كبا
يطوى الفلا طى السجل ويهتدى ... فى كل مَهْمَهٍ يضل بها القطا
يجرى على عجل فلا يشكو الوجى ... مد النهار ، ولا يمل من السرى
لا الوخدمنة ، ولا الرسيم ، ولا يُرى ... يمشى العِرَضْنَه أو يسير الهَيْدَبى (١)

ويقول فى وصف السجن :

فسواد الليـــل ما إن ينقضى ... وبياض الصبح ما إن يُنْتَظر
لا أنيسٌ يسمع الشكوى ولا ... خبرٌ يأتى ، ولا طيف يمر
بين حيطان وباب موصـد ... كلما حركه السجان صَرَّ
يتمشى دونه حتى إذا ... لحقتـــه نبأةٌ منى استقـر
كلما دُرْتُ لأقضى حاجـةً ... قالت الظلمةُ : مهلا ، لا تدر
أتقرَّى الشىء أبغيـــه فلا ... أجـد الشىء ، ولا نفسى تقر
ظلمةٌ ما إن بهـا من كوكب ... غـيرُ أنفاس ترامى بالشرر

وهذه القطعة فيها أبيات من الشعر الواقعى التى تغنى بتصويرها الحقيقـة العاريةَ عن أى خيال مهما عمق وملح .

٥ — هذا وقد وصف البارودى بعض آثار مصر القديمة ، وفتح بذلك الطريق لشوقى وغيره ، وهو وإن لم يتعمق فى وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيـد كما فعل شوقى من بعده إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظة فيما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة

---

(١) الوخد : سعة الخطو ، والرسيم : سير للابل قريب من الهرولة دون الجرى ، والعرضنة : نوع من السير يمتاز بالخفة والسرعة والنشاط . والهيدبى : مشى للخيل فيه جد .

مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه إليه رغبة فى صلة أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش فى صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها . ولذلك عد باب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوى من آيات الجمال ، أو ما خفى على عيون الناس منها فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك للتمييز بين الشعراء ، ومن ذلك قوله يصف الهرمين :

سل الجيزة الفيحاءَ عن هَرَمَىْ مصرِ ... لعلكَّ تدرى غيبَ ما لم تكن تدرى
بناءان ردَّا صَوْلة الدَّهر عنهما ... ومن عجبٍ أن يغلبا صولةَ الدَّهْر
أقاما على رَغْم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البريَّة بالفخر
فكم أممٍ فى الدهر بادت وأعصرٍ ... خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرها ... لأبصرت مجموع الخلائق فى سَطْر
فما من بناءٍ كان ، أو هو كائن ... يدانيهما عند التأمل والخُبْر
يقصِّرُ حسناً عنهما « صرح بابلٍ » ... ويعترف « الإيوانُ » بالعجز والبَهْر (١)
فلو أن « هاروتَ » انتحى مَرْصديهما ... لألقى مقاليد الكِهانة والسِّحْر
كأنهما ثديان فاضا بدِرَّة ... من النيل تُرْوى غُلَّةَ الأرض إذ تجرى
وبينهما « بَلْهيبُ » فى زى رابضٍ ... أكبَّ على الكفين منه إلى الصدر (٢)
يقلب نحو الشرق نظرة وامق ... كأن له شوقاً إلى مطلع الفجر

(ب) الشعر السياسى :

ومن الأغراض القديمة التى خلع عليها البارودى لباس الجدة ، وظهرت فيها شخصيته واضحة مجلية ، تفصح عن نفسه الأبية المتمردة على الظلم والطغيان ، المحبة للعدالة والشورى

(١) البهر : مصدر بهره من بات قطع أى غلبه وفاقه ، والإيوان : إيوان كسرى أنو شروان وقصره الأبيض وكان يعد من عجائب الدنيا ، وكذلك صرح بابل الذى بناه بختنصر .
(٢) بلهيب : أبو الهول .

والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السياسى الوطنى الذى دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيما محبوباً ، والذى ألقى به فى غيابة السجن ، ورمى به بعيداً عن وطنه ويا ليته كف عن مثل هذا الشعر وهو يتجرع غصص النفى والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حارة كادت تحرق الطاغين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أولو الأمر من عودته حتى لا يعيدها جَذَعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت ثائرته ، وكسرت حدته ، وخفت شِرَّته ، واشتكى ما به من ضعف وهُزال ، ودب إلى جسمه دبيبُ الفناء ، أمنوا جانبه فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودى طموحاً ، يعتلج فى حنايا صدره أمل كبير يود أن يجدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكى ، والفؤاد الأبى ، والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما يريد ؟ ولكن ما كل ما يشتهيه الإنسان ويأمله يسهل نواله ، وقد وقفت فى سبيل البارودى عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب .

ويلاه من حاجة فى النفس هام بها قلبى ، وقصر عن إدراكها باعى
أسعى لها وهى منى غير دانية وكيف يبلغ شأو الكوكب الساعى ؟

ويعترف بهذه العراقيل التى تعترض طريقه ، ولولاها لنال ما تمنى :

وأنى أمرؤ لولا العوائق أذعنت لسطوته البدوُ المغيرة والحضْر

وهذا من أصرح الأبيات التى أشار فيها إلى ما يهيم به فؤاده ، وإن كان قد ساقه فى معرض الفخر بالشجاعة واقتحام ميادين القتال . وقد أخفق البارودى فى تحقيق آماله واعتذر عن هذا الأخفاق كما مر بنا .

ويلوح لنا أن البارودى كان بطبعه محباً للحرية ، متمرداً على الظلم ، شأن كل شجاع شريف . ولعل للوراثة ، وللنشأة التى نشئها أثراً فى هذا ؛ ولقد غذاهما ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية فى فيافيهم الواسعة وقد تغنَّوْا بحروبهم وشجاعتهم وانتصاراتهم وأَنَفتهم ، وكان شعرهم سجلا وافياً لمكارم أخلاقهم ، وقد قرأه البارودى وهو بعد شاب غرير ، فرسخت هذه الصفات فى ذهنه ، وشب مطبوعاً عليها

يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويرددها فى شعره ويود أن يحققها عملا فى الحياة ، ويقول :

لا عيب فىّ سوى حرية ملكت ... أعنتى عن قبول الذل بالمال
تبعت خطة آبائى فسرت بها ... على وتيرة آداب وآسال (١)

ويقول :

دع الذل فى الدنيا لمن خاف حتفه ... فَلَلْموت خير من حياة على أذى

ولقد صور البارودى الفساد الذى شاع أمره فى مصر ، واضطراب أحوالها والفزع الذى ملأ قلوب الناس ، وتنبأ بالثورة الدامية قبل حدوثها ، مما يدل على أنه كان على صلة بزعمائها وأن الناس قد ضاقوا ذَرْعاً بهذا الفساد وبَرِموا به ولا بُدَّ من سبيل إلى الإصلاح ، وذلك حيث يقول : —

تنكَّرَتْ مصرُ بعد العُرْف واضطربت ... قواعدُ الملك حتى ريع طائرُه
فأهمل الأرض جَرَّا الظلم حارثُها ... واسترجع المالَ خوف العُدْم تاجرُه (٢)
واستحكم الهولُ ، حتى ما يبيتُ فتى ... فى جَوْشَنِ الليل إلا وهو ساهرُه (٣)
وَيْلُمِّه سَكَناً ، لولا الدفين به ... من المآثر ما كنا نجاوره
أرضى به غير مغبوط بنعمته ... وفى سواه المنى لولا عشائره
يانفسُ لا تجزعى فالخير مُنْتَظَرٌ ... وصاحب الصبر لا تبلى مرائرُه
لَعَلَّ بُلْجَةَ نور يستضاء بها ... بَعْدَ الظَّلام الذى عمت دياجره
إنى أرى أنفساً ضاقت بما حملت ... وَسَوْفَ يَشْهَرُ حَدَّ السيف شاهرُه
شهران أو بعض شهر إن هى احتدمت ... وفى الجديدين ما تغنى فواقِرُه
فإن أصبتُ فعن رأىٍ ملكت به ... علم الغيوب ، ورأى المرء ناظرُه

وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن البارودى كان من زعماء الثورة ، وأنه كان يطمع فى

---

(١) آسال : شبه وعلامات يقال فلان يسير على آسال من أبيه أى على شبه منه ولا واحد لها .
(٢) جرا الظلم : من جرائه وبسببه . (٣) جوشن الليل : وسطه أو صدره .

الانقلاب ، ولكن لما رأى التيار عنيفاً ، وتدخلت فرنسا وإنجلترا ، أحجم وتردد ونصح لقومه فلم ينتصحوا ، ولم يجد بداً من السير فى الشوط حتى الغاية . وللبارودى فى إبان الثورة وبعدها شعر ملتهب حمية وحماسة وتمرداً على الظلم . انصت إليه وهو يحرض المصريين على الثورة ويهيب بهم ألا يستكينوا للحاكم المستبد ، ويصور لهم نفوسهم العاجزة الضعيفة بقوله :

فياقوم هبوا إنما العمر فرصةٌ ... وفى الدهر طُرْق جَمَّةٌ ومنافع
أصبراً على مس الهوان وأنتم ... عديدُ الحصى ؟ إنى إلى الله راجع
وكيف ترون الذل دار إقامة ... وذلك فضل الله فى الأرض واسع
أرى أرؤساً قد أينعت لحصادها ... فأين ، ولا أين ، السيوف القواطع ؟
فكونوا حصيداً خامدين أو افزعوا ... إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع
أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة ... إلىّ ، ولبّاني الصدى وهو طائع
فلم أدر أن الله صور قبلكم ... تماثيلَ لم يُخْلق لهن مسامع
فلا تدعوا هذى القلوب ، فإنها ... قوارير مَحْنِيٌّ عليها الأضالع

ويقول معرضاً بالحاكم المستبد :

يا أيها الظالم فى ملكه ... أغرك الملك الذى ينفد
اصنع بنا ما شئت من قسوة ... فالله عدل ، والتلاقى غد

وكان من الداعين إلى نظام الشورى ، وقد مدح توفيقاً لما تولى أريكة مصر وظن المصريون أنه سيحقق آمالهم الوطنية ويلبى دعوتهم إلى الأخذ بالشورى ؛ حتى لا يستبد الحكام ، ولا يقعوا فى أخطاء تجلب عليهم وعلى قومهم المصائب كما حدث لإسماعيل :

سن المشورة وهى أكرم خطة ... يجرى عليها كل راع مرشد
هى عِصْمة الدين التى أوحى بها ... رب العباد إلى النبى محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه ... ومن استهان بأمرها لم يَرْشُد
أمران ما اجتمعا لقائد أمة ... إلا جنى بهما ثمار السؤدد

جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى ، وجند للعدو بمرصد
هيهات يحيا الملك دون مشورة ويعز ركن المجد ما لم يُعْمَد

ويقول فيها مادحاً توفيقاً :

أطلقت كل مقيد وحللت كل معقد وجمعت كل مبدَّد
وتمتعتْ بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد

ويحرض الأمة على اليقظة ، والقوة حتى لا يستهين السلطان بأمرها :

وكذلك السلطان إن ظن بالأمة عجزاً سطا عليها وشَدّا

ولما أخفقت الثورة وتخاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ، ترك هذا الأخفاق ، وذياك الخذلان فى نفسه مرارة ظل أثرها فى لسانه مدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى إذا تم ساءتنا مصايره

ويقول ذاماً الثورة والثوار ، ويحاول أن يتنصل من تبعاتها ، وأن ما ناله كان بسبب ما دب بينهم من الشحناء ، وأنهم غدروا به :

صبرتُ على ريب هذا الزمان ولولا المعاذير لم أصبر
فلا تحسبَنِّى جهلت الصواب ولكن هممت فلم أقدر
ثنت عزمتى ثورةُ المفسدين وغلت يدى فترة العسكر
وكنا جميعاً فلما وقعت صبرت ، وغادرنى معشرى
ولو أننى رمت إعناتهم لقلت مقالة مستبصر
ولكننى حين جد الخصام رجعت إلى كرم العنصر

وحاول البارودى أن يبرىء نفسه ويعلل هزيمته ويصف حنث الثوار فى أيمانهم ومواثيقهم وتخاذلهم ، ويتندم على زعامته :

دعونى إلى الجلى فقمت مبادراً وإنى إلى أمثال تلك لسابقُ

فلما استمر الجِدَّ ساقوا حُمولهم ... إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق (١)
فلا رحم الله امرأ باع دينه ... بدنيا سواه ، وهو للحق رامق
على أننى حذرتهم غِبَّ أمرهم ... وأنذرتهم لو كان يفقه مائق (٢)
وقلت لهم كفوا عن الشر تغنموا ... فللشر يوم لا محالة — ماحق
فظنوا بقولى غير ما فى يقينه ... على أننى فى كل ما قلت صادق
فتباً لهم من معشر ليس فيهم ... رشيدٌ ولا منهم خليل يُصادَق
ظننت بهم خيراً فأُبْتُ بحسرة ... لها شجن بين الجوانح لاصق
فياليتنى راجعت حلمى ولم أكن ... زعيما وعاقتنى لذاك العوائق
ويا ليتنى أصبحت فى رأس شاهق ... ولم أر ما آلت إليه الوثائق
همُ عرَّضونى للقنا ، ثم أعرضوا ... سراعاً ، ولم يطرق من الشر طارق
وقد أقسموا ألا يزولوا فما بدا ... سنا الفجر ، إلا والنساء طوالق

ثم يصف فزعهم وفرارهم من المعركة بقوله :

مَضَوْا غير معذورين لا النَّقْع ساطع ... ولا البيض فى أيدى الكماة دوالق (٣)
ولكن دعتهم نبأة ، فتفرقوا ... كما انقض فى سِرْب من الطير باشق (٤)
فكم آبق تلقاه من غير طارد ... وكم واقف تلقاه والعقل آبق
إذا أبصروا شخصاً يقولون : جحفلٌ ... وجبنُ الفتى سيف لعينيه بارق
أسودٌ لدى الأبيات بين نسائهم ... ولكنهم عند الهياج نقانق (٥)
إذا المرء لم ينهض بقائم سيفه ... فياليت شعرى ، كيف تحمى الحقائق ؟

وقد اتُّهِم البارودى بأنه يطمع فى الملك ، وأنه يحاول ثل العرش ، وخلع توفيق فقال منكراً هذه التهمة ، معللا ثورته بعد أن نفى إلى (سرنديب)

---

(١) ساقوا حمولهم : كناية عن تخاذلهم . (٢) مائق : أحمق .
(٣) دلق السيف : أخرجه من غمده .
(٤) النبأة : الصوت ، والباشق : من الطيور الجارحة .
(٥) ج نقنق (بكسر فسكون) وهو الظليم ، ذكر النعام ويضرب به المثل فى الجبن .

يقول أناسٌ إننى ثُرْت خالعاً ... وتلك هنَاتٌ لم تكن من خلائقى
ولكننى ناديت بالعدل طالباً ... رضا الله ، واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً ... وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فإن كان عصياناً قيامى فإننى ... أردت بعصيانى إطاعة خالقى
وهل دعوة الشورى علىَّ غضاضة ... وفيها لمن يبغى الهدى كل فارق ؟
بلى ! إنها فرض من الله واجب ... على كل حى من مسوق وسائق
وكيف يكون المرء حراً مهذباً ... ويرضى بما يأتى به كلُّ فاسق ؟!
فإن نافق الأقوام فى الدين غَدْرَةً ... فإنى بحمد الله غير منافق
على أننى لم آلُ نصحا لمعشر ... أبى غدرُهم أن يَقْبلوا قول صادق
رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأسرعوا ... إلى نقض ما شادته أيدى الوثاق
فلما استمر الظلم قامت عصابة ... من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد فأقبلوا ... إليهم سراعاً بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما ... تَألاَّه من وعد إلى الناس صادق

وإذا كان البارودى قد أنكر هذه التهمة هنا ونفاها عن نفسه ، ففى شعره ما يثبتها ويدل على أنه كان يطلب من الثوار أن يولوه عليهم حاكما ، ويمدح نفسه ، ويطرى حكمه . ومن البديهى أنه لم يرد رئاسه الوزارة فقد كان رئيساً للوزارة ، ولكنه يريد ما هو أعلى منها ، وتراه يذم هؤلاء الذين يقفون فى سبيله ويكيدون له :

من كل وغد يكاد الدَّسْت يدفعه ... بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة ... بعد الإباء وكانت زهرة الدول

إلى أن يقول :

بئس العشير وبئست مصر من بلد ... أضحت مناخا لأهل الزور والخَطَل
أرضٌ تأثَّل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السهل والجبل

وأصبح الناس فى عمياء مظلمة ... لم يخط فيها امرؤ إلا على زلل
أصوّحت شجرات المجد أم نضبت ... غُدُر الحِمَّية حتى ليس من رجل ؟!
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت ... مَسَّ العفافة من جبن ومن خزل (١)
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا ... شكالة الرَّيْث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة ... يكون ردْأً لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت ... مسالك الرأى صاد الباز بالحَجَل
إن قال برَّ ، وإن ناداه منتصر ... لبى ، وإن هم لم يرجع بلا نَفَل
يجلو البديهة باللفظ الوجيز إذا ... عز الخطاب وطاشت أسهم الجدل
ولا تلجوا إذا ما الرأى لاح لكم ... إن اللجاجة مدعاة إلى الفشل
هذه نصيحة من لا يبتغى بدلا ... بكم وهل بعد قوم المرء من بدل ؟

فهذا الشعر السياسى ، وهذه النفس المتوثبة الطَّمُوح ، وهذه الثورة المتأججة التى انتهت بصاحبها إلى النفى والتشريد هى من الجديد فى معانى البارودى وشعره ، وهى جديدة حتى فى الأدب العربى كله . وإن كان المتنبى قد حاول من قبل ملكا وثار على الدنيا التى مكنت للعبيد والخصيان والعلوج فى الأرض يسوسون شعوباً ضعيفة وجعل يقول :

فى كل أرض وطئتها قدُم ... ترعى بعبد كأنها غنم

فإنه اكتفى بالإشارة والتلميح وبالزفرة الحارة ، وبملامة الدهر ومحاربته فى مطلبه ، ولكن البارودى كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ، والعدل والمساواة ، كان يطلب العيشة الهنية فى ظلال الحرية ، ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكا عضوضاً ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودى قلد المتنبى فى بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه ، نار الثورة تقليداً ؟ أو ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟ وهل فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وذلت نفسه وهو يقاسى ألم النفى والتشريد ، ما دام يدب فى جسمه شىء

(١) الخزل : من الانخزال وهو الظلوع فى المشى من أثر شوكة أو شبهها . مشى فيه تثاقل وتراجع

من العافية ؟ كلا ! وإذا شئت برهاناً فاستمع لهذه الكلمات التى كان يخشى بأسها على البعد حكام مصر كأنها جيش لهام يبدد سعادتهم :

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعُه ... ويملكَ أعناق المطالب وغدُه
تداعت لدرك الثأر فينا ثُعالةٌ ... ونامت على طول الوتيرة أُسْده
فحتام نسرى فى دياجير محنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمده ؟
إذا المرء لم يدفع يدَ الجور إن سطت ... عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذَلَّ خوف الموت كانت حياته ... أضر عليه من حمام يؤدّه
وأقتل داءٍ رؤيةُ العين ظالما ... يسىء ، ويُتْلى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا ... أيفرح فى الدنيا بيوم يعدُّه ؟
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه ... كذى جرب يلتذ بالحك جلده
عفاءٌ على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلا يحمى الحقيقة شده
من العار أن يرضى الفتى بمذله ... وفى السيف ما يكفى لأمر يعده
وإنى امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شَدَّ ساقى دون مسعاى قِدّه
أبت لىَ حمل الضيم نفسٌ أبية ... وقلب إذا سيم الأذى شَبَّ وَقْدُه

وربما قيل إن البارودى كان ذا أثرة ، وأنه كان يسعى سعيه لتحقيق أمله ، وأنه لم يكن مخلصاً فى دعوته لمحاربة الظلم . وسواء كان هذا صحيحاً ، أو غير صحيح ، فالذى نلمسه هو أن البارودى كان يتغنى بمصر وأهلها ، ويظهر محبته لها ، وحرصه على خيرها ونفعها ، بما لم نسمعه قبل من شاعر . إنها الروح القومية الجديدة التى سرت فى شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ويتغنون بمآثر قومهم وقد تمثلت هذه الروح فى البارودى على غير انتظار وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه . أصغ إلى القطعة التالية ، والمس ما بها من حرارة الصدق والمحبة لتعرف أكان البارودى مخلصاً فى دعواه أو مداجياً ؟ ؟

فيا مصر ! مد الله ظلك وارتوى ... ثراك بسَلْسالٍ من النيل دافق

ولا برحت تمتار منك يدُ الصَّبا ... أريجاً يدوى عَرفُه كل ناشق
فأنت حمى قومى ، ومشعب أسرتى ... وملعب أترابى ، ومجرى سوابقى
بلاد بها حل الشباب تمائمى ... وناط نِجادَ المشرفىِّ بعاتقى
تركت بها أهلا كراماً وجيرة ... لهم جيرة تعتادنى كل شارق
هجرت لذيذ العيش بعد فراقهم ... وودعت ريعان الشباب الغُرانق

إننا لا نستطيع أن نحكم على البارودي وشعره ينطق بوطنيته ، بأنه منافق خداع ؛ إنه كان يحب وطنه ، وفى سبيله شرد ونفى :

ومن عجائب مالاقيت من زمنى ... أنى مُنِيتُ بخطب أمره عجب
لم أقترف زَلَّةً تقضى علىّ بما ... أصبحت فيه ، فماذا الويل والحَرَب؟
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلماً واغترب ؟!

إن هذه النغمة الوطنية جديدة — كما ذكرنا — فى الشعر العربى ، وحسب البارودى فخراً أنه من أوائل من تغنى بأمجاد وطنه فى العصر الحديث ، ولقد زاده النفى حباً فى وطنه وتعلقا به ، وترديداً لمحاسنه ، ويتمثله على البعد جنة دانية القطوف عبقة الشذى فمن ذلك قوله وهو بالنفى يتشوق إلى أيام لهوه التى حُرمها ، وإلى الأرض الطيبه التى أبعد عنها ، ويصف جزيرة سرنديب وصفاً جميلا ، وفيه تصوير دقيق ، يدل حس مرهف ، وذوق فنان عبقرى

لبَّيْك يا داعِىَ الأشواق من داعى ... أسمَعْتَ قلبى وإن أخطأتَ أسماعى
مُرْنى بما شئتَ أبلُغْ كلَّ ما وصلت ... يدى إليه فإنى سامع واعى
إنى امرؤ لا يرُدُّ العَذْلُ بادرتى ... ولا تَفُلُّ شَباةُ الخطْب إزْماعى (١)
أجرى على شيمةٍ فى الحب صادقة ... ليست تَهُمُّ إذا ريعتْ بإقْلاعِ (٢)

---

(١) البادرة : ما يبدر من الإنسان عند حدة غضبه ، والمراد بالباردة هنا شدة العزم وقوة الإرادة الإزماع : العزم .
(٢) ريعت : أخيفت والإقلاع : الترك والكف .

للحب من مُهْجتى كهف يلوذ به ... من غدر كلِّ امرئٍ بالشر وقاع
يا حبذا جَرْعةٌ من ماء مَحْنِيةٍ ... وضجعةٌ فوق بَرْد الرَّمْل بالقاع
ونسمةٌ كَشميم الخلد قد حملت ... ريَّا الأزاهير من مِيثٍ وأَجْراع (١)
يا هَلْ أرانى بذاك الحى مجتمعاً ... بأهل وُدِّىَ من قومى وأشياعى
وهل أسوقُ جوادى للطراد إلى ... صيد الجآذر فى خضراءَ مِمْراع
منازلٌ كنتُ منها فى بُلَهْنِيةٍ ... مُمَتَّعًا بين غلمانى وأتباعى
فاليوم أصبحتُ لا سهمى بذى صَرَدٍ ... إذا رميتُ ، ولا سيفى بقطَّاعِ (٢)
أبيتُ فى قُنَّةٍ قَنْواءَ قد بلغت ... هام السِّماك وفاتته بأبواع (٣)
يستقبلُ المزنُ لِيَتَيْها بوابله ... وتصدم الريح جَنْبَيها بزَعْزَاع (٤)
يطل شِمْراخُها يَبْساً وأسفلها ... مُكلَّلاً بالندى يَرْعى به الراعى
إذا البروق ازمهرَّتْ خلت ذروتها ... شهما تدرَّع من تِبْرٍ بأدْرَاع
تكاد تلمس منها الشمسَ دانيةً ... وتحبسُ البدْرَ عن سير وإقلاع
أظَلُّ فيها غريب الدار مبتئساً ... نابى المضاجع من هَمٍّ وأوجاع
لا فى (سرنديب) خِلٌ أستعين به ... على الهموم إذا هاجت ولا راعى
يظننى من يرانى ضاحكاً جَذِلاً ... أنِّى خلىٌّ ، وهمى بين أضلاعى
ولا وربِّك ما وجدى بمنْدَرسٍ ... على البِعاد ولا صبرى بمطواع
لكننى مالكٌ حزمى ومنتظرٌ ... أمْراً من الله يشفى بَرْحَ أوجاعى
أكفُ غَرْبَ دموعى وهى جاريةٌ ... خوفَ الرقيب وقلبى جدُّ مُلْتاع

---

(١) الميث ج ميثاء وهى الأرض السهلة اللينة من غير رمل ، والأجراع : جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرملية السهلة .

(٢) صرد : مصدر صرد السهم أى أصاب ونفذ .

(٣) قنواء : عالية مرتفعة ، الأبواع جمع باع .

(٤) الليتان : صفحتا العنق مثنى ليت . زعزاع : شديدة تزعزع الأشياء .

فإن يكنْ ساءنى دَهري ، وغادرنى رَهْنَ الأسى بين جَدْبٍ بعد إمراع
فإن فى مصر إخواناً يسرهم قربى ، ويعجبهم نظمى وإبداعى

ويقول من قصيدة أخرى وهو فى المنفى يتشوق إلى مصر .

يا (روضة النيل) لا مَسَّتْكِ بائقةٌ ولا عَدَتك سماءٌ ذات أغداق (١)
ولا بَرِحْتِ من الأوراق فى حُلَلٍ من سُنْدُسٍ عبقرى الوشى برَّاق
يا حبَّذا نَسَمٌ من جوها عَبِقٌ يسرى على جدول بالماء دفَّاق
بل حبَّذا دَوْحةٌ تدعو الهديلَ بها عند الصباح قمارىٌّ بأطواق
مرعى جيادى ، ومأوى جيرتى ، وحمى قومى ، ومَنْبِتُ آدابى وأعراقى
أصبو إليها على بعد ، ويعجبنى أنى أعيشُ بها فى ثوب إمْلاق

(ح) — النسيب :

وقد مر بنا أن البارودى قد قلد القدماء فى الوقوف على الأطلال والدمن ، وفى الأوصاف الموروثة ، وفى الوصف المادى للمرأة والنظرة إليها نظرة السلعة . ولكنه مع هذا قد تحلل أحياناً من كل تلك القوالب القديمة ، وترفع فى نظرته إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة .

إنى لأقنع من هواك بنظرة وأعدها صِلَةً إذا لم تمنعى
هذى مناى وحبذا لو نلتها عن طيب نفس فهى أكبر مقنع (١)

وهو يتمدح بعفته فى حبه ويبين مذهبه فى الوداد بقوله :

---

(١) البائقة : الداهية ، لا عدتك : لا تجاوزك والمراد بالسماء السحب والأمطار .

(٢) المعنى قديم طرقة من قبل جميل فى قوله :

وإنى لأرضى من بثينه بالذى لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آماله
وبالنظرة العجلى وبالعام ينقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

ولكن البارودى كان فى عصر مادى لا يفطن إلى هذا ، وقد سبقه آلاف الشعراء منذ جميل لم يقنعوا قناعته .

إنى امرؤ ملك الوداد قيادتى ... وجرى على صدق العهود وفائى
لا أستريح إلى السلو ، ولو جنى ... خلى علىّ ، ولا أشين ولائى
لا ذمتى رهن الفكاك ولا يدى ... تلقى أزمة عفتى وحيائى

ويقول :

على أننى لم آت فى الحب زلة ... تغض بذكرى فى المحافل أو تزرى
ولكننى طوفت فى عالم الصبا ... وعدت ولم تعلق بفاضحة أُزرى

ويقول :

والعشق مكرمة إذا عف الفتى ... عما يهيم به الغَوِىُّ الأصْوَرُ(١)
يقوى به قلب الجبان ويرعوي ... طمع الحريص ، ويخضع المتكبر

وقد فطن أحياناً إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية فقال :

فتاة يحار الطرف فى قسماتها ... لها منظر من رائد العين لا يخلو
لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت ... على سارباتِ الذر ما آده الحمل

وله فى الغزل معان جميلة مبتكرة من مثل قوله :

تركتنى من غمرات الهوى ... فى لج بحر بالردى زاخر
أسمع فى قلبى دبيب المنى ... وألمح الشبهة فى خاطرى

وقد وفق البارودى فى البيت الثانى أيما توفيق ، على أن معظم نسيب البارودي بالشعر القديم ، وقد وفيناه نعتاً فيما سبق :

(ء) الهجاء :

والهجاء نوعان : شخصى وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية ، واجتماعى ، ويراد به ذلك الهجاء التهكمى الذى يقصد إلى تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره فى أبشع صورة رغبة فى الإصلاح ، وقد يتمثل هذا العيب الاجتماعى فى شخص من الأشخاص

(١) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد من الصور وهو الميل .

فيهجوه الشاعر ويبرز ذلك العيب فيه بشكل يسترعى انتباه القارئ أو السامع ، وليس الشخص مقصوداً لذاته فى مثل هذا النوع من الهجاء ، وإنما المقصود هو هذه السوءة الاجتماعية . ولن يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين فى الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع الاجتماعى . وقد لجأ شعراء الغرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية العامة ، ويجسمون العيوب تجسيما يحمل الشعب على الاشمئزاز منها والبعد عنها كما فعل شكسبير فى رواياته الكثيرة وكما فعل موليير فى هزلياته .

وقد وُجد فى شعر البارودى نوعا الهجاء : الشخصى والاجتماعى ، وأكثر من النوع الاجتماعى على غير عادة شعراء العربية فهو يشكو الناس ونفاقهم وظلمهم وغدرهم ، ويصور قومه ويعدد عيوبهم ، ويحرضهم على إصلاح تلك العيوب ، وقد مر بنا نماذج من النوعين فقصيدته التى يدعو فيها لنفسه ويعدد محاسنه ، وينعى على مواطنيه صفاتهم وخمولهم والتى يقول فيها :

بئس العشير وبئست مصر من بلد ... أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل
أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السَّهل والجبل

من نوع الهجاء الاجتماعى ، والمقطوعة التى يذم فيها النَّهم الجشع من الهجاء الشخصى وإن لم يُظهر فيها أمراً شخصياً أو عداوة خاصة حفزته على هجائه وإنما ذمه بعيب عام وهو الجشع والنهم .

ومن النوع الاجتماعى قوله يذم زمانه وينعى على معاصريه تلونهم وعدم وفائهم فى صداقتهم ؛ ولا شك أن البارودى قد لقى من المحن والشدائد ما جعله حانقاً على الناس والزمان ولا سيما وقد خذلوه وآذوه :

أنا فى زمان غادر معاشر ... يتلونون تلون الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب ... منهم وإخوة محضر ورخاء
أقبح بهم قوماً بلوت إخاءهم ... فبلوت أقبح ذمة وإخاء
قد أصبحوا للدهر سُبَّة ناقم ... فى كل مصدر محنة وبلاء

وأشد ما يلقى الفتى فى دهره ... فقدُ الكرام وصحبة اللؤماء
شقىَ ابن آدم فى الزمان بعقله ... إن الفضيلة آفة العقلاء

فهو هنا لا يذم شخصاً بعينه لعداوة خاصة بينه و بينه ، و إنما يذم عيباً اجتماعياً متفشياً ، ولو تناول هذا العيب شاعر غربى لأظهر لنا شخصية المنافق فى مسرحية شائقة ولأوسعه سخرية وتهكما . ولكن البارودى أوجز فى وصفه على عادة العرب ؛ على أن له قطعاً تصويرية جميلة فى هذا النوع الاجتماعى ، اسمعه مثلاً يصور جارة تكثر من الصخب والضوضاء ، ولها أولاد يتشاجرون كثيراً ، و يملئون الجو صراخاً وعويلا ؛ لا تراعى هذه الجارة حرمة الجيران ، ولا تعبأ براحة سواها ، ومن العجيب أن هذا العيب لا يزال منتشراً فى كثير من بلدان الشرق بدعوى الحرية الكاذبة ، فترى الجار يقلق راحة جاره بشتى الوسائل : فتارة بالمذياع ، وأخرى بمكبر الصوت أو بالمشاجرة مع أهله وأولاده . . . إلى آخر ما هنالك من أنواع المضايقات . والبارودى أديب ومفكر ، وقد ابتلاه الله بجارة مقلقة للراحة تبدد ضوضاؤها وجلبتها أفكاره وخيالاته فلا بدع إذا سخط عليها و برم بها :

إلى الله أشكو طول ليلى وجارةً ... تبيت إلى وقت الصباح بإعوال
لها صبية لا بارك الله فيهم ... قِباحُ النواصى لا يَنَمْن على حال
صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى ... من الشر فى بيت من الخير ممحال
ترى بينهم — يافرق الله بينهم — ... لهيب صياح يصعد الفلك العالى
كأنهمُ مما تنازعن أكلب ... طَرقن على حين المساء بِرئبال
فهجن جميعاً هيجة فزعت لها ... كلاب القرى مابين سهل وأجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة ... من الحى إلا جاء بالعم والخال
وفُزِّعت الأنعام والخيل فانبرت ... تجاوب بعضاً فى رُغاء وتَصهال
فقامت رجال الحى تحسب أنها ... أصيبت بجيش ذى غوارب ذيال
فمن حاملٍ رمحا ومن قابض عصاً ... ومن فزِع يتلو الكتاب بإهلال
ومن صبية ريعت لذاك ونسوة ... هوائم دون الباب يهتفن بالوالى

فيارب هب لى من لدنك تصبرا ... على ما أقاسيه وخذهم بزلزال

ومن هجائه الشخصى الذى ينهش فيه العرض ، ويذم الشخص بصفات خاصة فيه حتى تؤذيه قوله ، وهو من أخف أهاجيه :

هجوته لا بالغاً لؤمه ... لكننى كفكفت من غَرْبه

فإن أكن قد نلت من عرضه ... فإننى دنست شعرى به

فلا يلومن سوى نفسه ... من سلط الناس على ثَلْبه

وقوله :

وقد تكوّن من لؤم ومن دنس ... فما يغار على عرض ولا حسب

يلتذ بالطعن فيه والهجاء كما ... يلتذ بالحك والتظفير ذو الجرب

على أن البارودى لم يكن هجّاء ، وأهاجيه الشخصية قليلة إذا قيست بشعره كله . ولكن سخطه على الناس وتبرمه بأخلاقهم وعيوبهم كثير نوعاً ما ، وهو يدل على النزعة الإصلاحية عنده ويدل على أنه قد أوذى ، ولقى من قومه محناً كثيرة ، وأنه كان يضيق بأخلاقهم ذرعاً . فهذا الهجاء الاجتماعى جديد فى شعر البارودى ، إنه صور به عصره وناسه تصويراً ملوناً بشعوره الخاص ، وحسبنا من الشاعر أن يصور ما يختلج فى صدره من عواطف وأحاسيس وأن ينقل إلينا مشاعره الخاصة ، لا أن يستتر وراء سُدُف كثيفة مصطنعة من المجاملات والنفاق الاجتماعى ، والمدح الكاذب .

(هـ) المخترعات الحديثة :

حفل القرن التاسع عشر بكثير من المخترعات الحديثة التى ذللت الطبيعة وأرضختها لخدمة الإنسان وجعلت أمور الحياة هينة أمامه . وقد أخذت مصر بنصيب من هذه المخترعات فانتشر فيها مثلا استخدام الكهرباء وآلة التصوير ، وعرفت فى أواخر أيام البارودى الطائرات . . وما شاكل ذلك . وكان البارودى حريصاً على أن يستمد تشبيهاته من من هذه المخترعات الحديثة رغبة فى الطرافة ، وتمثيل عصره ، فيقول مثلا :

تعرض لى يوماً فصورت حسنه ببلورتَى عينَىَّ فى صفحة القلب

ويقول :

فالعقل كالمنظار يبصر ما نأى عنه بعيداً دون لمس باليد

ويقول :

فسرت بجسمى كهرباءة حسنه فمن العروق به سلوك تخبر

ويقول :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها علياك من منطق فى لوح تصوير (١)

ويقول :

جسم برته يد الضنى حتى غدا قفصاً به للقلب طير يصفر

لولا التنفس لاعتلت بى زفرة فيخالنى طيارة من يبصر

وقد يبدو على بعض هذه الأبيات شىء من التكلف ، ولكن البارودى ما كان ليستطيع أن يبتعد عن استخدام هذه المخترعات فى شعره ، وهو الولوع بالتجديد فى الشعر ، الحريص على أن يمثل زمانه تمام التمثيل .

(ح) نظرة عامة :

رأيت مما سبق أن البارودى حاول أن يجدد فى الشعر العربى من حيث الموضوعات التي تناولها ، ولا سيما فى الوصف ، وفى الشعر السياسى ؛ ورأيت أن الوصف قد تناول نواحى عدة : من وصف للطبيعة ، والأشخاص ، وميادين القتال ، والأشياء ، وأن وصف البارودى كان فى الغالب وصفاً حسياً يقف عند التصوير المشوب بشىء من العاطفة دون أن يتعمق فيه ، ويحلل ويوازن ويتخيل ، وأن موصوفاته كانت كذلك من المشاهدات غالباً ، ولم يحاول وصف الأمور المعنوية والنفسية إلا قليلا ؛ ومع ذلك فالبارودى بإفراده قصائد خاصة بالوصف وبمحاكاته الطبيعة فى شعره ، وإتيانه بالأدب الواقعى المجرد عن العواطف والأخيلة

(١) ارتسمت : يريد رسمت غير موجودة بالمعاجم .

إلا القليل ، قد فتح فتحاً عظيما فى الشعر العربى ونفض عنه غبار السنين الطويلة ، وعرض القديم عرضاً جديداً شائقاً جذاباً ، ومهد الطريق لمن أتى بعده من الشعراء . ناهيك بأسلوبه الفخم الجزل ، وببعده عن الزخارف والحلى التى تطغى على المعنى وتذهب ببهاء الشعر ، وتدعو إلى التكلف والتعسف .

ومن أهم مزايا البارودى أنه كان بعيداً عن التكلف ، بل كان ينطلق على سجيته ، ويظهر كل ما فى نفسه ، ويصور مشاعره السارة والحزينة دون إخفاء أى شىء منها ، وقد يغلبه التقليد للقديم أحياناً فيخالف طبعه ، ويسير على غير سجيته ، ويتكلف القول محاكياً القدماء ، وتلمس أثر هذا التكلف واضحاً ليس عليه طابع البارودى ولا شخصيته ، وقد مر بنا عند الكلام على القديم فى شعره نماذج من هذا الطراز .

وهناك أغراض تقليدية قال فيها الشعراء منذ عصر امرئ القيس ، وقال فيها البارودى كذلك مثل : الرثاء والمدح والحكمة وما شاكل هذا . ولا نستطيع أن نختم الكلام على البارودى قبل أن نرى موقفه من هذه الأغراض .

الرثاء :

ولم يرث البارودى إلا صديقاً أو قريباً ، فلم يكن رثاؤه مفتعلا أو من شعر المناسبات ، وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل فى رثائه كل ما يخطر ببال الراثى ، من تفجع وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليهما وإظهار لمحاسن المرثى ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ بها غيره ، ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت ، وإن لم يلجأ إلى الوقوف على سر الحياة الأخرى وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقى . وقد يأتى البارودى ببعض المعانى القديمة فى قصائد الرثاء كأن يدعو الله بأن ينزل الغيث على جدث الميت وما شابه هذا من الصيغ التقليدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة فى النعوت التى يضفيها على الميت ، وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة وقلب وفى ، ولا سيما وقد قال معظم مراثيه وهو فى المنفى فيزيد فى أساه لوعة النوى عن الوطن ،

وحرمانه التزود من الميت بنظرة أو حديث ، ويدعو هذا إلى توجيه الخطاب للشامتين به فى نكبته ومحنته ، ويظهر لهم التجلد فى أخريات قصائده وأنه لا يزال صلب العود ولا سيما إذا كان الميت من ذوى قرابته .

ومن أحسن مراثيه قوله فى ولده على :

كيف طوتك المنون ياولدى ؟ وكيف أودعتك الثرى بيدى
وا كبدى يا على بعدك ، لو كانت تبل الغليل وا كبدى ! !
فقدك سَلَّ العظام منى ور دَّ الصبر عنى وفت فى عضدى
كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها سهرتها باكياً بلا مدد
دمع وسهد ، وأىُّ ناظرة تبقى على المدمعين والسَّهد ؟ !
لهفى على لمحة النجابة لو دامت إلى أن تفوز بالسدد
ما كنت أدرى إذ كنت أخشى عليـ ـك العين أن الحمام بالرصد
فاجأنى الدهر فيك من حيث لا أعلم ختلا والدهر كالأسد
لولا اتقاء الحياء لاعتضت بالـ حلم هُياماً يحيق بالجلد
لكن أبت نفسى الكريمة أن أثْلم حد العزاء بالكمد
فليبك قلبى عليك ، فالعين لا تبلغ بالدمع رتبة الخَلَد (١)
إن يك أخنى الردى عليك ، فقد أخنى أليم الضنى على جسدى
عليك منى السلام توديع لا قالٍ ، ولكن توديع مضطهد

وإذا عددت مراثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينه وبينهم آصرة محبة ووداد ، وتقدير وتفاهم ، مثل أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله فكرى ، وحسين المرصفى ، ووجدته رثى أولاده ، وزوجه ، ورثى والده وإن كان قد توفى وهو صبى كما عرفنا ؛ ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من الفخر ، ليس فيه تفجع الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير من المبالغات غير المقبولة ، وفيه يقول :

---

(١) الخلد : القلب ، أى أن العين مهما بكت لا يصل حزنها إلى منزلة حزن القلب .

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى ... طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
مات الذى ترهب الأقران صولته ... ويتقى بأسه الضِّرغامة العادى
جف الندى، وانقضى عمر الجدى وسرى ... حكم الردى بين أرواح وأجساد

المدح :

واقتصر فى مدحه على ولاة مصر إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، وهو فى مدحه لا ينسى مصر وموقف الوالى منها ، وما قدم لها أو ما يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لأخذه بالشورى والعدل .

ويستطرد إلى مدح نظام الشورى وأنه من تعاليم الإسلام ، وأن الأمة التى لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذى لا يتبعه ملك غير عادل ، وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف ؛ وهو فى مدحه لعباس يذكر عدله وأريحيته ، وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفى عنه وأعاده إلى وطنه ، فكان لزاماً عليه حين يمدحه أن يذكر له هذه اليد الكريمة . أما إسماعيل فقد مدحه حين ولى على أريكة مصر ، وبشر البلاد بعهد جديد كله خير وبركة بمقدمه ، وقدم نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استعداده لخدمته وخدمة وطنه . هذا ولم يغفل أن يثنى على كل ممدوحيه وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل وأنهم ذوو هيبة وشمائل كريمة . . . الخ هذه الصفات المعروفة والمعانى المطروقة ، وقد مرت بنا بعض أبيات من مدحه لتوفيق وعباس ، وهاك بعض ما قاله فى إسماعيل حين ولى أريكة مصر :

طرب الفؤاد ، وكان غير طروب ... والمرء رهن بشاشة وقطوب
ورد البشير ، فقلت من سرف المنى ... أعد الحديث علىّ فهو حسيبى
خبرٌ جلا صدأ القلوب فلم يدع ... فيها مجال تحفز لوجيب
فلتهنَ مصرُ وأهلُها بسلامة ... جاءت لها بالأمن بعد خطوب

بالماجد المنسوب ، بل بالأروع الـ مشبوب ، بل بالأبلج المعصوب (١)
رب العلا والمجد (إسماعيل) من وضحت به الأيام بعد شحوب
ورد البلاد وليلها متراكب فأضاءها كالكوكب المشبوب
بروية تجلو الصواب وعزمة تمضى مضاء اللهذم المذروب (٢)

ويقول فيها :

وأعاد مصر إلى جمال شبابها من بعد ما لبست خمار مشيب
فتنعمت من فيضه فى غبطة وتمتعت من عدله بنصيب

ويقدم نفسه لإسماعيل بقوله :

فاسمع مقالة صادق لم ينتسب لسواك فى أدب ولا تهذيب
أوليته خيراً ، فقام بشكره والشكر للإحسان خير ضريب
فاعطف عليه تجد سليل كرامة أهلا لحسن الأهل والترحيب
ينبيك ظاهره بود ضميره والوجه وسمة مخلص ومريب
وإليك من حوك اللسان حبيرةً يغنيك رونقها عن التشبيب
حضرية الأنساب إلا أنها بدوية فى الطبع والتركيب

ولم يكن البارودى شاعراً مداحاً متكسباً بشعره ، كما درج على هذه العادة معظم الشعراء فى الأدب العربى ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده وقد قال :

الشعر زين المرء مالم يكن وسيلة للمدح والذام

وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء ، وإنما للتعريف بمنزلته ، أو الشكر على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومديحه خال من المبالغات المذمومة والنعوت الموهومة

---

(١) المنسوب ذو النسب ، والأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته والمشبوب : الحسن الوجه . والبلجة (بضم فسكون) الضوء ، ونقاوة ما بين الحاجبين ، ويقال للرجل الطلق الوجه أبلج ، والمعصوب : المتوج .

(٢) المذروب : المحد المسنون .

وهذا طبيعى ما دام لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن الشعراء إنما لجئوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد فى عطائهم ، وأن نفس الممدوح تسر لها فيغدق عليهم جزيل الهبات .

فخره :

وقد افتخر البارودى كما عرفت بنسبه وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته وفروسيته وقد أكثر من القول فى هذا المعنى وله فيه مبالغات سخيفة ؛ فمن ذلك قوله يفتخر ببأسه ونجدته وأنه ملك أزمة الفصاحة والبيان ، وأن الزمان لو تقدم به لبز الشعراء الفحول ولسطر اسمه على جبين التاريخ بالفخر إلى آخر هذه المعانى المعروفة من مثل قوله :

ولى شيمة تأبى الدنايا وعزمة ... ترد لُهام الجيش وهو يمور
إذا سرت فالأرض التى نحن فوقها ... مَرادٌ لمهرى والمعاقل دور
فلا عجب إن لم يَصُرنى منزل ... فليس لعقبان الهواء وكور
وأصبحت محسود الجلال كأننى ... على كل نفس فى الزمان أمير
إذا صُلْت كف الدهر من غُلوائه ... وإن قلت غَصَّت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمةً ... لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى
لباء بفضلى (جرول) و (جرير)
ولو كنت أدركت النواسىَّ لم يقل ... « أجارةَ بيتَيْنا أبوك غيور »
وما ضرنى أنى تأخرت عنهم ... وفضلىَ بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أولٌ ... وبذ الجياد السابقات أخير

ويسود هذا النوع من الفخر شعر البارودى ، ويبين فيه أنه محسود المكانة ، وأنه فريد عصره وواحد دهره كما يقول :

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتى ... فهأنا اليوم فرد بين أندادى
بلغت من فضل ربى ما غنيت به ... عن كل قار من الأملاك أو باد

فما مددت يدى إلا لمنح يد ولا سعت قدمى إلا لإسعاد

الزهد :

ولعل قوله فى الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التى غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعانى غصص الفراق والنفى . وإلا فهذه النفس الطَّموح التى خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحياة كانت بعيدةً عن الزهد فى الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة ، وعلى كلٍ فما قاله فى الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا ويتذكر الموت ، والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وذهبت دنياهم الحافلة باللذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يذد عنهم الموتَ مالهُم ولا جاههم إلى آخر هذه المعانى التى استنفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس وأضرابهما من مثل قوله :

كل حى سميوت ليس فى الدنيا ثبوت
حركات سوف تفنى ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو بعده إلا السكوت
أيها السادر قل لى أين ذاك الجبروت ؟
كنت مطبوعاً على النطـ ـق فما هذا الصموت ؟
ليت شعرى أهمود ما أراه أم قُنُوت ؟
أين أملاك لهم فى كل أفق ملكوت ؟!
زالت التيجان عنهم وخلت تلك التخوت

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مدحه بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه ويقول :

هو النبى الذى لولا هدايته لكان أعلمُ من فى الأرض كالهمج

أنا الذى بت من وجدى بروضته ... أحن شوقاً كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسى فاكتست ولهاً ... وأى صب بذكر الشوق لم يهج
يا رب بالمصطفى هب لى — وإن عظمت ... جرائمى — رحمة تغنى عن الحجج
ولا تكلنى إلى نفسى فإن يدى ... مغلولةٌ ، وصباحى غير منبلج
مالى سواك وأنت المستعان إذا ... ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

الحكمة :

وقد أكثر البارودى من قول الحِكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة وقع عليها السابقون ، وصاغها البارودى صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم وقد وردت له كثير من الأبيات السائرة التى صارت كأنها أمثال كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذى يلقاه فيها محبب

وقوله :

وقليلاً ما يصلح للمرء للجد ... إذا كان ساقط الأجداد

وقوله :

لعمرك ما فى الدهر أطيب لذة ... من اللهو فى ظل الشبيبه واليسر

وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته ... فما لصروف الدهر يوسعها سبا

ومن أبيات الحكمة التى اشتهر بها قوله :

والدَّهْرُ كالبحر لا يَنفَكُّ ذا كدرٍ ... وإنما صفوه بين الورى لَمُعُ
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ... ما شان أخلاقه حِرْصٌ ولا طَبَعُ(١)
وكيف يُدْرِكُ ما فى الغيب من حَدَثٍ ... من لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
دهرٌ يَغُرُّ ، وآمالٌ تسرُّ وأعـ ... ـمارٌ تمرُّ ، وأيامٌ لها خُدَعُ

(١) الطبع : الشين والدنس والعيب .

يسعى الفتى لأمور قد تضر به ... وليس يعلم ما يأتى وما يَدَعُ
يآيها السادرُ المزورُّ من صَلَفٍ ... مهلاً فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب ، وخذ فيما خلقتَ له ... لعلَّ قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياةَ لثوبٌ سوف تخلعه ... وكلُّ ثوب إذا مارث ينخلع

وهى حكم قريبة المعنى مأخوذة من تجارب عادية ليست فيها فلسفة عميقة ، ولا تدل على مذهب فى الحياة ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة شاملة للكون ، وإنما هى نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سَبْر لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة ، خفيفة على الألسنة ، متقنة السبك .

وبعد فهذه معظم الموضوعات التى تكلم فيها البارودى وقد أعقبنا على كل موضوع بكلمة موجزة ، وعرفنا إلى أى حد مشى البارودى فى ظل القدماء وإلى أى حد تميزت شخصيته ، وبرزت خصائصه ، وفى شعر البارودى هنات .

هَنَات :

وهذه الهنات قليلة لا تقدح فى منزلته ولا تغض من شأنه ، وبعض هذه الهنات ترجع إلى :

١ — لغويات : فاستعمل البارودى كلمات كثيرة غير موجودة فى المعاجم ولا يعين عليها الاشتقاق الصرفى من مثل قوله (هامة نفس) فهذا المصدر بالمعنى الذى يريده أى قوة العزم غير موجود فى المعجمات التى بين أيدينا ، وقد يلتمس له تخريج بعيد ، فيه كثير من التعسف . ومن مثل قوله : (يكفيك منه إذا استحس) يريد أحس ، ومثل قوله :

شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها ... عليك من منطقى فى لوح تصويرى

فارتسمت بمعنى رسمت غير موجودة بالمعجمات ، ومعناها فى المعاجم امتثل ؛ ومثل قوله :

فكم سملوا عيناً بها تبصر العلا ... وشلوا يداً كانت بها راية النصر

والفعل شل لازم ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أشل الله يد فلان . واستعمله الشاعر هنا

متعدياً بنفسه ، وقد يوجد له تخريج بعيد .

ومن مثل قوله :

« تمديداً نحو السماء خضيبة » وخضيب على وزن فعيل بمعنى مفعول أى مخضوبة ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث إن تبع الموصوف ، ولهذا قالوا : كف خضيب وامرأة خضيب فاستعمال خضيبة خطأ .

ومثل قوله :

فما أبصرته الخيل حتى تمطرت بفرسانها واستتلعت كيف تخلص

وليس بالمعجمات استتلعت ، وإنما بها تلعت بمعنى مدت أعناقها . وقد يقال إن زيادة الهمزة والسين والتاء للطلب قياسية عند بعض الصرفيين .

٢ — وقد يخطئ البارودى فى الأساليب العربية فى مثل قوله :

إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تميد

والفصيح إذا راطن بعضهم بعضاً .

ولكن هذا قليل فى شعره ؛ لأن لسانه طبع على قول الفصيح لكثرة محفوظه من كلام العرب الخلص .

٣ — ومن المآخذ التى كثيراً ما يُعَير بها البارودى اتهامه بسرقات شعرية تأتى فى صورة أبيات أو أنصاف أبيات من مثل قوله .

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

وهو من قول أبى نواس :

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لى إن حاربتنى المطالب

ومثل قوله :

تميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنية تلمع

فالشطر الثانى مأخوذ من قول أبى العتاهية :

لها عارض فيه المنية تلمع

وقول البارودى :

قد يظفر الفاتك الألوى بحاجته ... وليس يدركها الهيابة الخلط

مأخوذ من قول الشاعر العباسى :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقوله .

وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... بمستحسن كالحلم والمرء قادر

مأخوذ من قول المتنبى :

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام

وهناك أبيات كثيرة تدل على نظرته إلى أشعار القدماء ، وقد ذكرنا آنفاً أن البارودى لم يسرق ، ولم يتعمد أخذ هذه الأبيات والسطو عليها ، وإنما كثر محفوظه ، وتأثر به كل التأثر ، ولا سيما إذا كان يعارض قصيدة لشاعر مجيد ، فإنه يجاريه حتى لقد يختلط شعره بشعره ويعتذر التفرقة بينهما ، وذلك لجودة محاكاته وسلامة طبعه ، وقد تَرِدُ على لسانه كلماتٌ أو أبيات من أشعار القدماء دون أن يدرك ، لأنها من محفوظه . وقد عرفنا أنه لم يتعلم قواعد اللغة والصرف وغيرهما وإنما صار يقرأ الشعر ويحفظه حتى مرن لسانه على قوله وتملك أزمة اللغة ، وطُبع على الفصاحة . وكل هذه الهنات التى ذكرناها مصدرها اعتداده بنفسه واعتماده على ذاكرته وعدم دراسته المنظمة ، ولكنها تافهة لا تغض من شعره أو تضير منزلته بشىء .

٤ — هذا وللبارودى مبالغات سقيمة من مثل قوله :

وما زاد ماء النيل إلا لأننى ... وقفت به أبكى على الأحباب

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

وكفكفت دمعاً لو أسلت شئونه ... على الأرض ماشك امرؤ أنه البحر

ومن مثل قوله :

إذا تنفستُ فاضت زفرتى شرراً ... كما استنار وراء القَدْحة اللهب

على أنها تغتفر له فإنها خيالات شاعر .

الفصل الخامس

نهضة النثر

عرفت فيما سبق كيف أن الصحافة فى عصر إسماعيل نهضت بلغة الكتابة ، وحررت النثر من السجع المتكلف ، والإمعان فى طلب المحسنات البديعية ، وأنها تناولت موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة ومشكلات الشعوب ؛ بيد أن نظرتنا ثمة كانت عابرة ، لم تقف طويلا لتتعرف على خصائص هذا النثر ومميزاته الفنية ، والموضوعات المتباينة العديدة التى خاض غمارها ، والعوامل الكثيرة التى تضافرت على النهوض به ، والتى اتخذت من الصحافة منبراً يذيع على الناس فكراً جديداً .

ورأيت أن المدرسة الديوانية التى مثلها عبد الله فكرى لم تتناول السياسة والاجتماع والإصلاح ، وأن موضوعاتها لم تتعد الأمور الشخصية أو الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجاء ، أو وصف منظر جميل أو آنية أنيقة الصنع . . . وما شاكل ذلك مما يكون مبعثه الشعور الشخصى .

ولقد شهدت أخريات عهد إسماعيل ، وعهد توفيق لوناً جديداً من النثر ، وأدباً ينبض بالحياة و بالحرارة رأينا نتفاً منه من قبل [1] وآن لنا أن نخصه بنظرة واسعة .

(١) موضوعاته :

أما موضوعات هذا النثر فكانت واسعة الأفق ، وتناولت مشكلات الحياة وما يهم الشعوب وما يبعث على اليقظة والنهضة وتراها ممثلة فى :

١ — الدفاع عن الشعوب المظلومة التى ظلت تئن تحت نير العبودية والعسف قروناً

---

(١) راجع ما كتبناه عن الشدياق وأديب إسحق فيما تقدم

مديدة ، لا تعرف كيف تراجع الحاكم فى حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتشكو وتئن وتتوجع وتُسْمع شكاتَها للعالم ، والحاكم سادر فى غُلَوائه ، يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ، ولا يفكر فى نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة ، استمع للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كيف يصور لك حال مصر قبل أن يشيع هذا الأدب الجديد والفكر الجرىء فى أرجائها :

« إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقةٍ بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضر به عليهم . وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا الكبير وإبراهيم باشا لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن إسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦) ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ؛ لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ولو حدَّث إنساناً فكرُه السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال » .

وكان الأدب صدًى لهذه الحياة البئيسة التى تُقْبر فيها الحريات وتغل العقول ، يتغنى بما قام به هذا الحاكم الظالم من أفعال وضيعة ، ويصور سيئاته حسنات ، وسخافاته آيات ، وحماقاته معجزات . ولكن الأدب الجديد أخذ ينظر إلى هذه الشعوب ، ويجعل خيرها

غايته ، فيها جم من اعتدى عليها ، و يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم وأدواءهم ، وطرق علاجها ، و يقف للحكام بالمرصاد يذيع سيئاتهم ومظالمهم و يهاجمهم فى غير هوادة أو رفق ، و يشجع أفراد الأمة على المطالبة بحقوقهم ، وألا يخشَوْا بأس الحاكم وجبروته ، لأنه مدين بقوته لهم ، و بغناه وضِياعه لكدِّهم وكَدْحهم ، استمع كذلك إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده كيف يحرض الأمة على خلع نير العبودية ، والحد من سطوة الحاكم الغاشم ، و ينعى عليه جهله وسفالته :

« إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ولا أثر لإرادتها فى منافعها العمومية ، و إنما هى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء و يفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، و يتداولها العلم والجهل ، و يتبادل عليها الغنى والفقر ، و يتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأى ، علىّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبواباً للتفنن فى الصنائع والحذق فى جميع لوازم الحياة ، و بعث فى أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة ، و إباء الضيم ، والأَنَفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطّأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

و إن كان حاكمها جاهلا ، سيئ الطبع ، سافل الهمة ، جباناً ضعيف الرأى ، أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعدوان فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، و يختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة و يَغْلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان فى الأمة رَمَقٌ من الحياة ، و بقيت

فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياحُ بذورَها ، وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتميتها و ينقطع الأمل من العلاج[1] » .

بمثل هذا الأدب أخذ المصلحون ينادون الأمم المستكينة للذل و يوقظونها من سباتها العميق و ينددون بما عليه أبناؤها من جبن وخور ، فلا يغضبون لكرامة امتُهنت ، ولا يثورون لعفاف ثُلم ، وشرف دُنِّس :

« الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها ، هو الذى وَهَّن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين و يطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذِّلة ، و يخفف عليها مضض المسكنة ، و يهوِّن عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ، و يوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يتوهم عُروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام . الجبن يُلبس النفس عاراً دون القرب منه موتٌ أحمر عند كل روح زكية وهمة عليه ؛ يرى الجبان وعر المذلات سهلا ، وشظف العيش فى المَسْكنات رفهاً ونعيما » .

« من يَهُنْ يسهل الهون عليه ما لجرح بميتٍ إيلام »[2]

و إذا جاوز الحاكم حدَّه ، طغى و بغى واستبد ، و باع بلاده للأجانب الطامعين ، والمستعمرين الغاصبين ، ونكل بالأحرار المفكرين كما فعل نوبار باشا مثلاحين طلب إبعاد الزُّبير باشا من مصر ، وحين حارب اسم رياض باشا المصلح ، وحين مكن للإنجليز فى وادى النيل ، فإن زعماء الإصلاح لا يترددون فى التحريض على قتله ، وتخليص الأمة منه :

« إنى أتعجب ، وكلُّ ذى إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمانيين ؛ ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده و يتقدم

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الثانى ص ٣٣١ والعدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٣٢٨ .

بصدره ، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصفقة وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ، ويرفع الحجاب عن واجبات الملية ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى ذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ويتجرعون مراراتِ سكرات الموت فى كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية تدفعهم إلى ما به فخار الإنسان »[1] .

وأنصت إلى السيد جمال الدين الأفغانى كيف يثير فى النفوس الحمية ، ويريدها متمردة على الطغيان والعسف والهوان ، وينعى على المصريين خورهم واستكانتهم إلى كل من يحكمهم ؛ فقد روى سليم بك عنحورى عن السيد جمال الدين قوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حِجْر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرُّعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوامَ حياتكم ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلَّب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان فى عروقكم دمٌ فيه كُرَياتٌ حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهيا كل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ؛ فهى شاهدة بمَنَعَةِ آبائكم وعزة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم ...! اصحوا من سكرتكم ...! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

بل كان السيد جمال الدين فى غاية الجرأة يحرض على الثورة علانية فى كلمات ملتهبة

---

(١) مجلة العروة الوثقى القسم الثانى ص ١٤٧

تثير الهمم الخامدة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتحرك العقول الجامدة من مثل قوله من خطبة له بالأسكندرية قبيل خلع الخديو اسماعيل :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، وتقوم بأَوَدَ العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » .

٢ — الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى فى الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب الحكام وعبثهم بكنوزها وأرزاقها ، بل مقامرتهم على استقلالها وحريتها ، حتى لا تدع للأجانب حجة يتكئون عليها فى إشرافهم على الحكومة وإدارتها .

وقد رأيت طرفاً مما قاله البارودى الشاعر فى الشورى . ولقد كانت هذه الروح التى تجلت فى شعر البارودى قبساً من نار مشتعلة فى نفس جمل الدين الأفغانى وصحبه وحوارييه من أمثال محمد عبده وعبد الله نديم ، وأديب إسحق ، استمع إلى هذا الحوار بين توفيق باشا وبين السيد جمال الدين الأفغانى وقد طلبه للمثول بين يديه فى قصر عابدين :

قال توفق باشا : « إنى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن من الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يُلْقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ؛ فيلقون بأنفسهم فى تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمحْ لى سموُّ أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ؛ ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة لتسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »[1] .

---

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا المخزومى .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، مبرهناً على أن الأمة المصرية بلغت حداً من النضج يؤهلها لأن تتولى أمورها بنفسها :

« ومما تقدم سرده تعلم أن أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ، حتى اشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم فيما يصلح الشأن ويلم الشعث ويجمع المتفرق من الأمور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد فى الرأى »[1] .

٣ — محاربة الاستعمار ، وإثارة الحمية الوطنية فى نفوس الشعوب المستذلَّة التى غُلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعماؤها إلى الدمار والبوار ، بينما العدو يتربص بهم الدوائر ، فلما لاحت الفرصة انقض على الفريسة كالوحش الكاسر يوسعها نهشاً وعضاً ، حتى خرت تحت قدميه دامية الجسد ، هامدة الفكر ، تنظر بعينين ملؤهما الرعب والذلة .

وقف هذا الأدب يصرخ فى هذه الأمم صرخات مدوية علها تفيق من سباتها ، وتنهض لمحاربة عدوها وتتنبه إلى الختل والغيلة ، والغدر والحيلة ، وشتى الوسائل الزائفة التى عمد لها الطامع الجشع من وعودٍ مصيرُها الخُلْف ، ومواثيقَ غايتها النقض ، وأيمانٍ يتبعها الحنث . كل ذلك حتى يمكن له فى البلاد فيمتص دماء أهلها ويسخرهم لطاعته عبيداً غير مأجورين وفَعَلَةً غير مشكورين :

« بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً فى المسلمين منهم ، فملوك أُنْزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحو حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاماً ، وأسود تحولت نعاماً ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨

من إفراط الطامعين فى أطماعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها . حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولهـا ، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ؛ ليهيئو بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا[1] » .

واستمع لهـذه الفئة المصلحة اليقظة كيف تتنبه لمكايد الإنجليز وصنائعهم فى مصر ، وتفضح حيلهم : « نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ماذكرناه فى العدد السابق ، ونشرته بعدنا جريدة (الدَّبا) وسائر الجرائد الإنجليزية ، وهو أن يكون ولىّ القاصر (عباس) بعد خلع أبيه فينال بسطة فى السلطة ، و إطلاقا فى الأمر والنهى ، وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر ، وهى محتاجة فى ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس فى مصر ، فهى فى شدة الاحتياج لنوبار باشا . وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات ، إن قلت : لا ، فلا ، أو قلت : نعم ، فنعم ، فهو فى غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه ، فعلم نوبار باشا أن خديويا مثل هـذا يمكن أن يكون واسطة فى تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر ، و بتقديمه هذه الخدمة لهم يبنى لنفسه من العزة قصراً شاهقاً[2] » .

واستمع كذلك إلى أديب إسحق تلميذ جمال الدين الأفغانى ، وأحد الألسنة التى أطلقها تندد بالاستعمار وحيلة ، كيف ينبه المصريين إلى خداع الإنجليز ، وتحذيرهم المصريين بتخفيض الضرائب حتى يمدحوا أيامهم ، و يوازنوا بينهم و بين حكامهم المتعسفين فيرجحون فى كفة العدالة ، وقد أشارت بعض الصحف بما قدم الإنجليز من عمل ، فثارت ثائرته وقال :

---

(١) افتتاحية مجلة العروة الوثقى .

(٢) مجلة العروة الوثقى ج ٢ ص ١٤٦ .

« فهل خفى عن تلك الصحف أن ليس من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أو لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بانحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هذا الفتات إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع التصريح ، علما بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور ، فإذا حاولت الجرائد إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها و إلغائها .

يا أهل مصر : إنى محدثكم حديثاً غريباً : إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها و إذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

٤ — السعى فى إصلاح المفاسد الاجتماعية ، فالفقر الذى يذوى الشباب الغض والإهاب النضر و يذل النفس الأبية ، و يطوح بالأنفة والكبرياء بعيداً حين تصرخ المعدة الجائعة صرخة تنهار على إثرها النفس المتجلدة قد جثم على صدور كثير من أبناء الشرق ، يكدون و يكدحون لفئة قليلة من الأغنياء ، يبعثرون على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين فى حمارّة القيظ وصبارّة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناؤهم يتضاغون من المسغبة والفاقة و يتضورون من الجوع والعرى ، و يتلوون من السقام والأوصاب . والجهل الذى بنى أعشاشه فى رءوس الجمهرة من أبناء الشرق ، و باض وفرخ ، وملأ الدنيا خرافات وخزعبلات يجب أن يحارَبَ وتفتح لأبناء الأمة مغاليق الأمور حتى يعيشوا كالأناسى . إن الفلاح المسكين كان نهباً للمرابين والمستغلين يأكلون ظلماً وعدواناً ما سعى لتحصيله بكد النهار وسهر الليل .

استمع لعبد الله نديم يصور لك هذا الجهل بالحساب ، ووقوع هذا الفلاح البائس فى أحابيل شياطين الفرنجة من المرابين والأفاقين ، وكيف يضاعفون ديونه ظلماً ، و ينهبون ماله جهراً ، وهو لا يدرى من الأمر شيئاً كأنه سائمة ترعى . وقد ساق عبد الله نديم هذه المحاورة بين الفلاح والمرابى باللغة العامية حتى يبين خداع هذا اللص الكبير ، وسذاجة هذا الجاهل الغر :

« ذهب المزارع إلى المرابى ليقترض مائة جنيه بفائدة قدرها عشرون فى المائة ، فقال المرابى

حسن ! سأخصم من المائة عشرين فتستحق ثمانين ، وأضيف الفائدة وقدرها عشرون فيكون الدين مائة وعشرين » ، ووافقه الفلاح لجهله بالحساب ، و بذلك أخذ ثمانين جنيهاً ليسددها مائة وعشرين ؛ وحين السداد جاء بكل ما أنتجته أرضه فاشتراه المرابى بأبخس الأثمان ، وخرج الفلاح بعد بيع محصوله الكبير مديناً بمائتى جنيه فى حين أن المرابى لو قدر المحصول كما يجب لسدد الفلاحُ دينه ، ودفع له المرابى فوق ذلك مائة جنيه ، ولكنه الجهل والغش

و يحارب المصلحون زبرج المدنية الخلاب ، ولألاءها الخداع ، والفتنة التى أوقعت المصريين فى شباكها ، فراحوا يلتقطون فى نهم بالغ نفايات الحضارة الأوربية العفنة يحسبونها تمديناً ، ونسوا دينهم وأخلاقهم الكريمة وعاداتهم الطيبة .

لقد جهد هؤلاء المصلحون والمفكرون فى أن ينيروا للأمة سبيلها و يبصروها عاقبة السير فى ظلماء الجهالة ، و يحثون على التعليم ، بل يشيدون المدارس ، و يخطبون فى كل مكان علّ الأمة تستجيب لندائهم ، فتمرق من شرك الجهل ، وأحابيل الضلالة .

ونمت فى الشعوب الجاهلة التى ظلت قروناً تخضع لسيطرة العتاة الجبارين صفاتٌ رديئة كالنفاق ، والرشوة ، والكذب ، والخداع ، والتراخى فى العمل . إلى آخر هذا الثَّبْت الشنيع من نقائص الأمم المغلوبة على أمرها ، حتى ماتت فيها روح الكرامة والعزة ، وكثير من المحامد التى لا تستطيع النمو فى جو خانق بِعِثْيَرَ الظلم ودخانه ؛ ولذلك عمد الكتاب المفكرون فى هذه الحقبة إلى التشنيع على هذه الرذائل وتبشيعها لدى أفراد الشعب كى يقلعوا عنها .

وهكذا امتد أُفق الكتابة إلى جميع الأغراض السياسية والاجتماعية ، وكانت الصحف خير معوان على بث هذه الآراء الجريئة ، والإرشادات النافعة ، والنصائح الثمينة التى حركت الهمم وأثارت العزائم ومهدت الطريق لنضج الأمم العربية والإسلامية .

وكان بجانب هذه الأغراض السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية بحتة ، من وصف وتعزية وتهنئة ، وتحدث عن الأمور المعنوية كالجمال ، والعاطفة ، والذوق ، والسعادة وماشاكل هذا . وقد حاول بعض الكتاب أن يرشد الناس إلى ما تقتضيه صنعة الكتابة من أمور ،

وما تتطلبه من جهود كأديب إسحق ، وقد بين فى مقالاته[١] شروط الكتابة السليمة وأنواعها . ويقول الشيخ خليل اليازجى فى الانشاء .

« الإنشاء ملكة راسخة فى النفس يعين عليها سلامةُ الذوق وطول المزاولة ، والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها فى الأكثر إلى بداهة الخاطر وذكاء البصيرة وغزارة المادة ، وله أحكام إذا راعاها المجيد نبغ فيها ، وإذا راعاها الضعيف استأنس بها ، فأعانته على الجرى فيها[٢] »

ومن رسالة لعبد الله نديم يشكر صديقاً على كتاب وصله منه[٣] :

« لبيك كوكبَ الصبح ، دام نداك ، وسعد بك نسيم الصَّبا ، طاب شذاك ، وأهلا بك يا نُور النهار ، ومرحباً بك يا نَوْر البَهار ، فإنى أرقت لِلِّقاء مذ سمعت بالإسراء ، وما زلتُ أسأل عن ركبكم فى منازل البدر ، وأستفهم منه ركبان النجوم حتى مطلع الفجر ، فالشِّعرى تقول : تركتهم بتلك المرحلة ، وعطارد يقول : تقدمتهم بمنزلة ، والمريخ يقول : أناخوا ركائبهم ، والمشترى يقول : أثاروا نجائبهم ، والدجى تقول : ليلهم قمرى ، والزهرة تقول هم أولاء على أثرى ، وكل ذلك وأنا هائم كحاطب بليل حتى طلع علىّ من جانب السحر سُهيل ، فهممت بتقبيله فأبى ، وارتفع عنى ونبا ، فأشرت له بتلطف وأنشدته بتعطف :

سُهَيْلُ انعطفْ وانزل بساحة مغرم ... يراك بعينٍ طول ليلتها عَبْرَى
عسى يأخذ الأخبارَ منك عن الألى ... سيصلى بهم جمر الغضا ولك البشرى »

ومن هذه النماذج التى سقناها إليك تستطيع أن تدرك إلى أى حد وصل النثر الفنى فى هذه الحقبة التى نتحدث عنها ؛ بل إنه سار إلى سبيل الكمال حثيثاً حتى يومنا هذا ، لم يرجع القهقرى منذ تكونت هذه المدرسة الإصلاحية ومنذ أثمرت نهضة إسماعيل العلمية والأدبية ، بل تراه قد زاد فنوناً ، وتنوعت موضوعاته ، وتعددت نظراته إلى الأشياء ؛

---

(١) مجالى الغرر ج ٣ ص ٥ ، و ص ٨٢ من هذا الكتاب .
(٢) مجالى الغرر ص ١٠ ج ٣ (٣) سلافة النديم ص ٤٥

لكثرة ما قرأ الكتاب من الأدب القديم ، وما اطلعوا عليه من آداب الغرب . ولهذا النثر مميزات وخصائص وطابع يعرف به ، ويختلف عما شاهدناه من الكتابة الديوانية .

(ب) مميزاته :

إذا كانت الأحداث السياسية ، وتقلباتها الكثيرة ، والثورات العنيفة ، ويقظة الشعوب الشرقية والإسلامية ، قد وضعت أمام الكتاب مادة خصبة غزيرة ، وجعلتهم يخوضون فى شتى الموضوعات ؛ وإذا كانت الحال الاجتماعية ، وما عليه الناس من فقر وجهل ومرض وانحلال قد دعت زعماء الإصلاح الاجتماعى إلى تشخيص الداء ، ووصف الدواء ، وحث الهمم على التخلص من تلك الرذائل فإن ثمة عوامل أخرى نهضت بالنثر من حيث أسلوبه وألفاظه . وقد مر بنا ما قدمه إسماعيل ورجاله للنهضة الأدبية من وسائل : كالمدارس والمكتبات العامة ، وانتشار الصحف ، وتشجيع المطابع على إحياء تراث الآباء والأجداد ، والقيام بترجمة شىء من أدب الغرب . وقد أضفى كل هذا على النثر طابعاً خاصاً ، فخلصه فى الغالب من المحسنات البديعية التى كانت شائعة فى الكتابة الديوانية وصرف الأدباء همهم إلى العناية بالمعانى لا إلى تنميق الألفاظ ، اللهم إلا فى الموضوعات الأدبية البحتة ، وخلا النثر من المبالغات الممجوجة والأخيلة السخيفة ، وانصرف عن المقدمات الطويلة التى كثيراً ما تستهلك جهد الكاتب والقارئ جميعاً دون بلوغ الغرض الذى سيق له الكلام .

وكان من أثر هذا كذلك تغير طريقة الكتابة طوعاً لتغير طريقة التفكير من : تقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد ، واعتماد لون طريف فى ترتيب الكلام وتبويبه ، وسوق المقال فى الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجوز بكثير من المفردات لإصابة ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوى .

ولقد رأيت من النماذج التى سقناها إليك أن موضوع هذا النثر : اجتماع ، أو سياسة ،

أو أدب ، ولقد تميز كل نوع من هـــذه الموضوعات بسمات عامة اقتضتها روح الموضوع وطريقة علاجه .

١ — فالنثر الاجتماعى يتطلب صحه العبارة ، و بالضرورة البعد عن الزخرف والزينة ، ووضوح الجمل ، وترك المبالغات ، وسلامة الحجج و إجرائها على حكم المنطق الصحيح ؛ لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، فلا ينبغى استعمال الأقيسة الشعرية ، ولا الخيال المجنح ، اللهم إلا فى المقامات التى تقتضى استفزاز الجماهير ، و إثارة عواطفهم ، وتحميسها للإقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام ، على أن يكون ذلك بقـدر ، فإن الأغراض الاجتماعية إنما تجري فى حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

وقد رأيت أن هذا النوع من النثر قد خلا من السجع المتكلف ؛ لأن الاهتمام باقتناص السجعة قد يُفَوِّت على الـكاتب الغرض الذى يرمى إليـه ، وقد يذهب المعنى فى سبيل سجعة متكلفة ، بل قد حمل بعض الـكتاب فى هذا العصر على هذا السجع فقال أديب إسحق مع أنه كان ممن يسجعون كثيراً وممن يحتفى بأسلوبه لأنه كان أديباً بطبعه :

« ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء فى الجاهلية وصدر الإسلام إلا ما كان منه عفو القريحة ، فواصل غير مقفاة ، أو ما يعزى إلى الـكهان والمشعوذين ، مما يراد به الإيهام والإبهام ، فلما استولت العجمة على الألسن ، وضعفت قوة الاختراع فى الأذهان سرى داؤه فى المـكاتبة إلى هذا العهد ، فعدل الـكتاب عن الـكلام الفحل واللفظ الساذج والأسلوب الطبيعى إلى هذه الأسجاع الملفقة البالية ، يتناقلونها خلفاً عن سلف ، و يطيلون بها الـكلام بلا طائل ستراً لقصورهم فى ابتـداء المعانى و إيضاح وقائع الحال من طريق البلاغة والإيجاز »[1] .

والانصراف عن السجع والزخرف فى هذا النوع من النثر بدهى ؛ لأن الفـكر منصرف إلى تفتيق المعانى ، وسوق الحجج ، وضرب الأمثلة لا إلى الجرى وراء كلمة أو سجعة .

٢ — النثر السياسى أو الصحفى ، و يمتاز بالسهولة والوضوح بحيث يـكون معناه فى

---

(١) مجالى الغرر ص ٨ ج ٣ .

ظاهر لفظه ؛ لأن الصحف تخاطب الجماهير ، و يقرؤها الخاصة والعامة ، وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث إلى المتعلمين ، هذا إلى أن قراءها إنما يبغونها للساعة ، فلا محل للارتفاع بعبارتها والتعمق فى معانيها مما يقتضى من القارئ كد الذهن ، و إرهاق العصب .

و إذا كان النثر الاجتماعى ينبغى أن يجرى الاحتجاج فيه على الأقيسة المنطقية ، لأنه يعتمد على القضايا العلمية والحقائق الواقعة ، فإن النثر الصحفى لا يلتزم فيه ذلك ، بل يلجأ إلى الأدلة الخطابية ؛ لأنها أنفذ فى إقناع الجماهير من سواها إذ تقوم النزعات السياسية فى الغالب على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

وليس فى هـذا النثر احتفاء بالأسلوب ، أو تخير للألفاظ ، أو جنوح إلى الخيال ، أو تعمق فى المعنى ، و إنما هو التصوير السريع ، وليس فيـه تحقيق علمى منظم مبنى على الاستقراء أو ذكر المقدمات الوافية ، و يكثر فيه التكرار ، وعدم ترتيب الفـكرة .

وهناك صحف خاصة أو مجلات علمية وفنية ، و يلحق بها الأبواب التى تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغى التأنق فى عباراتها والإيغال فى معانيها تحقيقاً للغرض المقسوم بها من تعليم العلوم وترقية الآداب ، ولا يقبل على قراءة مثل هـذه المجلات إلا المتعلمون .

٣ — النثر الأدبى ، وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ ، والتأنق فى النظم ، حتى يخرج الـكلام مشرقاً منيراً ، لطيف الموقع فى النفوس ، حلو النبرة فى الآذان ، لأن للموسيقى اللفظية أثراً كبيراً فى الأذهان . وهو أدنى أنواع النثر إلى الشعر ؛ ولهذا لا يُنْـكر منه البديع ، على ألا يكون من الـكثرة بحيث يستهلك ذهن القارىء ، و بحيث لا يستكره على النظم استكراهاً ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل إن خيره ما جاء عفواً .

و يقتضى التأنق فى اللفظ ، وجودة السبك ، وتفتيق المعانى ، معرفة بأسرار اللغـة ، ووفرة محصول من المفردات ، وخبرة بالـكلام الجيد ، واستظهار كثير من المنثور والمنظوم ، هذا إلى طبيعة مواتية ، وحس مرهف ، وذوق رقيق ، وفطنة إلى مواطن الجمال .

وعلينا بعد أن سقنا إليك أمثلة من أنواع النثر ، وعرفناك بخصائصه ومميزاته ، أن

نطلعك على سير موجزة لأعلام البيان فى هذا العصر ، وما برز فيه كل منهم ، غير هؤلاء الذين ترجمنا لهم آنفاً أمثال الشدياق وأديب إسحق .

١ — السيد جمال الدين الأفغانى :

وإذا أردت أن تقف على الروح التى تكمن من وراء هذا الأدب الحى ، والتى بعثت فى الشرق الإسلامى كله حيوية دافقة ، وهزته هزة عنيفة أيقظته من نومه الطويل ، وعرّفته كيف يطلب حقه من الأقوياء العتاة ، وكيف يدفع عن نفسه جور الظَّلَمة القساة ، فاعلم أن هذه الروح تمثلت فى السيد جمال الدين الأفغانى : من يدين له الشرق الإسلامى بيقظته القومية والفكرية فى العصر الحديث :

رجل فرد ، استطاع بما أوتى من عزيمة جبارة تنهار أمامها العروش وتزلزل الممالك ، وتتقوض الحصون ؛ وبما أوتى من فكر نير مشرق ملهم يتقشع أمام ضوئه الوهاج حندسُ الجهل ، وغياهب الظلم ؛ وبما أوتى من لسان ذَرِب طَلْق ، حاد ، مِطْواع ، يدفعه شعورٌ متقد ، وعاطفة متأججة ، وإحساس مرهف ، وحماسة عارمة فيلهب بهذا اللسان ، وذياك الشعور كل من ينصت إليه ، فيحيل البليد نشيطاً ، والجبان جريئاً ، والخامل مقداماً ؛ استطاع هذا الرجل وحده بهذه القوة أن يخلق قادة وزعماء ، وأن يُكَوِّن جيلا من الناس يسيرون بأممهم إلى حيث أمّل السيد وصوب ، فكان بعمله أقوى من الحكومات العتيدة الفتية . وهكذا يأبى الله إلا أن يضرب للناس أمثلة على بالغ قدرته ، وعظيم إعجازه فى كل جيل . وقد مر بك ما قاله الشيخ محمد عبده عن حالة مصر قبل أن يهبط واديها جمال الدين ، وكيف أن بعثات محمد على وإصلاحاته ، ونشاط إسماعيل وتقديراته ، واطلاع بعض شباب مصر وشيوخها على حضارات الأمم الأوربية وغيرها لم يؤت ثماره ، ولم يبعث فى الأمة هذه الروح المتوثبة ، ولم يحرك خامد العزائم ، وينصب المثل العليا أمام الشعوب تهدف إليها فى سيرها وتحث الخطى نحوها ، وإنما وجد ذلك كله على يد جمال الدين . فأى رجل كان هو؟

شعلة متقدة من الذكاء ، وسرعة الخاطر ، وقوة العارضة ، شديد الرغبة فى الإصلاح ،

وإنهاض الأمم الإسلامية ، وتحطيم الأغلال والقيود التى جعلتها فى مسغبة ومذلة وجهل ومرض وانحلال ، كان ثورة عنيفة على الظلم والقهر والجبروت قابله السلطان عبد الحميد الطاغية فى (يلدز) فطلب منه أن يكف عن هجماته على شاه العجم فقال السيد : « إنى لأجلك قد عفوت عنه » ، فيرتاع السلطان لهذه الكلمة الجريئة ؛ عفا « السيد » عن الشاه ذى الحول والسلطان : أجل ! فالسيد أقوى منه بأساً وأعظم قدراً ، وأقدر على النكاية ؛ إنه حرب شعواء تطوِّح بالتيجان وتدك العروش . ويجلس السيد جمال الدين بحضرة عبد الحميد ، وهو يداعب مسبحته غير حافل بمن تعودت الأبصار أن تخشع فى مجلسه ، وتطأطئ الرءوس فَرَقاً ورعباً منه ، ونبهه إلى هذا كبير من رجال الحاشية بعد مغادرة عبد الحميد للمجلس فقال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟ » فيرتاع الرجل ، ويهرب من سماعه هذه الكلمة التى لم يجرؤ إنسان أن يرفع بمثلها أو بما هو أقل منها صوتاً فى البلاد الإسلامية .

ولد السيد محمد جمال الدين فى قرية (أسعد آباد) من قرى (كنر)[1] ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤ هـ — ١٨٣٩ م من أسرة شريفة تنتسب إلى الإمام الترمذى المحدث المشهور ، وترتقى إلى الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ، وانتقل به والده إلى (كابل) وهناك تلقى تعليمه ، فدرس مبادئ العلوم العربية والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ، وفلسفة ، وكذلك العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك ، ودرس نظريات الطب والتشريح ؛ ثم سافر إلى الهند ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، واطلع على علوم الرياضة فى الطرق الحديثة ، وقدم الحجاز للحج ، وقضى فى رحلته إلى مكة سنة ، فأفادته الرحلة خبرة بالشعوب الإسلامية ، وأحوالها الاجتماعية ؛ ثم رجع إلى بلاده ، واشترك فى مؤامرة سياسية مكنت بعض الأمراء من التغلب على عرش الأفغان ،

---

(١) هكذا روى جمال الدين عن ولادته ، أما الفرس فيدعون أنه ولد بالقرب من همدان بإيران ، ويرجع تفضيله الانتساب إلى الأفغان ، كما يقول الأستاذ براون (الثورة الفارسية ص ٤٠٢ . هامش) إلى أن جمال الدين كان سنياً عربياً ، وأنه أراد الهروب من الجنسية الفارسية الشيعية التى كان يشك فى قيمتها .

فعظمت مكانته لدى هذا الأمير ؛ ولكن عصفت الأحداث بأميره هذا ، وحاول خلفه الانتقام من السيد جمال الدين ، ففطن لمكايده وغادر بلاده إلى الهند فمصر ، ومكث بمصر أربعين يوماً ، ومن ثم يمم صوب الآستانة فذاع صيته بها ، وعلت مكانته حتى انتخب بعد مدة وجيزة عضواً فى مجلس المعارف الأعلى ، ولكن آراءه الإصلاحية الجريئة ، وأفكاره الحرة التى لم يألفها الناس فى عصره بعثت فى نفوس رجال عبد الحميد الهلع ، وتألب عليه كثير من علية القوم ، ولا سيما شيخ الإسلام ، فجاءه الأمر بمغادرة البلاد خشية أن يشعل فى عرش عبد الحميد الحريق .

فقدم السيد جمال الدين مصر ، ودخلها فى مارس سنة ١٨٧١ ، ومكث بها ثمانى سنوات كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربى والإسلامى ، فقد حاول جمال الدين من قبل أن يغرس تعاليمه ، وينفخ فى الشعوب الشرقية من روحه ، ولكن وجد أرضاً مجدبة ، وشعوباً ميتة لم تستمع لندائه وما أن نزل مصر حتى فتحت له ذراعيها ، وحببت له الإقامة بها ، والتف حوله لفيف من أبنائها ، من كل تواق للحرية ، محب للعلم حريص على نفع وطنه وإنهاض قومه ، وتجاوبت روحهم وروحه : وجدوا فيه المعلم الفذ والمفكر الجرىء وصاحب العقل المستقيم ، ووجد فيهم تلامذة بررة ، وعقولا خصبة ، ونفوساً تتحرق شوقاً للحرية والعدل .

كانت هذه السنوات الثمان مليئة بالأحداث ، فقد غرقت مصر فى ديونها التى اقترضها إسماعيل ، وبدت مطامع إنجلترا وفرنسا ظاهرة جلية ، فأنشئ صندوق الدين وفرضت الرقابة الثنائية واستحالت هذه الرقابة إلى مشاركة فى الحكم ؛ إذ دخل وزارة نوبار باشا وزيران أوربيان أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، يشرف الفرنسى على وزارة الأشغال ويشرف الإنجليزى على وزارة المال[1] ، وأى احتلال أبشع من هذا ؟ إن الذى يصرّف المال قوام على شئون الدولة ، ومن يتولى وزارة الأشغال مهيمن على تقدم الأمة ، فكان عجباً ألا ينغمس السيد جمال الدين فى السياسة من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ، وهو الذى حاول

---

(١) عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى بك ج ٢ ص ٩٠ .

من قبل أن يثل عرشاً ، و ينصب ملكا ، و يصلح من شئون عبد الحميد المستبد الطاغية .

جاء جمال الدين مصر وهذه ظروفها ، ووجد من اسماعيل العظيم صدراً رحباً ، لأنه رأى فيه العالم المشهور بفلسفته وعلمه ، فوجوده بمصر ربح لا يقدر ، وهو فى نظره أجل وأنفع من بعض المعاهد العلمية التى أنشأها ، لأنه معهد حى حنكته التجارب وأنضجته الحوادث ، ولم يكن السيد قد عرف بآرائه السياسية المتطرفة بل غلبت عليه الصبغة العلمية ، ولم يكن اسماعيل يخشى على حكمه أحداً ، وهو الحاكم الذى لا يراجع فى حكم ، والذى يتصرف فى أقدار البلاد دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس الشورى آلة مطواعة فى يده ، لا يجهر باعتراض ، أو يجرؤ على مخالفة ، ثم إن اسماعيل كان يتحدى الدولة العثمانية فى ذياك الوقت ، و يتوق جهده إلى الاستقلال بأمر مصر ، وقد رأى أن الآستانة قد ضاقت رحابها بالسيد جمال الدين ، وخافت من آرائه وتعاليمه ، فلتبرهن مصر على أنها أقوى من تركيا ، وأكرم نفساً ، وأقدر على هضم آراء جمال الدين من أى بلد فى الشرق ، ولم يكتف اسماعيل بهذا الترحاب بل أجرى على السيد راتباً شهرياً زيادة فى إكرامه .

وأخذ هذا العقل المنظم الجبار يشع النور فى كل مكان يحله صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها فى بيته على صفوة مختارة من حوارييه أمثال : محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، و إبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، و إبراهيم الهلباوى ، وكانوا جميعاً طلبة بالأزهر حينذاك ، وكانت هذه الدروس : منطقاً وفلسفة وتصوفاً وهيئة ، مثل كتاب الزوراء فى التصوف ، وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ، والهداية ، والإشارات ، وحكمة العين ، وحكمة الإشراق فى الفلسفة ، وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة القديمة . وهى كتب قديمة تمثل علماً قديماً دوّنها أربابها فى العصور الأولى للدولة العربية ، ولكن الروح التى درس بها جمال الدين هذه الكتب ، والطريقة التى عرض بها هذه المباحث ، والتعليقات التى كان يفيض فيها عقب كل مقالة أو بحث ، والاستطرادات التى تدعو إليها مقتضيات العصر وظروفه هى التى حببت هذه الدروس وتلك الكتب لهؤلاء التلاميذ الأذكياء ، وجعلت من دروس جمال الدين نبعاً صافياً يغترف منه الطلبة علماً وفلسفة ، ووطنية واجتماعاً ، وحججاً قوية لرد

المارقين عن جادة الدين ، ووجدوا فيه شخصية لا تتردد فى إصدار الأحكام العامة على القضايا المعروضة .

وبجانب هذه الدروس المنظمة كان للسيد مجلس آخر بأحد المقاهى القريبة من حديقة الأزبكية ، حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين فى التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه ويطرحون عليه أسئلة فى مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابات العالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة[1] » .

فى هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيى العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخامدة وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج محمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى ، وأخوه ابراهيم المويلحى ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحق وغيرهم وفى هذه المدرسة العامة ، استعرضت حال الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدواؤها ودواؤها ، وانتقد الحكام ، وبثت التعاليم الوطنية ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم فى شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

كان جمال الدين يقضى بياض نهاره فى بيته يختلف إليه أخصاء تلاميذه ، وما أن يقبل الليل حتى يخرج متوكئاً على عصاه إلى هذا المقهى ، فيجد فى انتظاره الطبيب والمهندس والأديب والشاعر والمعلم والكيماوى وغيرهم ، ويظل يحدثهم بشغف وقوة حتى يمضى جزء كبير من الليل .

ولم يكتف جمال الدين بهذه المدرسة العامة ، ولا بالدروس الخاصة ، بل حاول أن

---

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده له .

يسيطر على الحياة السياسية ، فانضم إلى جماعة (الماسون) وبها الطبقة الممتازة من أبناء الأمة لعله يستطيع أن يريهم النور ، ويبصرهم حقيقة ماهم فيه ، وما عليه بلادهم وكيف يستطيعون نفعها بما لهم وجاههم ؛ ولكن وجد المحفل الماسونى يأبى أن يقتحم ميدان السياسة ، ويتعرض للمسائل العامة ، والقضايا الهامة ، فثارت ثائرته وأخذ ينقد أعضاءه نقداً لاذعاً ، ويتهكم بهذه الكلمات الجوفاء التى اتخذوها لهم شعاراً مثل « الحرية والمساواة ومنفعة الإنسان ، والسعى وراء دك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق » فكيف تتحقق معانى هذه الكلمات إذا لم يشتغل المحفل (الماسونى) بالسياسة . ولما أخفق فى بعث هذه النار الهامدة فى نفوسهم الميتة استقال ، وكوّن محفلا آخر للشرق الفرنسى ، وأخذ الأعضاء يزيدون حتى بلغ عددهم ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين ، ونظمهم شعباً مختلفة : فشعبة للعدل ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجيش وهكذا ، حتى تُدرس أحوال البلاد جميعها وتعرف وجوه النقص ، وما يتطلبه الإصلاح من أعمال .

وبذلك أراد جمال الدين أن يسيطر على عقول العلماء فى بيته ، وعلى أفئدة المستنيرين فى مقهاه ، وعلى أَزِمَّة السياسة فى محفله ، ويأبى إلا أن يصبغ مصر المتعلمة غنيها وفقيرها بآرائه وتعاليمه ، ويدفعها فى الطريق التى رسمها .

أثره بمصر :

١ — أراد فى درسه النظامى أن يعود الطلبة حرية البحث ، ويطلعهم على آفاق جديدة من التفكير وفهم العالم ، وأن يوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم ، وألا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله سبحانه ، وكانت طريقته فى هذه المدرسة جذابة شائقة ، إذ يفيض فى شرح المسألة ويعلق عليها من عنده ثم يقرأ النص بعد ذلك ، فإذا هو واضح كل الوضوح . وعلى العكس من ذلك كانت طريقة الشيخ محمد عبده ، إذ كان يقرأ النص أولا ، ثم يعلق عليه بعد ذلك .

٢ — وأراد فى مدرسته العامة أن يعلم الشعب كيف يسترد حريته المفقودة وكرامته

المهدرة ، وكيف يحاسب حكامه حساباً عسيراً على تصرفاتهم ، وكيف يتنبه إلى دسائس المستعمرين الجشعين ونواياهم ، وكيف يعيش هذا الشعب عيشة تليق بالأناسى .

٣ — وأراد فى ميدان السياسة أن يغير هذا الحكم المطلق الذى يستبد فيه الحاكم بأمته ويستهين بشعبه ، ويتصرف فى أموالهم وأرواحهم تصرف السيد فى حُرِّ ماله وعبده ؛ أراد أن يشترك الشعب فى حكم نفسه بنفسه ، وأن ينوب عنه ممثلون نيابيون يرعون مصالحه ويسهرون على إسعاده .

وقد كان له فى السياسة كذلك مقصد أسمى من هذا ، وعنه عبر الشيخ محمد عبد بقوله : « إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام بشئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها[1] » .

٤ — وقد استعان على تحقيق هذه الأهداف — وإن لم تتحقق كلها ولا سيما السياسية منها — بتكوين جماعة من الكهول والشبان حبب إليهم الكتابة ، ورسم لهم خطتها ، وأوحى لهم بالمعانى الجديدة التى يكتبون فيها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ويطلب إلى من يتوسم فيه المقدرة والمنفعة أن يكتب فيها ، ومن مقالاته فى جرائد أديب إسحاق ما كان يوقعه باسم (مظهر بن وضاح) ، وطلب إلى الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى وغيرهما أن يشتركا فى تحرير جريدة (التجارة) التى أنشأها أديب إسحق ، وفى هذه الجريدة كتب السيد جمال الدين مقالين أحدهما : « الحكومات الشرقية وأنواعها » ، والثانى بعنوان « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » ، وكان لهذين المقالين صدىً بعيد ، ولكن جريدتى أديب إسحق (مصر والتجار) ضايقا رياض باشا بروحهما الجديدة وأسلوبهما الملتهب ، وأفكارهما الجريئة فأغلقهما كما مرَّ بنا[2] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٤

(٢) راجع ص ٧٦ من هذا الكتاب .

وقد تدخل كذلك فى تحرير « الوقائع المصرية » وطلب إلى الكتاب أن يدبجوا مقالاتهم فى موضوعات معينة تمس حياة الأمة فى صميمها ، فيقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

وتراه يحرض الصحفى اليهودي « يعقوب صنوع » على إصدار جريدته التهكمية (أبى نضارة) ويشجعه على الاستمرار فى النقد الذى يلذع به إسماعيل .

وقد كان لهذه المقالات أثران : أحدهما تنبيه الأذهان إلى المسائل الحيوية وتعويد الناس الجرأة على الحكام ومطالبتهم بالنصفة والعدل ، وتبيان مكائد الأجانب وجشعهم ، وثانيهما تكوين جيل من الكتاب متمكن من اللغة قدير على الإسهاب وشرح المعضلات من غير لجوء إلى المحسنات والزخارف ، خبير بتفتيق المعانى وتوليد الأفكار ، متحرر من السخافات والجمود ، متتبعاً فى ذلك سنن أستاذه جمال الدين الذى يقول عنه الشيخ محمد عبده « له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يُلْقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع » .

ويقول فى موضع آخر : « كان أرباب العلم فى الديار المصرية ، القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد ، على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى ، على تخصص فيه ، ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى ، لا يُشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصنعة ،

وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به » .

وقد مر بك ما تميز به أسلوب هذا النثر فى موضوعاته الثلاثة : الاجتماع ، والأدب ، والسياسة .

جمال الدين والثورة :

لم يكن جمال الدين على وفاق مع إسماعيل فى أخريات أيامه ، بل كان ناقماً عليه لاستبداده وإسرافه ، وتمكينه بسياسته للأجانب فى البلاد ، وكان يتوسم الخير فى توفيق ، إذ كان يجتمع به وهو ولى للعهد ، ويرى ميله للأخذ بنظام الشورى ، ونقده لسياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعا فى محفل الماسونية ، وتعاهدا على إقامة النظام النيابى .

بيد أن توفيقاً لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، وسرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه ، فلم يدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين الأفغانى ؛ بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ إذ حرضوه على إخراجه من مصر [1] ، فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً فى معاملة هذا العبقرى الشريف ؛ بل استعمل معه غاية الغلظة والقسوة والجفاف ، فسيق إلى دار الشرطة بليل بعد انصرافه من مقهاه بغير غطاء أو فراش ، وبات ليلته كما يبيت اللص الأفاق على أرض المخفر ، ثم هُرِّب إلى السويس حيث رحلت به سفينة إلى الهند ، وهكذا حرمت مصر مصدر خير كبير لها ، وجازت هذا النابغة على فضله جحوداً وجفوة .

ومن العجيب أن يضم مجلس الوزراء الذى أصدر أمره بنفيه بحجة أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » اثنان أعجب بهما وتوسم فيهما الخير : توفيق باشا ، والبارودى ، وكان ألمه بالغاً غايته للنكسة التى أصابت البارودى وقد كان يؤمل فيه كل خير ، ويعده ليوم عصيب فى تاريخ مصر ، وقد ظلت هذه الآلام تحز فى نفسه حتى أخريات حياته فقد زاره الأمير شكيب أرسلان وهو بالآستانة ، ويدور الحديث حول ما روى من أن العرب عبروا المحيط الأطلس قديماً وكشفوا أمريكا بدليل

(١) المنار جـ٨ ص٤٠٤ وانظر كذلك The Persian Revolution: E. G. Browne, 1909 P. 8 وتاريخ الإمام جـ ١ ص ٧٦

الأهرامات الموجودة ببلاد المكسيك ؛ فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بنى آدم أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من خمول وضعة ، إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر أبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم ؛ إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شىء واحد فيهم هى شهواتهم . هذا محمود سامى البارودى عاهدنى ثم نكث معى وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

والحق أن موقف البارودى من السيد جمال الدين لا يمكن الدفاع عنه . وإذا كانت مصر قد حُرمت شخص جمال الدين فقد ظلت تعاليمه وروحه الثورية مشتعلةً ، وقد انتقل منها قبس إلى كل من اتصل به ، يتطلعون إلى نظام جديد فى الحكم حتى قامت الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها مدينون بأفكارهم وحماستهم للسيد جمال الدين .

أقام السيد جمال الدين بحيدر أباد بعد أن أخرج من مصر ، وهناك ألف كتابه فى الرد على الدهريين ، وفيه يثبت أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران ، ويبطل فيه مذهب (داروين) فى النشوء والارتقاء ؛ لأن هذا المذهب قد أثار موجة من الإلحاد والزندقة كادت تودى بالحياة الروحية فى الشرق وهى كل ما بقى له من تراث السلف ، بعد أن نال منه الدهر غايته . وبين فى هذه الرسالة كذلك أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال ؛ كل منها ركن لوجود الأمم . أما العقائد فالأولى : التصديق بأن الأنسان مَلِكُ أرضى وأنه أشرف المخلوقات ، والثانية : يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ، والثالثة : يقينه بأن الأنسان جاء إلى الدنيا كى يَكْمُل كما لا يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . وأما الخصال الثلاث : فهى الحياء والأمانة والصدق . ويبين أن الأسلام يتميز على غيره من الأديان بمزايا عديدة : منها صقل العقول بالتوحيد وتطهيرها من لوثة الأوهام ، ومخاطبته العقول حتى تؤمن فلا يقبل الاعتقاد بدون دليل ، وحرصه على تعليم الأمة ذكوراً وإناثاً .

ولما أخفقت الثورة العرابية ، ودخل الإنجليز مصر أبيح له أن يذهب أنى شاء فى غير بلاد المشرق فاختار أوربا ، وزار لندن ثم انتقل إلى باريس ، ووافاه إليها تلميذه الأكبر محمد عبده ، وكان منفياً ببيروت وهناك أصدرا معاً :

جريدة العروة الوثقى :

وهى دليل آخر على أن عزيمة السيد لا تفتر ، وعلى أن اليأس لم يبلغ فى نفسه مبلغاً يثنيه عن أداء رسالته ، وقد كان من رأى الشيخ محمد عبده أن هذا الجيل من المسلمين ، الذى يدعونه للرشاد واليقظة جيل فاسد لا رجاء فيه ، وأن الأولى أن تنشأ مدرسة يربى بها عدد محدود من خيار الشباب يقودون الأمة فيما بعد لما فيه خيرها ونفعها ، ولكن هذه الفكرة لم ترق للسيد ، ورأى فيها تثبيطاً للهمم ، وكأنى به يتعجل قطف الثمرة لهذه الغراس التى أودعها المتصلين به ، وأصر على أن يوجه الدعوة إلى الجيل الحاضر من الناس فى صورة جريدة العروة الوثقى ، يكون له فيها الفكر المدبر والعقل المسيطر ، وللشيخ محمد عبده القلم المحرر واللسان المعبر ، ولميرزا محمد باقر الترجمة من الصحف الأوربية ، ونقل كل ما يهم الشرق والإسلام[1] : وصدر من الجريدة ثمانية عشر عدداً ، وكانت شعلة ملتهبة متوهجة من الحماسة والآراء الحرة الجريئة ، وكانت حرباً شنها جمال الدين وزميلاه على الاستعمار الجشع ؛ وكان طبيعياً أن يحاربها الاستعمار خشية أن تفسد عليه تفرده بالغنيمة وقتله الشعوب التى وقعت فى قبضته ، فمنعها من دخول الهند ومصر[2] . ولما شعر السيد وزميلاه أن الأعداد لا تصل إلى أصحابها إلا فى النادر ، وأنه قد حيل بينهم و بين وصول صوتهم إلى آذان الناس فى مصر والشرق عطلوها ، و إن لم يمت أثرها حتى اليوم .

عود إلى الرحلة :

لما عطلت الجريدة ، انفرط عقد هذه الجماعة الصغيرة المجاهدة ، فرجع الشيخ محمد عبده وميرزا باقر إلى بيروت ، وطلب شاه العجم السيد جمال الدين فلبى دعوته عله يجد ميداناً

(١) تاريخ الإمام ج ٢ ص ٢٢٩ ، والمنار ج ٨ ص ٤٥٥

(٢) المنار ج ٨ ص ٤٦٢ — مشاهير الشرق ج ٢ ص ٥٧

صالحاً للجهاد ، وأرضاً خصبة لغرس تعاليمه ، وملكا شهماً مستنيراً ينفذ آراءه فيكون هو الأمل المنشود ، ولكن هيهات وملوك ذاك الزمان ما ألفوا أن يشاركهم فى سلطانهم أو جاههم أحد ، ولذلك سئم الشاه نصر الدين صحبة السيد ، ودبت فى نفسه الغيرة منه ، ولما أحس جمال الدين أنه أخذ يتنكر له استأذن فى الرحيل ، ويمم صوب روسيا حيث قضى بها ثلاث سنوات يحرك روسيا ضد إنجلترا ، ويشن هجمات متتالية شديدة على شاه الفرس كى يقر نظام الشورى ، ولما سأله القيصر عن سبب عداوته للشاه أجاب بأنه نظام الشورى الذى لا يرتضيه ، والذى لا أنفك أدعو إليه ما حييت فقال القيصر : إن الشاه على حق ، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ، فقال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص ، فلم يعجب القيصر هذا الحديث ، وكان من الطبيعى ألا يعجبه وهو المستبد الذى لا ينازعه سلطته منازع ، ولذلك عمل على إبعاده من روسيا (١) .

ومن ثم توجه السيد إلى باريس ، وفى طريقه إليها تقابل مع الشاه مرة ثانية ، واعتذر للسيد عما حدث ، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح إن هو عاد معه ، وتمنع السيد جمال الدين ، ولكن رغبته فى الإصلاح وحرصه عليه جعلته يقبل الرجوع إلى طهران . وفيها أخذ يعد العدة للإصلاح وإقامة العدل ، هو ومن التف حوله من العلماء والعظماء ، والشاه يظهر استعداده لتقبل هذا الإصلاح ، ولكن الصدر الأعظم فى تركيا خشى إن تمكن نظام الشورى فى فارس أن تسرى عدواه ، فوسوس للشاه ، ونفّره من هذا الإصلاح ، بدعوى أن ذلك يحد من سلطانه ، ويتركه إمّعة لا رأى له فى بلاده ، فتجهم للسيد جمال الدين ، ولكن هذا لجأ إلى ضريح ولىٍ فى بلاده (شاه عبد العظيم) وهو حرم من دخله كان آمناً ، ووافاه جم غفير من العلماء والزعماء ولقّنهم دعوته : وملأ قلوبهم إحناً وبغضاً للشاه ونظامه فاغتاظ هذا وأرسل جنده إليه ، واقتحموا عليه الضريح غير مبالين بحرمته ، ولا بمرض السيد ، وفى ذلك يقول : « سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة . . . ثم حملتنى زبانية الشاه

(١) The Persian Revolution : P. II, 67

وأنا مريض — على بِرْذَوْنٍ ، مسلسلا ، فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح والزمهريرية وساقتنى حجفلة من الفرسان إلى خانقين » ومنها سافر إلى البصرة وهو فى أشد حالات المرض ، وكاد يقضى عليه لولا رحمة الله به[١] .

ولكن هذا المكافح أبى أن يتقبل هذه الإهانة ، وأقسم ألا يكف عن الشاه حتى يسقطه من عرشه وقد بر بقسمه ، وذلك بتحريضه العلماء والزعماء ، وتعديده مساوئ الشاه وتجسيمه أخطاءه ، ولا سيما حين تعاقد مع شركة إنجليزية للدخان ، واضطر الشاه إلى فسخ العقد ، ودفع تعويض مالى كبير ، فكان ذلك أول خطوة فى الانتقام .

وأخيراً ذهب السيد إلى لندن وأصدر مجلة شهرية سماها « ضياء الخافقين » بالعربية والإنجليزية ، وكان يكتب بها مقالات بإمضاء (السيد الحسينى) .

خاتمة المطاف :

ثم رأى السلطان عبد الحميد أن يدعو إليه جمال الدين خشية أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة فيزيد فى قوته ، وأرسل عبد الحميد رجاله يغرون السيد بالسفر إلى الآستانة ، ويمنونه الأمانى الحلوة حتى استجاب لدعواه فكان بها كأنه فى قفص من ذهب ، يحصون عليه حركاته وأقواله ، وإن لقى من السلطان حظوة عالية . بيد أن الحاشية ولا سيما أبو الهدى الصيادى ذلك الداهية المحتال الذى أتقن فن الدس والمؤامرات وتمكن من قلب السلطان حتى أصبح قوة غلابة ؛ قد أفسدوا السلطان عليه ، وما لبث عبد الحميد أن اصطدم بآراء السيد وجرأته ، ولم يدع السيد فرصة إلا حرضه فيها على الإصلاح ، وإقصاء الخونة والجبناء من حاشيته ، ولكنه لم يستجب لشىء من هذا . ولما قتل شاه العجم سنة ١٨٥٦ على يد أحد تلاميذ السيد اشتدت الريبة فى جمال الدين وضيق عليه حتى صار محبوساً فى قصره ، ولما أراد الرحيل ترضاه السلطان خشية أن يشنها عليه حرباً شعواء فى الخارج ، وهو تحت سمعه وبصره أهون ، ثم مرض السيد بالسرطان فى فمه ومات ، وشاعت الأقوال بأنه مات مسموماً ، أو أن الطبيب أهمل فى علاجه عمداً[٢] وكانت وفاته فى ٩ من مارس سنة ١٨٩٨ ، ودفن

(١) Persian Revolution. P. II. وتاريخ الإمام ج ١ ص ٥٥

(٢) راجع حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٠٤ .

فى قبر حقير كما يدفن أقل الناس ، وطمست معالم هذا القبر إلى أن قيض الله له رجلا إمريكياً بحث عنه حتى وجده فجدده ، وبنى عليه حاجزاً حديدياً وشاده بالرخام وكتب على أحد وجوه الرخام اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ؛ وفى وجه آخر العبارة الآتية : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم الخيِّر الأمريكانى المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ [(١)] » ، وهكذا خمدت هذه الشعلة المتوهجة ، وإن ظلت آثارها حتى اليوم فى نفوس من خالطوه وأخذوا عنه ، وفى نفوس تلاميذهم وأتباعهم والأجيال التى تأثرت بهم .

نبذ من آرائه :

١ — مر بك فى ثنايا هذه الترجمة الموجزة شىء من آراء السيد جمال الدين ، وهناك بعض من أفكاره وتعاليمه ونظرته إلى الحياة جديرة بالنظر ، فقد كان فى أول حياته طموحاً ، ذا خيال واسع ، وأمل عريض شمل الإنسانية جمعاء ، حتى دعاه ذلك إلى التفكير فى السبب الذى يدعو الناس إلى الاختلاف والخصام ، ويدعو الدول إلى الحروب والعداء ، وهداه تفكيره إلى أن السبب الأول هو تعصب رجال الدين فى كل ملة ، وسوء توجيههم للشعوب ، وشحن قلوبهم بالحقد والبغضاء لكل من خالف دينهم ، وفى هذا يقول : « ورجعت إلى أهل الأرض ، وبحثت فى أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين ، فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً مجرداً عن كل تقليد منصرفاً عن كل تقييد مُطْلِقاً للعقل سراحه » ووجد أن الأديان الثلاثة تتفق فى الغاية والمبدأ وأنه « إذا نقص فى الواحد شىء من أوامر الخير المطلق استكمله الثانى — وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا فى الطغيان ، وساءت الكهان فهم الناموس أو أنقصوا من جوهره آتاهم رسول فأكمل لهم ما أنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه » ، وإذا كانت الأديان متفقة فى المبدأ والغاية فما الذى يحول بين أهل هذه الأديان وبين الاتحاد ؟ إن اتفاقهم ووحدتهم تكفل السعادة للبشرية ؛ وبعد ذلك يقول : « وأخذت أضع لنظريتى هذه خططاً وأخط أسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة ،

(١) أحمد أمين بك بمجلة الثقافة العدد ٢٦٨ .

كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب ، ولا تعمقت فى أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف » . ولكن سرعان ما أدرك أن دون هذا الاتحاد أهوال وأهوال ، ولقد نسى قوله تعالى : « ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ؛ ولذلك خلقهم » وأن من يتعرض لهذه الدعوة رمى بالكفر والإلحاد ، والخروج عن جادة الدين ، وقد رمى بذلك فعلا ولهذا باء بالإخفاق : « انقلبت أفراحى بالخيال أتراحاً ، ورجعت عن نظريتى والفشل ملء إهابى وجبتى »[1] .

وتطامن فى أهدافه ، ووجد أن الشرق المسكين أولى بالرعاية والعناية ، وأن إصلاح العالم كله محال ، ولذلك عكف على جهاده فى سبيل هذا الشرق وكان متألماً لبعض الخلافات الدينية بين أبناء الملة الواحدة كالسنة والشيعة .

٢ — وكان يرى ألا موجب لسد باب الاجتهاد فى الدين ؛ على المسلمين إذا أرادوا التقدم ، أن يستعملوا عقولهم ، ويستنبطوا كما استنبط أسلافهم أحكاماً تتمشى مع زمنهم وبيئاتهم ، ويقول : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه ؟ . إن الفحول من الأئمة اجتهدا وأحسنوا ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا فطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده »[2] .

وإذا تأملت أهداف جريدة العروة الوثقى التى ذكرها فى المقال الافتتاحى أدركت إلى حد ما بعض آراء جمال الدين فى إصلاح الشرق ، وقد عرفت أن جمال الدين كانت له الفكرة التى يعبر عنها محمد عبده فى الجريدة . وهاك بعض هذه الأهداف والآراء :

---

(١) قدرى طوقان . جمال الدين : آراؤه وأثره فى نهضة الشرق ص ٢٠ .
(٢) خاطرات محمد باشا المخزومى .

(ا) بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات ، ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التى أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم ، وإزاحة الغطاء عن الأوهام التى حلت بهم .

(ب) إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(حـ) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كان عليها أسلافهم وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(ء) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(هـ) تقوية الصلاة بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

وكان جمال الدين يعتز بشرقيته وبلغته ، ويشمئز من هؤلاء الذين يتنكرون لقوميتهم ولغتهم ؛ فإن هذا التنكر يساعد المستعمر ، بل هو أثر من آثار تعاليمه التى يرمى بها إلى الحط من شأن كل ما هو شرقى و« لإضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعليم القومى ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس فى لسانهم العربى أو الفارسى أو الأردو الهندى آداب تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجد يذكر » . ولقد بلغ ببعضهم السفه « أن ينفروا من سماع لغتهم ، وأن يتباهوا بأنهم لا يحسنون التعبير بها ، وأن ما تعلموه من الرطانة الأعجمية هى منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية » .

وقد عرفت فيما سبق كفاحه فى سبيل حرية الشعوب ، ومطالبته بنظام الشورى ووقوفه أمام الحكام المستبدين كالجبل الأشم فى جرأة وعزة نفس واستنهاضه الهمم ؛ كى تقوى دولة إسلامية تكون النواة التى يلتف غيرها حولها وبذلك يعاد مجد الإسلام ويقف قوياً أمام مطامع الغرب وعسفه .

ولقد كان جمال الدين عالماً ومفكراً وفيلسوفاً ومصلحاً اجتماعياً ، أشرب قلبه حب بلاده ودينه ، وأرسله الله فى هذه الحقبة من التاريخ ليبدد دياجير الجهل ويبعث الحمية فى النفوس . ولقد أرغم خصومه على احترامه بصراحته وجرأته ، ولقد رأيت كيف ضاقوا به ذرعاً فى كل مكان ؛ لأنه كان حرباً على الجهل والظلم والقسوة والطغيان ، ولقد أقر له الغربيون بالفضل حتى لقد قال عنه (رينان) وهو من هو فى كرهه للمسلمين : « وقد يخيل إلىّ من حرية فكر الأفغانى ونبالة شيمه وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من العظام الذين ظلوا قروناً عدة يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

أسلوبه فى الكتابة :

لم يكن جمال الدين مفطوراً على اللغة العربية مطبوعاً على أساليبها الفصيحة ؛ لأنها ليست لغته الأولى ، وإنما تعلمها تعلماً ، ولم يكن حظه من آدابها كثيراً ، ويتذوق منازع بلاغتها بقدر كبير ، ولكنه أفادها فائدة جليلة بإرشاد تلاميذه إلى التحرر من القيود الثقيلة التى كانت ترسف فيها الكتابة الإنشائية من محسنات بديعة مختلفة ، وسجع متكلف ممقوت ، واستعارات غريبة وغير ذلك مما أفسد المعنى ، وستر الأفكار عن الوضوح والجلاء ، كما أرشدهم إلى تجنب المقدمات الطويلة ، وطبعى أن يصرفهم إلى الاهتمام بالمعانى ، لأن هناك أشياء كثيرة يريدون الإبانة عنها ، والإفاضة فيها ، ولا يتسع هذا النثر المقيد لكل تلك المعانى ولا يستطيع إيضاحها كاملة ، ولقد رأيت فيما سبق نماذج من هذا النثر دبجها تلاميذه ، أمثال محمد عبده وأديب إسحق ، وقد قال أديب عن أسلوبه الذى تأثر فيه بتعاليم جمال الدين : « رأيت أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ، لتقرير المعنى فى الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً أو مبتذلا سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى فى

القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم ، والتنازلُ إلى ألفاظ العامة يقضى بإماته اللغة و إضاعة محاسنها ، و إن فى لغة القوم لدليلا على حالهم » .

وهذا الوصف الذى ذكره أديب إسحق لنثره هو أثر من تعاليم جمال الدين وسترى من النموذج الذى سأعرضه عليك من نثره أن جمال الدين و إن لم يكن من المطبوعين على أساليب العربية الجميلة ، إلا أنه كان ينتزع البلاغة انتزاعاً فترى لقلمه سطوة لا تراها لكثير من الأقلام ، وقد مر بك ، ما قاله الشيخ محمد عبده فى قدرته على تفتيق المعانى والاحتفال بها . ومن مزايا أسلوبه كثرة الجمل الاعتراضية ، والفصل بين فعل الشرط وجوابه أو المسند والمسند إليه بفواصل طويلة ، وهذا ناشىء من ترتيب فكره وتعوده على الأساليب الفارسية والأعجمية .

هذا وقد وفينا موضوعات النثر فى ذلك العصر حقها من الكلام ، و بينا الأسلوب الذى تميز به كل منها ، فألق عليها نظرة لتقف على أسلوب جمال الدين فقد كان المرشد للكتاب ، و إن لم يكتب هو إلا القليل ، ومن هذا القليل الرسالة الآتية التى بعث بها إلى عبد الله باشا فكرى يعتب عليه — وقد بلغه أن رجلا ذمه أمام الخديو على مسمع من فكرى باشا فسكت ولم يدافع عنه ، وهى من النوع الأدبى ولذلك احتفى بأسلوبها أيما احتفاء ، وفيها تتجلى خصائص أسلوبه عامة :

« مولاى : إن نسبتُك إلى هوادة فى الحق وأنت — تقدست جبلتك — فطرت عليه ، وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعت يقينى بالشك ، و إن توهمت فيك حيداناً عن الرشد ، وجوراً عن القصد ، وأنا موقن أنك لا زلت على السداد غير مُفْرط فى الحق ولا مُفرِّط ؛ فقد استبدلت علمى بالجهل — ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم فى الحق لومةُ لائم ، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر ، ولو ألب الباطل الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسى وكذبنى من يسمع مقالتى ؛ لأن العالم والجاهل ، والفطن والغبى كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ، ونقاوة سريرتك واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت ،

لا تفارق المكارم ولو اضطررت ، وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً ، ولا تصدر عنك نقيصة قصداً ، ولا تهن فى قضاء حق ، ولا تنى عن شهادة صدق ، ومع هذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسريرتي وسرى ، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة ، وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا المصريين شراً ولا أسررت لأحد فى خفيات ضميرى ضراً ، وتركتنى وأنيابَ النذل اللئيم (فلان) حتى نهشنى نهش السبع الهرم العظام ؛ ضغينة منه على السيد ابراهيم اللقانى ، وإغراء من إعدائى أحزاب (فلان) .

ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشدك وسدادك ولا يطاوعنى لسانى — وإن كان قلبى مذعناً بعظم منزلتك فى الفضائل ، مقراً بشرف مقامك فى الكمالات — أن أقول : عفا الله عما سلف ؛ إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة ؛ إزاحة للشبهة ، وإدحاضاً للباطل ، وإخزاء للشر وأهله ، وأظنك قد فعلت أداءً لفريضة الحق والعدل . ثم إنى يامولاى أذهب إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم ، وداعياً لكم ، والسلام عليكم وعلى أخى الفاضل البار أمين بك » .

٨ صفر سنة ١٣٠٠ — جمال الدين الأفغانى

٢ — الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

وإذا كان جمال الدين قد أبعدته الظروف القاسية ، وجنود الغدر والاستعمار عن مصر وهى أحوج ما تكون إليه ؛ فقد ظلت بها روحه الوثابة ، ومصر فى ذياك الوقت قلب الإسلام النابض ، وأمل العروبة الغض ؛ لأن تركيا — وهى مقر الخلافة — كانت عجوزاً مشلولة الأطراف ، جافة الفؤاد ، يابسة العود ، تعتلج فى أحشائها الوساوس والدسائس ، ويسيطر عليها خلفاء شبعوا من اللذائذ المادية حتى بشموا ، وانغمسوا فى حمأة الشهوات حتى شرقوا ؛ والشام قد هجرها المستنيرون الأحرار ، واستوطنوا مصر بنفوسهم الأبية أن يذلها الظلم ، ويجرحها الحيف والاضطهاد ؛ وبقية أقطار العروبة فى سبات عميق ، أو يقظة قريبة

من الوسن ، قد أعدتها تركيا بأدوائها ، فهى تترنح تحت فتكات الأمراض الاجتماعية وآلامها المبرحة ، وتكاد تسلم الروح إعياء وهزالا .

أجل ! قد بقيت روح جمال الدين بمصر ترفرف على واديها فى شخص محمد عبده[1] وهو شيخ من صميم ريف مصر ، أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدى ليتعلم كما يتعلم كثير من الناس بعد أن حفظ القرآن ، ولكنه تمرد على هذا التعليم بعد سنة ونصف حاول فيها أن يفك طلاسم (الآجرومية) فأعيته الحيل ، فأيقن أنه غبى ، وأنه غير مستعد لتلقى العلم ، وصمم على العمل فى الحقل كما يعمل إخوته وأهله ؛ بيد أن والده أكرهه على الاستمرار فى طلب العلم فهرب إلى أحد أخوال أبيه وهو :

الشيخ درويش :

والشيخ درويش من الشخصيات التى أثرت فى عقل محمد عبده وفى نفسه وفى خلقه ، وحددت له أهدافه فى الحياة ؛ ولا يذهبن بك الظن ، فتتخيل أن الشيخ درويشاً هذا فيلسوف أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، أو أنه عالم من علماء التربية الأفذاذ ، فلم يكن — علم الله — إلا شيخاً صوفياً سليم العقيدة ، نير البصيرة ، على حظ قليل من العلم ، وكثير من التجارب ؛ فقد تتلمذ على السنوسى بطرابلس ، وجاب بعض الأقطار يتلقى على رؤساء الصوفية طريقة الدعوة وسياسة النفس .

جاء الشيخ محمد عبده إلى الشيخ درويش هارباً[2] من العلم وكان فى الخامسة عشرة

---

(١) ولد محمد عبده بقرية « شنرا » بمديرية الغربية سنة ١٢٦٦ هـ — ١٨٤٩ م وانتقلت به أمه إلى بلدة أبيه « عبده خير الله » محلة نصر بمديرية البحيرة بعد ولادته بقليل وكان أبوه ذا مكانة ملحوظة فى قريته يمتاز بقوة الجسم وصحته ، وبشىء من سعة الرزق والكرم والاستنارة ، وقد ورث عنه محمد عبده كل هذا .

وقد ترك محمد عبده ترجمة حياته فى وثيقتين إحداهما كتبها استجابة لصديقه الشاعر الرحالة الانجليزى « ولفرد سكاون بلنت » وفيها شىء أصل عن أسرته وجزء من تاريخ حياته W. S. Blunt. Secret History of Egypt, London 1907 ، والثانية مانقله عنه الشيخ رشيد رضا إجابة على أسئلة وجهها إليه انظر المنار ج ٨ ص ٤٠٥ وما بعدها .

(٢) مع العلم أنه كان قد تزوج وصمم على المكث بالبلدة ، ولكن والده أمره بالذهاب إلى طنطا بعد أربعين يوماً من زواجه .

من عمره ، فتياً قوياً مغرماً بركوب الخيل واللهو مع أمثاله من الشباب ، ولكن الشيخ درويش تلقاه كما يتلقى الطبيب المريض ، وعالج هذه العقدة التى كونتها (الآجرومية) فى نفس الفتى ، وأعطاه كتاباً سهلا فى المواعظ والأخلاق ولم يكن للفتى صبر على القراءة ، وسرعان ما مل المجلس ، ولكن الشيخ درويشاً أخذه برفق وتؤدة ، وكان يفسر له ما يقرأ ، فوجد الفتى فيما قرأ لذة ، وانصرف عن اللهو ، وعكف على قراءة الكتاب ؛ ويقول فى ذلك : « وطلبت منه (يوماً) إبقاء الكتاب معى ، فتركه ، ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت علامة لأسأله عنها ، إلى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وهوى ينازعنى إلى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم . ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شىء إلىّ هو ما كنت أحبه من لعب ولهو وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شىء إلىّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم »[1] .

وهكذا استطاع الشيخ درويش أن يحل العقد النفسية ، ويعيد للفتى ثقته بنفسه وفى ذكائه ، ويرغبه فى العلم . وقد أفاد الفتى من ذلك درساً لم ينسه مدى حياته ، وهو أن الأزهر بحاجة إلى الإصلاح الشامل فى كتبه التى تدرس ، وفى المعلمين الذين يقومون بالتدريس ، وكان هذا أحد أهدافه فى الحياة كما سنرى .

وقد أفاد من الشيخ درويش درساً آخر وقر فى نفسه وبدل من قيم الأشياء والناس عنده فلم يعد يهتم بالتفوق المادى والغنى والجاه ، بل علمه أن الإنسان الكامل فى هذه الحياة هو من آمن وعمل صالحاً سواء كان غنياً أو فقيراً ؛ وعلمه كذلك أن الإسلام الصحيح يتنافى مع الأخلاق المنحلة والفساد ، لأنه عقيدة وعمل ، لا ألفاظ تقال ، ثم علمه كذلك أن

---

(١) وبهذا برهن الشيخ درويش فى قريته على أنه أقدر من علماء الأزهر فى هداية الطلاب وتحبيبهم فى القراءة . ولقد كان مشايخ الصوفية فى الماضى رسل هداية وتبشير وعلى أيديهم أسلم كثير من وثنى السودان وزنوج غابات إفريقية ، وهم الذين نشروا الإسلام فى كثير من بقاع الأرض فأين منهم متصوفة زماننا الذين لا هم لهم إلا ملء البطون وكنز الأموال ؟ .

الإسلام دين سهل سمح ، وأن مصدره الذى يجب أن يؤخذ منه هو القرآن وحده[١] .
وظلت هذه الدروس التى تلقاها فى صباه تنمو وتترعرع فى نفسه حتى صارت مبدءاً يسعى إليه وغاية يصبو إلى تحقيقها .

وليس هذا كل ما فعله الشيخ درويش من توجيه لتلميذه ، بل كان يلقاه فى الإجازات الصيفية بعد عودته من الأزهر ، ويلومه على عزلته وعدم الاختلاط بالناس ودراستهم وإفادتهم بما عرف ، وكان يغشى به المجالس ويحمله على أن يتحدث إلى الناس ويجيب عن أسئلتهم ويكون لهم مرشداً ، لأن العلماء الذين يضنون بعلمهم على الناس لا خير فيهم .
وقد بقى الشيخ محمد عبده حتى مات وهو يعمل بهذه النصيحة ، ويرشد الناس كباراً وصغاراً رعية وساسة ، فرحم الله الشيخ درويشاً لقد أدى للإسلام ولمصر وللشرق خدمة جليلة .

فى الأزهر :

وتحول الشيخ محمد عبده من الجامع الأحمدى إلى الأزهر ، وكان الأزهر فى ذاك الوقت على حالة من الفساد لا تطاق وحسبك أن تقرأ تقريراً وضعه الشيخ عبد الكريم سلمان[٢] عن هذا المعهد وحال أساتذته وطلبته ، ومدة الدراسة فيه[٣] ، وحال العلم ، فإن الكتب التى كانت تدرس به من نتاج العصور المتأخرة يدرسها أساتذة لا يفهمون الغاية منها ،

---

(١) كان الشيخ درويش تلميذاً للسنوسيين كما رأينا ، وهؤلاء كانوا يتبعون مذهباً شبيهاً بالمذهب الوهابى ، وهو الرجوع بالإسلام إلى بساطته الأولى ، متجنبين البدع وتفسيرات المتأخرين وزياداتهم فى العقائد والفروع .

(٢) لم يحمل التقرير اسم الشيخ عبد الكريم ولكن اشتهر بأنه له ، وفيه أعمال مجلس إدارة الأزهر من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ هـ وهى مدة اشتغال الشيخ محمد عبده فى مجلس الأزهر .

(٣) كانت إجازات الطلاب كثيرة ففى مولد السيد البدوى ، والدسوقى ، ويوم عاشوراء والمولد الحسينى ، ومولد الشافعى ، والعفيفى والشرقاوى ، وهذا عدا الأعياد الإسلامية والمولد النبوى ورمضان والأعياد الرسمية ، ولم تكن مدة الدراسة تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف يخرج منها يوم الخميس والجمعة من كل أسبوع .

ولا يستطيعون كتابة أربع جمل صحيحة[1] ، وكان به كثير من ضيقى الفكر الذين يرمون الناس بالزندقة والكفر جزافاً مثل الشيخ عليش ؛ ولكن كان به من هيأتهم الظروف لأن يتسع أفقهم بعض السعة كالشيخ البسيونى ، والشيخ حسن الطويل وكان ذكياً حكيما له نظرات فى الحياة صائبة يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة .

كانت هذه حال الأزهر العلمية حين وفد إليه محمد عبده ، ناهيك بالقذارة التى كانت تلوث المسجد وصحنه ، ودورة مياهه ، وأروقته ، والفوضى الخلقية التى كانت سائدة بين طلابه ، وأخذ الشيخ محمد عبده يدرس العلوم المتداولة بالأزهر حينذاك من نحو وفقه وتفسير ، أما العلوم الحديثة فلم يكن يسمع عنها الأزهر ورجاله ، ومن يتعرض لها فهو كافر فى عرفهم مارق عن جادة الدين .

وكان الشيخ درويش حينما يعود الطالب الفتى إليه يسأله عما درس بالأزهر فى عامه ، وبعد أن يستمع إليه قليلاً يسأله : ما درست المنطق ؟ ما درست الحساب ؟ ما درست الهندسة ؟ فيجيب الشيخ محمد عبده بأن هذه الدروس لا يرى الأزهريون تعليمها ، فيقرر له هذا الصوفى المنزوى فى قريته بأن كل العلوم يجب أن تعلم ، وعلى الطالب أن يسعى إليها فى أى مكان ، ويقول له : « إن الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه ؟ وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شىء من الجهل بمحمود لديه إلا ما يسميه بعض الناس علما ، وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس » فأى رجل كان الشيخ درويش هذا ؟ وعلى أى حال من الجهل كان الأزهر ؟

---

(١) وقد مر بك وصف عبد الله فكرى لهم فى ص ١٣٤ من هذا الكتاب ، وقد كان الشيخ أحمد الرفاعى يدرس فى ذلك الوقت كتاب المطول فى البلاغة ويعترف أنه لا يحسن أن يكتب خطاباً ولو غير بليغ لأن هذا عمل تلاميذ المدرسة المدنية (أحمد أمين بك بمجلة الثقافة العدد ٣٨٨) ، واعتذر أحد أكابر العلماء للشيخ الإمبابى عن حضور وليمة فى رمضان فكتب رسالة الاعتذار على ورقة من أوراق العطار وأخطأ فيها عشرة أخطاء نحوية ، (محمد عبده لمحمد صبيح ص ٦٥ ، وتقرير الشيخ عبد الكريم سلمان) .

التمس الشيخ محمد عبده بعض هذه الدروس التى وجهه إليها مرشده عند الشيخ حسن الطويل[1] ، بيد أن هذه الدروس لم تشبع نهم نفسه ، على الرغم من طرافتها ، وذكاء مدرسها وسعة مداركه وإنما كانت مثيرة لنفس الشيخ محمد عبده ، تبعث فيها الرغبة إلى الاستقراء والتعمق والوصول إلى الحقائق الواضحة بدون تردد أو التواء ، وأن تستشف ما وراء هذه الألفاظ القديمة ، وأن تصل هذا العلم القديم بالحاضر الجديد ، وتحل مشكلات الحياة عامة ومشكلات مصر ، خاصة . ولم يكن ذلك ميسوراً عند الشيخ حسن الطويل ، وإنما تهيأ لمحمد عبده أن يدرك هذه الغاية عند أستاذه الأكبر جمال الدين الأفغانى حين وفد على مصر وقد تحابا وتصادقا ، ووجد جمال الدين فى محمد عبده التربة الخصبة الحية التى تحيل تعاليمه عملا صادقاً قوياً لا ينقص منه شىء بل يزيد على مرور الأيام نماء ، ووجد محمد عبده فى جمال الدين الأستاذ الذى كمل له ما كان يشعر به من نقص ؛ فإذا كان الشيخ درويش قد لقنه شيئاً من التصوف سابقاً فقد كان تصوفاً خيالياً تحول على يد جمال الدين إلى تصوف عملى ، وإذا كان الشيخ درويش قد بعث فيه الجرأة لمواجهة الناس والتحدث إليهم وبث تعاليمه بينهم ، فقد مكنه جمال الدين من اختيار الموضوعات الصالحة التى يتكلم عنها ، وأفسح أمامه أفق الإصلاح فتعددت شعبه وميادينه من دينية وخلقية واجتماعية ، ثم إن جمال الدين حرضه على استخدام سلاح آخر فى ميدان الدعوة ، غير الخطابة والمشافهة ، ألا وهو سلاح القلم ؛ حتى تسير دعوته مشرِّقة ومغرِّبة ، فتشمل القريب والبعيد ، وحتى تكون متقنة رائعة تغذيها التؤدة والفكر الناضج والمنطق . وقد فتن محمد عبده بجمال الدين وبدروسه وبروحه المتوهجة وحماسته العارمة ، ونشاط فكره ونظراته للحياة ، ووجد فيه ما لم يجده

---

(١) وكان الشيخ حسن الطويل من الشخصيات الفذة فى عصره ، ذا ذكاء حاد ، ومعرفة بالرياضيات وكان مدرساً بدار العلوم ، وقد بلغ من مهارته فى الرياضيات أن كان يحل لطلبتها ما أشكل عليهم من تمرينات الهندسة ، وكان على معرفة بكتب الفلسفة القديمة وبالدنيا والسياسة وكان ذا شجاعة فى الكلام بما يعتقد ولو حرم منصبه بدار العلوم ؛ وزهد فى الدنيا حتى لا يهمه منها شىء يلبس ثياباً رخيصة ، ويأكل قليلا ويدعى إلى موائد الأغنياء للافطار فى رمضان فيأكل من طبق الفول ويزهد فيما عداه ، ويطرد من دار العلوم لكلامه فى السياسة فينفق عليه صاحب مقهى بلدى ، فلما عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه لينفق عليه منه كما كان يفعل وهو مطرود ، وكان يدرس فى الأزهر الفلسفة والمنطق .

عند حسن الطويل ، فلا بدع إذا رأيناه يكتب بخط يده على نسخة من كتاب قديم : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق إلى جناب الحق ، خلاصة من تجلى بالحكمة ، ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والغُمَّة ، محيي الحق والدين أستاذنا السيد جمال الدين » ، وكان يلقبه بـ « الحكيم الكامل والحق القائم » .

وكان جمال الدين يبادل محمد عبده حباً بحب وإعجاباً بإعجاب ، فقال عند ما رحل من مصر سنة ١٨٧٩ : « لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » . وهى كلمة تدل على مبلغ اعتقاد هذا المصلح الكبير فى تلميذه ، وقدرته على تنفيذ تعاليمه والقيام بالدعوة إليها من بعده ؛ وقد روى المخزومى فى خاطراته أن جمال الدين لم يكن يذكر اسم محمد عبده إلا مقترناً بكلمة « الصديق » أو « صديقى الشيخ » ، ولما اعترض عبد الله نديم على ذلك وقال له ذات يوم : « أيها السيد ما غفلت مرة عن إضافة لفظ الصديق إلى الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره ؛ إذ تراك تنعت مَن سواه بلفظ صاحبنا أو فلان من معارفنا ، أجاب جمال الدين بقوله : وأنت يا عبد الله صديقى ، ولكن الفرق بينك و بين الشيخ محمد أنه صديقى على الضرّاء ، وأنت صديقى على السراء » ؛ و يعترف محمد عبده بأنه مدين بالشىء الكثير لجمال الدين و يقول : « إن أبى وهبنى حياةً يشاركنى فيها (أخواى) علىٌّ ومحروس ، والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمداً و إبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين » ؛ وقد مرت بك كلمته فى قدرة جمال الدين على تفتيق المعانى وكيف يتكلم فى كل فن كأنه من كبار أساتذته .

ومنذ اتصل محمد عبده بجمال الدين ابتدأ اتصاله بالحياة العامة ، والجهاد فى سبيل إصلاح الأمة ، وهو بعد طالب فى الأزهر ، لم ينل شهادة تجيز له التدريس فقد كتب فى (الأهرام) فى السنة الأولى من صدورها بعض مقالات دلت على روحه وجرأته مثل « الكتابة والقلم » و « المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى » و « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية »[1] . ولخص بعض دروس أستاذه فى الفلسفة بجريدة (مصر) التى كان يصدرها

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ج ٢ ص ٣٧ — ٥٧ ، وسنتكلم عن هذه المقالات فيما بعد من حيث قيمتها الأدبية .

أديب إسحق ، وكان من الطبيعى أن يثير هذا ضجة حول ذلك الشيخ الأزهرى الجرىء فمن معجب به ومن حاقد عليه ، ومن جامد ساخط يرميه بالزندقة .

وأخيراً تقدم الشيخ محمد عبده لنيل شهادة العالمية ، وقد تآمر الممتحنون عليه قبل مثوله أمامهم ، وعزموا على ألا يمنحوه العالمية ، بيد أنه خيب أملهم بعلمه ومهارته فى تصريف الكلام وسعة اطلاعه وسرعة بديهته ، ووجد من الشيخ العباسى المهدى عطفاً ، واستطاع الشيخ العباسى أن يقنعهم بوجوب منحه (الشهادة) ولكن أصروا فى عناد على أنه لن ينالها من الدرجة الأولى واكتفوا بإعطائه الدرجة الثانية[1] فى غرة رجب ١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧ م .

وتصدى الشيخ محمد عبده بعد ذلك للتدريس بالأزهر ، وأثار حوله ضجة كبيرة فالشيخ عليش يهم بضربه لأنه رجّح مذهب المعتزلة فى مسألة من المسائل على مذهب أهل السنة ، وتراه يتحدى علماء الأزهر جميعاً بإعطاء مائة جنيه لمن يبرهن على (أن الله واحد) ويُنظرهم إلى الغد ، ويفتتح الدرس ويسأل الحضور — وقد توافدوا أفواجاً — عن العالم الذى يريد مائة جنيه ويقرر فى حجج دامغة وحدانية الله ، ويسود الصمت ، وتضطرب القلوب ، وتتقلب الأبصار مدة غير وجيزة ، ثم يبدأ هذا العالم الصغير درسه غير تارك شبهة إلا وضحها ولا حجة إلا أوردها ، ولا عويصاً إلا حله ، فترك فى بعض القلوب فرحة ، وفى كثير من القلوب غُصَّة .

وكان يخص بعض مريديه بدروس فى منزله تختلف نوعاً ما عن دروس الأزهر فيدرس لهم (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه ، ويقرأ لهم كتاب (التحفة الأدبية فى تاريخ تمدين الممالك الأوربية) للمؤلف الفرنسى (جيزو) وقد عربه (حنين نعمة خورى) .

ثم عين الشيخ محمد عبده فى أواخر سنة ١٨٧٨ مدرساً للتاريخ بدار العلوم — إذ توسط رياض باشا فى هذا التعيين ، ولم يدرس ملخصاً من ابن الأثير أو الطبرى أو ما شاكلهما من

---

(١) وقد رجع الأزهر فيها بعد ذلك بست وعشرين سنة عن هذا القرار ، ومنح الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٤ العالمية من الدرجة الأولى ، وكان شيخ الأزهر إذ ذاك الشيخ على البيلاوى .

الكتب القديمة ولكن عمد إلى (مقدمة ابن خلدون) يبسط فى درسه آراء هذا النابغة فى أصول المدنية والاجتماع ، وألف لطلبته كتاباً فى « علم الاجتماع والعمران » فُقِدَ ولم يعثر عليه[١] .

وعين محمد عبده فى نفس الوقت مدرساً للعلوم العربية بمدرسة الألسن ، وكان هَمُّه — سواء كان فى الأزهر أو دار العلوم أو الألسن — هو (إيجاد نابتة من المصريين ، تحيي اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وتقوم عوج الحكومة)[٢] .

محرر الوقائع المصرية :

ثم دارت الأيام دورتها وعزل إسماعيل عن العرش ، وتولى توفيق ، ونفى السيد جمال الدين كما عرفت من قبل ، وتسلم محمد عبده راية الإصلاح بعد أستاذه ووجد فى رياض باشا مشجعاً وحامياً فعينه محرراً للوقائع المصرية ، وجمع الشيخ حوله بعض النابهين من الشباب[٣] وأنشأ بالجريدة (الرسمية) قسما أدبياً تنشر به المقالات الإصلاحية والاجتماعية وقد كانت الجريدة تفرض على أعيان البلاد وموظفى الدولة ، ويجدون بها قرارات جافة ركيكة العبارة و « أراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة فى ذاتها ، تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير إكراه ، وكان قد أحس بتوجه الأفكار إلى طلب شىء من طلاوة العبارة ، ووفرة المعنى وحسن الانتقاد »[٤] .

ووضع الشيخ (لائحة) للجريدة الرسمية وجعلها مشرفة على كل ما يصدر فى البلاد من كتب وصحف وحق إنذار هذه الصحف عربية أو أجنبية ، ومعاقبتها بالتعطيل الدائم أو المؤجل كى يلزمها « الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب مع إطلاق الحرية لها فى تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف » كما أعطت هذه اللائحة لرئيس تحرير

---

(١) أحمد أمين بك فى مجلة الثقافة العدد ٣٨٩ ، والمنار ج ٨ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

(٢) المنار ج ٨ ص ٤٠٤

(٣) أمثال سعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، ومحمد خليل ، والسيد وفا .

(٤) من كلام الشيخ محمد عبده قبل أن يتولى رئاسة تحرير الوقائع المنار ج ٨ ص ٤٠٦ وما بعدها .

الوقائع الحق فى انتقاد جميع إدارات الحكومة حتى وزارة الداخلية التى يتولاها رياض باشا؛ وذكر السيد رشيد رضا أن « أول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات، فأخذت تبين وجه الخلل بها وإضرارها بفهم المعانى المطلوبة ثم ترسم الطريقة المثلى التى يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة ، وحضهم رؤساؤهم على مكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الإدارات ؛ واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير »[١] .

وبهذا صار محمد عبده مشرفاً على الأداة الحكومية جميعها ، تراجعه جميع الإدارات فى كل ما لديها من الأعمال الهامة والتى تنوى عملها . وقد اشتدت حملته على وزارة المعارف وتبيان ما بها من خلل وفوضى وسوء إدارة ، فأدى ذلك إلى إنشاء (مجلس أعلى) لها واختير به عضواً ، وكانت الوقائع المصرية منبراً تذاع منه تعاليم جمال الدين فى العدل والتربية الخلقية والإصلاح الاجتماعى ، فيتكلم عن الفقر ومشكلته وعن (وخامة الرشوة) وعن (العفة ولوازمها) وعن (القوة والقانون) وعن (منتدياتنا العامة وأحاديثها)[٢] وغير ذلك من المقالات الاجتماعية والإصلاحية ، بيد أنه لم يخض فى المسائل السياسية ولعل ذلك لأن رياض باشا هو رئيس الوزارة ، وله عليه يد لا تنكر ، أو لأنه كان يعتقد مذهب رياض فى التدرج وعدم الطفرة ، وظل بمنصبه هذا إلى أن قامت الثورة العرابية .

محمد عبده والثورة :

كان محمد عبده يختلف مع جمال الدين فى طريقة الإصلاح ، فبينما الأول يريد أن

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول . هذا وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محرراً صحيح العبارة فى مدة معينة ، فأسرع مدير الجريدة إلى تنفيذ ما أراد رئيس تحرير الوقائع . وتعقبت الجريدة مرة مدير بنى سويف وانتقدته انتقاداً مراً فأصدر أمره بعدم دخولها وراجع وزراة الداخلية فى أمرها فنصرت الجريدة عليه ونشرت فعلته فى منشور عام .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الثانى ص ٦٨ وما بعدها إلى ص ٢٢٥

تقفز الأمة قفزاً ، وتتمتع بالشورى والحرية على يد مجلس نيابى يشرع لها القوانين وتكون الحكومة مسئولة أمامه ، كما تكفل فى ظله حرية الفرد الشخصية ، إذا بمحمد عبده وأصحابه يرون أن الإصلاح لا ينتج إلا إذا تربت الأمة وتعلم أبناؤها كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وأن يسير الإصلاح تدريجياً فى كل ناحية ، حتى فى العادات « وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ثم يطلب بعض التحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون »[1] . وكان يرى أن الشرق إنما ينهض على يد مستبد عادل يحكمه خمس عشرة سنة « يصنع فيها ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرناً » مستبد « يُكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادلٌ لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه » ، وكان هذا رأى رياض باشا .

وانقسمت الأمة فريقين ، فريق النهضة السريعة والإصلاح العاجل ويتزعمه شريف باشا وهو كما صوره محمد عبده « من أقوى عوامل النهضة » التى (انقلبت إلى فتنة) فى رأيه ، ومن ألسنة هذا الفريق وأسلحته البتارة أديب إسحق ، وفريق يود النهضة البطيئة المتدرجة ويتزعمه رياض باشا ويناصره فى رأيه محمد عبده[2] .

ولما قامت الثورة على يد العسكريين وتزعم عرابى مطالب الذين يريدون المجلس النيابى ، وانضم إليه كثير من زعماء الأمة وفى مقدمتهم سلطان باشا ، وعبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأهالى ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابى

---

(١) من مقالة للأستاذ الإمام تحت عنوان (خطأ العقلاء) . انظر تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ١٢٣

(٢) كتب محمد عبده مقالات فى الشورى وقد كانت من وحى جمال الدين ولم يكن مؤمناً بها بل كان يرى أن تنشأ أولا المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتى مجالس الإدارة لا على أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

بإلغاء الاستبداد لم يكن محمد عبده من المحبذين لهذه الثورة أو العاملين فيها ، لأنه كان يكره عرابى باشا ، ويعتقد أنه شهم فى الكلام ضعيف فى الحرب ، أليق به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة ، ويقول فيه : « كان أحمد عرابي ينظر إلى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو إلى عدوه ، وكان يحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التى كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئاً فى الكثير منهم ، وكان أجرأ إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة » .

ولكن على الرغم من هذا لم يكن محمد عبده مشايعاً للثورة فى أول الأمر ؛ لأنه لم يكن معتقداً بها ولا فى صلاح الأمة لأن تتولى أمورها بيدها ، وأخذ يناهضها ويقول : « ليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر فى التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد » ، ويقول مرة أخرى ، وكأنه كان يتكلم بلسان القدر : « إن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع ؛ لأنه ليس تصويراً لاستعداد الأمة ومطلبها ، ويخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبياً يسجل على مسببه اللعنة إلى يوم القيامة »[1] .

ولم يكن محمد عبده من الموالين لتوفيق باشا حتى يتهم بأنه ناهض الثورة من أجله ، ولكنه كان مستقل الرأى ، وبعد مدة لم يستطع أن يقف مسلوب اليد والأمة كلها فى صف واحد ، وهو وفئة قليلة فى صف ، ورأى المسألة تتعلق بكرامة الأمة بعد أن تدخل الأجانب ، واستعان بهم توفيق ، فانضم للأمة وصار قوة روحية للثورة يأخذ المواثيق ويحرر بيانات الثوار للشعب وللدول ، ويحض قومه للتجنيد ويحمسهم للقتال ، ولا يدخر فى سبيل ذلك وسعاً ، وكان يستعين بالوقائع (وهى الجريدة الرسمية) على نشر أفكار الثوار .

وأخيراً أخفقت الثورة وسجن محمد عبده مائة يوم ، وحقق معه وحكم عليه بالنفى فاتخذ بيروت ملجأ[2] .

---

(١) المنار ج ٨ ص ٤١٢ وما بعدها . (٢) المنار ج ٨ ص ٤١٦

بعد الثورة :

وفى بيروت التف حوله العلماء والأدباء ودرس فى المدرسة السلطانية وكانت أشبه بمدرسة أولية ، فارتفع بها حتى صارت مدرسة عالية ولكن مقامه بها لم يطل؛ إذ طلب إليه أستاذه جمال الدين أن يلحق به فى باريس فلبى دعوته[1] وأصدرا معاً مجلة (العروة الوثقى) وقد مر بك شىء كثير عنها و نُبَذٌ من مقالاته بها . وهنا تعجب كيف تغيرت لهجة الشيخ محمد عبده فى (العروة الوثقى) ولم يعد ذلك المصلح المتأنى الذى يأخذ الأمور بالرفق ، و يسعى للإصلاح فى هوادة بل نراه ثورة متأججة وذا قلم عنيف ، كما اتسع غرضه ، ولم ينظر لمصر وحدها بل شمل العالم الإسلامى كله . الحق أن الشيخ محمد عبده فى العروة الوثقى لم يستطع أن يقاوم تأثير جمال الدين عليه ، وناهيك بجمال الدين قوة وحماسة وناراً مشبوبة .

وعطلت (العروة الوثقى) بعد ثمانية عشر عدداً ، وسافر جمال الدين إلى إيران ، وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، وقد أخفق مرتين : أخفق فى الثورة العرابية ، وأخفق فى استمرار العروة الوثقى . ولذلك أخذ على نفسه ألا يشتغل بالسياسة ، وآلى إلا أن يكون معلماً أو مصلحاً ببيروت . فالتف حوله مريدوه ، وشرح لهم نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان ، وأخذ يفسر لهم القرآن الكريم على النحو الذى اتبعه بعد بمصر من غير أن يتقيد بكتاب أو تفسير خاص ، بل اتخذ آيات القرآن مجالا لوصف أدواء المسلمين وعلاجها ، ودرس الفقه على المذهب الحنفى بالمدرسة السلطانية . وهناك ألف رسالة التوحيد ، وصار يكتب بعض المقالات فى جريدة (ثمرة الفنون) مشابهة لمقالاته فى الوقائع المصرية[2] .

---

(١) لم يتجاوز سنه حينذاك أربعة وثلاثين سنة . المنار ج ٨ ص ٤٥٥

(٢) ووضع فى هذه الأثناء لائحتين : واحدة فى إصلاح التعليم الدينى بمدارس المملكة العثمانية ورفعها إلى شيخ الإسلام بتركيا ، وفيها يقرر أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصل الدين وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها ؛ ووضع لائحة أخرى رفعها إلى والى بيروت تتضمن إصلاح سوريا ووصف سوء حالها بانتشار المدارس الأجنبية بها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية وإصلاح التعليم الدينى والعناية به ، وهكذا برهن على أنه مصلح فى كل مكان يحل به (تاريخ الإمام ج٣ ص ٣٣٩ ومابعدها).

كان محكوماً عليه بالنفى ثلاث سنوات ، ولكنه مكث ببيروت ست سنوات وذلك لأن توفيقاً كان غاضباً عليه[١] ، وكان يجهر بخطيئة توفيق فى حق الوطن ويقول[٢] : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ؛ لأنه مهد لدخولكم (أى الإنجليز) بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ؛ ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه — إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

فكان من العسير أن يعود إلى مصر فى عهد توفيق ، بيد أن رياض باشا عاد إلى الوزارة ، وكان من الذين يجلون الأستاذ الإمام ويعتقدون فيه النفع والخير لمصر ، فما لبث أن سعى لدى توفيق هو وبعض ذوى النفوذ[٣] حتى عفا عنه ، وكان عفواً قريباً من الاعتذار .

بعد العودة من المنفى :

عاد محمد عبده إلى مصر فوجد الأمور قد تغيرت وصار الحل والعقد بيد الإنجليز ، ولم يعد الخديو صاحب الأمر والنهى كما كان من قبل ، ورأى لزاماً عليه وهو المصلح ذو المشروعات الحية فى النهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية أن يعتمد على سلطة تؤيده وتهيء له الاستمرار فى إصلاحاته ، فسالم الخديو — على الرغم منه — واستعان بالإنجليز على الإصلاح المنشود . ولا نعجب بعد هذا إذا صار جمال الدين حانقاً عليه ، ويرى فيه الرجل الذى تنكر لمبادئه ومد يده لأعدائه يهادنهم ويسالمهم . ورث محمد عبده من جمال الدين

---

(١) لأن محمد عبده جاهر بخلع توفيق فى أثناء الثورة (مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٢) من حديث له مع مكاتب (البول ميل جازيت) وهو بانجلترا .

(٣) المعروف أن من الذين توسطوا فى طلب العفو عنه الأميرة نازلى وكانت ذات مكانة ، والغازى مختار باشا ، ثم اللورد كرومر وقد كان له الفضل الأكبر فى عودته والعفو عنه ، وفى الواقع لم يعف عنه توفيق إلا بضغط الإنجليز . فأى صلة كانت بين محمد عبده تلميذ جمال الدين والإنجليز ؟ — يظهر أن أصحاب محمد حين طلبوا عودته إلى مصر تعهدوا بألا يشتغل بالسياسة ، ثم إن كرومر وهو الداهية السياسى رأى أن يجذب نحوه ذلك العالم الجليل ويأمن شره ما دام لن يشتغل بالسياسة وهذا ما جعل جمال الدين يحنق عليه ويلومه أشد اللوم ، حتى قطعت العلاقات بين الأستاذ وتلميذه ؛ لأنهما اختلفا فى الوسيلة . (راجع المنار ج ٨ ص ٤٦٧)

آراءه الإصلاحية الاجتماعية ، وورث عبد الله نديم وسعد زغلول ومصطفى كامل آراءه السياسية . وقد ظل محمد عبده متمسكا بسياسة التقرب من الإنجليز والاستعانة بهم حتى آخر حياته ، وكان هذا مثار الطعن فيه والغض من شأنه ، ولكنه كان يصدر فيه عن عقيدة وجرأة ، فقد استفتى مرة فى الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين » ونسى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودُّوا ما عَنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهُم أكبر » .

وأمّل محمد عبده بعد عودته أن يرجع إلى التدريس بدار العلوم ويتصل بالنشء ، ويربى طائفة من الشباب يعدهم للغد ، ويحملون بعده راية الإصلاح ، ولكن أبى عليه توفيق ذلك[1] ؛ وعين قاضياً أهلياً ، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، ووجد نفسه فى بيئة غريبة عنه تُدِلُّ بمعرفتها للغة الفرنسية والقوانين الأجنبية فدفعته نفسه الطموح إلى أن يكمل هذا النقص ، وبدأ يتعلم الفرنسية[2] وهو فى سن الأربعين أو ما قاربها ، وقد استطاع بعد مدة أن يتقنها وترجم منها كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية إلى الفرنسية .

وروى لطفى باشا السيد أن محمد عبده هو الذى كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسى (تين) فى كتابه المشهور عن (الذهن) .

وقد رأى الأستاذ الإمام فائدة تعلم اللغة الأجنبية ولمسها وفى ذلك يقول : « ثم إن الذى زادنى تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من

---

(١) المنار ج ٨ ص ٤٦٧ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) وروى أن المعلم أتى له بكتاب فى قواعد اللغة الفرنسية فقال له : « ليس عندى وقت لأن ابتدئ ؛ وإنما عندى وقت لأن انتهى » ؛ قال وناول المعلم كتاباً (لألكسندر ديوما) وقال له : « أنا أقرأ وأنت تصلح لى النطق وتفسر لى الكلم وما عدا ذلك فهو على ؛ والنحو يأتى فى أثناء العمل . وهكذا أتممت الكتاب ؛ وكتاباً بعده وثالثاً عقبه ؛ وكنت أطالع وحدى بصوت مرتفع كلما وجدت نفسى فى بيتى خالياً فتعلمت مبادىء اللغة الفرنسية ، وحصلت منها ما يمكننى من القراءة والفهم ولكن ما كنت أستطيع الكلام » .

العلم يتمكن به من خدمة أمته ، و يقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف لغـة أور بية . كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأور بيين فى جميع أقطار الأرض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ »

واشتهر محمد عبده بعدله فى القضاء ، ونظره إلى روح القانون ، وعدم تقيده بالقالب والألفاظ ، وقد ساعدته دراسته للشر يعة الإسلامية فى هذا كل المساعدة

إصلاح الأزهر :

مات توفيق وتولى عباس سنة ١٨٩٢ م ، وقد عاد ليتوه من أور با فتى ممتلئاً حماسة وغيرة وحباً للخير ورغبة فى إنهاض مصر من كبوتها ، وتخليصها من الاحتلال ، فغير رجال حاشيته وجمع حوله أقوياء الرجال حتى ضايق الإنجليز فأخذوا يكيدون له . ورأى محمد عبـده أن يستفيد من حماسة عباس ، فتقرب منـه و بسط أراءه فى الإصلاح ، وهو إصلاح يتناول جهات لاتهم الإنجليز فى شىء وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وليـكن البـدء بالأزهر ، وارتاح الخديو للشيخ وكلفه بوضع تقرير مشروع للاصلاح ، وسرعان ما وافق عليه . وكوّن مجلس إدارة الأزهر برئاسة الشيخ حسونه النواوى وعين محمد عبده ، وعبد الـكريم سلمان عضوين به ، وهكذا أتيحت للشيخ الفرصة التى طالما نشدها للإصلاح . ولـكن هل استطاع الإصلاح ؟ !

إنا نقول كما قال أحمد بك أمين[1] : « يا لله و إصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد ونجح ، ولا الشيخ محمد عبده ، لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أى قلق واضطراب ، وهم يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت فى المغارات فلم تر ضوءاً وأفنت عمرها فى فهم لفظ ، وتخريج جملة وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا ، فإذا أتى المصلح

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٢

سمم أهله الجو حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب .

المشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم ، وهو أن يتبع الأزهر الحكومة تبعية الجامعة ، ويستقل استقلالها ويخضع فى نظمه لما ترشد إليه عموم التربية الحديثة ويرقى برقيها ، ثم ينفذ ذلك من غير خشية » .

وأضيف إلى هذا أن بالأزهر اليوم وفى كل حين ثروة معنوية عظيمة تضيع هباء وتوجه وجهة خاطئة ، ولا تفيد منها الأمة شيئاً ، ولو حولت هذه الجامعة الأزهرية إلى جامعة مدنية ينفق عليها من الأموال الموقوفة على الأزهر ، ويتعلم الطلبة فيها بالمجان لما حرمت الأمة هذه الثروة العظيمة ، ولنبغ من أبنائه الطبيب النطاسى ، والمهندس الفذ ، والرياضى القدير ، والصيدلى الماهر . أما الدين فتخصص له طائفة تسد الفراغ وتلى شئونه من وعظ وإمامة وغير ذلك . لقد اتجه الأزهريون اليوم إلى الوظائف ، ولم يعودوا يطلبون العلم لذاته كما كان يفعل أسلافهم ، فواجب على الأمة والحكومة أن تعدهم الإعداد الصالح لهذه الوظائف وتتولى شئون الأزهر بحزم وتنهض به نهضة تليق باسمه وتاريخه ، فيتعلم أبناؤه اللغات الأجنبية فإذا جادلوا فى الدين جادلوا بالحجة القوية وعرفوا مواطن الضعف عند سواهم ، وإذا درسوا الفلسفة والمذاهب الحديثة تفتحت أمامهم سبل الاطلاع ، على أن تتجه جمهرتهم إلى التعليم المدنى وبذلك تفيد الأمة من هذه الثروة المعنوية الضائعة ، ومصر بحاجة إلى أكثر من جامعة .

حاول الإمام محمد عبده إصلاح الأزهر ، فلم يصلح سوى الشكل من زيادة مرتبات العلماء ، ووضع لائحة كسى التشريف ، والامتحان ومساكن الطلبة . ولكن حين ابتدأ ينظر إلى الدراسة وطرقها والكتب التى تدرس والمناهج وجد العقبات أمامه جمة وأخفق فى محاولاته ونفض يده من الإصلاح . لقد كان كارهاً للطريقة الأزهرية فى معالجة الدروس والشروح والحواشى والتقارير وعلك الألفاظ ، وقد عرفنا آنفاً كيف كادت هذه الطريقة أن تحرم مصر إمامها ومصلحها ، ولقد قال له يوماً الشيخ البحيرى مدافعاً فى مجلس إدارة الأزهر عن هذه الطريقة : « إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » فقال الشيخ محمد عبده « وهذا ما

أخاف منه » فقال البحيرى مستنكراً : « ألم تتعلم أنت فى الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقى العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ ! » فأجاب الإمام : « إن كان لى حظ من العلم الصحيح الذى تذكر ، فإننى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة[1] » .

وهذه كلمات تدل على مرارة وألم ، وعلى أن الشيخ لم ير فى الأزهر وعلومه ورجاله ما يبشر بالنجاح ، فليت شعرى هل تغير الأزهر كثيراً منذ محمد عبده حتى اليوم ؟!

وتولى محمد عبده منصب الإفتاء فى يولية سنة ١٨٩٩ ، وأضفى عليه وجاهة دينية وجلالا وكان فى منصبه هذا جريئاً ، يصدر الفتاوى التى يرى فيها الجامدون زندقة وإلحاداً ، وهو يراها اجتهاداً وتجديداً وتمشياً مع روح العصر بما لا يخالف حقيقة الدين وجوهره[2] . ولم تكن العلاقة بينه وبين الخديو عباس طيبة ؛ لأن عباس يراه مسالماً للإنجليز مستعيناً بهم وفى ذلك جرح لوطنية الخديو والتجاء إلى خصومه ، وكان الشيخ محمد عبده يعتقد فى مهادنة الإنجليز والاستفادة منهم ، ويرى فى عباس رأياً آخر وهو أنه جشع محب لجمع المال ولو من دماء رعاياه ، وقد اصطدم به مرتين أولاهما : حين أراد استبدال أرض ، فأبى عليه الشيخ ذلك ورأى أن هذا الاستبدال ليس فى مصلحة الوقف ، وحمل مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا أُعطى للوقف عشرون ألفاً من الجنيهات تعويضاً لهم . وثانيهما

---

(١) من تقرير الشيخ عبد الكريم سلمان عن التعليم فى الأزهر .

(٢) من ذلك فتوى (الترنسفال) وهى إجابة عن ثلاثة أسئلة : أحدها : بقر يضربه النصارى على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ، فأفتى الشيخ بحل هذا اللحم ، وكانت للفتوى ضجة لأن علماء الأزهر يقولون هى الموقودة التى حرم الله أكلها والشيخ يقول : إن الموقوذة هى ما ضربت بشىء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت وهذه ذبحت قبل موتها ، وثانيهما : يوجد أفراد فى بلاد الترنسفال يلبسون القبعات لقضاء مصالحهم ، وتمكنهم القبعة من جنى بعض الفوائد ، فهل يجوز ذلك أولا ؟ فأفتى الشيخ بالجواز ورأى أن لبس القبعة إذا لم يقصد به الخروج من الإسلام والدخول فى دين غيره فلا يعد مكفراً ، وإذا كان اللبس لحجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه وتيسير مصلحة لم يكره ذلك . وقد أثارت عليه هذه الفتاوى حملات شديدة من الجهلة ومن خصومه السياسيين ، والثالث : يصلى الشافعية خلف الحنفية بدون تسمية ، ويصلون خلفهم العيدين فهل تجوز الصلاة ؟ ولم يكن لهذا السؤال ضجة كبيرة كغيره ، راجع تاريخ الأستاذ الامام ج ٣ ص ٨٤ ، ١٦٧ ، ٢٧٩ والجزء الأول ص ١٦٧ وتجد نص الفتاوى فى تاريخ ج ١ ص ٦٤٦ وما بعدها .

حينما أراد الخديو منح بعض رجال حاشيته (كسوة تشريفة) ، ولم يكن هذا المنح منسجما مع اللوائح ، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ أمر الخديو و إعطائها للمستحق ، ولما اجتمع العلماء لدى الخديو وأخذ يؤنب شيخ الأزهر على ذلك انبرى له الشيخ محمد عبده ، وطلب منه إذا أراد التنفيذ أن يغير اللائحة و ينسخ القانون السابق ، فاشتاط عباس غضباً ووقف إيذاناً للعلماء بالانصراف . وقد كان لهذا كله أثر فى الحملات الشديدة والمكايد التى دبرها عباس للشيخ ، و إيعازه للصحافة بالتشهير به وانتهاز فرصة فتاويه الجريئة ورميه بالكفر والإلحاد ، وكلما هَمَّ الخديو بعزله من منصب الإفتاء صرح كرومر بأنه لا يوافق على عزله مهما كانت الأحوال ما دام موجوداً . كل هذا ومحمد عبده ماض فى مشروعاته الإصلاحية بالأزهر والمحاكم والأوقاف ، وكان الحزب الوطنى يناوئه و يحمل عليه بشدة لأنه كان يشايع الإنجليز و يتخذهم أعوانه ، وكان الإمام يرى أن مصطفى كامل مخطئ فى صلته بالخديو لأن عباساً لم يكن مخلصاً فى وطنيته ولا هم له إلا جمع المال و إيداعه بالمصارف الأجنبية خشية أن يعزله الإنجليز فجأة ، وقد قال محمد عبده فى وصف مقالات مصطفى كامل « إنها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد و بعضها خفيف » .

والحق إن التباين كان شديداً بين عقلية الإمام وعقلية الزعيم الشاب من حيث طريقة التفكير واتخاذ الوسيلة . ولا نستطيع أن ندافع عن موقف الشيخ محمد عبده من الإنجليز واعتماده عليهم إلا بأن الخديو هو الملوم فى ذلك ؛ لأنه لم يمكن هذا المصلح الكبير من السير فى إصلاحاته ، ولأنه أراد أن يلتهم مال الوقف بدون مبرر ، وفى مال الوقف قسم كبير جداً للأزهر ، وكلما حاول عباس أن يعبث به وقف له محمد عبده بالمرصاد ، وحب المال ضعف بشرى عام ، وكان فى عباس أضعف شىء فيه ، ولكن دفاعنا هذا لا يبرر لجوء الشيخ إلى خصوم وطنه وخصوم دينه مهما كان الإصلاح المنشود وقيمته ، وما كان له أن يستعين بهم حتى ولو ظل الأزهر على ما هو عليه ، وهل بعد هذه التضحية استطاع أن يصلح الأزهر ؟ كلا ! وقد اعترف بإخفاقه .

ولكن هل تقضى هذه الزلة السياسية على كل ما لمحمد عبده من مجد ؟ اللهم لا ،

فقد شاركه فى رأيه السياسى حينذاك كثير من زعماء الأمة كسعد زغلول ، وفتحى زغلول ، وحسن باشا عاصم ، ومحمود باشا عاصم ، ومحمود باشا سليمان ، وسلطان باشا وغيرهم ، إلا أنه تعرض للهجمات أكثر منهم ؛ لأن الخديو رأى فيها قوة واعتداداً بالنفس ، وعقبة فى سبيل مطامعه فألب عليه العلماء الرجعيين والصحافة المأجورة هزلية وجدية .

وأخيراً اضطر محمد عبده إلى الاستقالة عقب خطبة ألقاها عباس عند توليته الشيخ الشربينى مشيخة الأزهر ، وهى تدل على عظم حنقه وسخطه على محمد عبده وتعريضه به .

وجاء فى هذه الخطبة : « إن الأزهر أسس على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر الدين فى مصر وجميع الأقطار العربية ... ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ولكن من الأسف رأيت فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل ... وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر والشغب بعيداً عنه ، فلا يشغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنها مدرسة دينية قبل كل شىء » ثم ذكر أنه قبل استقالة السيد على البيلاوى رعاية لصحته ، وأنه مستعد لقبول كل استقالة من سواه وممن « يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال » ويرى أن مثل هذا الشخص يجب أن يكون بعيداً عن الأزهر .

لم يكن محمد عبده صنيعة الإنجليز ، أو ممن يتناولون أجراً منهم ، أو ممن يستعدونهم على قومهم ، ويشجعونهم فى أطماعهم الاستعمارية[1] ، وإنما كان يرى أنه مصلح ولا بد له من عضد يسنده فى إصلاحه ويشجعه على السير به قدُماً فى طريق الكمال ، ولم يجد فى عباس هذا العضد ؛ لأنه كان مشغولا بنفسه وبجمع المال وبأهوائه الخاصة ، فلجأ إلى الإنجليز ، وهذا اجتهاد منه أخطأ فيه بيد أنه لا يطوح بكل ماضيه وآرائه ، فالعظيم لا يُنظر إليه من ناحيه واحدة بل لا بد من رؤية جميع خصائصه وميزاته ، وقد كان محمد عبده إماماً فى الإصلاح الاجتماعى ، ورائداً فذاً من رواد النهضة الفكرية .

---

(١) كما فعل سلطان باشا ، وعمر لطفى ، وكان يكرههما لموقفهما هذا .

لقد كان ممكناً أن يلتقى عباس ومحمد عبده ومصطفى كامل[1] ، وينهض الثلاثة بمصر وبالإسلام وبالشرق العربى كله ، ولكن لم يتم هذا ، كما لم يتم اجتماع محمد على والسيد عمر مكرم ومحمد بن عبد الوهاب من قبل ، واضطهد محمد على الزعيم الروحى لمصر عمر مكرم والمصلح الدينى الكبير محمد بن عبد الوهاب وحاربه فى نجد ، وهكذا تكررت المأساة على يد أحد أحفاده بعد خمسين سنة .

وفاته :

استقال محمد عبده من الإفتاء وقد آمن بعجزه عن إصلاح الأزهر عجزاً تاماً ، ولم يلبث بعد ذلك مدة وجيزة حتى أحس بالمرض ، فعزم على السفر إلى أوربا طلباً للشفاء ، ولم يحل مرضه بينه وبين ما يقوم به من أعمال جليلة فى مجلس الشورى وفى الجمعية الخيرية الإسلامية وامتحان دار العلوم ، وإعداده مشروع القضاء ، وإعداد مشروع الجامعة المصرية ؛ بيد أن المرض ألح عليه . واختلف فيه الأطباء ، هل هو المعدة ؟ أو الكبد ؟ ثم ظهر أنه السرطان الذى مات به من قبل أستاذه جمال الدين ، فأشاروا عليه بعدم السفر وفى يوم ١١ من يوليه سنة ١٩٠٥ انطفأ هذا المصباح الوهاج عن ست وخمسين سنة برمل الإسكندرية ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً ، وكان حفلا رائعاً لم تشهد مصر مثله من قبل وكان عباس متغيباً عن مصر ، فلما عاد وسمع بعظم الحفل واشتراك الحكومة فيه أنب كل من أسهم فى هذا .

أثره فى النثر :

لا نريد أن نتعرض هنا لآرائه الاجتماعية والسياسية والخلقية بالتفصيل ، وقد مر بنا ما يعطينا عنها فكرة واضحة ، وإنما الذى يعنينا حقاً هى آثاره فى الكتابة والنثر . وقد

(١) كان مصطفى كامل يعتمد أول الأمر على عباس مالياً فكان من دعاته ، ولعل هذا مما عاق اتصال الشيخ بالزعيم الشاب ، وروى رشيد رضا « أن الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل التقيا على باخرة حملتهما إلى أوربا وقال الزعيم للامام : إذا قبلتنى من مريديك فإن خدمتك للاسلام ومصر تكون مضاعفة وأهدى له كتباً بالفرنسية وأخذ يزوره بعد عودته إلى مصر ولكن الاتصال لم يدم بينهما » كما أن مصطفى كامل قد قطع صلته بعباس بعد ذلك .

عرفنا أنه ابتدأ يكتب فى الصحف ، وهو بعد طالب فى الأزهر ، وقد طرأ على أسلوبه الكتابى تغيير كثير منذ المقالة الأولى التى أرسلها لجريدة (الأهرام)[1] حتى انتقل إلى جوار ربه ؛ ولمحمد عبده أثر عظيم فى النثر العربى سواء فى أسلوبه هو وجعله مثلا يحتذى ، أو فى الأعمال الجليلة التى قام بها لخدمة النثر والكتابة :

١ — أما أسلوبه فنراه يعنى به عناية زائدة ، وإذا قرأت ما كتبه فى جريدة الأهرام تجده متأثراً بالكتب الأزهرية وخاصة ما ألف فى الفلسفة الإسلامية من حيث الموضوع وطريقة علاجه ، وتجده كذلك لا تفوته سجعة ، وإن تكلف فى سبيلها المشاق ، ويقدم لموضوعه بمقدمات طويلة تجهد نفس القارىء وتسئمه . وهاك مثلا على هذا الأسلوب من مقالة (الكتابة والقلم) : « ولما انتشر نوعُ الإنسان فى أقطار الأرض ، وبَعُد ما بينهم فى الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب فى شئونهم ، مع تنائى أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذّاك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدئ المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد الغريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام ... فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم » .

وهذا النوع من النثر قد وفيناه بحثاً فيما سبق .

ثم لما اتصل بجمال الدين ، ورأى منه قدرته على تصريف المعانى ، وعلى ابتداع أفكار جديدة وقرأ معه بعض كتب الفلسفة والمنطق ، وخاض فى الموضوعات الاجتماعية والسياسية تدفعه إلى الكتابة عاطفة جياشة وشباب فَتِىٌّ ، وأثرٌ متقد من نفس أستاذه جمال الدين لم يجد وسيلة إلا أن يتخلص من السجع والكلف به وأن يتجنب المقدمات الطويلة ، وأن يرتب الموضوعات ترتيباً منطقياً ، ويكثر من استعمال الأقيسة والبراهين ، ويقلب الفكرة على شتى وجوهها ؛ وترى فى كلامه قوةً وحرارة إيمان بما يكتب ، وهذا النوع من النثر

---

(١) العدد الخامس الصادر فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦

يتجلى فى مقالات (الوقائع المصرية) . وقد تدرج فى إصلاح أسلوبه حتى اشتد وقوى ، ثم بلغ درجة عظيمة من المتانة ، وبرزت فيه هذه المزايا التى ذكرنا فى مقالات (العروة الوثقى) ، فمن نثره فى الوقائع المصرية قوله فى التربية بالمدارس : « من المعلوم البيِّن أن الغرضَ الحقيقىَّ من تأسيس المدارس والمكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكِّنُ المتربى من نيل كمال السعادة أو معظمها ما دام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تُحْدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجيةً لها ، أى يكون لنور العقل نفوذ تام يفضل بين طيبات الأشياء وخبائثها » .

وهو أسلوب المصلح الاجتماعى وقد عرفت خصائص هذا النوع من النثر قبل ، ولم يكن يعمد فيه الشيخ محمد عبده إلى تفخيم الألفاظ وانتقائها ، وحبك الجمل واستوائها ، وقد يستعمل أحياناً كلمات عامية أو دخيلة للتعبير عما يريد إذا لم تسعفه الكلمة العربية .

أما مقالات (العروة الوثقى) فقد مرت بك نماذج كثيرة منها فلا داعى لذكر جديد .

ثم مرن أسلوب الشيخ محمد عبده واشتد قلمه ، من كثرة ما كتب ، وما تناول من موضوعات وما تأثر به من تجارب وقراءة ، وبلغ أسلوبه غايته فى مقالته التى يرد بها على (هانوتو) ، وكان وزيراً لخارجية فرنسا ، وقد بحث فى كلمته الأسباب التى تدعو المسلمين إلى النفور من الحكم الأجنبى ، وهل من وسيلة لتحبيبهم فى فرنسا ؟ وإذا لم تفلح الوسائل فلا مناص إذاً من إبادتهم أو إجلائهم عن ديارهم حتى يخلو الجو لفرنسا . وقد تعرض للإسلام ولماذا كان المسلمون غير مسيحيين ؟ ، ووازن بين الإسلام والمسيحية ، وتعصب لدينه ، ونشرت جريدة (المؤيد)[1] مقالته فرد عليه الشيخ محمد عبده رداً مفحما تجلت فيه نصاعة الفكرة ، وصدق العاطفة ، ومتانة الأسلوب ، وقوة الحجة ، وسلامة البرهان ، مع بساطة

---

(١) تاريخ الإمام ج ٢ ص ٣٨٢ ، مقال هانوتو ص ٣٨٢ — ٣٩٥ ورد محمد عبده عليه ص ٣٩٥ — ٤١١ انظر التفاصيل فى تاريخ الإمام ج ١ ص ٧٨٩ وما بعدها .

فى التركيب ، وسهولة فى الألفاظ وطالت المساجلة بين (هانوتو) والشيخ محمد عبده ، وانتصر فيها الإمام انتصاراً بالغاً وكانت من الأسباب التى مكنت له مقامه بمصر بعد عودته من المنفى ، ووضعته فى مركز الصدارة من مفكرى الأمة والذادة عن الدين .

ويقول فى إحدى هذه المقالات : « إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها عدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة » .

هذا ولم يعن محمد عبده بأسلوبه فحسب بل حاول أن يحمل الكتاب على العناية بكتاباتهم وله فى هذا المضمار ، وفى النهوض بالكتابة آثار منها :

١ — مكن له منصبه فى الوقائع المصرية من الإشراف على الجرائد والمجلات ومراجعة ما يحرره كتبة الدواوين فى شئون الحكومة ، وقد مر بك كيف أنذر صاحب إحدى الجرائد بالتعطيل إن لم تغير أحد كتابها أو تحمله على تحسين أسلوبه ؛ وقد التف حوله فريق من طليعة كتاب مصر والشرق ، وأفسح لهم فى الوقائع المصرية ، يدبجون المقالات الاجتماعية والأدبية والسياسية بإرشاده . وكان يرى أن اللغة العربية هى أساس الدين[1] وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال[2] .

٢ — وفى بيروت شرح نَهْج البلاغة ليسهل على الناس قراءته والإفادة منه ، وشرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ونشرها حتى تكون زاداً يتغذى به طلاب الأدب ، ومن ينشدون قوة الأسلوب وسلامة التعبير .

ولما عاد إلى مصر كانت دروسه فى البلاغة تختلف عن تلك الكتب التى أفسدتها عجمة مؤلفيها ، واختار من كتب البلاغة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وكان السبب فى نشرها لينتفع الناس بهما ، وقد نشرهما المنار .

---

(١) تاريخ الإمام ج ٣ ص ٢٥٩ (٢) المنار ج ٨ ص ٤٩١

٣ — وأنشأ جمعية لإحياء الكتب العربية نشرت المخصص لابن سيده ، وفى نشره تيسير على طلاب اللغة ؛ لأنه من معجمات المعانى ، فقد يكون بذهنك المعنى ولكن يُعوزُك اللفظ المعبر عنه فتلتمسه فى المخصص وفى أمثاله من المعجمات ؛ وقام بتصحيح المخصص العالم اللغوى الشهير الشيخ محمد محمود الشنقيطى وقد حماه الشيخ محمد عبده ، وشجعه على الإقامة بمصر ، ولولاه ما بقى[1] . كما شرع فى طبع الموطأ للإمام مالك بعد أن جاء بنسخ خطية له من تونس وفاس وغيرهما[2] .

٤ — وعهد إلى الأستاذ سيد بن على المرصفى فى تدريس كتب الأدب بالأزهر أمثال الكامل للمبرد ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، وكانت هذه الدروس غريبة عن الأزهر ولا عهد له بها ، وقد تتلمذ على المرصفى عدد كبير من أدباء مصر البارزين اليوم أمثال المنفلوطى ، وطه حسين ، والزيات ، والزناتى وغيرهم فهم أثر من آثار توجيهه وإرشاده .

وبهذه الوسائل استطاع محمد أن يقدم للنثر العربى خدمة جليلة ، ويوجه الكتاب إلى العناية بما يكتبون ، غير مقيدين بذلك السجع السخيف ، ومنصرفين إلى المعانى وتفتيقها ودراسة الموضوع دراسة جيدة تفيد القارئ ، وتجدى على الأمة .

هذا ما كان من أثره فى النثر ، ولا يسعنا ونحن نختم هذه العجالة عن محمد عبده إلا أن نقرر أنه أيقظ فى مصر الشعور الدينى ، والرغبة فى الإصلاح الاجتماعى ، وأن الأولى بالمسلمين أن يعتمدوا فى الإصلاح على أنفسهم ، ويدعوا الفخر بماضيهم ؛ ودعا إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل . كما دعا إلى الاجتهاد ، وعدم الوقوف بالتشريع وبمسائل الدين عند الحد الذى قرر من قرون عديدة ، وذلك لكى نواجه المسائل الجديدة بتشريع دينى سليم قبل أن نغلب على أمرنا . وكان يرى أن أكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر مقوم للأخلاق ومهذب لها هو الدين ، والدين الإسلامى لحسن الحظ يتمشى مع العقل ، ويحض على مكارم الأخلاق ، ويفسح صدره للعلم .

لقد خلف محمد عبده تلاميذ بررة تأثروا بتعاليمه وظلوا ردحاً طويلا من الزمن

---

(١) بروكلمان ج ١ ص ٣٠٩ (٢) المنار ج ٨ ص ٩٤١

يفتخرون بانتسابهم إليه و بالأخذ عنه ، ومنهم سعد زغلول ، وحافظ إبراهيم ، و إبراهيم المويلحى ، والهلباوى ، ومصطفى صادق الرافعى بمصر ، و إبراهيم اليازجى ، وأحمد الحمصانى بسوريا وعدد كثير سواهم ممن حملوا لواء الإصلاح بعده وكان لهم الأثر البالغ فى أوطانهم ونهضتها ، و إن كان قد صبغهم فى أثناء حياته بطابعه السياسى الخاص ، ووجه ميولهم صوب الإنجليز ، فهادنوهم ، وتعاونوا معهم فى كل شىء ، فلما توفى الشيخ محمد عبده أسرع بعضهم إلى جبهة الوطنيين مثل حافظ ابراهيم ، وتأخر الزمن قليلا ببعضهم عن ذلك المضمار ولكنهم ما لبث بعضهم أن صار زعيم الوطنية بمصر كسعد زغلول .

٣ — عبد الله نديم :

أعجوبة من أعاجيب عصره ، يقف وحده فى كل ما تميز به من سجايا ، لا يدانيه فيها امرؤ من أهل زمانه ؛ و يخيل إليك وأنت تقرأ سيرته أنك أمام رجل من رجال الأساطير ، يروعك بذكائه الخارق ، وقوة عارضته ، ومتين حجته ، وشجاعته الفائقة ، و بحياته المليئة بالأحداث ، و بما بلغ من شهرة ، و بما حارب من أبطال ، و بما أفزع من دول ، ولم يكن فى حسب جمال الدين وعلمه ، ولم يدرس ما درس محمد عبده و إنما نشأ فى بيئة فقيرة[1] ؛ فعانى البؤس وشظف العيش ؛ ولكن الله الذى يهب العبقرية لمن يشاء ، أودع حظاً كبيراً منها فى رأس عبد الله نديم ، وزوده بنفس شجاعة ، و يد سخية ، وكانت هذه الخلال رأس ماله الذى واجه به الحياة ، وقد استطاع أن يسجل اسمه لامعاً فى سجل الخلود .

دراسته وتجاربه :

لم يرق لعبد الله العلم الذى وجده بمسجد الشيخ إبراهيم باشا ، وهو علم شبيه بما كان

---

(١) كان أبوه مصباح إبراهيم نجاراً فى أول أمره ، ثم خبازاً ، ويحصل من مخبزه على الكفاف من العيش : ويعول أسرة كبيرة العدد ، يعيش فى مسكن متواضع . وقد أرسل ابنه عبد الله إلى المكتب ثم إلى مسجد الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية ، وغاية ما يرجوه منه أن يتعلم قليلا ثم يعود إليه ليعاونه فى مهنته .

يدرس فى الأزهر حينذاك ، ووجد فى جفاف العلوم ، وعقم الطريقة ، ورداءة الكتب وركاكة عبارتها ما نفره من الأزهر المصغر ؛ وحُبب إليه نوع آخر من الدراسة تهواه نفسه ، وينسجم مع ما أودع فيها من مواهب ، فغشى مجالس الأدباء ، يسمع شعراً وزجلا ، ونوادر وقصصاً فتهتز نفسه طرباً ، ويتمنى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء أو الزجالين ؛ وكانت له ذاكرة حادة تلتقط كل ما تسمع فوعى كثيراً .

وقد كان لهذا أثر كبير فى حياته الأدبية ، ولا سيما وقد خالط أبناء الطبقة الفقيرة وجمهرة الشعب ، ووقف على عاداتهم وأمثالهم ونوادرهم وظرفهم وسرعة بديهتهم ، فتأثرت بذلك نفسه الحساسة ، وذوقه المرهف .

ولكن هيهات أن يرضى أبوه بهذه الدراسة غير المنتظمة وهو رجل يكد ويتعب لينال الكفاف وكان يؤمل أن يرى ابنه عالماً كبيراً كهؤلاء الذين يرى الناس يقبّلون أيديهم ، أو على الأقل يساعده بما تعلم من حساب ولغة ، فلما بدت هذه النزعة نفض منه يده ، وأخذ عبد الله يعول نفسه ، وتعلم فن الإشارات (التلغرافية) ، وأتيح له بعد أن أتقن هذا الفن أن يشغل وظيفة بقصر والدة الخديو إسماعيل بالقاهرة ، فشاهد الغنى والجاه ، وألواناً من الحياة والعيش لم يرها من قبل ؛ شاهد العز فى أوجه ، كما عرف الفقر فى أبشع صورة من قبل .

وعاوده بالقاهرة حنينه إلى مجلس الأدباء والشعراء ، فصار يجد فى البحث عنهم ، فتارة يذهب إلى الأزهر ، ويطلع على ما أخذ رفقاؤه [1] ، وأحياناً يغشى منازل الأدباء ويتعرف عليهم ويستفيد منهم ، فتوثقت صلته بالبارودى ، وعلى أبى النصر ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، ومحمد بك سعيد بن جعفر مظهر باشا الشاعر الناثر . وعبد العزيز بك حافظ [2] ، وغيرهم من الأدباء أو محبى الأدب ، فاتسعت

---

(١) وكان من رفقائه الخلصاء الشيخ حمزة فتح الله .

(٢) وقد دبج عبد الله نديم مقالا فى هؤلاء الأدباء أثنى فيه عليهم ووصف كلا منهم ببعض النعوت والمدائح ، راجع سلافة النديم ج ١ ص ٢٤

ثقافته الأدبية بهذا الاختلاط ، وعرف مزايا كل منهم ، ووقف على فنه ، وشاركهم فى مجالس أنسهم وطربهم ومطارحاتهم فأضاف إلى خزينة أدبه ما وعاه فى هذه المجالس من طرف وملح ورواية .

ولكن مقامه بالقاهرة لم يطل ؛ إذ زل قلمه وهو فى الوظيفة فأغضب خليل أغا[1] المشرف على القصر ، وناهيك به فى ذاك الوقت جباراً ، لا يرد له أمر ، وبذلك فقد عبد الله وظيفته ، وضاقت عليه القاهرة بما رحبت ، فضرب فى البلاد هائماً على وجهه حتى وصل إلى (بداوى) بمديرية الدقهلية ، وأخذ يعلم أبناء عمدتها القراءة ، ولكن هذا العمدة ضن عليه بالأجر ، فثارت ثائرة عبد الله نديم ، وأخذ يصوغ فى هجاء هذا العمدة ألواناً مقذعة من الهجاء كانت أول ما عرف من أدبه ، واكتشف فى نفسه أديباً ذا سطوة فى القول ، حاد اللسان عنيف الخصام ، حاضر البديهة .

ثم نراه فى المنصورة يتجر فى (العصائب) ويجمع حوله الأدباء والشعراء فأكل الربح ورأسَ المال الذى جاد به عليه أحد الكرماء ، ووجد نفسه بعد مدة فى دكان مملوء بالشعراء خلو من السلع ؛ فهام على وجهه مرة أخرى بالبلاد حتى وصل إلى طنطا إبان مولد السيد البدوى واتصل بشاهين باشا كنج[2] ، وكان رجلا ذا جاه يجمع حوله الأدباء والظرفاء ،

---

(١) وهو خصى كان ذا حظوة عظيمة لدى إسماعيل وأمه ، وكانت إشاراته حكم وطاعته غنم كأنه كافور الأخشيدي أو يزيد .

(٢) وقد وقع له مع شاهين باشا حادثة تدل على مبلغ بديهة عبد الله نديم واستعداده الأدبى فقد قال هو عن نفسه : « كنت بمولد السيد البدوى ومعى السيد على أبو النصر والشيخ حلاوة وجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهم لا نتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا ، وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً إلى أن جاء دورهما إلى فقال أحدهما يخاطبنى .

أنعم بقرشك يا جندي ... وإلا اكسنا أمال يا أفندى
إلا أنا وحياتك عندى ... بقى لى شهرين طول جيعان

فقلت على سبيل المزاح :

أما الفلوس أنا مديشى ... وأنت تقول لى ما امشيشى
يطلع على حشيشى ... أقوم أملص لك لودان

ولما بلغ شاهين باشا ذلك وأني غلبت هؤلاء الأدبية ، طلب شيخهم ، ووعده إن غلبونى يعطهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين (سوطاً) ، واجتمع لذلك حشد من الناس كبير ، =

وله ببيته منتدى يضم أنماطاً شتى من ذوى اللسن والنكتة والفكاهة ، وقد مكث عبد الله نديم فى ضيافته مدة ينعم بكرم وأدب وراحة ، وكان واسطة العقد يبهر الناس بأدبه وطلاقة لسانه ، وسرعة بديهته ، وكان يتحداه الأدباء ، ويحاولون تعجيزه ، ولكنه بهرهم بمواهبه ، وقد روى أن بعضهم اقترح عليه أن يعارض دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثر مجد ... وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

وادعى المقترح أنه لا يتأتى لشاعر أن يعارض المتنبى فى قوله بهذه القصيدة :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بد

فقبل النديم التحدى ، وأنشأ قصيدة مطلعها :

سيوف الثنا تصدا ، ومقولى الغمد ... ومن صار فى نصرى تكفله الحمد

ومنها يعارض بيت المتنبى :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا ... يعارضه غر ويفحمه وغد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما ... لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وليس هذا شعراً صادراً عن عاطفة أو فكرة ، وإن هو إلا مهارة لسانية ، وإظهار لمقدرة كلامية ، وقوة عارضة ، وتوقد خاطر ؛ وأثر الصنعة والتعمل باد عليه ، ولكن الشعر فى عصر عبد الله نديم كان كذلك .

= وابتدأ كبيرهم فقال :

أول كلامى حمد الله ... ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبد الله ... قدام أميرنا وأسيادى

فقلت :

إنى أريد أحمد ربى ... بعد الصلاة على المختار
وإن كنت تطمع فى أدبى ... أسمعك حسن الأشعار

فقال : دعنا من الأدب المشهور ... وادخل بنا باب الدعكة
ندخل على أسيادنا بسرور ... ونغنم الخير والبركة

فقلت : هيا احتكم فى البحر وشوف ... فن النديم ولا فنك
ولوقت تسمع يا متحوف ... أحسن أدب وحياة دقنك

وهكذا استمر عبد الله نديم يساجل هؤلاء الأدباتية حتى أفحمهم ، وتجد ثبتاً لا بأس به بعجلة الأستاذ كتبه النديم بنفسه ، ونقله أحمد باشا تيمور فى كتابه (تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر)

ثم عاد إلى الأسكندرية فى سنة ١٨٧٩ ، بعد أن غاب عنها طويلا ووجد الأمور والأحداث قد بدلت حديث الناس وسموهم ، ولم يعد الشعر وروايته ، والأدب ودرايته هى ما يشغل المستنيرين بمصر عامة ، والأسكندرية خاصة ، وإنما كان يشغل الناس حينذاك إسراف إسماعيل وتهوره ، وتدخل الأجنبى فى شئون البلاد وتجبره ، ووجد بالأسكندرية جمعية سرية تسمى (مصر الفتاة) تنقد إسماعيل وأعماله صراحة ، وتعبر عن آلام الأمة وآمالها ، ووجد الصحف قد تغيرت لهجتها ، وصارت بفضل تعاليم جمال الدين ميداناً فيه الأقلام المرهفة الحادة على الظلم والعنفوان ، والاستبداد والقسوة ، وتطلب الشورى وإنصاف الشعب . ورأى عبد الله نديم أن هذا الأدب الجديد ينسجم مع نفسه فألقى بنفسه فى هذا التيار تيار السياسة القوى حتى صار من قواد الأمة السياسيين ، ورائداً من رواد الوطنية الأوائل ، فأخذ يغذى الصحف بمقالاته السياسية ، وحوّل هذه الجمعية السرية إلى جمعية علنية تعمل فى ضوء النهار ، وسماها الجمعية الخيرية الإسلامية ، وقد مر بك شىء عنها ؛ وكان من أغراضها تأسيس معاهد للعلم يربى فيها النشء تربية وطنية ، ويلقنون العلم بطرق حديثة تحببه إليهم ، وتغرس فى نفوس المثل العليا ، وتعودهم قيادة الأمة وإرشادها ، ولذلك عمد إلى تشجيع تلاميذ المدرسة على الخطابة ، فصاروا ينشئون الخطب بأنفسهم وهو يصلحها لهم ، ويزج بهم فى الحفلات يخطبون ، فتدرب على يديه فريق ممن يحسنون الكتابة ويجيدون الخطابة . ولم يكتف بهذا بل كان يؤلف روايات تمثيلية فى نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه أمام جمهور المتعلمين بالمدينة كرواية (الوطن وطالع التوفيق) و (العرب) ، وقد حضرها الخديو توفيق تشجيعاً ، ولقى نجاحاً ملحوظاً أثار عليه حسد بعض الناس .

ولم يلبث أن ترك الجمعية الخيرية ومدرستها حين ظهر بها خلل نسب إليه ، فتفرغ للصحافة وأنشأ جريدة « التنكيت والتبكيت »[1] ، يدبج فيها مقالات ظاهرها هزل وباطنها جد يصور فيها عيوب المجتمع المصرى تصويراً شائقاً بأسلوب تهكمى لاذع ، ويطلب من

(١) صدر أول عدد منها فى ٨ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ، ٦ يونية سنة ١٨٨١ م .

القراء أن يعاونوه فى تحريرها بقوله : « كونوا معى فى المشرب الذى التزمته والمذهب الذى انتحلته : أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية وأمثال أدبية وتبكيت ينادى بقبح الجهالة وذم الخرافات لنتعاون بهذه الخدمة على نحو ما صرنا به مُثَلَةً فى الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين أضلانا سوء السبيل » . وسنتعرض لنهجها وطريقة كتابته بها فيما بعد وحسبنا أن نقول الآن : إن أسلوب هذه الجريدة والموضوعات التى عالجتها ، والحرارة التى كتبت بها هذه الموضوعات ، والجرأة الأدبية التى تمثلت فى صراحتها وهجماتها على كثير من قلاع الفساد بمصر حببها إلى جمهرة القراء ، و بغضها إلى المنافقين وأدعياء الوطنية .

ثم قامت الثورة العرابية فى الظروف التى علمتها من قبل ، وصادفت هوى فى نفس النديم ؛ لأن مبادئها كانت تنادى بالإصلاح السياسى والاجتماعى الذى طالما دعا إليه فى جريدته ، ووجد الثوار أنفسهم فى حاجة إلى خطيب ذلق اللسان ، حاضر البديهة ، جياش العاطفة ، مصرى غيور على وطنه ، يكون لسانهم الناطق ، وداعيتهم المحبوب ، فلم يجدوا خيراً من عبد الله نديم فألحوا عليه حتى شايعهم فكان معهم كما أرادوا وزيادة ، وطلب منه عرابى أن يغير اسم جريدته[1] ويسميها (الطائف) تيمناً باسم طائف الحجاز ، وتفاؤلا بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب الشدياق .

وابتدأت الطائف قوية عنيفة اللهجة تنقد إسماعيل نقداً مراً ، وتشرح للناس كيف أسرف ، وكيف استولى على الأراضى ، وتصور بؤس الفلاحين فى السخرة — أيام إسماعيل[2] — والعذاب المهين الذى يصبه الرؤساء على الناس ويلهبون ظهورهم بالسياط فى سبيل الجباية ودفع الضرائب ، ويضيف إلى كل ذلك ما رآه بنفسه من مشاهد دامية ، وقلوب قاسية ، ورؤساء يزدادون غلظة طمعاً فى الترقية . وما لجأ عبد الله نديم إلى كل هذه

---

(١) وكان آخر عدد صدر من التنكيت فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ، وصدر منها ثمانية عشر عدداً .

(٢) لأن من حسنات رياض باشا الذى تذكر له أنه ألغى السخرة فى أوائل عهد توفيق كإقامة الجسور على النيل أيام الفيضان ، وحفر الترع من غير أجر ، وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين فى أرضهم بدون أجر فمنعهم رياض من ذلك منعاً باتاً فأثار حفيظتهم ، ولعل ذلك ما جعل محمد عبده ينظر إليه دائماً بأنه المستبد العادل الذى يجب أن يحكم البلاد خمس عشرة سنة حتى يصلح شئونها .

الموضوعات إلا ليبرز طلب الثوار الحكم النيابى ضماناً للعدالة ، وجبا للاستبداد وعهوده ؛ وطلب الثوار من وزارة الداخلية أن تعتمد الطائف لسانهم المعبر فوافقت على ذلك ، وصارت الطائف مقياساً لتطور الثورة ، فتارة تذم الأوربيين وتحمل عليهم حملات شعواء لتدخلهم فى شئون البلاد ، وآونة تصب نقمتها على توفيق ؛ لأنه مكن لهم فى مصر ، وغض الطرف عن ازدياد نفوذهم ؛ وكان النديم فى الطائف يدلس فى أخبار الثورة والقتال تهدئة للناس ، فيصور الهزيمة نصراً حتى تمت الهزيمة ، وأسقط فى يد الثوار .

ولم يكن الطائف وحده هو الذى يدعو إلى الثورة ويحرض عليها ، ويشجع الناس على التطوع والتبرع ، بل كانت خطبه المؤثرة وحماسته المتدفقة ، وقدرته على تصنيف الكلام ، ومخاطبة كل طائفة بالأسلوب الذى تفهمه ، من أشد العوامل على إشعال نار الثورة ، وازدياد لهيبها[1] . فلا بدع إذا جد فى إثره الطلب حين أخفقت الثورة ؛ إذ رأى فيه توفيق والإنجليز المحرض الأكبر للثوار ، وناشر آرائهم بقلمه ولسانه ، ولكنه اختفى من وجه السلطة فلم يعثر عليه ؛ لأنه كان يعلم جد العلم أنه لن يغفر له ذنب ، أو تقال له عثرة إذا أسر ، ولن يجديه الإنكار فتيلا فأقواله مأثورة ، وخطبه مشهورة ، والطائف خير شهيد ، وسيكون العقاب صارماً أليماً . لقد ذل كثير من كبار الثوار والتمسوا الرأفة وعلى رأسهم عرابى ، ولكن عبد الله نديم آثر التشرد والاختفاء على إحناء الرأس ، وذلة الطرف ، وهو إنما خاض الثورة عن إيمان وعلم .

وقصة اختفاء النديم وحيله التى ضلل بها السلطة ، على الرغم من المكافآت التى رصدتها لمن يأتى به ، جديرة بأن توضع فى رواية تمثيلية ، وستكون رواية غاية فى القوة ، لأنه أجاد التنكر إجادة يعجز عنها أمهر الممثلين اليوم فى بلاد (الخيالة) ، واسمعه يصف بإيجاز هذا التنكر الذى دام تسع سنين ، وهو بمصر لم يبرحها ، ويمرق من بين يدى رجال الحكومة ، وصنائع الإنجليز دون أن يدركوه ، أو يعرفوه : « خرجت من مصر مختفياً

---

(١) كان يخطب فى كل مجتمع فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الأفراح ، فما يكون مجتمع إلا ويطلع فيه عبد الله نديم خطيباً هو وجماعة من تلاميذه .

فدرت فى البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها ، من قولى إنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى ، وأصلح لحيتى إصلاحاً يوافق الدعوى أيضاً ، فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ؛ وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة — مثلا — وأبيضها فى بلد ، وأحمرها فى قرية ، وأسودها فى عزبة » وقد تغيرت الأسماء التى انتحلها[1] ، والناس فى عجب من أمره فالمقدرة مقدرة النديم ، ولكنه يختلف عنه فى الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جل من لا شبيه له ! !

وقد أتيح له من الفراغ وهو فى اختفائه هذا ما مكنه من مواصلة دراسته ، وشغل نفسه بالتأليف وقرض الشعر ، وقد ألف فى كثير من العلوم ، وفى هذا يقول من رسالة لصديق له

---

(١) فتارة اسمه الشيخ يوسف المدنى ، وتارة الشيخ محمد الفيومى ، وأحياناً سى الحاج على المغربى ، وكان إذا ادعى أنه مغربى تكلم بلسان مغربى محكم ، أو مدنى فكذلك . وادعى مرة أنه عالم يمنى ، وكان بالقرشية عند أحمد باشا المنشاوى ، وذاعت شهرته حتى بلغت رياض باشا — وهو الرجل الذى يطارده ويضع له الأرصاد فى كل طريق ، ويقف المال فى سبيل أسره إرضاء لتوفيق — فأرسل سعد زغلول ليسأله عن مثل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهمه ، فقابل سعداً على أنه عالم يمنى وفسره له .

وقد استعان على تضليل الحكومة بإشاعة سفره إلى خارج القطر على لسان صديق فرنسى كان يثق به ونقلت كل الجرائد خبر سفره هذا ، فصدقت الحكومة وعنفت رجال الأمن على إهمالهم وتمكينهم من الهرب ، وقد وجد عطفاً زائداً من كثير من الناس فأعانوه على الاختفاء ، وأمدوه وخادمه بالمال ؛ فقد أتى عليه مرة عيد أضحى وهو فى (برية المندرة) يسكن الحقول ، لا أحد معه إلا زوجته ، ولا يجد القوت الضرورى ويأتيه خادمه يشكو البؤس والفاقة ، وإذا برجل من أهل البر والمروءة يملأ بيت النديم قمحاً وعسلا وسمناً وثياباً من أطلس وحرير للزوجة وللخادم وزوجته .

ولكن مرت عليه مع ذلك أيام حالكة السواد ، مليئة بالمصائب ، فقد اختفى مرة فى قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير به ذبالة تملأ الحجرة دخاناً ، وقد مكث بهذا السرداب ستة أشهر وكان إذا أراد الكتابة صنع المداد من سناج السراج مع قليل من قرظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجناء كل هذا وهو صابر لا يشكو ولا يتململ . وكان فى أول أمره شديد الحنين لأمه وأبيه وأخيه لا يعرف ما صاروا إليه ، فلما خف عنه الطلب ، ويئست الحكومة من العثور عليه ، تمكن من الاتصال بأهله اتصالا منتظماً . وكان حريصاً على ما خلفه ببيته بالإسكندرية من كتب ومؤلفات ، ولكنها ضاعت بالسكة الحديدية حين وضعها أبوه فى صناديق وهو مهاجر من الثغر بعد ضربه بالمدافع الإنجليزية ، فلما اشتد الزحام بالقطار عمد رجال السكة الحديدية إلى التخلص من البضائع ليفسحوا المجال للناس فألقوا بهذه الصناديق المملوءة كتباً وهم لا يعلمون قيمتها عند عبد الله نديم .

« تارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم لله المنة ، وحيناً اشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً اشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع . . . وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة ، أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين ، وفى حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع » .

وانتهى به المطاف إلى بلدة (الجميزة) فعرفه عمدتها وكتم أمره ، ولكن أحد جواسيس الحكومة عرفه ، فوشى به طمعاً فى المكافأة[1] ، وأطبق عليه رجال الشرطة ، ولم يستطع النجاة بحيله المعهودة ، فسلم نفسه[2] ومن حسن حظه لم يفحصوا عن أوراقه ؛ إذ كان فى بعضها هجاء مقذع لتوفيق ، ولو تنبهوا لذلك لكان أمره غير ما عرفنا . ثم أرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان المحقق قاسم بك أمين فأكرمه وواساه وأمده بالمال من عنده ثم صدر أمر توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر ، فاختار (يافا) دار إقامة ، وطوف ماشاء له هواه فى فلسطين وعرف كثيراً من بقاعها[3] .

ولما مات توفيق وتولى عباس عفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر فرجع إليها سنة ١٨٩٢ وأنشأ جريدة (الأستاذ) فكانت صفحة مجيدة فى تاريخ الجهاد القومى ؛ لأن علاقة الخديو عباس بالإنجليز كانت سيئة أول الأمر ، وكان يجمع حوله الوطنيين وكبار المفكرين كما علمت آنفاً ، وأخذ النديم يناصر عباساً بكل ما أوتى من قوة ، وكان فى استطاعته أن يجنح للسلم

---

(١) كان ميعاد المكافأة قد انتهى فلم ينل المبلغ شيئاً .

(٢) كان اختفاؤه فى سنة ١٢٩٩ هـ والقبض عليه فى سنة ١٣٠٩ هـ .

(٣) وكان فى أول أمره يرتدى الثياب الإفرنجية المعلومة ، فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقباء واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف ، ولكن كثيراً من ذوى الخبرة ينكرون هذا النسب ، ولعل هذا الادعاء لشعوره بضعة نسبه فأراد أن يستره بهذه الصلة .

ويهادن الإنجليز ، ويعين فى أعظم المناصب بالمعارف أو الأزهر ، وهو كفء أديب ولكن أبت عليه نفسه العفّة ، ووطنيته المتقدة أن يلين لعدوه مهما كانت الأيام قد حاربته فى الماضى ، ولقى إبان اختفائه من عنت وآلام .

شهر قلمه فى وجه الإنجليز غير مبال بهم وبسلطانهم القوى بوادى النيل ، فأثار بذلك حفيظتهم وخافوا إن تركوه وشأنه أن يتسع الخرق ، ويفسد الأمر ويعيدها جزعاً ، فأوقفوا مجلته ، ورحلوه إلى يافا[٢] منفياً بعد أن منحوه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشترطوا عليه ألا يكتب شيئاً بشأن مصر ، ولم ينفعه الخديو ، ويحول بينه وبين النفى لأنه كان مغلول اليد والسلطة كلها بيد الإنجليز .

ولم يكن بيافا أسعد منه حظاً وهو بمصر ، إذ وشى به جماعة لدى السلطان عبد الحميد فأمر بإبعاده ، فعاد إلى الأسكندرية فى حيرة من أمره بعد أن لفظته بلاد الدولة العثمانية ، بيد أن الغازى مختار باشا تشفع له عند عبد الحميد حتى سمح له بالسفر إلى تركيا وهناك التقى بأستاذه الأكبر جمال الدين ، وكان كلاهما فى أسر وإن اختلف القفصان ، فجمال الدين فى قفص من ذهب ينسجم مع حسبه ومكانته ، والنديم فى قفص من حديد يليق بمقامه .

وعين النديم مفتشاً للمطبوعات وهى وظيفة اسمية تكفل له راتباً مقداره خمسة وأربعون مجيدياً ، وطبعى أنه لم يزاول العمل بمهنته تلك ، وهى أبعد الوظائف عن طبعه وحريته ؛ وفى الآستانة عادى أكبر قوة بها فى ذياك الوقت وهو أبو الهدى الصيادى[١] ولعله تأثر فى

---

(٢) وقد ودع قراءه فى آخر عدد صدر من مجلة الأستاذ فى ١٣ من يونية سنة ١٨٩٣ بكلمة مؤثرة قال فيها : ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت فالسلام عليكم

(١) الصيادى سورى من حلب فقير من المال والحسب دفعته المقادير إلى الآسانة ، وكان ماهراً ذكياً وسيم المحيا ، ماضى العزيمة استطاع أن يتغلب على السلطان عبد الحميد ويخضعه لمشيئة ، بأحلامه وتفسيراته والطرق ومشيختها ، وربط نسبه بأعلى نسب وادعى أنه قرشى هاشمى ، وحياته وأعماله تمثل دوراً هاماً أشبه بدور راسبوتين عند قياصرة الروس .

عداوته بجمال الدين ، وقد عرفت من أمرهما معاً بعض الشيء ، أو لعل الصيادى — وهو الأرجح — كان عدواً لكل حر كريم . ولم يعبأ النديم بسطوة الصيادى وجاهه وقدرته على الانتقام ، وهو رجل كانت له فى كل مكان عيون تنقل له الأخبار ؛ وقد اصطنع بمعروفه كثيراً من عظماء الدولة فهم طوع يديه ورهن إشارته ، وقد سخر كل ما بتركيا لخدمته وكم نفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على عبد الحميد فبالغ فى استرضائه . ولكن النديم لا يهمه الصيادى ولا عبد الحميد ، وأخذ يخوض فى سيرته بلسان حاد بذيء ، ووضع فيه كتابا سماه (المسامير) كله هجو مقذع فاحش لا يشرف الصيادى ، ولا يشرف النديم ، وحاول الصيادى أن يعثر على هذا الكتاب ، وهرّبه (جورج كرتشى) الذى كان متصلا بجمال الدين وعبد الله نديم إلى مصر ، ثم طبعه .

وأصيب النديم بالسل بعد ذلك بقليل ، واشتدت عليه العلة فمات فى الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ ، العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، ودفن بتركيا وهو فى الرابعة والخمسين من عمره .

آثاره ، وأثره :

ولعلك قد أدركت من هذه السيرة أن النديم قد جرب كثيراً من شئون الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، وخالط الفقراء والأغنياء ، وعاشر أصنافاً شتى من مختلف الأجناس وعرك الدهر حتى استحصدت مرته ، وقويت شكيمته ، وإنى أدعه يسرد تجربته بنفسه فستعيننا فى تعرف أدبه ، قال : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ماهم فيه من جهالة ، وممن يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جماً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وظيفتهم ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم ،

واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ماهم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة ؛ وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بقراءة الجرائد مدة ، واستُخدمت فى الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حينا ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء ، وكسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

ولو عاش النديم — مع تجربته هذه التى قلما تتاح لأديب ، ومع ذوقه المرهف ومواهبه العديدة وقدرته على التعبير — فى عصرنا هذا وعرف ألوان الأدب ، وفنونه ، واطلع على طريقة الغرب وأساليبه من قصة ومسرحية ، وأفكار ، لكان أديباً عالمياً ممتازاً تفاخر كل أمة بانتسابه إليها . ولكنه كان متعلقاً إلى حد كبير بأذيال الماضى ، يكتب بأسلوب مقيد بصنوف عديدة من الأغلال ، ولم تكن كنوز المعانى قد حطمت أغلاقها ولا ألوان الأدب الغربى العديدة قد عرفت ودرست . ومع ذلك فالنديم يعد فى الطليعة من رواد الأدب الحديث .

أما آثاره فيحدثنا أحمد سمير مترجم حياته ، بأن النديم « لما كان فى يافا أول مرة بعث إلى محرّراً يكلفنى به أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه المرحوم عبدالعزيز بك حافظ فلما قصدته وجدته مصاباً فى قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالا . ثم كتب إلى كتاباً ثانياً بأن ديوانه الأوسط عند « م . بك . ن » فطلبته منه ، فاعتذر بأنه ضاع ، فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل إلى فى مكتوبه الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براءة منهما ومن أمثالهما ؛ لأن فيهما هُجراً كثيراً وختم المكتوب بهذه العبارة : [قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً)] .

وهذه قصة تذكرنا بما كان من الشيخ على الليثى من قبل ، و بمكانة الشعر عند هؤلاء

القوم ، وفى الواقع إنه لم يكن شعراً بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، ولكنه كان كما ذكرنا من قبل نظماً تظهر به المقدرة على التعبير والمهارة اللسانية ، وتصريف الكلام وسنرى نماذج من هذا الشعر فيما بعد ، وقد بقى لنا قليل ينبئ عن نوع هذه الدواوين التى لم يعثر عليها .

أما نثره ، فقد كتب مقالات شتى فى التنكيت والتبكيت ، وقد وعدنا بالرجوع إليها لننظر فى موضوعاتها وقيمتها . وحسبنا أن نتصفح العدد الأول منها وقد حرره النديم بقلمه فنجد مقالات شتى تمس حياة الأمة وتعالج مشكلاتها .

فمقال عنوانه : « مجلس طبى لمصاب بالأفرنجى » ، وهى قصة شاب قوى الجسم سليم البنية ، جميل الطلعة ، لطيف الشكل ، نشأ تحوطه العناية وتكلأه الرعاية ، ويدلله أهله ويحمونه حتى لاتصل إليه يد عدو ، ولا حيلة محتال ؛ ولكن استطاع دجال ماهر أتقن فن الخداع والحيلة أن يتسلل إليه ، وأن يوهم أهله أنه من ذوى الورع والتقوى ، فأمنوا جانبه ، وأسلموه له ، فأخذ يعرضه فى الأسواق والطرقات وجلب له من الغوانى الحسان من تعارض الشمس بحسنها وتكسف البدر بنورها ، يغازلن أهله بنغمات تحرك الجبان ، فانصرف الأهل إليهن ، وتركوا مراقبة الفتى المليح ، فانفرد به ذلك المحتال الخداع ، وأغرى به الفتيات الملاح ، فتمنع حيناً ، وعصمه حياؤه وطهر نشأته زمناً ، ولكن رأى أن الإغراء شديد ، والخصم عنيد ، وأن لا قبل له بهؤلاء الشياطين ، ولا سيما وقد وجد أهله عاكفين على التزلف لهؤلاء النسوة ، والتدله فى حبهن ، فسار فى الطريق التى رسمها من قبل هذا المنافق الدجال ، فما هى إلا رشفة كأس حتى أصيب بالداء الأفرنجى (الزهرى) فاصفر لونه وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وفطن إليه بعض أهله فلما رأى مابه بكى وانتحب ، وأخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، ويلفظ الحسرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ، ويركبون الدواء عله يبرئه من علته ويقف سريان الداء ، وأقبل أهله متلهفين لسماع نصح الأطباء ورأيهم فيه فطلبوا إليهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم فى خدمته ، وتنظيف محله وتطهير أعضائه وحفظه حتى لا يقربه غريب ، ولا يمكن أجنبى من الوصول إليه فيفسد العلاج ، ويسعى

فى إتلافه أكثر مما صنع هو وقومه ؛ وأخذ أهله يعملون بمشورة الأطباء و يبذلون الجهد فى وقايته وصيانته .

وهذه قصة رمزية تصور ما كان من إصابة مصر على يد إسماعيل و إسرافه وتدخل الأجانب فى شئونها ، والمراقبة الثنائية ، وصندوق الدين ، وتصور كذلك ألم الناس من هذا المرض الأفرنجى ، وأملهم فى النجاة بسعى العقلاء وتفكير المستنيرين . وتوريته (بالأفرنجى) عن هذه المصائب التى حلت بالبلاد تورية بارعة .

وترى بالعدد الأول من التنكيت والتبكيت مقالا آخر بعنوان (عربى تفرنج) وهى قصة شاب من صميم الريف ، أبوه فلاح مسكين ، لم يستطع أن يعلمه ، بل تركه جاهلا يساعده فى حقله و يأكل البصل ، ولا يرى اللحم إلا فى العيد . ثم مر به أحد التجار فأغراه على أن يدفع به إلى المدرسة ولما أتم تعليمه بمصر أرسل إلى أوربا ، وعاد إلى بلاده متنكراً لأهله ، مستقبحاً عادات قومه ، مهجناً طريقتهم فى التحية ، مستفهماً بقحة عن اسم البصل الذى طالما أكله لأنه نسى الاسم العربى ، ولم يعد يتذكر إلا الاسم الفرنسى [1] ، ولما شكا أبوه إلى أحد النابهين قال له : « ولدك لم يتهذب صغيراً ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدّر شرف أمته ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ولا مزية الوطنية ، فهو و إن كان تعلم علوماً إلا أنها لاتفيد وطنه شيئاً » :

وهذا داء استشرى فى مصر بعد النديم ، وحاكى كثيرٌ ممن درسوا فى بلاد الغرب أوربا فى كل شىء حتى هجنت عاداتنا وتقاليدنا ، وفقد شبابنا كثيراً من مقومات الوطنية الصادقة ؛ و إن كانت هذه الفتنة قد ابتدأت تخف وتتنبه الأمة إلى التمسك بلغتها وعاداتها ومزاياها ، وتعتز بها .

و يلى ذلك قصة جماعة من الموسرين اجتمعوا فى بيت أحدهم ، ودخل عليهم فوجدهم

---

(١) وقد ساق النديم هذه القصة بطريقة الحوار بين هذا الشاب المغرور الذى أسماه (زعيط) وبين والده ، وذكر فيها كثيراً من الكلمات العامية حتى يعطى اللون الخاص الذى يريده ، وكان يذكر بطريقة تهكمية لاذعة هذه الكلمات الفرنسية التى يلوكها هذا الدعى مثل كلمة (بون أريفى) عند التحية و (أنيون) يريد البصل وهكذا .

مبهوتين صامتين لا يتكلمون ولا يتحركون ، ولا يرفعون أبصارهم ، فظن أول الأمر أن رب الدار قد رزئ بخطب فادح ، وقد أتت هذه الجماعة لتواسيه ، وعقد الحزنُ ألسنتهم ، وران على قلوبهم فتركهم واجمين ، ولكن خاب ظنه هذا ، فسأل هل ثمة معضلة عويصة عرضت لكم وأنتم تبحثون تقدم أوروبا فى الصناعات ، وانتشار تجارتها ، وكيف تصل مصر إلى هذه المنزلة ، فأجابوا بالنفى ، فقال : ربما تفكرون فيما يزيد ثروتكم ويعود بالنفع والخير عليكم وعلى أمتكم ، فقال رب الدار : هذا أمر لا يهمنا فإن البلاد إذا تقدمت أو تأخرت لا تفيدنا شيئاً أحسن مما نحن فيه ، وأما عن ثروتنا وزيادتها فعندنا من الثروة الكفاية ، وهكذا صار يسألهم وهو فى حيرة من أمرهم حتى اكتشف أنهم إنما اجتمعوا لتعاطى (الكيف) ، والمنبهات وغير ذلك ، وعللوا لاجتماعهم هذا بأن (الكيف) لا يُفرح إلا إذا تعاطاه الإنسان فى مجلس أنس . ويختم النديم هذه القصة التى سماها (سهرة الأنطاع) بقوله : « هكذا تكون حال من لم يتهذب صغيراً فإنه يخرج أسير شهواته بعيداً عن إدراك المعانى جباناً بليداً غبياً » .

ثم يتعرض فى كلمة أخرى لهؤلاء الذين يلتفون حول القصاص بالمقهى يسمعون قصة عنترة ويتجادلون ويتحزبون لأبطال القصة ؛ ولما رآهم القصاص منصتين إليه أخذ يفترى عبارات ينسبها إلى عنترة ، وكلمات يعزوها إلى عُماره ، وكل فريق يرشوه حتى ينتصر له بتلفيق كلام يصف فيه حزبه ، وأخيراً انتهت الليلة بأسر عنترة ، فقام من الجمع رجل قدم للقصاص عشرة جنيهات ليخلص عنترة من أسره فأبى ، فانهال عليه شتما وسباً ، وتذكر أن عنده قصة عنترة ولكنه أمى ، فذهب إلى ابنه قبيل الفجر وأيقظه ، وهوّل فى مصيبته التى لحقته تلك الليلة ، حتى ظن الولد أن أمه ماتت ، أو أحد إخوته توفى ، أو تجارة أبيه صودرت ، فلما علم أن الأمر يتعلق بعنترة أخذ يهون على والده الأمر ، ويصف القصة بالتلفيق والكذب ، فانهال عليه والده ضرباً بالعصا وطرده من البيت .

ثم يقص أمر المزارع والمرابى ، وقد ذكرناها آنفاً ، ويتبع ذلك بقصة غنى كبير بنى بيتاً واعتنى بأثاثه ورياشه ، ثم دعا فريقاً من أصدقائه لزيارته ، ولما وصلوا إلى المكتبة سأله

أحدهم عن الكتب التى يهواها ، فأجاب بما يدل على الجهل ، وأنه لا علم له بالكتب وما تحتويه ، وكل ما فى الأمر أنه زار أحد العظماء ووجد ببيته خزانة كتب ، عليها ستارة خضراء ، وبجانبها منفضة من الريش ، والخادم يمسح زجاج الخزانة كل يوم فظن أن هذا طراز جديد فى تأثيث البيوت فحاكاه فيه دون أن يعرف شيئاً عن الكتب وما تحتويه فدل على عظيم جهله وعلى أن التقليد الأعمى مضر بالإنسان مزر بمكانته .

أجل ! ضم العدد الأول من المجلة كل هذه الموضوعات التى تصور عيوباً شائعة لا يزال بعضها فاشياً ، وتصف الدواء لهذه العلل الاجتماعية ، ولكن بأسلوب الوعظ والإرشاد ، وإن كان ممزوجاً بكثير من التهكم اللاذع والسخرية المرة ، والكلمات القارصة ؛ وقد فطن النديم إلى أن التعليم والنقد من طريق القصة يحمل القارئ على متابعة القراءة ، ويرى مصير أشخاص القصة فيتعظ بهم ، وبذلك يجدى النقد ويؤتى ثمرته ، ولذلك أكثر منه . ولم يضع هذه القصص فى عبارات منمقة مزوقة بليغة متخيرة الألفاظ ، ولكن ساقها فى أسلوب سهل وكثيراً ما عمد إلى اللغة العامية يعبر بها عن مراده ، لعلمه أن فى الناس الجاهل والعالم ، والعامة والخاصة ، ولكلٍ أسلوب يلائمه فموضوع « الداء الإفرنجى » موضوع سياسى رمزى لا يفهمه إلا الخاصة ولذلك صيغ صياغة أدبية بلغة سليمة . أما موضوع المرابى والمزارع ، وموضوع سمّاعى القصص فمكتوبة للعامة ؛ ولذلك لجأ إلى اللغة العامية يعبر بها حتى يفهمها هؤلاء فيتعظوا .

إن النديم فى هذه الموضوعات قدير على الحوار ، وتراه يبالغ حتى يستفز شعور القارئ ، ويجعله يشمئز من هؤلاء الجهلة الذين يصور حالتهم ، وتراه كذلك يستنفد المعانى ويستقرئ الأسباب ، حتى يكون الحكم ، أو النهاية بالغةَ العظة . ولو فطن النديم إلى المسرحية الهزلية وصور هذه الشخصيات فيها لكان (موليير) العرب ؛ لأن عنده المقدرة على التصوير ، وخلق الشخصيات والتهكم عليها والمبالغة فى تبشيع المثالب والعيوب ، وهذه كلها تعِدُّه لأن يكتب مهزلة متقنة .

ومن الموضوعات التى كتب فيها بمجلته فيما بعد موضوع الخطابة ، وأثرها فى تاريخ

الإسلام ، وفائدتها فى تهذيب الشعب وتربيته ، ورأى أن خطب الجمعة ميتة لا تمت إلى الحياة التى يحياها الناس بصلة ، تتكلم فى أمور بعيدة عن مشكلاتهم الاجتماعية والخلقية والسياسية كل البعد[1] ، واقترح أن يحضِّر خطب الجمعة فئة من ذوى الفكر السديد والرأى الرشيد ، وتوزعها الحكومة على خطباء المساجد ، وتبرع هو فوضع نموذجاً لخطبة منبرية ، ضمنها الحث على الاهتمام بشئون البلاد والمحافظة على حقوقها ، والدعوة إلى الائتلاف للتغلب على الخصم الأجنبى ، وعلى الأخطار التى تحدق بالوادى ، والاتحاد بين المسلمين والأقباط ، والتذكير بمجد مصر السابق ، ومعاملة الأجانب بالحسنى حتى لا تتخذ سوء معاملتهم ذريعة للتدخل الأجنبى ، وغير ذلك من الأمور التى يرى أن الحاجة ماسة إلى التكلم فيها لأول عهد توفيق ، ومن قوله فى أثر الخطابة وفائدتها :

« ألسن الخطباء تحيى وتميت ، حكمةٌ إذا عقلت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن . وكانت الخطابة فى الأعصر الخالية غير معلومة إلا فى أمتى العرب واليونان فكانت ساحتها فى جزيرة العرب عكاظاً ، ومنابرها ظهورَ الأبل ، وهذه الساحة كانت معرضاً للأفكار تجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء وأمم كثيرة من المجاورة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف ردائه ، وينثر على الأسماع درراً وبدائع ، ثم يباريه آخر ويعارضه غيره فتتضارب الأفكار وتتنبه الأذهان ، وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ، ويرجع كبار القبائل وأمراؤها لما يشير إليه الخطيب إن صلحا وإن حرباً ، ولم يقتصروا فى خطاباتهم على مسائل الحرب والصلح ، بل كانوا يخوضون بحار الأفكار فلا يتركون ملمة إلا شرحوها ، ولا يذرون فضيلة إلا حثوا عليها ؛ حتى إنهم كانوا يحفظون أسماء الحكماء منهم وأهل المآثر فيذكرونهم فى هذا المعرض إحياء لتذكارهم وتخليداً لأسمائهم ؛ لئلا يجهل الآتى سيرة الماضى فتفتر الهمم ، وتخمد الدماء وتتغير الطباع » .

---

(١) من العجيب أن تسعين فى المائة من خطباء المساجد اليوم لا يزالون على الحال التى وصفها النديم وخطبهم بعيدة جداً عن التأثير ، لأنها لا تمس الحياة فى صميمها ولا تعالج مشكلات الناس ، وكل جمعة أحس بضيق وحرج من جراء ما أسمع من خطب ميتة .

٣ — وأما مقالاته بالأستاذ فكانت صرخة أخرى مدوية حاول بها إيقاظ مصر كى تتنبه لما يحدق بها من أخطار ، وعالج فى هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال أحد من قبل : فتراه يتكلم عن التعليم وأثره فى الحضارة والعمران وما يجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الخلقية ويعدد هذه المثالب ويبين أثرها فى تأخر الأمة ، ووتارة يحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان ، والتنكر للأجانب مهما كان شأنهم ، والتحذير من غواياتهم ، وهو أول من من دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لا لتركيا ولا للأوربيين ، فكانت لفتة وطنية لا تخرج إلا من قلب عامر بحب بلاده ، ولاسيما فى ذلك الزمان الذى لم تفكر فيه أية دولة عربية فى هذا المعنى ، وإنما كانت الفكرة الوطنية عندها عاطفة غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا ، ولم تكن الفكرة جلية — كما يجب — عند النديم ، ولكنها خطرات الوطنى المتحمس جعلته يفكر مثل هذا التفكير ، وإن كنا نراه أحياناً يشايع الرأى السائد ، ويدعو للسلطان والالتفاف حوله من مثل قوله : « هذه يدى فى يد من أضعها ؟ ضعها فى يد وطنيّك ، واعقد خنصريكما على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، وإلا فقطعها خير من وضعها فى يد أجنبى يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهية ، يظهر لك سعيه فى صالحك وحبه لتقدمك ، ويرهبك بأوهام لا توجد إلا بينك وبينه ، ويغرك بدعوى انفراده بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمرائك للقصور ، وحكامك للجهل والظلم ، ويصور لك الأباطيل فى صورة حق يخدعك به ، ويحول أفكارك الشرقية إلى أفكار غربية تأخذها وتقول بها ، فتكون يدَه القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك وإذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك ونزع سلطة أميرك وسلطانك وأنت لا تشعر بشىء من هذا » .

وقد يفسر كلام النديم بدعوته للسلطان والحض على الولاء له ، بأنه ولاء دينى ، بينما الولاء لأمير البلاد ولاء وطنى ، وهذا هو ما أرجحه ، فإن النديم اشتهر بدعوته الجريئة (مصر للمصريين) ولم يسبقه إليها أحد وإذا تعارض الدين والوطنية ، فضل الوطنية على

الدين ؛ لأن جاذبية الوطن عنده أقوى من جاذبية الدين ، ويعلل لذلك تعليلا فلسفياً فى مقالة نفيسة بالأستاذ هى (تجاذب الجنسيات والأديان) يقول فيها : « لو وقعت حرب بين عربي وعجمى تماثلا دينياً هربت الطباع إلى الجنسية فترى عربياً فى أقصى الأرض يفرح بانتصار مثيله على العجمى والعكس بالعكس » ويعلل لاتحاد الأقباط والمسلمين بمصر ومحبة كل فريق للآخر بقوة الرابطة الجنسية ، فإن كثيراً من مسلمى مصر أقباط أسلموا ، فنداء الدم بليغ وفى هذا يقول : « وأقرب الأماكن إلينا مصر التى نحن فيها ، فإنها بلاد إسلامية مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية إلى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم ، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنية والألفة وطول المعاشرة » ، وهذه خطرات وطنية صادقة العاطفة عميقة الفكرة ، بعيدة النظر ، ولقد قال ولى الدين يكن عن عبد الله نديم : وإنما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين وهو من قدماء من يقولون : « مصر للمصريين ، ونحن نقول مصر للعثمانيين » .

لقد انفرد عبد الله نديم بندائه هذا ، ولم يجاره فى دعوته زعماء السياسة من بعد ، فهذا مصطفى كامل وهو فى مناوئته للإنجليز وبعثه للشعور الوطنى ، ومحاربته للاحتلال الأجنبي لم تنضج عنده الفكرة الوطنية كما نفهمها اليوم ، فلم يقل إن مصر للمصريين بل قال : « حقاً إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها ، فضلا عن الأسباب الداعية لهذا التقرب فإن العدو واحد ولا يليق بنا أن نكون فى فشل وشقاق فى وقت يعمل أعداؤنا على تجزئة دولتنا ، ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها ... وقصارى القول إن الراية العثمانية هى الراية الوحيدة التى يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً »[1] .

استطاع النديم فى جريدة الأستاذ أن ينبه الأفكار إلى موضوعات حيوية وأن يجادل ويناقش ويثير العقول ويخلق الرأى العام ، ويدعو زعماء الثورة العرابية الذين أذلهم

---

(١) مصطفى كامل باشا الطبعة الأولى (١٩٠٨) جـ ٣ ص ١٩٧

الاحتلال ، وغلبهم الخوف منه إلى البروز والعمل فى سبيل مصر ، ويدعو إلى تأليف الأحزاب حتى تكون لكل جريدة حزبها الذى تنافح عنه ، ولكل حزب منهجه فى الإصلاح . وقد وقف من الأجانب عامة ومن الإنجليز خاصة موقفاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض ، أما الإنجليز فهو عدوهم اللدود ، يصورهم صوراً منكرة ، ويدعو الشعب لتأييد توفيق والالتفاف حوله ، وأما سواهم من المرتزقة الذين هاجروا فى سبيل القوت أو الثروة فينصح بعدم الأمان لهم ، وبالبعد عنهم إلا إذ برهنت التجربة على إخلاصهم « فعليك بمن إذا حلت المصائب وآب النازحون إلى مقارهم فراراً من مشاركتك فى همومك كان قسيمك فى النكبات ، يتناول معك حمل الخطوب ، ويحملك إذا ضعفت ويُبرك إذا احتجت ، ويعودك إذا مرضت ، وينصرك إذا خذلت ، ويدفع معك عدوا يحاربك ، ويحفظ معك وطناً لزمته ، ويصون لك عرضاً تبذل الروح فى حمايته » والجمهرة من الأجانب فى نظره متسولون إذا أعطيتهم مدحوك ، وهم يمدحونك طالما يجدون عندك نفعاً « ومن كانت هذه صفته يصدفه عنك الغير بلقمة يزيدها ، فإذا زاده ديناراً على أن يقذفك ويهجوك أضحك الناس بما يفتريه عليك » .

الحق إن النديم فى الأستاذ كان معلماً جليلا للوطنية المتطرفة كما يفهمها جيله وكان مخلصاً فى نصحه ، وثابتاً على مبدئه منذ الثورة واندلاعها لم يلن للخطوب أو يطأطئ الرأس لعدو فكان أكبر مثل يحتذيه الزعماء من بعد .

٤ — رسائل أدبية ، ومقالات فى موضوعات شتى احتفى بأسلوبها احتفاء زائداً ، وقد جمع منها أحمد سمير فى سلافة النديم مقداراً صالحاً للحكم عليها من حيث منزلتها الأدبية. فمن ذلك رسالة (لواء النصر فى أدباء العصر) وفيها يصف من تعرف عليهم من أدباء مصر أمثال البارودى وصفوت الساعاتى ، وعبد العزيز حافظ ، وعبد الله فكرى وسواهم .

ومنها رسالة (التنور المسجور) فى المفاخرة بين السفينة و (الوابور) ، ومنها الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض الأدباء فى أمور خاصة .

أسـلوبه :

١ — التزم عبد الله نديم فى مطلع حياته الأدبية ذلك الأسلوب المسجوع المتكلف ، يكثر فيه من ألوان البديع ولا سيما الجناس ، ويظهر فيه مهارته اللغوية وقدرته على تأليف الكلام ، فى جمل قصيرة الفواصل ، كثيرة المترادفات ، ويعمد فى أغلب الأحيان إلى الخيال والمبالغات المرذولة ، وأحياناً يأتي بجمل لا معنى لها ولكن اقتضاها السجع مثل قوله فى مطلع رسالته يصف كلامه :

« حديقة معانى ، ونادى مغانى ، وبستان أفكار » فهذه جمل مترادفة ، والجملة الوسطى لا معنى لها .

ومن الجمل المترادفة والجناس المتكلف قوله من الرسالة السابقة : « فكاهة نفوس ، وزينة طروس ، هزلها أدب وجدها طرب ، إن سُئلت أوجزت ، فإن سألت أعجزت ، لو أقمت لها حَكَماً ، وجدها كلها حِكماً » .

ومن المبالغات السخيفة ، والوصف المتكلف قوله يصف أديباً : « رامى نبال وعظه إلى الأحشاء ، ومفوق سهام بديعه إلى الإنشاء ، حامل لواء العلوم العقلية ، وقائد جيوش الفنون النقلية ، مطلع شمس الأمانى ، ومبارز فرسان المعانى ، إن ألف لم يتكلف ، بل يجعل الانسجام زينة الكلام ، وإن نَثَرَ كَرَّ بهجوم على سرايا النجوم » .

فهذا الأديب فى حرب دائمة يرمى الأحشاء بنبال وعظه ، ويفوق سهام بديعه إلى الإنشاء ، ويحمل لواء العلوم العقلية ، واللواء يقتضى الجيوش ؛ وهكذا تراه يحمل معدات الحرب ويستعملها ؛ وكثيراً ما يعمد إلى هذا الأسلوب ، ويكرر هذا المعنى كقوله : « وكيف لا يكون لسانى قوس البديع ، وكلامى السهم السريع وأنت باريه وراميه ؟ أم كيف لا يكون مقامى الحصن المنيع وقدرى العزيز الرفيع ، وأنت معليه وبانيه ؟ »

وله فى مطلع حياته كذلك رسائل التزم فيها ما لا يلزم من ألوان السجع إظهاراً لبراعته وعرضاً لقدرته ومهارته ، فتارة تراه يأتى بمجموعة من السجعات كل اثنتين متشابهتين فى

القافية ، وفى ختامها سجعة من قافية مختلفة ، ثم يكرر هذه القوافى بالترتيب الذى ساقها به أولا ، وتارة يفرد هذه السجعات ثم يعيدها بعد خمس أو ست على الترتيب الأول ، وأحياناً يلتزم فى السجعة الثانية أن تكون آية من آيات القرآن ، ومن النوع الأول قوله : « لعبت به الأشواق فى مصارع العشاق لعب الراح بالأرواح فى مجلس الآنس ، وجرت به الأتواق (١) فى ميادين الأذواق جرى السحاب والأرواح فى حومة الشمس » .

ومن الثانى قوله : « منحتنا اللهم سلامة الروح فلله الحمد على هذه المنحة حمداً بلا عد ، ووهبتنا صحة لب البيان فلك الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد ، يلوح بدره ، و يفوح عطره روح هو عين الحياة ، ومدد العقل ، ولب هو منطق الشفاه ، وسند النقل ، طال عمره وجال أمره » .

ومثال النوع الثالث الذى يأتى فيه بسجعة وآية قرآنية تكمل المعنى قوله من رسالة كتب بها إلى صديقه المرحوم عبد العزيز بك حافظ تنبيهاً له حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة و يشتغل معهم بخرافات باطلة : « لا حول ولا قوة إلا بالله اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر ، وقدم الرقيق على الحر ، و بيع الدر بالخزف ، والخز بالخشف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبره . سمعاً سمعاً ! فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ؟ وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزُجر ، ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر » إلى أن يقول له : « وأنت ياعزيز العليا ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلهم ، فبما رحمةٍ منَ اللهِ لِنت لهم ، لكنهم طمعوا فى عميم قولك ، ولو كُنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، أتراهم يعقلون كلامك أو يفهمون ، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » .

ومعظم رسائله الأدبية من هذا الطراز الذى يكثر فيه من ألوان البديع و يلتزم السجع ، ويفتن فى عرضة ، وتراه لا يمدح رسالة وصلت إليه إلا بأن البديع فيها قد كمل نظمه ،

---

(١) تاق إليه توقاً بفتح فسكون : اشتاق .

والسجع قد لطف من مثل قوله « إذا قرأت لفظه ، وسمعت وعظه ورأيت ما فيه من المرقص والمطرب ، والمنعش والمعجب ، وتلوت ما فيه من الرقائق ، ونظرت ماحازمن الدقائق ، علمت أنه معجزة المتنبي وإن تأخر زمانها ، وفطنة المعرى ، وإن بعد مكانها . كيف لا وعطر نرجس بلاغته أزرى بطيب الريحانه ، وحسن دمية بيانه نبه على ضيق الخزانه ، وانسجام رقائق كلماته أغنى عن البديعيات ، ورقة لطف سجعاته تاهت على الأرتقيات[1] » .

وهـذا النوع من النثر بما فيه من تلاعب وافتنان فى الازدواج والفواصل والسجعات تقليد لمقامات الحريرى وما ورد على مثالها من الرسائل ؛ ومما يؤيد هذا الاتجاه عند النديم أنه كتب رسالة على لسان أحد أصدقائه يطلب إليـه فيها أن يراسله ، ويشترط أن تكون رسائله مشتملة على أفانين خاصة من البديع وغيره ، وينفذ النديم الشرط فيضع عدة رسائل منفذاً بها شروط صديقه التى ذكرها فى قوله : « أحب أن تتواصل إلى رسائلك ، وتسامرنى وسائلك ، بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق ، وأن يكون بعضها فى غزل وعشق ، وبعضها نكتاً أدبية ، وبعضها فوائد عربية ، هذه محاوره ، والأخرى مسايره ، تارة ظرائف خمرية ، ومرة لطائف عُمَرية ، وهكذا ترشف من كل دَن ، وتسطع فى كل فن ، على أن تكون بحكايات ما طرأت على الأفكار ، ولاخرجت من الأوكار ، وتلتزم الجناس فى الفِقَر ، وألا تأخذ من شعر غيرك إلا بيتاً أو بيتين » وقد استجاب النديم لهـذا الطلب فوضع عدة رسائل متكلفة لا معنى لها ، وقد أثبت منها (أحمد سمير فى السلافة) رسالتين .

والشعر الذى يرصع به الرسائل وأمثالها — وهو كثير بحيث لا تخلو منه رسالة — شعر يمثل هذا التعمل من مثل قوله يتلاعب بلفظ النوي :

لست الملول مع التـدلل والقوى ... إن لم يكن روحى على هجرى نوى

ما دام يَرضى مُنيتى فقد استوت ... عندى الإقامة فى شـبين أو نوى

---

(١) نسبة إلى الدولة الأرتقية ، وأول أمن أسس الدولة الأرتقية معين الدولة سقمان بن أرتق بعد أن استولى على حصن (كيفا) سنة ٣٨٥ هـ من الأمير موسى التركماني ، وكان أرتق جد معين الدولة مملوكا من مماليك السلطان ملـكشاه السلجوقى ، وأحد قواده ، والأرتقيات القصائد والمدائح التى كان يقولها الشعراء لملوك هذه الأسرة ، واستمرت الأسرة الأرتقية حتى القرن التاسع الهجرى .

أطعمته أثمار درى كلها وغُذيت من ثمر المحبة بالنوى

ويأتى النديم أحياناً بتعبيرات غريبة شاذة متكلفة الاستعارات كقوله : « وطلاؤه مرمر البدر معجون بليلة القدر » وأحياناً يأتى بتعبيرات فى منتهى اللطف كقوله : « واختلسنا النوم من جفون الزهر » أو قوله : « وأرق من خفر فى بكر » .

وشعر النديم الموجود قليل ، وهو كنثره الأدبى مصنوع متكلف ، يشبه إلى حد كبير شعر أبى النصر وعلى الليثى ، مع فارق واحد ، وهو قوة السبك ، ولكنه لا يختلف عن شعرهما فى الصياغة والزخرفة والمعانى ، ومن أحسن ما روى له قوله فى الغزل :

سلوه عن الأرواح فهى ملاعبه وكفوا إذا سل المهندَ حاجبُه

وعودوا إذا نامت أراقم شَعره وولوا إذا دبت إليكم عقاربه

ولا تذكروا الأشباح بالله عنده فلو أتلف الأرواح منذا يُطالبة

أراه بعينى والدموع تكاتبه ويحجب عنى والفؤاد يراقبه

فهل حاجة تدنى الحبيب لصبه سوى زفرة تثنى الحشا وتجاذبه

فلا أنا ممن يتقيه حبيبه ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه

ولو أن طرفى أرسل الدمع مرة سفيراً لقلبى ما توالت كتائبة

وتراه يستعمل التأريخ الشعرى كقوله يؤرخ موت توفيق وهو بيافا من قصيدة أرسلها إلى مصر يرثيه بها على الرغم من أنه نفاه :

فملائك الجنات قالت أرخوا توفيق فى عزّ النعيم السر مدى ١٣٠٩

ومن شعره قوله من رسالة كتبها لأحد أصدقائه أيام أن كان بالمنفى وفيها يظهر ألمه ويندب سوء حظه :

يا صاحبى دع عنك قول الهازل واسمع نصيحة عارف بالحاصل

اجهل تجد صفو الزمان فإنه من قسمة القدم الغبى الجاهل

ودع التعقل بالتغفل يستقم أمر المعاش فحظه للغافل

وارض البلادةَ تغتنم مِن بابها مالا وجاهاً بعد ذكر خامل

وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق ... بحروب دهر لا يميل لفاضل
قَلِّب تواريخ الألى سبقوا تجد ... دُنياك ما قيدت بغير الباطل

ومن شعره قصيدة فى الفخر يظهر فيها ولوعه بالبديع وفيها يقول :

أتحسبنا إذا قلنا بُلينا ... بَلينا ، أو يروم القلب لينا
نعم ! للمجد نقتحم الدواهى ... فيحسب خامل أنَّا دهينا
تناوشنا فنقهرها خطوب ... ترى ليث العرين لها قرينا

إلى أن يقول :

ولسنا الساخطين إذا روينا ... نعم يلقى القضى قلباً رَزينا
فإنا فى عداد الناس قوم ... بما يرضى الإله لنا رضينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ... ولكنا نُهينا أن نَهينا

وله قصيدة طويلة من رواية الوطن التى مثلها أمام الخديو توفيق ، وفى هذه القصيدة يبكت المصريين على افتخارهم الدائم بآبائهم بينما هم فى خمول وتقصير فتركوا الصناعات والعلوم ، واستمرءوا الصفات التى تذل الشعوب وتضعها ، وقد قال القصيدة معارضة لنونية ابن زيدون المشهورة ، وفيها يقول :

هذى معالمنا تبكى وتنشدنا ... قول ابن زيدون إذ قامت تعزينا
« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا »
قل للنفوس التى ماتت بلا أجل ... أين القلوب التى كانت تجارينا ؟
أين العلوم التى كانت توصلنا ... بابَ السعود فصارت من أعادينا ؟
أين الصنائع ؟ أين العارفون بها ؟ ... أين الديار التى كانت لأهلينا ؟
كانت وكانوا وصار الكل فى عدم ... واستعبدتنا بما نهوى أمانينا
إذا سمعنا خطيباً ذاكراً حكما ... قلنا له عزة الآباء تكفينا (١)

وحسبنا هذا القدر من شعره فهو يعطينا صورة عن منزلته فى الشعر وعن فهمه له .

٢ — أما مقالاته فى التنكيت والتبكيت ، وأسلوبه الكتابى فى هذه الصحيفة ، فقد

---

(١) وهذا ترديد لما قاله السيد جمال الدين من قبل راجع ص ٢٢٨ من هذا الكتاب .

ذكرنا آنفاً أنها احتوت موضوعاتٍ للخاصة يكتبها بأسلوب أدبى محرَّر من السجع ومن ألوان البديع ، ويتوخى فيها السهولة ، « ليست منمقة بمجاز واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة برقة قلم محررها ، وفخامة لفظه و بلاغة عبارته ، ولا معرِبة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه . ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئك إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى » ومن أمثلة موضوعات الخاصة مقالته المشهورة (مجلس طبى على مصاب بالأفرنجى) وفيها يقول : « كان هذا المصاب صحيح البنية قوى الأعصاب جميل الصورة لطيف الشكل ، ما رآه فارغ القلب إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيد إلا طار إليه شوقاً ، نشأ فى العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه من الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء ، وقد مات فى حبه جملة من العشاق الذين خاطروا فى وصاله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله ببهجة يحار الطرف فيها ، وعزة لا يشاركه فيها مشارك » وأنت ترى أسلوباً خالياً من السجع ليفرغ كاتبه إلى المعانى التى يريدها ، ويسير فى سهولة ووضوح .

وهناك موضوعات للعامة كتبت باللغة العامية الدارجة بمصر حتى يفهموها ، ويعملوا بها كموضوع المزارع والمرابى ، وكموضوع « عربى تفرنج » ويقول فى الأخير : « ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط ، وتركه يلعب فى التراب ، وينام فى الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرحه مع البهائم إلى الغيط يسوق الساقية ويُحَوِّل الماء ، وكان يعطيه كل يوم أربع حَنْدويلات ، وأربعة أمخاخ بصل ، وفى العيد يقدم له اليخنى ليمتعه بأكل اللحم والبصل » .

وأما أسلوبه فى الأستاذ فهو أسلوب صحفى أدبى يمتاز بالسهولة والتدفق ، والخلو من السجع والبديع والمجاز ، وقد مر بك نماذج منه .

ويلاحظ أن النديم يستعمل الأسلوب الخبرى الممتزج بالخطابى فى معظم كتاباته ، وهو أسلوب يصلح للوعظ ، وتراه كثير التهكم والسخرية فى موضوعاته الاجتماعية ، يلجأ إلى الحوار فى الموضوعات التى كتبها للعامة ، وكان يُنطق كل شخص بما يوافق طبعه وصنعته ودرجة علمه ، مما يدل على خبرة واسعة بالناس وطباعهم ولغة حديثهم ، وله مقالات اختار لها عناوين من العامية الدارجة تدل على تمكنه من تفهم البيئة الفقيرة ولغتها ، وعلى روح الفكاهة والسخرية عنده مثل : « الشنة والرَّنَّة فى أولاد مصر الزنَّة » ومثل : « حاورينى يا طيطة فى الطربوش والبرنيطة » و « شد الدِّبلاق فى أكتاف أهل بولاق » وإن كانت المقالات نفسها مفقودة مع دواوين شعره .

منزلته :

اشتهر عبد الله النديم بالخطابة ، وتملكه لناصية القول ، فكان لسان الأمة فى عهده بخطبه المملوءة حماسة وقوة وصراحة ، يذيعها فى كل مجلس بكل مكان لا يكل ولا يمل ، وقد استطاع بهذا أن ينشر آراءه فى أكبر عدد ممكن من الأمة وأسهم فى تكوين رأى عام — سواء بخطبه أو بقلمه — يؤمن بحكم الشورى ، ويثور ضد الأجانب ، ويتطلع إلى إصلاح المفاسد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وإذا كان السيد جمال الدين رسول الخاصة فى هذه المعانى ، فعبد الله نديم أوتى المقدرة واللباقة على أن يبسط آراء جمال الدين ونظريات الإصلاح المنشود فى كل نواحى الحياة ، حتى يفهمها العامة ، من الفلاح فى حقله والتلميذ فى مدرسته ، والصانع فى دكانه .

وقد شهد بمقدرته على الحديث والخطابة وبراعته فى تنميق الكلام كثير من ذوى الخبرة بوجوه الكلام ، فهذا جمال الدين الأفغانى ، وهو من عرفت ذكاء وقوة عارضة ، ومقدرة على الحديث يقول : « إنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة ، وشدة العارضة . ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب »[1] .

(١) سلافة النديم ص ١٧

وتيمور باشا العالم المحقق يقول فى الترجمة التى كتبها له[١] : « كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

ويقول عنه جورجى زيدان[٢] : « أما أخلاقه فإنه كان براً بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به ، ولا رد يوماً سائلا ، ولا خضع لعظيم قط ، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم ، وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً ، وكاتباً ثائراً » .

ويقول عبد الرحمن بك الرافعى[٣] : « وهو الزعيم الوحيد بين العرابيين الذى استمر فى جهاده السياسى ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال ، وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية ، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد . أما هو فقد ظل على عهده واستمر يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته ، وهذا وحده يدلك على مبلغ علو نفسه ، وقوة شخصيته ؛ إذ لم تنل منه الشدائد ، ولم يضعف إزاء المحن والكوارث ، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا » .

ويقول عنه الأستاذ أحمد أمين بك[٤] : « طالما غذى الناس بقلمه ، وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال الساسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، وعلى أى حالٍ كان ، حتى هدّأه الموت الذى يهدئ كل ثائر ، ومهما أُخذ عليه فقد كان عظيما . وكانت جريدة « الأستاذ » هى الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف » .

---

(١) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد باشا تيمور ص ٧٧

(٢) مشاهير الشرق ج ٢ ص ١١١

(٣) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ٥٢٧

(٤) مجلة الثقافة العدد ٢٨٩

ويقول الأستاذ العقاد[1] : « ولقد كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعاً ، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الأول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكأنما يرتجل الخطابة لسهولة منحاه وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، إلا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة . . . على أنك قد تقول ما بدا لك فى شعر عبد الله نديم وفى خطبه وفى كتابته وفى تحقيقه العلمى وملكاته الأدبية ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه أنه كان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات فى تاريخ الأدب المصرى الحديث » .

أما نحن فقد أصدرنا حكمنا عليه فى هذه الترجمة ، ووفينا أدبه درساً ، وبينا خصائصه كما ظهر لنا من آثاره القليلة التى أبقى عليها الزمان .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٩٣ — ٩٦

الفصل السادس

الاتصال بالأدب الأجنبي

مر بك فى الفصول السابقة شىء عن الترجمة فى عهدى محمد على واسماعيل ، وكيف أن الاتجاه فى عهد محمد على كان علمياً بحتاً لحاجة النهضة إلى العلوم ، وأن الآداب لم يكن لها إلا نصيب ضئيل ؛ ثم جاء عصر اسماعيل وزاد الاهتمام بالآداب ، وترجمت بعض الكتب الأدبية فى عصره . ولكن منيت مصر بعد ذلك بالاحتلال الإنجليزى ، وازداد نفوذ الأجانب ، وفرضت اللغة الإنجليزية فرضاً على تلاميذ المدارس المصرية ؛ واتصل الأدب العربى ، والفكر العربى اتصالا مباشراً بالفكر الغربى ، وقد كان لهذا أثر فى الاتجاه الذى سلكه الأدب العربى حتى يومنا هذا ، وسنرى إلى أى أحد أثر الأدب الغربى فى الفكر العربى وفى ألوان الأدب واتجاهاته وأساليبه شعراً ونثراً ، وإن كان هذا الفصل لا يتسع لكل هذا ؛ لأن الأدب الأجنبى لا يزال حتى اليوم يغذى أدبنا العربى ، وظهرت منذ الثورة العرابية حتى الحرب العالمية الثانية آثار عديدة لعشرات من الكتاب والشعراء يتضح فى كثير منها ذلك الأثر الأجنبى فى صور شتى ؛ وستكون دراسة هذه الآثار ، وترجمة أصحابها فى الأجزاء التالية إن شاء الله . وحسبنا هنا أن نسجل الخطوات التى دفعت بالأدب العربى إلى هذا النهج ، وأن ندرس بعض الألوان الجديدة التى قدمت للقارىء العربى فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

١ — الترجمة والتأليف :

رأينا آنفاً أن الثقافة الأجنبية التى نهلت منها مصر منذ عصر محمد على كانت الثقافة الفرنسية ، وأن مدرسة رفاعة بك من التراجمة والمعربين لم يهتموا بالثقافات الأجنبية الأخرى إلا قليلا ، وكان معظم رجال البعثات فى عصرى محمد على وإسماعيل يذهبون إلى فرنسا

ويعودون متشبعين بالفكر الفرنسى وبالثقافة الفرنسية ، ولكن كان كل شىء ينقل إلى اللغة العربية من طب وهندسة وعلوم رياضية وعسكرية وما شاكل هذا ، فاتسعت اللغة العربية ، وزادت ثروتها بما بذل المعربون فى سبيل مدها بالكلمات الجديدة ، أو إحياء الكلمات القديمة التى تحقق غرضهم ، ولو استمرت النهضة العلمية فى هذا الاتجاه ، وحمل العلماء والأدباء ورجال الفن والقانون الذين يلجئون إلى الثقافات الأجنبية المختلفة ويتزودون من معينها ، وينقلون من آثارها ، على تعريب كل ما يفيدهم ، لأصبحت اللغة العربية اليوم من أقوى اللغات على تمثيل الحضارة الحديثة وإبرازها فى صورها المتباينة ، ولأخذت الكلمات المعربة صبغاً عربياً خاصاً على مر السنين ، وتركزت معانيها بكثرة استعمالها ، وسهل على الجامعات العربية تدريس شتى العلوم ، وأحدث النظريات باللغة العربية .

ولكن وا أسفاه ! أبى الأنجليز حين دخلوا مصر إلا أن يرغموها على تعلم لغتهم فى مدارسها الابتدائية والثانوية والعالمية ، وصار حظ اللغة العربية من اليوم المدرسى ضئيلا ؛ ولم يفعل الإنجليز ذلك دفعة واحدة ، وإنما مهدوا له تمهيداً بطيئاً . . .

دخل الإنجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ ، بعد أن ازداد نفوذ الأجانب ، وقويت شوكتهم وعظمت شركاتهم ، وبعد أن فرضت الرقابة الثنائية ، ودخل الوزارة المصرية وزيران أجنبيان ، وشعر المثقفون المصريون بتغلغل الأجانب فى كل مصالح مصر ، ورأوهم معتدّين بلغاتهم وبجنسياتهم ، وأن مدارسهم وإرسالياتهم تجدُّ فى تدريس اللغات الأجنبية ، ومن يتخرج فيها يكون له التفوق فى ميادين الاقتصاد والسياسة ؛ فأدى كل هذا إلى اهتمام مصر — حتى قبل الاحتلال الإنجليزى — بتعليم اللغات الأجنبية فى مدارسها ، وقد تقدم على باشا إبراهيم ناظر المعارف فى سنة ١٨٨٠ يطلب إنشاء مدرسة تسمى (دار العلوم التوفيقية) لتخرج مدرسين فى اللغات الأوربية وسائر العلوم الغربية ، على غرار دار العلوم العربية ، وكانت مدرسة الألسن لا تزال موجودة ، ولكن ضعف التعليم فيها ؛ إذا ألغيت منها اللغة التركية والألمانية ، واقتصر على تعليم الإنجليزية والفرنسية والعربية . وفى سنة ١٨٨١ تقرر إنشاء مكتب للترجمة والتحرير تولى إدارته حينئذ أديب إسحق الكاتب المشهور ، ثم

تحول هـذا المكتب إلى مدرسة المعلمين الخديوية فى سنة ١٨٨٩ ؛ كى تخرج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الإنجليزية بالمدارس الابتدائية .

ولما ألغيت مدرسة الألسن أنشىء بدلها مدرسة الإدارة والحقوق سنة ١٨٨٦ — وكان غرض الإنجليز جعل الثقافة المصرية ثقافة ديوانية بحتة — وقد ظلت كذلك طويلا حتى بعد أن كفوا أيديهم عن التدخل فى وزارة المعارف ؛ لأن المشرفين على نظم التعليم بمصر كانوا متشبعين بمبادىء هذه المدرسة الديوانية ولذلك صار الموظف المصرى عبداً لوظيفته ، إذا فقدها ، أو خرج إلى ميدان الحياة ، صار كالسمكة جف من حولها الماء ، وإنما اختط الإنجليز هذا النهج حتى لا يفطن المصريون إلى الأعمال الحرة ، والنهوض ببلادهم عن سبيل التجارة والاقتصاد ، وينفرد بها الأجانب عامة والإنجليز خاصة ، وحسب المصرى أن يوفر لهؤلاء الدخلاء الطمأنينة والرفاهية والنظام ، وله من الأجر لقيمات تقيم صلبه وحياة دونها حياة الخدم والأجراء . أما الربح الوفير ، والعيش الرغيد والعربات الفارهة ، والقصور الشامخة ، والتجارة العالمية فهى وقف على هؤلاء الأفاقين الذين دخلوا ديارنا ضيوفاً فاستبدوا بثروتها المادية والمعنوية ، وتبجحوا فى معاملاتهم لأبناء البلاد ، يمشون فى تيه وخيلاء ، وصلف وكبرياء ، حتى تنبهت مصر لهم ، وكفت من غلوائهم ، وألغت امتيازاتهم .

أجل ! كان هذا بعض ما رسمه الإنجليز للشعب المصرى ، وأشرفوا على تنفيذه ، فإن مدرسة الحقوق حينما أنشئت ، قسمت قسمين : ابتدائى وعالى ، يعد الابتدائى المحضرين والمترجمين ، وأصناف الموظفين لأقلام الكتاب والنيابة بجميع المحاكم ، وأقلام الحكومة والوزارات ، وشتى المصالح التى تحتاج لأشخاص عندهم معلومات قانونية ؛ ويعد القسم العالى لوظائف الكتاب من الدرجة الأولى والثانية ، ووكلاء النيابة وما شاكل هذا .

ولم يفكر المستعمرون — طبعاً — فى إنشاء المدارس التى تعد شبان مصر لميدان الحياة العملى من تجارة وزراعة وهندسة وصناعة وغيرها ، وليتهم حافظوا على لغة البلاد ، وهى مصدر عزتهم ، ورمز وطنيتهم وقوميتهم ، وإنما عمدوا فى سنة ١٨٨٨ إلى الغض من شأنها ، والحد من تعليمها ، وإفساح المدى أمام اللغات الأجنبية ، وهاك ما أورده

أمين باشا سامى فى كتابه (التعليم فى مصر) خاصاً بهذا التحول الخطير وهو فى صورة تقرير مقدم من وزارة المعارف إلى الخديو : « إن تعليم اللغات الأجنبية التى لها فى هذا العصر من الأهمية ما لا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت إلى الآن فى مدارسنا بالنتائج المطلوبة ، وليس ذلك لتقصير من المعلمين ، أو فتور فى همتهم ، فإنهم فى الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف ، حتى تكتسب التلامذة ملكة استعمال اللغة ، ويسهل عليهم التكلم بها ، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر . فلتلافى هذا الأمر بقدر الإمكان تقرر أن مواد العلوم الجارى تدريسها للآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعداً بمعرفة مدرس اللغة الأجنبية إما باللغة الفرنسية ، وإما باللغة الإنجليزية . فإذا درّس التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية ، وضم هذا إلى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود » .

ثم ألغيت بعد ذلك اللغة الفرنسية من المدارس الأميرية الابتدائية ، وحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وإن بقى للفرنسية بعض القوة والانتشار لكثرة المدارس التبشيرية التى تتخذها أساساً للتعليم بمصر .

وفى سنة ١٨٩٨ رأت الحكومة — أو رأى المستعمر — أن يغير منهج مدرسة الطب ، وأن يحول بينها وبين الرسالة العظيمة التى اضطلعت بأدائها منذ عصر محمد على ، ألا وهى نقل الطب الغربى الحديث إلى اللسان العربى المبين ، فعُين لها مدير إنجليزى أدخل بعض الإصلاحات فيها ، واشترط لنجاحه فى مهمته أن تكون لغة التدريس بالمدرسة هى الإنجليزية ، فأجيب إلى طلبه ، وعطلت الترجمة ، وصار كل الأساتذة من الإنجليز ، وظلت الإنجليزية هى لغة الطب بمصر حتى يومنا هذا .

وإذا كانت اللغة العربية قد حوربت فى كل معهد ، واشتد ساعد اللغات الأجنبية ولا سيما الإنجليزية ، فقد استطاعت بما كمن فيها من قوة أن تصمد للمحنة ، وأن تسترد سلطانها المفقود بعد لأى ، وأن ترغم العدو الغاصب على الاعتراف لها بالحيوية ، وأنه ليس من السهل القضاء على لغة ذات تاريخ مجيد ، وتراث عتيد ، ودين سماوى مكين كاللغة العربية .

ظهرت سطوتها أول الأمر حينما اضطر المحاكم الأهلية إلى تعيين مترجمين بين القضاة الأجانب ، وبين الأهالى والمترافعين لأول عهدها سنة ١٨٨٣ ؛ إذ لم تجد الحكومة من بين المصريين أكفاء يلون شئون القضاء . ولقد أدى إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦ ، وإنشاء المحاكم الأهلية بعد ذلك إلى نهضة قانونية قوية بمصر فوضعت القوانين ، وكثرت عليها شروح العلماء[١] .

وترجمت كتب كثيرة من الفرنسية فى هذا الباب مثل : أصول النواميس والشرائع لبنتام نقله فتحى باشا زغلول[٢] وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وحقوق الملل ومعاهدات الدول للأمير أمين أرسلان ، والطعن فى الأحكام بطريق النقض والإبرام ترجمة عزيز خانكى سنة ١٩٠٠ .

ووضعت المعاجم القضائية لتيسر على المشتغلين بالقضاء والمحاماة الاطلاع على المواد اللازمة أو الأوامر العالية ، ومن أشهر هذه المعاجم : قاموس الإدارة والقضاء لفيليب جلاد فى ست مجلدات سنة ١٨٩٩ ، والقضاء المصرى الأهلى لإبراهيم الجمال وهو معجم للقواعد

---

(١) من ذلك : ١ — توضيح المشكلات فى شرح قانون المرافعات لأحمد باشا عفيفى . ٢ — شرح قانون التجارة لعبد العزيز باشا كحيل ، ويوسف باشا وهبة ١٨٨٥ . ٣ — ورسالة فى قوة الأحكام المدنيه لعبد العزيز باشا كحيل ١٨٨٩ . ٤ — طلبة الراغبين فى بيان حقوق الدائنين لعبد العزيز محمد ومحمد توفيق نسيم ١٨٩٣ . ٥ — شرح الأموال على القانون المدنى لمراد فرج ١٨٩٣ . ٦ — شرح باب إثبات الديون وإثبات التخلص منها لعلى باشا ذو الفقار ١٨٩٣ . ٧ — رسالة فى تزوير الأوراق لفتحى باشا زغلول سنة ١٨٩٥ ؛ وغير ذلك كثير . راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٣٦٢ .

(٢) ولد سنة ١٨٦٣ بمصر ، ودرس الحقوق بها ؛ واشتغل بالقضاء حتى وصل إلى وكيل لوزارة العدل . قال فيه المنفلوطى : « إنه نابغة الأمة العربية علما وفضلا ، ونادرتها ذكاء وفهما ، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة التى لا يضيع فيها معنى ، ولا يضطرب فيها لفظ ، وما انتفعت هذه الأمة فى عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته ويمتاز فى كتابته بالبيان والإيضاح والدقة فى وضع الألفاظ بإزاء المعانى ؛ فلا يتجوز إلا قليلا ؛ ولا يتخيل إلا نادراً ؛ ولا يغرب ، ولا يتندر بحال من الأحوال » مختارات المنفلوطى ص ١١١ وقد ترك أحمد فتحى زغلول ثروة علمية عظيمة من التآليف والتعاريب فى القانون والإدارة والاجتماع فترجم : روح الاجتماع لجوستاف لوبون ، وتطور الأمم لجوستاف لوبون ، وسر تقدم الإنجليز السكسونيين لأدمون دومولان ، وشرح القانون المدنى ، وكرم من أجله (١٩١٣) وله كتاب المحاماة ١٩٠٠ ، وتوفى فتحى باشا سنة ١٩١٤ .

القانونية المأخوذة من أحكام المحاكم الأهلية .

وصدرت مع هذه التراجم العديده ، والمؤلفات الكثيرة ، مجلات قضائية من أشهرها مجلة الحقوق لأمين شميل ، ثم آلت لابراهيم الجمال ، ومجلة الأحكام لنقولا توما ، ومجلة القضاء للشراباتى وغيرها .

إن هذه النهضة القانونية قد أفادت اللغة كثيراً ، وأضافت إلى المعجم العربى عشرات الكلمات الاصطلاحية ، ولبى العلماء دعوة فتحى زغلول حين أهاب بهم أن يهيئوا لغتهم للحياة الجديدة ، ورسم لهم الطريق الصالحة بقوله : « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ، ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلغتكم ، فاعتنوا بها ، وأصلحوها وهيئوها ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود ، والعجمة تهددها على ألسنة العامة ، وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة ، وأقيموا فى وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة ، والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين[1] » .

ومع هذه الفائدة الجليلة التى أحرزتها اللغة العربية بهذه النهضة القانونية ، فإن من المؤسف حقاً أن تهمل الشريعة الإسلامية وأحكامها ، وأن يغلبنا الأجانب على أمرنا ، ويتمكنوا من حملنا على التنكر للقانون السماوى الذى يتمشى مع الغرائز الإنسانية ، والطبيعة البشرية ، وبرهنت الأيام على أنه أعدل القوانين وأقواها وأرحمها . إن القوانين الوضعية ، ولا سيما القوانين التى وضعت لأناس سوانا لهم عادات وتقاليد وبيئة غير ما نحن عليه ، لم تصلح المجتمع المصرى بل أفسدته ، ولو حاول المصلحون فى مصر تنظيم أحكام الشريعة الإسلامية ووضعها فى مواد حسب أبواب القانون ، ووازنوا بينها وبين غيرها من القوانين ، واجتهدوا فى استنباط الأحكام ووصلوا الماضى العتيد بالعهد الجديد ، لبرهنوا على أنهم من أمة لها كرامة ، وبها حرص على تراثها ، والسير بنهضتها فى السبيل المستقيم ، أما عملهم هذا فهو مسخ وتشويه للأمة ، وتقليد سخيف ، هو عنوان الضعف ، والشعور بالخزى أمام

---

(١) مختارات المنفلوطى ص ١١١ من مقال لفتحى باشا زغلول بعنوان « ماهية اللغة » .

الأجانب ، وعدم القدرة على الدفاع عن مقومات شخصيتنا .

ولقد حاول بعض العلماء فى ذاك الوقت ممن كان لهم شعور صادق بهذه الكارثة أن يبرهنوا لهؤلاء الأجانب على أن الشريعة الإسلامية تستطيع أن تنهض بالمجتمع المصرى كل النهوض ، وأن بها من الأحكام ما يجعل الأمم الإسلامية فى غنى عن قانون نابليون أو القانون الرومانى ، وهاك عمر بك لطفى (١) يضع باللغة الفرنسية بعض مواد الشريعة الإسلامية ليدحض دعاوى هؤلاء المغرورين بمدنيتهم الزائفة ومن لف لفهم ممن لم يعرفوا حقيقة الشريعة الإسلامية . ومن هذه المؤلفات التى قدمها عمر بك لطفى بالفرنسية الموازنة .

١ — الدعوى الجنائية فى الشريعة الإسلامية ، وقد أعجب به الفرنج أيما إعجاب .

٢ — حرمة المساكن .

٣ — وحق المرأة .

٤ — وحق الدفاع .

إن الاتجاه الذى سلكه العراق منذ سنوات حين انتدب الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا لوضع قانون للمحاكم العراقية مستنبط من الشريعة الإسلامية والاتجاه الذى تتجهه سوريا اليوم فى دستورها ، اتجاه سليم يدل على يقظة وإدراك صحيح لقيم التراث الإسلامى ، وحرص على عدم المسخ والفناء فى الأمم الأجنبية .

وظهرت قوة اللغة العربية كذلك ، وأنها تستطيع أن تتحدى الاستعمار ، وتسير فى النهج العريض الذى خطه محمد على ، وعبّده إسماعيل ، الرغم من العقبات التى أقامها الإنجليز أمامها : فى رغبة العلماء والأدباء فى أن يعرّفوا أبناء أمتهم كثيراً من أسس الحضارة الغربية ، لعلمهم أن الاستعمار مهما كان جامحاً عنيفاً لا يستطيع أن يستولى على إرادة العلماء

---

(١) أصله من أسرة مغربية ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٦٧ ، وتعلم بها ، ثم جاء القاهرة ودرس الحقوق وتقلب فى مناصب الدولة حتى صار وكيلا لمدرسة الحقوق ، وكان له نشاط بارز فى ميدان الحياة فأنشأ كثيراً من النقابات الزراعية وغيرها ، وأنشأ نادى المدارس العليا ، وله فى هذا الباب كتاب إنشاء شركات التعاون . ومن أشهر مؤلفاته غير ما ذكرنا كتاب الامتيازات الأجنبية ، وكان أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية ، وتوفى عمر بك لطفى سنة ١٩١٢ .

ويمنعهم من الاستمرار فى تغذية اللغة العربية بهذه النفائس . وقد شملت الترجمة فى هذا العصر الذى نؤرخ له ألواناً جديدة من الفكر الغربى ، فهناك (الاقتصاد السياسى) ، وكان العرب يطلقون عليه علم المعاش ومن الكتب التى وضعت أو ترجمت فى هذا الموضوع :

١ — كتاب الاقتصاد السياسى أو فن تدبير المنزل لخليل غانم ١٨٧٩ .

٢ — أصول الاقتصاد السياسى لرفله جرجس ١٨٨٩ ، وهو مقتبس من كتب أفرنجية عديدة .

٣ — كتاب الاقتصاد السياسى لجيفونس نقلته جمعية التعريب سنة ١٨٩٢ .

٤ — مبادئ الاقتصاد السياسى تأليف محمد حسين فهمى .

٥ — الموجز فى علم الاقتصاد لـ (بول لروابوليه) نقله حافظ إبراهيم وخليل مطران فى فى خمسة أجزاء بأمر حشمت باشا ناظر المعارف سنة ١٩١٣ .

وهناك (علم الاجتماع) وقد مر بك كيف بدأ هذا العلم على يد جمال الدين ومدرسته وكيف شخصت أدواء الأمة الاجتماعية ، ووصف لها الدواء على يد أديب إسحق وعبد الله نديم ومحمد عبده ، ولكن ما كتبه هؤلاء لم يبن على أصول علمية ثابتة ، وقواعد مقررة ، وإنما كان وليد الخبرة والملاحظة والتجربة ، وكان لا بد للنهوض بهذا العلم من دراسته عند علماء الغرب ونقل أجل آثاره ، مع تطبيق نظرياته على المجتمع المصرى وعاداته وتقاليده وشرائعه وبيئته .

وليس علم الاجتماع غريباً عن اللغة العربية ، فإن ابن خلدون فى مقدمته قد وضع له أسساً متينة ونظريات سليمة بنى عليها مونتوسكيو (١) وسواه أبحاثهم ، ثم تطور هذا العلم فى

---

(١) سبق ابن خلدون بنظرياته الاجتماعية علماء الغرب فنظرية التقليد الاجتماعى مثلا التى قال بها ، وملخصها انتقال العادات والطباع بين الأجيال والأمم المختلفة لميل النفس إلى اعتقاد الكمال فيمن تنقاد إليه كما بين الأبناء وآبائهم والتلاميذ وأساتذتهم ، بنى عليها (جبريل تارد) كتابه (قوانين التقليد) ، وفى كتاب مونتسكيو (روح القوانين) Esprit des Lois تجد أثر ابن خلدون واضحاً كقوله بضرورة الحكومات ، وأثر البيئة فى الناس وعاداتهم ، وكقوله بتقسيم الناس إلى طبقات حسب مكانتهم الاقتصادية وقد شابه الاشتراكيين فى قوله : بأن « الطبقات تسعى لاستثمار بعضها بعضاً استناداً إلى مالها من السلطة الاجتماعية والسياسية فإن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو أقليم لها قدرة على من دونها من =

الغرب واتسعت موضوعاته ، ونظمت أبحاثه ، وقد فطن لذلك علماء مصر فترجم فتحى زغلول كامر بك كتابي روح الاجتماع ، وتطور الأمم لـ (غوستان لوبون) ونقل كذلك تقدم الإنجليز السكسونيين ، وهو من الكتب الممتعة التى قرأناها بشغف ، ونقل محمد زكى صالح نشوء الاجتماع لـ (بنيامين كِد) .

ومن الكتاب الاجتماعيين الذين أفادوا هذا العلم ، وحاولوا إصلاح الأمة عن طريق الدرس والتمحيص والتحليل ، والاستقراء والاستنباط ، السيد عبد الرحمن الكواكبى [1] ، ومن كتبه النفيسة التى بهرت أبناء جيله ، وصار لها أكبر الأثر فى اليقظة القومية بالشرق .

١ — طبائع الاستبداد .

٢ — أم القرى :

وقد وضع كتبه فى شكل روائى ، وفيها تحليل دقيق للأمراض الاجتماعية والسياسية ، وفيها حملات شديدة على الحكومة العثمانية ، وفيها علاج إيجابى سليم لأدواء المسلمين . وامتاز الكواكبى فى كتابته بالذكاء ، والتخصص ، والعمق والرزانة ، ولو أتيح له أن يعرف لغة أجنبية فيطلع على أبحاث علم الاجتماع عند الغربيين لكان له — مع غزارة فكره وصدق نظره — منبع فياض .

= الطباق والجاه داخل على الناس فى جميع أبواب المعاش فإذا كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشىء عنه كذلك .

وإذا أردت المزيد من آراء ابن خلدون الاجتماعية والموازنة بينها وبين آراء علماء الغرب ومن معرفة مكانته لدى الغربيين فارجع إلى :

١ — ابن خلدون، منتخبات لجميل صليبا ، وكامل عياد .

٢ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين .

٣ — ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربى فى القرن الرابع عشر للعلامة فون فيسندنك وترجمة محمد عبد الله عنان .

٤ — كتاب روبرت فلنت فى تاريخ التطور العلمى Robert Flint

(١) من أسرة حلبية مشهورة ، نشأ ميالا للعلم شغوفاً بالسياسة ، وحرر مدة فى جريدة الفرات الرسمية ثم أنشأ جريدة (الشهباء) ، وتقلب فى مناصب الحكومة . ولما رأى ما فيها من فساد أخذ ينقد رجال الدولة العلية ، فاضطهدوه ففر إلى مصر ، ورحل إلى بلاد كثيرة كزنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند ، ثم عاد إلى مصر واستقر بها حتى توفى سنة ١٩٠٢ . راجع مشاهير الشرق ص ٣٥٠ ج ١ (طبعة ثانية) ومجلة الثقافة العدد ٣٠٧

ومن المشكلات الاجتماعية التى أثيرت فى هذه الفترة ، وكان لها دوى عظيم مسألة الحجاب والسفور ، ومركز المرأة فى المجتمع . ولقد أدى اختلاطنا الشديد بالأجانب ، وتطلعنا إلى محاكاتهم فى كل شىء ، والسير على نهجهم فى مدنيتهم — إلى ظهور هذه المشكلة ؛ وكان بعض المفكرين يرى سفور المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل فى كل شىء ، مغالاة منهم فى المحاكاة ، ولكنهم لم يجرءوا على الجهر بآرائهم أمام جمهور المسلمين فى ذاك الوقت لتمكن عادة الحجاب من النفوس ، حتى ظهر قاسم أمين[1] فنشر كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، وقد كان لهما أثر بليغ فى الحياة المصرية ، وإن لم يظهر هذا الأثر سريعاً ، بل ظلت المرأة مدة يتجاذبها السفور تارة والحجاب تارات ، حتى خلعته أخيراً ولم يعد له أثر إلا فى بيئات محدودة .

أما (الأدب) وهو الذى يعنينا فى كتابنا هذا أكثر من سواه ، فقد اشتدت فيه حركة التعريب ، ولا سيما الروايات والقصص ؛ وقد عرفت فيما سبق أن الكلية الأمريكية ببيروت أسست سنة ١٨٦٠ ثم أسست الكلية اليسوعية بعدها بقليل ، وقد كان لهاتين الكليتين أثر بارز فى توجيه النشء إلى القصة الغربية ، ولما هاجر كثير من نصارى لبنان إلى مصر حيث الحرية والشهرة والثروة أخذ هؤلاء المهاجرون يترجمون القصص الأوربى ويذيعونه فى الناس ، وكانت بيروت قد شهدت من قبل قيام (مارون نقاش) يؤلف بعض المسرحيات أو يقتبسها من الأدب الغربى مثل مسرحية البخيل لـ (موليير) ، وكان يدعو فنه هذا « الذهب الأفرنجى المسبوك » ، وكان لمارون ابن أخ اسمه سليم نقاش رحل بعد موت عمه إلى مصر ، وسعى فيها حتى أنشأ مسرحاً وفرقة : وظهر بمصر فى ذلك الوقت رجل

---

(١) من أصل كردى . نزح أبوه إلى مصر فى عهد إسماعيل ، وانتظم فى الجيش المصرى وارتقى إلى رتبة أمير آلاى ، وولد قاسم بمصر ودرس القانون ، وتولى مناصب القضاء حتى صار مستشاراً بالاستئناف ، وتوفى سنة ١٩٠٨ . والمرأة الجديدة مدينة إليه بالشىء الكثير فهو الذى شق لها طريق التحرر كما تريد وإن لم يكن أول من نادى بذلك ، فقد عرفنا أن رفاعة الطهطاوى نادى بتحرير المرأة وتعليمها ، ولكن الزمن والبيئة والأمة كانت كلها غير مستعدة لتلبية دعوته حينذاك . فلما أتى قاسم أمين وجد من المسلمين من يستجيب له ، وقد سارت المرأة فى سفورها شوطاً بعيداً أكثر مما قدر قاسم أمين أو أراد .

يهودى اسمه « يعقوب صُنُّوع » أسس مسرحاً عربياً بالقاهرة ترجم له عشرات الروايات الفرنسية الغرامية بلغة عامية ركيكة وقد تقدم الكلام عنه[١] ، وظل المسرح منذ ذلك الوقت يعتمد على الروايات الأجنبية الممصرة ، وأحياناً يضع له بعض المؤلفين مسرحيات لا تمثل الحياة المصرية فى شىء ، وبها كثير من عادات الغرب وتقاليده ولم يتجه المسرح وجهة إصلاحية إلا نادراً مثل ما مر بك من روايات عبد الله نديم وأضرابه .

على أن الاهتمام بالمسرح و بالتمثيليات لم يكن كبيراً ، و إنما عنى المترجمون بنقل القصص الغربى بأنواعه وألوانه ؛ ومن أقدم الذين اشتغلوا بترجمة القصص نجيب حداد اللبناني[٢] فنقل إلى العربية رواية صلاح الدين تأليف (ولترسكوت) ورواية السيد Cid تأليف كورنى Corneille) وسماها (غرام وانتقام) ، ورواية (هيرنانى) تأليف هوجو ، وسماها (حمدان) ورواية روميو وجوليت تأليف شكسبير وسماها (شهداء الغرام) ، ورواية البخيل لـ (موليير) ورواية الفرسان الثلاثة تأليف اسكندر دوماس فى أربعة أجزاء طبعت لأول مرة سنة ١٨٨٨ .

وفى أواخر القرن التاسع عشر (يونيو سنة ١٨٩٧) حضر إلى مصر كل من نقولا رزق الله ، وخليل مطران ، وطانيوس عبده ، واشتغلوا بالصحافة ، ثم التحق نقولا بجريدة الأهرام ، وعكف على ترجمة الروايات بأسلوب سهل جذاب ، وفى سنة ١٩٠٤ ترجم رواية (سقوط نابليون الثالث) فى أكثر من ألف صفحة ، وقد استهوت هذه الروايات الناشئة فى مصر والبلاد العربيـة ، فأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، وأخذ بعض المسلمين يقلد هؤلاء المترجمين حتى لقد أنشأ أحدهم مجلة باسم (مسامرات الشعب) يحشد فيها كثيراً من القصص الرخيص . وأخرج نقولا رزق الله[٣] « سلسلة الروايات الجديدة » وكان العدد يحتوى على شذرات من الشعر القديم ، وقصصاً قصيرة إلى جانب الرواية الرئيسية ، وأنشأ طانيوس عبده مجلة الراوى ، وفيها أخذ فى تعريب الروايات الشهيرة مثل (فوست) و (الملكة إيزابو) .

---

(١) راجع ص ٨٣ من هذا الكتاب .

(٢) ولد سنة ١٨٦٧ واشتغل بالصحافة فحرر فى جريدة الأهرام إلى سنة ١٨٩٤ ثم اعتزلها وأنشأ (لسان العرب) بالأسكندرية وتوفى سنة ١٨٨٩

(٣) توفى نقولا رزق الله فى مارس ١٩٠٥

وترجم فرح أنطون[١] (الكوخ الهندى) و (بول وفرجينى) و (أتالا) وغيرها من الروايات. كما ترجم خليل مطران كثيراً من روايات شكسبير التمثيلية.

وكان من الطبيعى بعد أن كثرت هذه الروايات فى أيدى الشباب والرجال أن يبدأ الأدباء فى محاكاتها، وكان أول المقلدين وأنشطهم جرجى زيدان[٢] فنحا فى تأليف الروايات منحى (ولترسكوت) الإنجليزى، واستمد من التاريخ العربى قصصه وأبطاله، وغيّر فى حقائق التاريخ وبدّل حتى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصى، وأخرج عدداً كبيراً من هذه القصص التاريخية منها: فتاة غسان، وأرمانوسة المصرية، وعذراء قريش، وغادة كربلاء، والحجاج، وفتح الأندلس، وشارل، وعبد الرحمن ... الخ هذه السلسلة الطويلة التى بلغت ثمانية عشر كتاباً مستمدة من التاريخ الإسلامى، وأربع قصص أخرى مكتوبة كلها بأسلوب صحفى، خالية من التحليل النفسى، والنظريات الفلسفية، وما هى إلا تاريخ فى قالب قصة لم تكمل شروطها الفنية، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق، وإن كانت الحقائق التاريخية ليست شرطاً فى القصة التاريخية كما نرى عند (سكوت)، وكما نرى عند شكسبير فى (أنطونى وكليوباترة) و (يوليوس قيصر) وغيرها من الروايات والمسرحيات التاريخية، ولكن هذه قصص فيها نفحة الأديب، وخيال الشاعر، وعبقرية الفنان، وليست سرداً تاريخياً مكتوباً بأسلوب صحفى. ومثل زيدان فى هذا سليم البستانى[٣] فى رواية (زنوبيا وبدور) وغيره ممن سلكوا هذا النهج التاريخى، وزيدان أسلم من سواه

---

(١) توفى فرح أنطون فى ١٩٢٢

(٢) ولد ببيروت سنة ١٨٦١، ودرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة ليلية مدة خمسة عشر شهراً؛ وفى سنة ١٨٨١ خطر له أن يدرس الطب ولكنه لم يتم دراسته بالكلية الأمريكية، ونال شهادة من الخارج فى الصيدلة ثم أتى مصر، وتولى تحرير جريدة الزمان سنة. ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً بقلم المخابرات، ثم رجع إلى بيروت عضواً فى المجمع العلمى الشرقى فدرس العبرية والسريانية وزار انجلترا فى سنة ١٨٨٦، وتردد طويلا على (المتحف البريطانى) بلندن، ثم عاد إلى مصر وساعد فى تحرير المقتطف، ولكنه استقال بعد مدة، واشتغل بالتدريس سنتين وفى سنة ١٨٩٢ أنشأ الهلال وتوفى سنة ١٩١٤.

(٣) توفى فى سنة ١٨٤٤ وبذلك سبق زيدان فى تأليف القصص التاريخية وله كذلك قيس وليلى والإسكندر.

عاقبة . ثم ظهرت بعد ذلك ، وللأسف ، قصص رخيصة تتملق النزعات الدنيا عند الشعوب ، وتُقرأ لقتل الوقت ، وتمثل كثيراً من وجوه الحياة الإنسانية المخزية ، فالإجرام بأنواعه وطرقه ، والعشق السافل ، وما شاكل ذلك من نواحى الضعف الإنسانى ، ولا سيما وهى فى المدنية الغربية المسمومة قد زحفت فى صورة قصص مزرية بالأدب مطوحة به فى مهواة سحيقة ، مضللة عقول النشء ، ومفسدة لأهوائهم وأخلاقهم ، وباعثة منازع الشر والإجرام على طريقة رعاع باريس ، وغوغاء لندن ، وصعاليك برلين ، وشطار نيويورك وشيكاغو ، من أمثال : (اللص الشريف) و (جونسون) و (ملتون توب) و (طرزان) ؛ وغير ذلك مما لا يخرج عما كان متداولاً فى مصر إبان عصور الضعف من قصة (أحمد الدنف) و (دليلة المحتالة) ومغامرات العيارين والشطار ، وإن اختلف اللون والزمان والحوادث ، ولكن الفكرة واحدة ، والنهج متشابه ، والغاية السلوى وقتل الوقت ، وتملق النزعات الدنيا . وأين هذا من الأدب ؟

وظل هذا الفيض من السخف يغمر المطابع العربية حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، واستمر بعدها ولا زال للآن ، ولكنا نكتفى بتتبعه عند هذا الحد ، ولنا فى الكلام عن القصة ومنزلتها فى الأدب عودة قبل أن نفرغ من هذا الفصل إن شاء الله ، وحسبنا أن نقول هنا كلمة طالما رددناها فى هذا النوع من الاتجار بعقلية الجماهير : لقد تفتحت أعيننا فى الصبا فإذا نحن فى بيداء موحشة نخبط فى دورب ملتوية ونعرج يمنة ويسرة بعيدين عن جادة الحق ، وأبواقُ الثقافة الدخيلة يقودون القافلة إلى مصرعها الوخيم ، وينفثون فيها السموم المخدرة حتى تستكين لهم وتُسلم قيادها ، وهى فى غفلة عما انطوت عليه جوانحهم . جاءوا وهى ترزح تحت أصفاد الجهل والانحلال ، وأرادوا مسخها وتشويهها ؛ حتى تتناسى ماضيها وتفقد ما كمن فيها من عزة وأنفة .

جاءوا بقصص خليع يثير الشهوة ، ويقتل الحياء ، ويلطم وجه الفضيله والشرف ، ويوحى بالإجرام والفسق ، وجاءوها بمهازل تمثل على المسارح باسم الفن ، وبأدب موبوء يزلزل العقيدة ، ويخدش وجه العفاف ويعرض على الناس باسم القصة . إنه أدب نغِلٌ ،

وورد آسن وغذاء عفن ، التقطه من يتجرون بعقلية الجماهير ، ومن وقعوا وقوع الذباب على الفضلات الفاسدة من نُفايات الحضارة الأوربية وقدموه لقومهم فى شكل زرى .

إن النفوس المريضة ، والعقول الهزيلة هى التى يخلبها الزَّيف ، وتغويها المظاهر الخداعة ، والقلوب الخالية من الإيمان هى التى تهيم بالأباطيل فتعتسف الطريق ، وتنفذ فى سراديب البهتان ؛ وإذا أرادت أمة أن تنهض وتنشئ جيلا طموحاً فتياً صدفت وعفت عن هذه الآداب المرقعة ، والقصص الهزيلة ، وجدت فى تثقيف الجمهور وتهذيبه فلا تترضاه أو تتملقه ، أو تناشد عواطفه الجامحة النابية طمعاً فى ثروة زائلة . وجاه مؤقت ، وعليها أن تقود هذا الجمهور الساذج إلى المعين العذب فتشذب خلقه ، وتروض نفسه ، وتطبعه على الخير وتزوده بما ينهض به .

لِمَ نعرضُ أدواء الأمم الأجنبية ومثالبها على جمهور قرائنا ، وقد وضع هذا القصص الغريب لبيئة غير بيئتنا ، وليعالج مشكلات لا وجود لها عندنا ؟ ؟ إن القصة سلاح ذو حدين ، واستعماله يحتاج إلى مهارة وخبرة ، وقد أساء المترجمون استعماله فطعنوا قومهم ومجتمعاتهم الطيبة فى الصميم ، وجنوا عليها جناية لا تغتفر .

ولعلك أدركت مما سبق كيف أن الأدب الأجنبي قد طغى تياره واشتد ، فالمدارس تفرض فيها اللغة الإنجليزية فى كل الدروس ، ولا يعفى إلا درس العربية والدين ، والأدب أخذ يغرف من بحور الغرب دون تحر أو تدقيق ، وجمهرة المثقفين تجد فيما ينقل إليها صوراً من حياة الغرب لم تعهدها ، والغرب هو المتملك القاهر ، والنفوس تشرئب لمعرفة عاداته وسر قرته وكثيراً من ألوان حياته .

ظلت المدارس المصرية خاضعة لهذه السيطرة الأجنبية حتى تولى سعد زغلول وزارة المعارف فى سنة ١٩٠٦ ، ونازع المستشار الإنجليزى (دانلوب) سطوته وجبروته ، وألزمه حده لا يتعداه ، وذلك بتشجيع الجمعية التشريعية التى أصرت على إرجاع اللغة العربية ، وعمل جاهداً على غسل هذه الوصمة ، والرجوع بلغة التدريس إلى العربية ، فكان له ما أراد ، وكانت حسنة لا تنسى له وللجمعية التشريعية لأنها أعادت التيار إلى مجراه القديم ،

وأخذ العلم الحديث يتدفق فى هذا المجرى كتباً طريفة التأليف ، بارعة العرض جذابة الأسلوب ، وسار نهر العربية زخاراً صوب الكمال حتى يومنا هذا .

وبقى درس اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزى درساً أصيلا فى المدارس ، يقف منه الشباب على لون من التفكير الأوربى ، وكان لهذا أثره العميق فى الفكر العربى والنتاج الأدبى فيما بعد ، وسنعود إلى هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى مقدمة الجزء الثانى إن شاء الله.

(ب) المستشرقون :

ومن أهم العوامل فى النهضة الأدبية الحديثة ، والاتصال بالفكر الأوربى بجانب الترجمة ما قام به المستشرقون من جهد فى سبيل اللغة العربية وآدابها ، وبحث العقيدة الإسلامية ومذاهبها ، ونشر ما عفت عليه الدهور ، وأغفلته يد النسيان من كنوز اللغة العربية .

اتصل الغرب بالشرق بادئ الأمر حينما كان الشرق فى عنفوان صولته ، وقمة مجده يغص بالمدارس الجامعة ، ويزخر بالكتب الثمينة ، ويشمخ بعلمائه وفلاسفته ورياضييه ؛ وكانت أوروبا لا تزال فى سنة من النوم حينما فرغ الشرق أو كاد من يقظته الطويلة وجهاده العنيف فى سبيل العلم والمدنية ؛ ولما استيقظت أوربا قليلا ، تلفتت فوجدت شعباً غريباً يعمر جزءاً خصباً من قارتها ، وقد أحاله جنة فينانة ترف فيها العلوم والفنون والآداب ؛ فتطلع أهل أوربا إلى الأندلس منذ ذلك الحين ، يرمقونها بعيون دهشة ، وأفواه فاغرة ، وبودهم أن يعرفوا بعض ما عليه أهلها من علم .

وطئت أقدام العرب كثيراً من أرض القارة الأوربية ، وعبرت بعضها عبور المسافر أو المغامر أو التاجر ، ووقفت فى بعضها وقفة الفاتح القادر ؛ فعبروا فرنسا عبوراً سريعاً ، وامتد طوفانهم إلى أودية (بوردو) ، وتألب عليهم أوشاب أوربا من فرنسيين وألمان وسواهم حتى انحسر طوفان العرب عن فرنسا غب معركة (پواتييه) أو بلاط الشهداء ، بيد أن مقامهم قد طال نوعاً ما فى جنوب فرنسا من جهة البحر الأبيض المتوسط ، وتركوا ثمة آثاراً فى صميم الحياة الفرنسية تدل على طول المكث والعشرة ولا سيما فى مقاطعة

(پروفانس) وقد امتد نفوذهم منها حتى سويسرا عبر جبال الألب .

وأقاموا بصقلية قرنين ونصف من الزمان ، وتركوا من المساجد والآثار فى (بالرمو) ما يشهد بعزهم وثروتهم وحضارتهم ؛ واحتلوا أكثر مرافئ إيطاليا خطراً ، واستولوا على كل جزر البحر المتوسط . وفى كل بلد يحلون به ينشرون لغتهم ودينهم وآدابهم وحضارتهم ، ولم يكن من السهل التخلص من ثقافتهم وآثارهم حتى بعد جلائهم عن بعض تلك البلاد والثغور ، ولا أدل على ذلك من صقلية فقد ظلت فى بلاط ملوكها وعلى ألسنة أهلها بعد نزوحهم عنها بقرون . وقد بلغ من سلطانهم أن ملوك صقلية تزيوا بزى العرب ، ورأس وزاراتهم وقاد جيوشهم وأشرف على أمورهم عرب أقحاح ممن تخلف فى الجزيرة بعد نزوح جمهرتهم ، وهاك ابن جبير يقول فى رحلته المشهورة حين زار صقلية سنة ١١٨٧ [(١)] فى عهد الملك غليوم : « وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ... وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر فى مطبخة رجل من المسلمين ، وعليهم قائد منهم ... ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وشعاره على ما أعلمنا أحد المختصين به (الحمد لله ، حق حمده) » .

ولا عجب فإن العرب فى ذياك الوقت قد بلغوا شأواً عظيما من الحضارة ، وكان أهل أوربا فى أشد الحاجة لمعونتهم وثقافتهم ، وهاك (دوزى) يؤكد بعد أن وقف بالدرس على كنه الحضارة العربية فى الأندلس : « أنه لم يكن فى كل الأندلس أمى يوم لم يكن فى كل أوربا من يعرف القراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القساوسة » ، وصارت جامعة طليطلة قبلة الطلاب من كل بقاع أوربا فى القرن الثانى عشر حتى بعد أن تقلص ظل الملك العربى عن معظم بلاد الأندلس ، وبقيت العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى سنة ١٥٨٠ ، وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر . ولسنا الآن فى صدد تبيان أثر العرب فى الحضارة الأوربية وآدابها وغنائها وموسيقاها ، وحسبك أن تعلم أن الفلسفة الإسلامية ظلت تدرس فى جامعات أوربا حتى سنة ١٦٥٠ وأن أرسطو

---

(١) نزح العرب عن صقلية سنة ١٠٧٢ م .

لم يكن يفهم إلا بشروح ابن رشد ، وأن طب ابن سينا كان غاية كل مشتغل بالطب فى أوربا أمداً طويلا ، وأن مئات الكلمات العربية التى تنبىء عن الحضارة والعلم قد دخلت اللغات الأوربية واستعجمت من مثل قيثارة وقطران وأميرال وشراب ، وزعفران ، وكافور ، وقرمز ، وصك ، ورزمة ، وإكسير ، وكيمياء ، وجبر ، وساقية ، وما شاكل ذلك . وهم الذين علموهم صناعة الحرير والغلائل الموشاة ، وصناعة السلاح والخزف المذهب ، والفسيفاء ، والبلور والورق والأصباغ والأدهان والمعادن ، وعلم الجبر والحساب بأرقامه[1] .

واتصل الغرب مرة أخرى بالشرق إبان الحروب الصليبية ، التى شنها متعصبة المسيحيين حينما أنسوا فى عرب الأندلس ضعفاً ، وظلت نحو قرنين وطوفان جنود أوربا يتكسر على صفاة حماة الأسلام ، ويرتد ، ثم يعود أشد مما كان بأساً ، فتقابله صدمات تخفف من غلوائه ، وهكذا حتى خمد ؛ ولكن خلف هذا الاتصال الطويل آثاراً بعيدة الغور فى كل من المغاربة والمشارقة ، أما المغاربة فدهشوا من حضارة العرب فى بلادهم ووجدوا أشياء كثيرة لا عهد لهم بها ، فقلدوا المشارقة فى لبس الدروع الخفيفة المنسوجة وفى استخدام الموسيقى العسكرية ، واصطنعوا السيوف والرماح ، وأخذوا عنهم فن بناء الحصون وحفر الخنادق ، وإقامة الاستحكامات ، واستعملوا النار لنقل أخبارهم فى الليل والحمام الزاجل بالنهار ، وأخذوا كثيراً من أصول الهندسة ، وتأسيس المنازل بالطنافس والنماذج والسجاد والأوانى الخزفية وغيرها .

إن الفلسفة اليونانية التى يعتز بها الغرب ، وعليها بنى حضارته وثقافته ، إنما وصلت إليه عن طريق العرب ، فهم الذين حفظوها وشرحوها وعلقوا عليها وأضافوا إليها فلسفتهم وأراءهم فلما استيقظت أوربا وجدت الطريق ممهداً فسارت فى المدنية بخطى واسعة .

كان هذا استشراقاً غير منظم ، نشأ عن الاختلاط ، ولم ينتج عن الدرس ، أما الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها فقديم يرجع إلى القرن العاشر الميلادى واهتم ملوك أوربا بأداب العرب وعلومهم ، وأول من فعل ذلك فردريك الثانى ملك صقلية سنة ١٢٥٠ ، ثم ألفونس ملك قشتالة فقد جمع الأخير المترجمين كما فعل المأمون من قبل ، وأمر بترجمة كتب العرب ،

---

(١) راجع : تراث الإسلام ، وراجع كذلك غزوات العرب فى أوربا للأمير شكيب أرسلان .

وكانوا ينقلونها إلى الأسبانية ثم إلى اللاتينية ، وشاع خبر هذه التراجم فحاكاه كثير من ملوك أوربا ، ومضت القرون الوسطى والثقافة العربية من طب وهندسة وفلسفة وجبر وحساب وكيمياء وصناعة وأدب[1] هى عماد الثقافة الأوربية ، ولكن ما لبثت أوربا أن تخطت دور التعلم ، ومهرت فى شتى أنواع العلوم ، وبنت على هذا القديم الذى نقلته ومحصته ودرسته دراسة عميقة علماً جديداً لا يزال فى نمو واطراد ، وهو عماد الحضارة الغربية اليوم . ومع أن أثر العلوم والآداب العربية لا يجحد فإن هذا الأثر قد ضعف على مر الأيام[2] ، واستقلت العلوم والآداب الأوربية ، وصارت مرجعاً ومعيناً ، وتراثاً شائعاً للإنسانية . ومع كل هذا فقد تجدد نشاط الغرب فى الاستشراق خلال العصور الحديثة ، وظهر هذا النشاط فى صور عدة :

١ — الجمعيات الآسيوية :

وهى جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شئون الدول التى يحكمونها ، وتعرف

---

(١) بلغ ما ترجم من الكتب العربية فى القرون الوسطى أكثر من ٣٠٠ كتاب منها ٩٠ فى الفلسفة والطبيعيات ، و ٧٠ فى الرياضيات ، والنجوم ، و ٩٠ فى الطب و ٤٠ فى الفلك والكيمياء

(٢) لا مراء فى أن الأدب الأوربي قد تأثر بالأدب العربي خلال العصور الوسطى ، وظهر هذا الأثر فى صور شتى ، فنرى الشعر الغربى يقتبس القافية من الشعر العربى بعد أن لم تكن معروفة فى الشعر اليونانى أو اللاتينى Legacyof Islam. P. 373 . والطروبادور نوع من الشعر الغنائى الغزلى الرقيق ، وقد ظهر فى جنوب أوربا فى القرون الوسطى ، وهو يشبه إلى حد كبير فى أوزانه وقوافيه ومعانيه وحرارته الشعر الغزلى العربى ، ولا سيما الغزل العذرى وكلمة (طروب) عربية لا شك فيها . والقصص العربية والخرافات والأمثال والنوادر كان لها أكبر الأثر فى الأدب الأوربى حينذاك ، ومن أهم الكتب التى ترجمت كليلة ودمنة فى القرن الثالث عشر ، وكان النواة التى نشأ من حولها أدب قصصى عن الحيوان والطير وإذا وازنت بين أشعار (لا فونتين) وبين قصص كليلة ودمنة تجد الاقتباس واضحاً وقصص بوكاشيو (دى كاميرون) عليها طابع عربى ظاهر ، ولما ترجم ألف ليلة سنة ١٧٠٤ احتفى به الأدباء الأوربيون احتفاء شديدا ، واقتبسوا منه ، ونسجوا على منواله ، وظهرت قصص المغامرات فى أمثال روبنصن كروزو لدانيل ديفو ؛ وكثير من القصص الأوربية المشهورة تجد فيها النفحة العربية والخيال الشرقى ، خذ مثلا (زاديج) لفولتر أو الكوميديا الإلهية لدانتى فإنك تلمس أثر رسالة الغفران قويا فى الملحمة الإيطالية ، ولم يكن هذا التشابه مجرد مصادفة ، بل الأمر أعمق من هذا . ومن أشهر الآثار التى تتسم بالطابع الشرقى العربى ديوان الشاعر العالمى (جيته) المسمى ديوان الشرق والغرب .

ومسرحية كورنى (السيد) ومسرحية راسين (باجازيت أى بايزيد) من أثر هذا الاتصال الثقافى .

لغاتهم وآدابهم ونفسياتهم ، حتى يكون حكمهم مبنياً على أسس متينة . ومن أقدم هذه الجمعيات تلك التى أنشئت فى بتافيا عاصمة جاوا سنة ١٧٨١ ، ومن أشهرها الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ، وقد أسست سنة ١٨٢٣ ، ونظيرتها الفرنسية ١٨٢٠ . ولكل من الجمعيتين مجلة مشهورة تعنى بالأبحاث الشرقية والإسلامية والعربية ، وتقوم أحياناً بطبع كتب لم تنشر من قبل أو إخراجها بتعليقات قيمة ، ومن ذلك نشر المجلة الأسيوية الإنجليزية لمقامات الحريرى ، وترجمان الأشواق لابن عربى (ترجمهما نيكلسون) . وقد اعتنى الفرنسيون خاصة فى مجلتهم بالمذاهب الإسلامية فبحثوا فى الدروز والشيعة والإسماعيلية والوهابية والنصيرية وما شاكل ذلك .

وحذا كثير من الدول حذو إنجلترا وفرنسا فى إنشاء الجمعيات الأسيوية فصار لأمريكا الجمعية الشرقية ، ولألمانيا الجمعية الآسيوية ، وفى إيطاليا والنمسا كذلك .

٢ — المؤتمرات :

ومن مظاهر نشاطهم المؤتمرات التى يعقدونها فى إحدى مدنهم المشهورة ، ويؤمها المستشرقون من كل دولة ، وكثير من الأدباء والعلماء فى الدول الشرقية ، وتلقى فيها البحوث ويتناقش المؤتمرون فى شتى المسائل ، ويطلعون على ما قام به كل من الخدمات فى سبيل الاستشراق ؛ وأول مؤتمر عقده المستشرقون هو مؤتمر باريس سنة ١٨٧٣ ، وتكررت بعد ذلك المؤتمرات حتى زادت عن العشرين ، وقد أخذت مصر فى العصر الحديث تشترك فى هذه المؤتمرات ومن أول من اشتركوا فيها عبد الله فكرى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف .

٣ — المكتبات :

ومن العجب أن كثيراً من نفائس الفكر العربى والإسلامى ليس فى البلاد العربية ، وإنما اكتنزه الغربيون فى مكاتبهم ، وقد جمعوا كثيراً من هذا التراث فى خلال العصور

الماضية ، أيام محن المسلمين بالأندلس وصقلية وفرنسا وإيطاليا ، وأيام الحروب الصليبية ، وأيام أن دخلوا بلادنا غزاة فاتحين ، أو تجاراً مستعمرين ، وحرصوا على اقتناء النسخ النادرة والكتب الثمينة ؛ حتى تجمع فى هذه المكتبات ما يزيد على مائتين وخمسين ألف مجلد ، ومن أشهرها : مكتبة برلين ، وباريس ، ولندن ، وليبزيج ، وليدن ، وأكسفورد ، وأدنبرة ، ولينجراد .

وقد عز على كثير من أدباء العرب وعلمائهم أن يظل هذا التراث النفيس غريباً محتبساً فى مكاتب أوربا ، فأخذوا منذ تنبهوا يغشون هذه المكتبات وينقلون بعض المخطوطات القيمة ، أو يصورونها ؛ وقد اهتمت بذلك جامعة فؤاد الأول ، ورصدت لهذا العمل الأموال وبعثت العلماء لهذه الغاية ، ومن أشهر الذين اهتموا بهذا وجلبوا عشرات الكتب النادرة أو صورها المرحوم أحمد باشا تيمور والمرحوم أحمد زكى باشا .

٤ — معاهد اللغات الشرقية :

وفى العواصم الكبرى بأوربا مدارس للغات الشرقية ، يرد مناهلها طلاب أوربيون يدرسون اللغات كى يتمكنوا من العيش ببعض بلاد الشرق تجاراً أو موظفين أو سياحاً أو مستعمرين ، كما يؤمها اليوم كثير من أبناء البلاد الشرقية والعربية ، يتزودون من علم كبار المستشرقين ويأخذون عنهم طرق البحث ، والاستنباط . ومن أشهر هذه المعاهد مدرسة اللغات الشرقية بلندن وباريس وبرلين . وكل مدرسة تحوى مكتبة قيمة ، وتعنى بدراسة اللهجات وتسجيل الأصوات ، ويدرس بمدرسة اللغات الشرقية بلندن مايزيد عن ثلاثين لغة

٥ — أشهر المستشرقين المحدثين :

١ — دى ساسى الفرنسى توفى سنة ١٨٣٨

منشئ الجمعية الأسيوية الفرنسية ، وكان من أعظم المستشرقين وأصبرهم على الدرس وخلف عدة آثار تشهد بفضله ، من ذلك : ترجمة لكليلة ودمنة ، ومقامات الحريرى ، ورحلة

عبد اللطيف البغدادى ، وألفية ابن مالك ، والبردة ، وكتاب النقود للمقريزى ، وكتاب الحمام الزاجل لابن الصباغ ، وترجم كثيراً من أشعار العرب كقصيدة الطغرائى : يا خالى البال ، وله مؤلف فى تاريخ العرب أيام الجاهلية ، وآخر عن ديانة الدروز . وهو الذى أنشأ مع تلامذته المجلة الأسيوية Journal Asiatique

٢ — كاترمير Quatremére ١٨٥٧

وهو من تلاميذ دى ساسى الفرنسيين ، ومن أعماله : نقل تاريخ المماليك للمقريزى ، وطبع مقدمة ابن خلدون فى ستة أجزاء بالعربيـة والفرنسية ، ونشر منتخبات من أمثال الميدانى متناً وترجمة ، وترجم المعلقات السبع . ومن أبحاثه المشهورة بالمجلة الأسيوية ما كتبه عن النبطيين والعباسيين ، وكتاب الأغانى والفاطميين ، وذوق الشرقيين ، وغير ذلك من الأبحاث المفيدة التى تدل على نشاط جم ، وصبر بليغ .

٣ — مونك Munk ١٨٦٧

وهو ألمانى يهودى درس على دى ساسى ، وقدم مصر فجمع مخطوطات كثيرة منها تاريخ الهند للبيرونى : ومن آثاره : تأثير اللغة العربية فى اللغة العبرية بعد التوراة ، وبحث ونقد فى ديانة الدروز ، ومجموعة فى الفلسفة العربية واليهودية (وهو كتاب نفيس) .

٤ — دى برسفال De Perceval ١٨٧١

وهناك أب وابن بهذا الاسم ، وكلاهما اشتغل بالعلوم الشرقية ، وإنما نعنى بهذا التاريخ الابن ، وقد قام برحلة إلى لبنان ومكث به ثلاث سنوات ، وعين أستاذاً للعربية العامية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم للفصحى فى معهد فرنسا . ومن آثاره : المعلقات السبع وباكورة تاريخ العرب فى ثلاثة مجلدات ، وقد طبع مراراً .

٥ — رينان Renan

وقد درس اللاهوت فى أول نشأته ، وتعمق فى اللغات الشرقية ، وقام برحلة فى بلاد الشرق العربى . ومن مؤلفاته : تاريخ اللغات السامية فى جزئين . وكتاب ابن رشد وقد علق عليه بقوله : « لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو » ، وتاريخ فينيقية .

٦ — دى فو De Vaux

واشتهر بأبحاثه الرياضية والفلسفية ، ومن أحسن كتبه : مفكرو الإسلام فى خمسة أجزاء . وكتاب الفلسفة المشرقية ، وترجم قصيدة ابن سينا فى النفس ، وترجم تائية ابن الفارض .

٧ — Massignon

وهو من المستشرقين المعاصرين ، وعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، ومن أكثر المستشرقين نشاطاً ، وأطولهم باعاً ، وقد كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وتتلمذ أول أمره فى الجزائر وتونس وفاس ، ورحل إلى العراق ، وجاب كثيراً من الأقطار العربية . ومن آثاره المهمة : أخبار الحلاج والصوفية ، والأمثال البغدادية للطالقانى ، وكتاب مراكش فى القرن السادس عشر ، وله بحوث طيبة فى دائرة المعارف الاسلامية .

٨ — لفى بروفنسال Provençal

وهو كذلك من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، ولد بالجزائر سنة ١٨٩٤ ، وقد انتدب أستاذاً زائراً بجامعة فؤاد الأول ، ومن أشهر آثاره : أسبانيا المسلمة فى القرن العاشر ، والحضارة العربية فى إسبانيا ، ووثائق غير منشورة عن تاريخ الموحدين ، وتقويم للسير الأندلسية فى القرن الثالث عشر ، وقد عاون فى طبعة الذخيرة لابن بسام من مطبوعات جامعة فؤاد الأول .

أما المستشرقون الانجليز فمن أشهرهم :

١ — كارليل توفى سنة ١٨٠٥ وهو صاحب كتاب الأبطال المشهور .

٢ — إدوارد لين Lane

وقد قدم مصر سنة ١٨٢٥ ودرس عاداتها دراسة طيبة ، حتى لقد لقبه أصدقاؤه بمصر بمنصور أفندى لكثرة تقليده للمصريين فى معيشتهم . ومن أجل آثاره : معجمه المشهور سواء العربى أو الانجليزى ، ومعجمه العربى نموذج احتذاه من قام بعمل المعاجم بعده ،

ومن آثاره كذلك : كتاب عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، وهو تحفة جميلة ، وقد ترجمه أخيراً الأستاذ عدلى نور بالرسالة .

٣ — وليم رايت Wright ١٨٩٩

ترجم رحلة ابن جبير ونقدها وعلق عليها ، ومن أشهر كتبه وأعمها نفعاً : كتابه فى النحو وقد طبع مرات ، وله كتاب جيد فى الموازنة بين اللغات السامية Comqarative Grammer ، واشترك مع (دوزى) فى إخراج نفح الطيب للمقرى ، ونشر كتاب الكامل للمبرد ، وكتاب تلقيب القوافى لابن كيسان ، وكتاب أخبار الرواد ، وترجم كليلة ودمنة ، وهو صاحب أبحاث الأدب السورى فى دائرة المعارف البريطانية .

٤ — إدوارد براون Browne توفى سنة ١٩٢٩ .

وكان أستاذاً بجامعة كمبردج للعربية والفارسية ، ومن آثاره : الطب عند العرب ، وتاريخ الأدب الفارسى ، ونشر كتاب مذاكرة الشعراء لدولتشاه ، وكتاب نهاية الأرب فى أخبار الفرس والعرب ، والصحافة والشعر فى إيران الحديثة .

٥ — السير توماس أرنولد T , Arnold

وهو أول أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ومن مؤلفاته العظيمة ذات الأثر الجليل كتابه الدعوة إلى الإسلام ، وقد ترجم إلى كثير من اللغات ، وقمنا بترجمته ، ونشر جزء كبير من هذه الترجمة بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ ، ولكن حالت دون نشره عوامل مختلفة ، وقد تمت ترجمته إلى العربية ونشر فى هذه السنة على يد بعض الأستاذة . وفيه يظهر توماس أرنولد دون تحيز سر انتشار الإسلام وعظمته .

٦ — مرجوليوث ، وقد اكتسب شهرة كبيرة فى البلاد العربية ، ونشر معجم الأدباء لياقوت الحموى ، ونشوار المحاضرة ، وديوان ابن التعاويذى ، وحماسة البحترى ، وترجم فصولا من التمدن الإسلامى لجورجى زيدان .

٧ — نيكلسون ، وهو كذلك من أشهر المستشرقين وأبعدهم صيتاً ، ولا سيما فى أبحاثه عن التصوف الإسلامى ، وله فى ذلك كتاب فى ثمانى مجلدات ، ونشر ترجمان الأشواق

لابن عربى ، وترجم لابن الفارض فى المجلة الأسوية ، وفكرة الشخصية فى الصوفية ، وله كتاب مشهور فى تاريخ الأدب العربى ، وتوفى نيكلسون منذ عامين .

٨ — جب Gibb .

وهو من أشهر المستشرقين الإنجليز ، وقد درسنا عليه بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وهو عضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية وله عناية فائقة بالأدب الحديث فى مصر والشام ، وله أبحاث عن الفتوحات العربية فى آسيا الوسطى وعلاقاتها ببلاد الصين ، وصار محرراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وله خبرة واسعة ببلاد الشرق العربى .

أما المستشرقون الألمان فقد كان الحافز لهم على الاستشراق فى مبدأ الأمر الاشتغال بالمسائل الدينية ، وترجمة التوراة فاضطروا إلى دراسة العبرية ثم العربية . و بعد ذلك حفزتهم عوامل سياسية وتجارية إلى الاهتمام باللغات الشرقية ، و إن لم يتهيأ لهم أن يكونوا مستعمرين لهم أملاك واسعة و إمبراطوريات شرقية مترامية الأطراف كالفرنسيين والانجليز . ومع هذا فقد نبغ منهم عدد أفادوا الدراسات الشرقية والإسلامية فائدة لاتنكر ، ومن أشهرهم :

١ — فريتاخ توفى سنة ١٨٦١ .

وتعلم على دى ساسى فى باريس ، واشتغل بالتدريس فى جامعة (بون) ، ومن آثاره ديوان الحماسة لأبى تمام مع شرح التبريزى و بترجمة لاتينية ، وأمثال لقمان ، وأمثال العرب وأمثال الميدانى بترجمة لاتينية ، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ؛ وله معجم عربى لاتينى فى أربعة أجزاء . وطبع معجم البلدان لياقوت مع فهارس قيمة وتذييل .

٢ — فلوجل توفى سنة ١٨٧٠ .

ومن آثاره : نشر كتاب كشف الظنون لحاجى خليفة مع ترجمة لاتينية فى سبع مجلدات ، ودراسة عن الكندى الفيلسوف العربى ، ونشر كتاب التعريفات للجرجانى وأتبعه بدراسة عن ابن عربى ، ومدارس العرب النحوية حتى القرن العاشر ، ونشر الفهرس لابن النديم كذلك .

٣ — فليشر توفى سنة ١٨٨٨ .

مؤسس الجمعية الشرقية الألمانية ، وقد نشرت هذه الجمعية كثيراً من الكتب القيمة مثل معجم البلدان تصحيح (وستنفلد) وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح (بان) ، وكتاب الآثار الباقية للبيرونى تصحيح (سخو) .

ومن آثاره : ترجمة ألف ليلة وليلة فى تسعة مجلدات ، وتفسير القرآن للبيضاوى وعجائب المخلوقات للقزوينى .

٤ — وستنفلد سنة ١٨٩٩ .

ومن آثاره : مختلف القبائل ومؤتلفها لمحمد بن حبيب ، وتاريخ مكة للأزرقى ، وأخبار قبط مصر للمقريزى ، وجغرافية مصر للقلقشندى ، وتاريخ الخلفاء الفاطميين ، وتاريخ أطباء العرب ، وديوان علقمة الفحل ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت فى جزءين ، وآثار البلاد للقزوينى وطبقات الحفاظ للذهبى ، وغير ذلك من الكتب القيمة وكلها تدل على نشاط وافر ، ورغبة صادقة فى خدمة الأدب العربى والتاريخ الإسلامى

٥ — نولدكه توفى سنة ١٩٣١

ومن آثاره : قواعد اللغة العربية ، وتقارب اللهجات ، وتاريخ القرآن ، ودراسة عن المعلقات ، وتاريخ عروة بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب ، والعرب فى عهد الساسانيين ، وله مختارات شعرية من العصر الجاهلى والإسلامى الأول ، وجمعت مقالاته فى مجلدين فبلغت خمسمائة مقالة .

ولم يقتصر الاستشراق على علماء هذه الدول ، بل نرى فى معظم البلاد الأوربية وفى أمريكا مستشرقين لهم باع طويل فى نشر الكتب وتصحيحها وترجمة بعضها إلى لغاتهم ، حتى ولو يكن لهم مطمع استعمارى ، أو مقصد تجارى أو تبشيرى ، ومن هؤلاء المستشرقين :

١ — كراتشقوفسكى الروسى [1] (ولا يزال حياً) وقد عنى عناية خاصة بالأدب

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل إذا شئت فى كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقى ص ١٣٢ وما بعدها وقد اعتمدنا فى الكلام عن المستشرقين على هذا الكتاب ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو .

العربى الحديث ، وانتدب أستاذاً بجامعة فؤاد ، ومن آثاره التى يقال إنها لا تقل عن الثلاثمائة بين مصنف ومترجم ومفسر : الرواية التاريخية فى الأدب العربى المعاصر ، نشرت سنة ١٩١١ ، ونشر مخطوطتين مجهولتين عن الجغرافية وعلم الفلك فى الحبشة وأسبانيا المسلمة ، والمتنبى وأبى العلاء ، وطبع كتاب البديع لابن المعتز بتفسير وتعليق ومقدمة فى ثمانين صفحة .

٢ — دوزى الهولندى توفى سنة ١٨٨٣

ولد بليدن ، وهى من أشهر المدن اهتماماً بنشر الكتب العربية ، ومن أشهر مؤلفاته : تاريخ الإسلام فى إسبانيا فى أربعة أجزاء ، بدأه بدرس القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، ثم عهد النبى عليه السلام ، ثم عصر الأمويين ، وتخلص إلى الأندلس فأرخها من سنة ٧١١ إلى ١١١٠ ، وله كتاب « كلام كتاب العرب فى دولة العباديين فى ثلاثة أجزاء » ، ومن أجل آثاره ملحق للمعاجم العربية ذكر فيه الألفاظ التى لم ترد بها ويقع فى جزءين ، ومما نشره تاريخ ابن زيان ، وتاريخ المعجب للمراكشى ، وجغرافية الأدريسى .

٣ — دى جويه De Goeje المتوفى سنة ١٩٠٩ وهو هولندى ، وقد اشتهر بنشر المؤلفات العربية الهامة بعد تصحيحها وضبطها ، فمما نشره : فتوح البلدان للبلاذرى ، وديوان مسلم بن الوليد ، والمكتبة الجغرافية العربية فى ثمانية مجلدات ، وتاريخ الطبرى الكبير فى خمسة عشر مجلداً مع فهارس قيمة ، وغريب الحديث لأبى عبد القاسم بن سلام (وهو أقدم المخطوطات العربية بأوربا بعد القرآن) ، ونشر كذلك رحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم للمقدسى البشارى ، والأعلاق النفسية لابن رسته ، وجزءاً من تجارب الأمم لابن مسكويه ، وجغرافية الأصطخرى ، ورسالة حى بن يقظان ، والتمدن الإسلامى لجرجى زيدان ، وسيرة الرسول (عليه السلام) لابن هشام ... وعشرات الكتب والمخطوطات القيمة .

٤ — جولد زيهر المجرى — توفى سنة ١٩٢٩

وهو إسرائيلى تبحر فى اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية ، وله فيهما أبحاث تدل على

سعة اطلاع ، وطول باع ، ومن أشهر آثاره : العقيدة والشريعة فى الإسلام وقد ترجم أخيراً إلى العربية ، وكتاب آداب الجدل عند الشيعة ، والفقه العربى ، والتقية فى الإسلام ونشر كتاب المستظهرى فى فضائح الباطنية وفضائح المستظهرية للغزالى ، وغير ذلك من الكتب التى تدل على اهتمامه بالعقائد والمذاهب .

هذا وقد اشتهر فى كثير من الدول بعض أفراد من المستشرقين مثل : سانتلانا ، ونلينو ، وجويدى الكبير ، وجويدى الابن فى إيطاليا[1] ، والبارون كريمر والدكتور مولر فى النمسا ، وفَنْديك ، وما كدونالد ، وشارلز آدمس فى أمريكا ، وكريمرسكى فى بولندا وبول كراوس فى تشيكوسلوفاكيا[2] ، وبركلمن فى ألمانيا:

أثر المستشرقين :

تفرغ المستشرقون للبحث ، ومنحتهم أممهم المال والوقت ، وتحت أيديهم المكاتب العامرة بالأبحاث وبالمخطوطات النادرة ، وكلهم يعرف عدة لغات غربية وشرقية ؛ فكان من الطبيعى أن تتسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابرة والاطلاع ، والموازنة ، ومراجعة الأصول والمخطوطات ، ووضع الفهارس وغير ذلك مما كان مفقوداً فى الكتب العربية.

ولقد مهدوا السبيل أما الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة فى طبعات أنيقة مصححة ، مزدوة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع وتجمع الأشخاص والأماكن ، والموضوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية ، وبأبحاثهم فى أصول اللغات ، وفقه اللغة ، والساميات ، وباكتشافاتهم الأثرية فى بلاد العرب ، وقد غيرت هذه الاكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه المتداولة . وامتازت أبحاثهم بحسن العرض ، وبالتدقيق العلمى ،

---

(١) وكل هؤلاء المستشرقين كانت لهم صلات وثيقة بمصر ، وقد درسوا فى جامعة فؤاد الأول ، وفى الجامعة المصرية القديمة ، واشتهر سانتلانا بأبحاثه الفلسفية ، ونلينو بأبحاثه الفلكية والتصوف ، وجويدى الكبير بالأدب والتاريخ واللغة الحبشية والحميرية وجويدى الابن بأبحاثه فى الأدب وفقه اللغة ، والعقائد والمذاهب الإسلامية .

(٢) انتدبته الجامعة المصرية للتدريس بها من سنة ١٩٣٦ حتى انتحاره فى سنة ١٩٤٤ واشتهر بأبحاثه عن الفرق الدينية وتراجم رجالها ، وقد اعترف له كثير من المستشرقين بالفضل والدأب .

و بالنظرات الشاملة . وأهم أثر للمستشرقين يتضح فى الكتب العربية التى ألفت على نمط كتبهم ؛ ولا يهولنَّك هذا ، فهم كما ذكرت لك قد أتقنوا طرق البحث فى لغتهم ، وطبقوها على الدراسات الشرقية التى يضطلعون بها . وعندهم من الوقت والمال ما يمكنهم من حسن الإخراج وجمال الأداء .

إن الدراسات الأدبية ، وتاريخ الأدب بصورته التى نعرفها اليوم هى أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم ؛ ولا تعجب فالكتب العربية منذ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى وما أتى بعده من كتب التراجم كمعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان لم تبحث فى الأسباب والعلل والنتائج والبيئة والظواهر السياسية والاجتماعية ، وتفاعل الأديب وعصره كما نرى اليوم فى الدراسات الأدبية ، و إنما كان الأديب وحدة منفصلة لا تربطه بغيره روابط .

ومن الكتب التي ظهرت فى هذه الحقبة التى نؤرخ لها (أى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) وتجلت فيها آثار المستشرقين وطريقة بحثهم بل وكثير من آرائهم وأحكامهم وأبحاثهم :

١ — كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، وقد اعتمد فيه على بروكلمن الألمانى فى كتابه تاريخ الأدب العربى ، ولم يقف بروكلمن عند القرن التاسع عشر بل أصدر ملاحق عديدة يسجل فيها تطور الآداب العربية فى عصرنا هذا ، و ينقد معظم الأدب الذى تصدره المطبعة العربية و يتتبع الأديب منذ نشأته ، و يسجل تطورات أدبه .

٢ — كتاب الأب لويس شيخو فى الأدب العربى إبان القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وكتابه هذا محاولة أولية لمحاكاة المستشرقين فى كتاباتهم ، وفيه كثير من طرق البحث القديمة ، و يمكنك أن تدرك الفرق بين ما يكتب اليوم وما كتبه الأب شيخو منذ ربع قرن .

٣ — وتاريخ أدب العرب لمصطفى صادق الرافعى ، وهو من الكتب التى تدل على غزارة علم ، وسعة اطلاع ، و بذل كثير من الجهد ، ولكنه لم يبلغ فى بعض أحكامه وطريقة

عرضه ما بلغته الأبحاث الأدبية بعد ، ويعد فى الطليعة من الكتب التى ألفت على الطريقة الحديثة ، وقد وفق فيه مؤلفه لكثير من اللمحات والأحكام الصائبة . مع أن الرافعى لم يكن يعرف إلا القليل من اللغات الأجنبية .

٤ — وآداب اللغة العربية فى العصر العباسى الشيخ أحمد الإسكندرى .

٥ — وبلوغ الأرب فى أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى[1] .

٦ — وعلم الأدب لحفنى بك ناصف .

٧ — والاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربى .

وكانت هذه الكتب بواكير الدراسات الأدبية التى نحا فيها الكتاب العرب منحى المستشرقين وتأثروا بهم فى منهج أبحاثهم . ولكن لم تر الجامعة المصرية القديمة ، ولا جامعة فؤاد الأول عقب إنشائها غناء عن المستشرقين ، فأخذت تندبهم للقيام بالتدريس فيها ، ونشر طرقهم السديدة فى البحث بين طلاب الأدب . ولقد ظهر هذا الأثر جلياً واضحاً فى الأبحاث التى تلت ذلك ، ولا زلنا سائرين فى هذا الطريق ، نعتمد على أنفسنا مرة ، ونستأنس بآرائهم مرة ، والبحوث الأدبية تكثر وتتنوع ويظهر عليها أثر التحقيق العلمى السليم .

ولعلك تسأل : أترى المستشرقين أعلم منا بلغاتنا وبأصول عقائدنا وفرقنا الدينية ، وهل هم معصومون من التعصب والخطأ ؟ !

فى الحق إن كثيراً من المستشرقين على حظ كبير من العلم والمعرفة ، ولكن الأمر

---

(١) صاحب هذا الكتاب السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ولد سنة ١٢٧٣ هـ ، ١٨٥٦ م ودرس على الطريقة الأزهرية الكتب اللغوية والدينية ، ولكن كتابه هذا يعد للآن كتاباً قوياً فى مادته يدل على علم صاحبه وقدرته على التأليف ، وهو من المراجع القيمة فى أحوال عرب الجاهلية ، وقد قدمه لمؤتمر المستشرقين فى استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، ونال به الجائزة الأولى من المؤتمر . وقد احتل كتابه هذا مكانته اللائقة به فى عالم التأليف ، ولا يزال حتى اليوم حجة فى موضوعه ، ينتفع به كثير من طلاب الأدب على الرغم من أن البيئة التى نشا بها المؤلف كانت متأخرة . هذا وقد توفى السيد محمود شكرى الألوسى سنة ١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٤ م ببغداد ، وحسبه هذا الكتاب ذكرى طيبة وعملا صالحاً . راجع تاريخ حياته وبقية أثره وأشعاره فى أعلام العراق للسيد محمد بهجة الأثرى .

الذى يهمنا نحن ليس العلم ، وإنما المنهج وطريقة الاستقراء والاستنباط والدرس وتكوين الحكم بعد الموازنات ، ومراجعة الأصول والمخطوطات وكل ماقيل حول الموضوع ؛ ولقد ذكرت لك آنفاً أن مكتبات أوربا تحوى مائتين وخمسين ألف كتاب عربى بين مخطوط ومطبوع ، وهذه الثروة الهائلة حرية أن تتيح لمن يعيش معها — وقد كفلت له أسباب البحث الأخرى — أن يتسع اطلاعه ويعمق نظره ، ويقرب حكمه من الصواب ، فلا بدع إذا كان بعض المستشرقين حجة فى أبحاثهم التى تصدوا لها .

أجل ! إننا لا نبرئ كثيراً منهم من التعصب ، ولا سيما فى المسائل التى تتعلق بالدين والعقيدة والجنس ، وهيهات أن يكتب أحد عن الإسلام أو عن العرب دون أن ينزع فى كتابته إلى ماينم عن تعصبه ، وقليل منهم من استطاع أن يتجرد من عواطفه ونزعاته حين البحث مثل (السير توماس أرنولد) فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) .

أما فى الأدب فلا داعى للتعصب اللهم إلا ما أشاعوه عن أسطورة العقلية السامية الآرية حين كلامهم عن خلو الأدب العربى من القصة ، وتعليلهم لهذا بذلك التعليل السخيف ، وهو عقم الخيال العربى وإجدابه[1] ، ولعلك لم تنس الضجة التى أثيرت حول كتاب (فى الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين باشا ، وما ثبت من أنه تأثر فيه برأى (مرجوليوث) وأخذه آراء هذا المستشرق قضية لا جدال فيها ، فأنكر كما أنكر قصة إبراهيم وإسماعيل ، وشك مثله فى معظم الشعر الجاهلى[2] . وقلّ منهم من خلا من التعصب الدينى أو الجنسى .

وللمستشرقين أخطاء كثيرة ، يرجع بعضها إلى جهل بالمصطلحات العربية وعدم معرفة معانيها الصحيحة ، فتضللهم هذه المصطلحات ، وتدعوهم إلى استنباطات فاسدة ؛ فكازانوفا مثلا يترجم كلمة أمى بشعبى ، وكازميرسكى يترجم قول الله تعالى للملائكة : « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » باعبدوا آدم . وأحياناً يبالغون فى التحليل والتعليل والتأويل ،

---

(١) سنخس القصة بكلمة فى هذا الفصل باعتبارها لوناً من ألوان الأدب لم يكن موجوداً لدى العرب .

(٢) راجع كتاب النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، ومقدمة الأمير شكيب أرسلان له .

ويحاولون أن يجدوا شيئاً لم يوجد قط ، فيضلون سواء السبيل ؛ فترى كازانوفا مثلا عند بحثه فى (إخوان الصفا) يقع على نص فى رسائلهم ، ويجتهد فى أن يستنبط منه تاريخ تأليفهم الرسائل بطريقة مضحكة أبعدته عن الصواب كل البعد[1] .

وعلى الرغم من كل هذا ، فأخطاؤهم العلمية قليلة ، وهى مغتفرة لهم إذا راعينا أنهم يبحثون فى ديانات غيرهم ولغاتهم وآدابهم وأخلاقهم ، وأخطاؤنا نحن أكثر من أخطائهم وأشنع ، ولا نستطيع أن نغمطهم حقهم ، وننكر أياديهم على الأدب العربى والأبحاث الإسلامية واللغوية والاجتماعية ، ونشرهم مئات الكتب والمخطوطات الثمينة التى أتاحت لنا معرفة ما كان عليه أسلافنا حق المعرفة . إننا لا زلنا نتلقى عنهم الكثير ، وسوف نظل كذلك إلى أن يتاح لنا نقل صور صحيحة من المخطوطات النادرة الموجودة لديهم ، ونسخ الكتب القيمة التى تعوزنا فى البحث ، وإلى أن يتفرغ منا العلماء للبحث الطويل الشاق دون مراعاة الزمان والجهد كما يفعلون ، وحينئذ نستطيع أن نجاريهم فى مضمارهم ، ولهم فضل السبق .

حـ — أثر الإتصال بالأدب الأجنبى :

كان من الطبيعى أن يتأثر الشرق العربى ، ولا سيما مصر ولبنان ، بهذا الاتصال المباشر بالأدب الأجنبى ، ففى مصر يجثم الاحتلال الإنجليزى على صدر الوادى الخصيب ، ويشتد نفوذ الأجانب من كل دولة ؛ يفدون أفواجاً ينشدون الغنى والسعادة فى هذه البلد المضيافة والأرض البكر ، وتفرض اللغة الإنجليزية على تلاميذ المدارس المصرية ، ويعمد الأدباء اللبنانيون والسوريون الذين يمموا صوب مصر هرباً بحرياتهم إلى الأدب الغربى ينقلون منه ألواناً شتى إلى اللغة العربية .

ولا أريد فى هذه العجالة أن أتقصى أثر الفكر الغربى فى العقل العربى والنتاج الأدبى فإن هذا الامتزاج بين الثقافتين لم تظهر آثاره الحقيقية إلا بعد فترة طويلة من الحقبة التى نؤرخ لها ، حين شب جيل من الأدباء فى هذه البيئة التى تلتقى فيها تعاليم محمد عبده وجمال

---

(١) راجع (إخوان الصفا) لمؤلف هذا الكتاب ص ٦٨ وما بعدها .

الدين الأفغانى ووطنية عبد الله نديم ، وأدب حسين المرصفى والسيد بن على المرصفى بقصص هوجو وڤولتير وراسين وكورنى وشكسبير وعشرات من قصاص فرنسا وإنجلترا وغيرهما . ولكن كانت السمة الغالبة على أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هى ازدياد نفوذ الأدب الأجنبى وإعجاب أبناء البلاد العربية به ، فتمنى الشعراء أن يجددوا فى الشعر ، وأن ينسجوا على منوال شعراء الغرب ، بل كان منهم من يود التحرر من قيود الشعر العربى ويأخذ بحرية الشعر الفرنجى ، فهتف حافظ بقوله :

آن يا شعر أن نفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ويقصد بالشمال بلاد الغرب ، وإن عجز حافظ عن فك هذه القيود ولم يستطع أن يخرج خروجاً تاماً على الصور القديمة مهما كانت روحه التجديدية راغبة فى ذلك[1] ، ولكن مما لاريب فيه أن كثيراً من المعانى الجديدة والصور الغريبة والخيال الأوربى قد ابتدأ يتسرب إلى أفكار الشعراء وأخيلتهم ، وإن لم يظهر أثره إلا بعد مدة ، وفى جيل غير هذا الجيل الذى شهد زحف الآداب الغربية أول الأمر . وكم كان بودى أن أقف هنا وقفة طويلة لأبين هذا الأثر ، ولكن موعدنا به فى الجزء التالى إن شاء الله .

أما النثر فقد كان التأثير فيه شديداً ؛ لانطلاقه وعدم تقيده بقوالب وأوزان وقواف ، ولأن النثر الغربى المترجم كان الكثرة الغالبة ، ولا سيما القصة كما رأيت[2] . وهنا يجدر بنا أن نتأنى قليلا ، فإن القصة قد صار لها فى عالم الأدب العربى شأن كبير ، وكانت الحقبة التى نؤرخ لها هى حقبة الحضانة التى نمت فيها القصة ، وأخذت بعد ذلك تتفتح وتزهر وتجرى على الألسنة والأقلام . والقصة هى أكثر أنواع الأدب شيوعاً فى الغرب ، بل إن الأدب الغربى يتسم بأنه أدب القصة ، وليس كذلك الأدب العربى ، فلم كان هذا ؟ وهل ما يدعيه بعض النقاد الغربيين ، ويتبعهم فى ذلك كثير من الكتاب العرب — من أن العقلية

---

(١) الإسلام والتجديد للدكتور شارلس آدمس ص ٢٠٩

(٢) راجع فى تأثر النثر العربى الحديث بالقصة الغربية كتاب الدكتور إسماعيل أدهم عن (توفيق الحكيم الفنان الحائر) حلب سنة ١٩٣٩

العربية مجدبة عقيمة الخيال ادعاء صحيح ؟؟ . إن هذا الموضوع يتطلب منا كلمة موجزة قبل أن نفرغ من هذا الكتاب لأن النثر — وهو كما قلنا قد تأثر بالأدب الغربى أكثر من الشعر — قد صار له ثوبان يظهر فيهما : القصة والمقالة .

١ — القصـــة :

وموضوع القصة موضوع طويل وشائق ، فهناك تاريخ القصة ونشأتها فى العالم ، وأنواع القصة من : خرافة ومثل ، وحكاية وأقصوصة ورواية ؛ ثم ألوان الرواية من : واقعية أو خيالية أو تاريخية أو نفسية إلى آخر هذه الأبحاث ، ثم هناك شروط القصة وكيفية بنائها وما يشترط فى المقدمة والحوادث والعقدة والجو والحل ، وهل تخالف القصة القصيرة فى تركيبها وإنشائها الرواية ؟ وبعد ذلك كله هناك القصص الأوربى ، والقصص العربى ، وهل الأدب العربى كما يزعم بعض الباحثين مجدب من القصة ؟ كل هذه موضوعات كنا نود البحث فيها ، وإيفاءها حقها ، ولكنها كما ترى طويلة وتحتاج إلى كتاب خاص يتناول فيه القصص منذ نشأته إلى اليوم ، ويتعرض للقصص العربي بالتفصيل مبتدئاً بالعصر الجاهلى والموازنة بين خرافات الجاهلية وأساطير اليونان والرومان ، ثم يتكلم على قصص القرآن ، ثم القصص الإبداعى فى العصر الأموى أى قصص الحب العذرى ، ثم تأثر الأدب العربى بالآداب الأجنبية ، ولا سيما الأدب الفارسى وظهور كليلة ودمنة ، وقصص ابن عبدوس الجهشيارى ، والصادح والباغم ؛ ثم ظهور المقامات ، وبعد ذلك كله ظهور ألف ليلة وليلة ومقدار مابه من فن ، ومنزلته فى عالم الأدب ، ويتعرض الباحث فى الأدب العربى حين يكتب فى كل هذا عن الأثر العربى الخالص فى هذه القصص ، وعن التأثير الأجنبى فيها ؛ ليستخلص من كل ذلك حكما على العقلية العربية . ولعلك قد رأيت من إثارة هذه الموضوعات أمامك أنها تحتاج إلى كتاب خاص ، يتكلم عنها بإسهاب ويوفيها حقها من البحث والتمحيص ، ولعل ذلك يكون قريباً .

أما الآن فإنى أتعرض للقصة من ناحية واحدة ، دعانى إليها كثرة ما ترجم من أدب

الغرب وقصصه فى أخريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ودعوى الغربيين بأنها نتاج يصعب على العرب إخراج مثله ؛ إذ ينقصهم الخيال المبتكر والعقل الخالق .

يدعى هؤلاء أن السبب فى فقدان القصة من الأدب العربى هى البيئة التى عاش فيها العرب دهوراً طويلة فى صحرائهم المجدبة ، التى قلما يطرأ على بساطها تغيير ، فشمسها ضاحية وهواؤها راكد ، لا غابات فيها تشق أشجارُها أجواز الفضاء ، وتتلون أوراقها ألواناً مختلفة تبعاً لتغيير فصول السنة ، ويشعر من يغشاها برهبة تملأ جوانحه ، وقشعريرة تسري فى بدنه ولا كهوف فيها تتحدث عن شعوب اتخذتها مسكناً أمداً غير يسير ، ثم هجرتها بعد أن تحضرت ، وخلفت فيها آثاراً لا تزال ناطقة ، ولا سماء صاخبة متقلبة مزمجرة هادرة ، ولا جبال يكسوها الثلج فيخطف البصر ويظهر جبروت الطبيعة ، وإنما هى فضاء ممتد يسبح فيه النظر إلى مسير أيام وأيام دون أن يقف فى سبيله ما يرده ، وهنا وهناك كثبان وتلال وجبال متجهمة الأديم ، عارية إلا من الصخر والرمل ؛ فلا بدع إذا جاء الخيال السامى صورة من هذه الصحراء . وعلى العكس من ذلك البيئة التى عاش فيها الآريون قبل أن يدخلوا إلى أوربا ، وهى شمال بلاد الهند ؛ فإن الطبيعة فيها قاسية قسوة عارمة ، والمناظر متنوعة ، والغابات كثيفة دكناء ، والجو متقلب لا يستقر على حال فالرعود القاصفة ، والريح العاصفة والمطر الهطال والبروق الخاطفة ، والسحب تتراكم فى السماء كأنها جيوش يدفع بعضها بعضاً . وقد بثت هذه الطبيعة فى نفس الإنسان الذى عاش فى أحضانها شيئاً من الخشية والرعب وألهمته الأساطير والخرافات ، فكان ذلك بدء القصة ، وقد اختزن العقل الأوربى من صور هذه الحياة الأولى شيئاً غير قليل ، وكان له بهذا : الخيال المجنح ، والعقلية الخصبة ، والنظرة الفاحصة ، وهذه المواهب هى عماد القصة .

فالقصة فى نظرهم هى الصورة المثلى التى يتجلى فيها الخيال وتظهر العبقرية وخلو الأدب العربى منها فيما يزعمون دليل على ضعف العقلية العربية . وقد جاراهم فى هذا بعض أدبائنا غير مدركين ما فى هذا الدعوى من خداع وأخطاء . استمع إلى الأستاذ أحمد أمين بك وكيف يجعل من قلمه صدى لهذه الفكرة الخاطئة فيقول عن العربى : « إن خياله محدود ، وغير

متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ؛ لذلك لم يعرف المثل الأعلى ، لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستقى منه معنى جديداً ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب » ؛ ويقول فى موضع آخر : « والمزاج العصبى يستتبع عادة الذكاء ، وفى الحق إن العربى ذكى يظهر ذكاؤه فى لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة ، والإشارة البعيدة ، كما يظهر فى حضور بديهته ، فما هو إلا أنه يفجأ بالأمر فيفجؤك بالجواب الحسن ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرُك تفننُه فى القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل : إن لسانه أمهرُ من عقله »[١] .

هذا ما يقوله الأستاذ أحمد أمين بك ويقول مثله توفيق الحكيم[٢] وعباس العقاد فى الفصول[٣] ونسى الأستاذ أحمد أمين بك حين أنكر أن العرب عرفوا المثل الأعلى أو أشارا إليه قولَه تعالى : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثلُ السوْء ، ولله المثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم »[٤] ، وقوله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلقَ ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[٥] ، وأما أن المثل الأعلى كلمة واحدة أو كلمتان فهذا لا يقدم فى القضية ولا يؤخر ، فلا الكلمة الواحدة تدل على عمق الخيال ولا الكلمتان تدلان على تقصيره ، وهذا الكلام — وللأسف — صدى لما يفتريه الشعوبيون على العرب ، وما يقدمونه للانتقاص منهم والغض من شأنهم قديماً وحديثاً .

ولنعد إلى القصة وإلى هذه الخرافة — خرافة العقلية السامية والعقلية الآرية . فالقصة الفنية لم تعرف فى الأدب الغربى إلا سنة ١٧٤٠ م حين ألف (رتشردسن) قصته

---

(١) راجع فجر الإسلام ص ٤٦ ، ٤٧ (٢) فى كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٣ — ٨٤

(٣) راجع كتاب ؛ الفصول للعقاد وما نقله عنه Widmer فى دراسته عن محمود تيمور القصاص المصرى ص ١٥ ، وانظر كذلك خليل مطران فى المقتطف م ٨٢ ج ٤ إبريل ١٩٣٣ ص ٥٠٠

(٤) سورة ١٦ الآية ٦٢ (٥) سورة ٣٠ الآية ٢٦

(پاملا)[١]، وعدها النقاد قصة فنية ، بل عدوها القصة الأولى ، واشترطوا فى القصة الجديرة بهذا الاسم شروطاً أهمها أن تكون واقعية ، وفرقوا بين القصة و بين الشعر فى هذا الباب بقولهم : « الشعر صوتٌ ينطق بما هو خارق للمألوف ، و بما هو أسمى من مجرى الحياة المعهود ، و بالإحساس النادر الذى لا يلم بالإنسان إلا قبسات متباعدة ، فهو على الجملة يتحرك فى مجال أعلى من مجال الحياة الواقعة . أما النثر فهو — على نقيض ذلك — أداة تعبر عن الحياة الجارية المألوفة الشائعة التى لا غرابة فيها ولا شذوذ ولا سمو ... ففى مقدور النثر أن يعبر عن كل هذه الأشياء تعبيراً أدق وأوفى مما يستطيع الشعر ... من هنا كان النثر أداة ملائمة للتعبير عن حوادث الحياة اليومية التى تجرى على المألوف ، ولا تكون عظيمة المغزى ، ولما كانت القصة حكاية تروى بالنثر وجهاً من أوجه النشاط والحركة فى حياة الإنسان ، فخير لها إذاً أن تَقُصَّ قصة عادية عن الإنسان العادى الحقيقى كما تجرى حياتُه فى عالم الواقع المتكرر كل يوم » .

« الحكاية النثرية المثلى — أى القصة الجيدة — هى التى تستغل كل ما للنثر من قدرة على التعبير ، وقد علمت أن النثر من شأنه أن يعالج الواقعى المألوف ، و إذاً فروعة القصة و براعتها أن تروى حكاية الحوادث المألوفة الواقعية الجارية ... ولا يمكن لقصة بمعناها الصحيح أن تنشأ إلا إذا اهتم الناس أولا بأجزاء الحياة وتفصيلاتها اهتماماً يحوّل التافه إلى إلى شىء ذى وزن وشأن ، و إلا إذا أخذوا يستمتعون بمطالعة أوجه الحياة المألوفة كما تقع كل يوم » .

« على أن القصة الفنية الصحيحة تختار بطلها رجلا عادياً ممن أهملتهم صحائف التاريخ ووثائقه ؛ إذ ليست القصة بحاجة إلى الرجوع إلى الماضى لانتقاء أبطالها من بين أعلام التاريخ وأولى لها أن تقصد إلى تصوير هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم ؛ أضف إلى ذلك أن معرفة الدقائق التى أحاطت بحياة البطل التاريخى متعذرة أو مستحيلة »[٢] هذه هى

---

(١) راجع Encyclopedia Britanica, Story

(٢) راجع فنون الأدب تأليف تشارلتن وتعريب الدكتور زكى نجيب محمود من ص ١١٥ إلى ١٤٠

القصة فى عرف النقاد الغربيين تُعنى بالوقائع وبالجزئيات وبالتفاصيل وتبعد عن الخيال كل البعد ، وإذا كان الأمر يحتاج إلى خيال وإلى مَثَلٍ أعلى فالشعر هو وسيلة التعبير . وأظنك أدركتَ الغرض الذى من أجله سقنا لك رأى نقاد الغرب فى القصة ؛ لأن العرب إذا لم يبرزوا فى هذه القصة بمعناها الفنى عند الغربيين فذلك لسببين :

(١) قوة الخيال عند العرب ، وسطوة ذلك الخيال ، فهو دائماً مجنح يسبح فى عالم المثل العليا (لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين بك) ، ويأبى أن يعنى بالتوافه وبالحياة الواقعية ، وبالتفصيلات والجزئيات ، وبالرجل العادى الذى أهمله التاريخ ، والذى لا يأبه له الناس ، وإنما يعمد دائماً إلى ما هو أسمى من ذلك وأجل شأناً . ولذلك كان الشعر أعلى صور البيان عند العرب ، ومفخرة أدبائهم .

ومن العجيب أن يَرْجِع الأستاذ توفيق الحكيم عن تعظيم شأن القصة ، ويفرق بينها وبين الأدب بقوله : « الفرق بين الأدب وبين القصة كالفرق بين المناطق العليا فى الإنسان والمناطق الأخرى ، وإذا كانت القصة تصور الإنسان فى حياته ، فإن الأدب يصوِّر الفكر فى حياة الإنسان ، ذلك أن الإنسان ليس مجرد شخصية تتحرك فى محيط البيئة المادية من ريف أو حضر أو منزل أو مقهى أو مكان عمل مما درج القصاصون على تسميته بالحياة الواقعية ، ولكن الإنسان أيضاً فوق ذلك وأكثر من ذلك عقلٌ يتحرك فى عوالمَ فكرية مرتفعة ، وهو روح يسبح فى معان شعرية سامقة . فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هو من اختصاص الأدب . ولكن انتشار القصة باعتبارها مطالعةً سهلة قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق ، والهرب من الجهد ، واتخاذ القصة مركباً هيناً ، لا يكلف أكثر من سرد حوادث محلية ، وحبك مواقف ، ووصف أشخاص ، ورسم مناظر من الحياة الجارية بأى أسلوب اتفق ، ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ اسم الأدب المبتكر والخلق الأصيل[1] » .

إذاً فالقضية على عكس ما يدعى الشعوبيون ، ومن انخدع بأقوالهم ، ويؤيد قولنا هذا

---

(١) من مقال للأستاذ توفيق الحكيم بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ٢٨ / ٣ / ١٩٤٨

أن العربى لما اتصل قديماً بآداب الفرس والهند لم يعجبه منها إلا النوع الخيالى المجنح الذى ينطق الحيوان ، ويشخص الجماد ، ويحلق بعيداً عن مستوى الحياة الواقعية وأفعال الناس وأقوالهم ، وقد أخذ العرب يحاكون هذا النوع من القصص حتى برعوا فيه ، وعد ابن النديم فى الفهرست من كتب الأسمار والقصص التى ألفها العرب على نمط كليلة ودمنة والصادح والباغم لابن الهبارية مائة وأربعين كتاباً .

ولما تُرجمت المجموعةُ الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة ، وكانت تحوى ألفَ خرافة فارسية وتسمى (هازار إفسانه) غير فيها العرب وبدلوا ، وأضافوا إليها أشياء كثيرة حتى خرج من كل ذلك كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو ما هو عند الغربيين فى الخيال الغريب ، والتأليف العجيب ، والأجواء الساحرة ، والافتنان فى تصوير الشخصيات وأنواع الملذات ؛ فصار مضرب المثل ، ومنبعاً ينهل منه كل من يريد أن يوصف بسعة الخيال وشروده وجموحه ؛ وقد أثر هذا الكتاب كثيراً فى الأدب الغربى منذ تُرجم إلى اليوم كما مر بك ، مع أن جمهرة أدباء العرب لا يعترفون بسمو أدبه ، ولا يقرون بعبقرية فنه ، بل يعدونه أدباً شعبياً يصلح للعامة فى أسمارهم ، والنساء فى أويقات سرورهن ، والأطفال فى لهوهم وأحاديثهم .

وفى العصر الحديث حين اتصل العرب بالأدب الغربى لم يرقهم منه إلا الأدب الإبداعى (الرومانطيقى)[1] الذى يُصَوِّر الأبطال ، ويُغرب فى الخيال ، ويترجم عن العواطف الجياشة وظلوا حتى اليوم يعربونه ويحاكونه معرضين عن الأدب الواقعى إلا القليل ، مع أن الأوربيين قد نفضوا أيديهم من هذا اللون الأدبى منذ مائة سنة ، وعمدوا إلى الأدب الواقعى التحليلى ، كى يعالجوا به مشكلاتهم الاجتماعية المعقدة ، وقد حاولت مدرسة لطفى السيد باشا الأدبية أن تدخل الأدب التحليلى الواقعى ، وظهرت لذلك آثار لم ترق بعد إلى المرتبة التى وصل إليها المنفلوطى أو الزيات فى الأدب الرومانطيقى[2] .

كل هذا يدلنا على أنه ليس الخيال العربى ، وعدم عمقه هو الذى حال بين العرب

---

(١) راجع الدكتور إسماعيل أدهم فى كتابه عن توفيق الحكيم الفنان الحائر ص ١٤ — ٢٥

(٢) المصدر نفسه .

و بين القصة الواقعية التى لا يعترف النقد الحديث فى أوربا بسواها ، بل الخيال العربى الجنح وما به من عمق هو الذى ربأ بالعرب عن أن ينزلوا إلى هذا القصص الواقعى .

وثمة أمر آخر حال بين العرب و بين هذا اللون من الأدب ، وهو أن الأدب الواقعى يعالج مشكلات اجتماعية وأخلاقية ، و يتخذه المفكرون والمصلحون الاجتماعيون مطية لبث أفكارهم ، وعرض مقترحاتهم فى المشكلات القائمة بمجتمعاتهم ، و يعرضون حلولا يعتقدون أنها تذلل هذه المشكلات ، وتنير لأولى الأمر السبيل حين يشرّعون أو يطبقون القوانين ؛ و يعمدون أحياناً إلى المسرحية و يظهرون الشخصيات التى تمثل الناس فى حياتهم المألوفة ، وأحياناً يلجئون إلى الرواية الواقعيـة أو الأقصوصة و يدعون الشخصيات التى يصورنها تتحدث كما هى فى الحياة من غير أن يظهر المؤلف عواطفه أو يبرز شخصيته ؛ حتى تـكون قصته أقرب إلى الحقيقة وأدنى من الواقع . ولم يـكن المجتمع الإسلامى فى العصر الذهبى للأدب العربى أيام العباسيين وأيام أن عرفوا شيئاً من القصص الفارسى وغيره بحاجة إلى من يحل له مشكلاته الاجتماعية والخلقية ، و يشرِّع له القوانين و يبين له كيف يطبقها ، فقد كان الشرع الإسلامى قائماً ، وهو تشريع من عند الله يعتقد الناس أنه الحق والعدل ، وأنهم فى غنى عن سواه من القوانين ، وأن كل قضاياهم تحل على ضوئه ، بل لا يجوز لأحد أن يقترح تشريعاً مخالفاً أو حلا لا يوافق الشرع ، ولذلك بطلت حاجتهم إلى مثل هذا القصص الواقعى الذى يصور الرجل العادى فى حياته المألوفة و يحل مشكلاته ومشكلات مجتمعه .

إن أسطورة العقل الآرى وفضله على العقل السامى التى طالما رددها أدباؤنا من غير أن يفطنوا إلى ما فيها من شعو بية كامنة ، ومن وغير أن يتبينوا وجه الصواب بعـد أن غشّى عليهم الحق ما عليه الشعوب العربية من هوان وضعف ، فاعتقدوا باطلا أن الحق مع القوة وأن العقلية الآرية لا بد أن تـكون متفوقة ما دام أصحاب هذه العقلية هم المسيطرون على شعوب الأرض . إن هذه الأسطورة تنم عن تعصب مكين فى نفوس قائليهـا وعلى مغالطة ظاهرة ، فهذا (أرنست رينان) وهو من غلاة الشعو بيين وأشدهم قسوة على العرب ودينهم

والساميين وعقليتهم ، يقرر ماردده أحمد أمين بك ويحقر من العقلية الساميه[١] ويقول :
« يبـدو أن التفكير الفلسفى للبحث عن (الحقيقة) كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندى الأوربى أو الآرى الذى يمتد من الهند إلى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذى كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن فى تفسير الله والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً . وقد ترك وراءه فى كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقى . أما الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل — أى بدون فلسفة — وصلوا إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ . . . والساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو إلى التساؤل والتفكير ؛ لأن اعتقادهم فى قدرة الله يجعلهم لايدهشون لشىء » .

ثم ينتقل إلى الخصائص الأدبية التى ميزت العرب بالشعر ووصمت غيرهم بالقصة فيقول :
« والتوحيد له أثر أيضاً فى الشعر العربى ؛ لأن الشعر العربى يعوزه الاختلاف ، فموضوعات الشعر أى أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً عند الساميين ، والشعر العربى الذى تمثله القصيدة يعبر عن إحساس شخصى ، وعن حالة نفسية خاصة ، والأبطال فى هذا الشعر نفس منشئيه ، وهـذه الصفة الشخصية التى تجدها فى الشعر العربى والشعر الإسرائيلى ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية ، وهى انعدام المخيلة الخالقة ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلى[٢] » .

ولقد أردت بهذا النص الذى سقته لك من (رينان) أن أبين التعصب الذميم الذى يوحى إلى هؤلاء الشعوبيين بمثل هذا الـكلام ، فيسلبون أمة قوية لها مجدها التاريخى

---

(١) راجع Histoire Générale et Systéme Comparé. des Langues Sémitiques Par , Ernest Renan , P. I - 18

(٢) ويقول رينان فى موضع آخر . (الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى إذا قورن به ، ذلك أن الجنس السامى ليست له هذه الروحانية التى عرفها الهنود والألمان . وليس للجنس السامى هذا الإحساس بالجمال الذى بلغ حد الـكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحاسية الرقيقة العميقة التى هى الصفة الغالبة عنـد الـكلتيين (سكان فرنسا وبعض البلجيك) وإنما يختص الساميون بالبديهة الحاضرة ، ولـكنها بديهة محدودة . وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم ، وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، ففخر الساميين فى كونهم أول من عرف التوحيد ، وعنهم أخذ العالم الديانات ، والصحراء هى ملهمة الوحدانية لمنظرها الواحد المتشابه » .

والأدبى كل الفضائل العقلية — وهم فى ذلك على باطل — ويتبعهم وللأسف فئة من أدبائنا ، فيكونون حرباً على قومهم . ليس ثمة فرق — كما رأيت — بين كلام (رينان) وكلام (أحمد أمين بك) إن رينان ينعى على العقلية السامية أنها لم يكن لها (ميثولوجيا) أى خرافات دينية كما عند اليونان . وليس أبعث على الضحك من التنويه بعظم العقلية اليونانية وما رزقته من عبقرية لأنها آمنت بالخرافات ، وألّهت الأشخاص والأبطال ، والتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت سواء السبيل ، وأمعنت فى الأساطير دون أن تصل إلى الله . لقد جعل هؤلاء الباطل حقاً ، وأشادوا باليونان لأنهم أخفقوا فى الاهتداء إلى وحدانية الله التى آمن العالم بها فيما بعد على يد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام والتي آمنت بها أوربا الآرية ، وكفرت بآلهة (الأولمب) وميثولوجيا اليونان .

ولنسأل هذا السؤال : أحقاً أنتجت العقلية الأوربية فلسفة وعلماً ؟ وما نصيبها الحقيقى من الابتكار للمذاهب الاجتماعية ، ومن تخطيطها بناء الحضارات المتجددة فى اقتصادياتها ، وقصصها ، ومثلها ، وصناعاتها ، ونظمها السياسية العالمية ؟ .

ولعلك تعجب إذا قررنا لك أن المدنية الأوربية الحديثة بنظمها الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية وحياتها العلمية هى من أثر العقلية السامية فى الغالب ممثلة فى بنى إسرائيل الذين نزحوا إليها من مئات السنين بعد أن عاشوا طويلا فى الصحراء ، ولو كانت البيئة الصحراوية لا تنتج إلا عقولا مجدبة وخيالات ضحلة ، وفكراً غير قادر على الخلق والابتكار ، ونفساً لا تعرف الفلسفة ولا تقدرها لظل اليهود كذلك فى رحلتهم الدائمة بأوربا مهما تغيرت بهم البلاد والبيئات . ولكنا نرى الأوربيين فى كثير من الأحيان يعترفون للتوراة بالفضل ، وللشعب الإسرائيلى وليد الصحراء بالعبقرية والنبوغ ؛ والعقلية السامية متكافئة فى اقتدارها وعالميتها ، واللغة العبرية والعربية توأمتان نشأتا من أصل واحد . وهذا (رينان) يقول : « ليس فى ماضى النوع الإنسانى ما يثير اهتمام الفكر الفلسفى سوى تاريخ ثلاثة شعوب : تاريخ إسرائيل ، والتاريخ الإغريقى ، والتاريخ الرومانى ! » .

وتقول جورج أليوت القصاصة الإنجليزية : « الجنس اليهودى ما زال يعد القلب

الخفاق فى الحياة البشرية ، بل هو الذى يظهر لها العالم تحت ردائه المنطقى المعقول » .

وما بالنا نقص عليك أقوال الأوربيين ، ولا نسوق لك الأمثلة الحية الصادقة على أن اليهود هم الذين أسسو الحضارة الأوربية الحديثة ، وهم قادة الفكر فيها حتى اليوم ، على الرغم من أنهم قلة مضطهدة .

إن الفلسفة فى ألمانيا ابتدأت فى القرن السابع عشر حين ظهر فيها الفيلسوف اليهودى باروخ (سبونزا)[١] فى أمستردام ، بعد أن درس ما جاء به فلاسفة قومه من أمثال ابن ميمون ، وابن عزرا ، وفلسفة ابن جبريل الصوفية ، وموسى القرطبى وغيرهم من فلاسفة اليهود بالأندلس . وهو الذى يقول فيه هيجل الفيلسوف الألمانى : « لن تكون فيلسوفاً إلا إذا درست سبونزا أولا »[٢] .

وكما بدأ سبونزا الفلسفة الحديثة فى ألمانيا ، وبنى على نظرياته أو حاول الرد عليها من أتى بعده من فلاسفة الألمان أمثال (كانت ، وهِجِل ، وشوبنهَوَر ، ونيتشه) ، فإن كارل ماركس ١٨١٨ ، وماكس نوردو ١٨٤٩ اليهوديين قد توجا هذه الفلسفة النظرية التى ابتدأت تؤتى ثمارها فى القرن العشرين ، فهيجل الألمانى ، وكارل ماركس اليهودى — واضع كتاب رأس المال ومنشئ أول جمعية شيوعية ثورية ، ومؤسس جماعة العمل الدولية ، ومؤلف المتن الاشتراكى فى السياسة الاقتصادية — قد بعثا الشيوعية . وفى كارل ماركس اليهودى يقول برنرادشو الفيلسوف الإنجليزى المعاصر : « لا يُدْعى نبىُّ الشيوعية عيسى أو محمداً أو لوثر أو أغسطين ، ولكنه يسمى كارل ماركس ، وتبتدئ فلسفتهم بالفيلسوف الألمانى هيجل وفيورباخ ، ويتوجها كتاب كارل ماركس : رأس المال ، وهو توراة الطبقة العاملة وإنجيلها ، ويصفونه بأنه مُلْهَمٌ ومعصوم ، ومحيط بكل شىء خُبرا »[٣] ولم يتجرد

---

(١) سبونزا Spinoza ١٦٣٢ م — ١٦٧٧ ولد من أسرة برتغالية يهودية هاجرت إلى هولندا بسبب الاضطهاد الدينى الذى لقيه اليهود بعد أن رحل العرب عنها ، ومات سبونزا فى سن الأربعين بعد أن لاقى فى سبيل فلسفته عناء كبيراً . راجع قصة الفلسفة الحديثة . ج ١ ص ١٢٨

(٢) قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨

(٣) راجع The Intelligent Woman's Guide To Socialism, Capitalism, Sovietism, And Fascism. by. G. B. Shaw. P. 314 In Pelican Books

كارل ماركس — الذى اعتنقت روسيا بأسرها وعشرات الملايين فى العالم تعاليمه — من يهوديته . فقد كان عضواً بالجمعية اليهودية بباريس ، وأما نوردو صاحب كتاب (الانحلال) فكان فى بودابست من أكبر أعوان (تيودر هرتزل) مؤسس الحركة الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر ، وواضع خطة إنشاء الدولة اليهودية بفلسطين .

وإذا أردنا أن نعد فلاسفة اليهود ومفكريهم الذين أثروا فى الحركة الفكرية بأوربا أعجزنا الحصر ، ولكن لا ننسى (فرويد) واضع فكرة التحاليل النفسية ، وصاحب نظرية العقل الباطن ، وناهيك بما لها اليوم من مكانة فى عالم الفكر ، ولا ننسى (برجسون) اليهودى الفرنسى شيخ الفلسفة الحديثة وصاحب نظرية مقاومة المادية فى أوربا[1] وبرنارد شو أشهر الفلاسفة المعاصرين مدين بفلسفته وآراءه لأستاذه اليهودى (صمويل بتلر) صاحب المبادئ العائلية الثورية ، التى نادى فيها بإعطاء أفراد الأسرة من : الأم والفتيات والغلمان حق التصرف حسب أهوائهم على الرغم من إرادة الأبوين .

و (أنشتين) صاحب نظرية النسبية ، وأكبر علماء العصر الحديث يهودى قح ، و (توماس مان) و (أميل لودفج) الكاتبان الألمانيان المشهوران من نبغاء اليهود فى العصر الحاضر .

إن جامعات أوربا تغص بالأساتذة الإسرائيليين ، ويسيطر اليهود على شئون المال والاقتصاد والطب وصناعة الأفلام وإخراجها ، والصحافة بأنواعها حتى لا تخلو صحيفة فى أوربا وأمريكا من نفوذ يهودى إما فى رأس المال أو فى التحرير ، وهكذا يستولى اليهود اليوم وقبل الحرب الأخيرة ، وفى القرن الماضى على عقلية الشعوب الأوربية فيقرءون ما يريد اليهود ، ويشاهدون فى الخيالة ما يخرج اليهود . وهذا هو السر فى أن هذه الفئة القليلة من الناس هى التى تتحكم فى سياسة أوربا ، وتخضعها لمشيئتها ، وهذا هو السر فى انتصار أوربا لهم فى القضية الفلسطينية ، وذلك لشدة سيطرتهم على الرأى العام الأوربى والأمريكى على السواء .

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٦٠

فهل بعد ذلك يفخر الجنس الآرى بالخلق والابتكار وهو خاضع لسيطرة أدنى العنصرين الساميين ؟ لو كانت المسألة ترجع إلى البيئة الأولى التى خرج منها الجنس السامى ما كان لهؤلاء اليهود شأن يذكر فى قيادة الفكر الأوربى ، وقيادة الشعوب الغربية وإخضاعها لسلطانها ، على الرغم من قلة عددهم وهوان أمرهم (١) .

وأما المثل الأعلى الذى يدعى الشعوبيون أنه مفقود عند العرب فحسبنا أن نقول فى الرد على دعواهم : إن الحياة العربية فى الجاهلية كانت مليئة بأمثلة الوفاء والكرم والشجاعة : وكانت الفضائل والذكر الحسن هى الغاية التى يصبو إليها كثير من أبناء الصحراء ، وكلها مثل عليا لو سارت عليها الإنسانية لسعدت (٢) ، ولقد برهنت لك على أن الكلمة موجودة فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم الذى نزل على عرب الجاهلية ، ولو لم يعرف العرب هذه الكلمة ويفهموا مدلولها ما نزل بها القرآن الكريم . على أن العرب لا يعرف فى لغة من لغاته كلمات كثيرة تملأ الحياة العربية ، وتفخر بها الإنسانية فكلمات (العِرْض) و (المروءة) و (النجدة) ليس لها ما يقابلها فى الأعجمية .

وإذا عدنا إلى الناحية الأدبية وجدنا الشعر العربى — وهو مفخرة العرب ومجتلى بيانهم — تكثر فيه ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الخيال الشامل الذى ينتظم طبائع البشر وأحوالهم ، ويصدر عليهم حكما يصلح لكل زمان ومكان ، وينطبق على كثير منهم مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم .

وبعد فلنسأل سؤالا آخر وهو : أحقاً توجد فروق عقلية أصلية بين الشعوب ، يمتاز

---

(١) لامنى كثير من الأصدقاء عند ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب على كتابة هذا الفصل عن اليهود ، وإظهار سلطانهم الفكرى على أوربا ، ولقد سقت هذه الأمثلة كما يرى القارىء لدحض تلك الفرية — فرية السامية — التى يتغنى بها الأوربيون المتعصبون .

وإذا كان اليهود علماء ومفكرين فهذا لا يمنع أنهم من أردأ شعوب الأرض أخلاقاً ، ولطالما حملت عليهم حملات شعراء على صفحات مجلة الرسالة فى سنوات عديدة .

(٢) راجع كتابنا (الفتوة عند العرب) فقد وفينا هذا الموضوع بحثاً ثمة .

أحدها بالذكاء الغالب ، والعقلية الخالقة ، والخيال المبتكر ، وتسلب الطبيعة أحدها فهو قَدْمٌ فى جملته بطىء التفكير ، ليس له قدرة على الخلق والابتكار وإن أجاد التقليد ؟؟ . وإذا وُجِدت هذه الفروق العقلية بين الشعوب كما يدعى المتعصبون لأجناسهم ، المنساقون وراء عواطفهم ، فهل هذه صفات لازمة للشعب لا تتغير بتغير البيئة والزمان ؟ وعلى أى أساس وجدت هذه الفروق العقلية ؟ أى هى نتيجة البيئة الطبيعية أم البيئة الاجتماعية ؟

يقول سِرِلْ بِرْت C, Burt فى كتابه كيف يعمل العقل[1] : « إن هذه التعميمات التى تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ بها على علاتها . حقيقة إن ذكاء الزنجى المتوسط فى الاختبارات التى طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ، ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب . وقد قام اثنان من طلبتى باختبارات أثبتا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم . . . ونتائج بعض الباحثين فى الولايات المتحدة تؤيد هذا . . . على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم ، فما لاحظناه قبل بين الذكور والإناث ينطبق هنا أيضاً على الأجناس المختلفة . فالفروق الواسعة فى الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر فإذا أردنا فروقاً بيِّنة بين قوم وآخرين فلنبحث عنها فى الطبع أو المزاج ؛ وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ، ولكننا نعتمد على الملاحظة ، وما تكونه من فكرة عامة ، وهما دليلان غير مأمونين »

ويقول بعد استعراض أجناس أوربا المختلفة ، وما بينها من خلافات فى شكل الجمجمة وتركيب الأجسام ولون الشعر والعيون ، وما يوصف به رجل الشمال من أنه مخلوق عملى ، ورجل وسط أوربا بميله إلى الحقيقة ، ورجل الجنوب بميله إلى الجمال : « ولكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد[2] » .

---

(١) الجزء الثاني ترجمة الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥ (١) كيف يعمل العقل ج ٢ ص ١٦٧

وبعد دحض هذه الآراء المبنية على التعصب الجنسى والفخر الكاذب كدعوى الألمان أنهم « من بين الشعوب الآرية أنبل الناس جميعاً » قال : « والآن أظن أن النقطة التى نستطيع التسليم بها هى أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها بمستطيعة تعليل التفاوت البيّن بين المدنيات المتعاقبة[1] » .

لقد أقر من طعنوا فى الأجناس السامية وانتقصوا عقليتهم بذكاء هذه الأجناس فـ (رينان) يقر للعربى بالذكاء وحضور البديهة كما مر بك ، وأحمد أمين يعلل لهذا الذكاء بأن العربى عصبى المزاج ، « والمزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء ، وفى الحق إن العربى ذكى يظهر ذكاؤه فى لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة كما يظهر فى حضور بديهته[2] » . وقد رأيت منذ لحظة ما أثبتته اختبارات (برت) وتلاميذه من ذكاء اليهود وتفوقهم فى ذكائهم .

« والذكاء العظيم هو الركن الأساسى فى النبوغ فى أى ميدان من ميادينه ، وليس من الضرورى أن نفترض أن موهبة الخَلْق الأدبى ، أو الاستمتاع بالأدب يتوقف على ملكة أخرى خارقة أو خارجة عن حياتنا العادية . هذه هى النتيجة التى وصل إليها وارتضاها (برت) فى بحثه لطرائق سلوك العقل فى الفن فقال : كل هذه النواحى من البحث أدت إلى نتيجة واحدة ، فالفنان — من حيث موهبته الخاصة رجلٌ مزوَّد بهبات **نادرة** ، غير أن الفرق فى الدرجة لا فى النوع ، فالمقدرة على خلق العمل الفنى — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف على ملكة إضافية خارجة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهى فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية[3] » .

فإذا تقرر أن الأجناس السامية على نصيب كبير من الذكاء ، وأن الذكاء العظيم أساس النبوغ فى أى ميدان من ميادينه ، وأن موهبة الخلق الأدبى لا تتوقف على ملكة أخرى خارقة . فالعربى بفطرته ومواهبه مهيأ للخلق الأدبى وللنبوغ ، وليس من الضرورى أن يكون

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٠ (٢) فجر الإسلام ص ٤٤ طبعة ثانية .

(٣) راجع (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده) للأستاذ محمد خلف الله ص ٣٣

النبوغ هو ذلك القصص شعراً أو نثراً — وقد عرفت منزلة القصص وأى لون من ألوان الأدب هو ، وأدركت أن القصة لا تتطلب خيالا جامحاً محلقاً عميقاً ، وأن العرب صدفوا عنها لما وهبوه من خيال واسع ، ولأن دينهم أغناهم عن النظر فى حلول المشكلات الاجتماعية التى تعنى بها القصة — وقد مهر العربى فى ألوان أخرى من الأدب ، بل فى أعلى أنواع التعبير وأسماها وهو الشعر . وليست القصة « إلا أحد مظاهر الخيال لا الخيال كله ، فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هـذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال[1] » . ومع ذلك فالشعر العربى فى كل عصوره ملىء بالقصص المحبوكة العقدة الرائعة الخيال[2] .

ثم هناك سؤال آخر علينا أن نسأله قبل أن ندع الـكلام فى هذا الموضوع ، وهو : أحقاً تبتدىء الحضارة الإنسانية بعلوم اليونان وثقافتهم ، لم يسبقهم فى ذلك سابق ، وأن هذه الديانات والميثولوجيا والقوانين والفلسفة هى كلها من ابتكار اليونان وحدهم وبذلك احتلوا هذه المـكانة السامية فى التاريخ ، وبهم تميزت الشعوب الأوروبية وفاقت غيرها ؟

كثير من الناس الذين لم يبحثوا الموضوع ، أو بحثوه بحثاً سطحياً يقولون فى غير تردد : أجل ! هذه المدنية والثقافة والفلسفة التى رويت عن اليونان هى من ابتكارهم ، والإنسانية مدينة لهم بالشىء الـكثير فى هذا المضمار .

ولـكن هناك من شك فى ذلك ، بل هناك من أثبت بأدلة يقينية أن اليونان فى دياناتهم ، وآلهتهم ، وأسماء بعض هذه الآلهة ، وما تتطلبه الديانة من طقوس ، ثم فى قوانينهم ، وفى آدابهم تتلمذوا على المصريين القدماء وأخذوا عنهم . وأثبت أن هوميروس فى الألياذه اقتبس كثيراً من القصص المصرية بأشخاصها وخيالاتها وأجوائها . بل أخذ قصصاً مصرية

---

(١) فجر الإسلام ص ٤٣

(٢) خذ مثلا قصيدة الحطيئة التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسماً

وقصيدة زهير فى الصيد : (وغيث من الموسمى حوتلاعه) وقصيـدة امرىء القيس ويومه بدارة جلجل ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ، ومعظم شعر عمر بن أبى ربيعة ولا سيما قصيدته الرائية (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) ، وقصيدة البحترى فى الذئب كلها من الشعر القصصى .

معينة وأدخلها فى ملحمته . وليس هؤلاء العلماء الذين قاموا بهذه الأبحاث من المتجنين على اليونان أو المبغضين لهم ، بل على العكس هم من المعجبين بهم والمعنيين ببحث آثارهم وترجمتها إلى لغاتهم وشرحها والتعليق عليها ، ولكن اطلعوا على أشعار مصرية ، وآثار قديمة ، وقرءوا هيردوت المؤرخ اليونانى المشهور ، ووازنوا بين نصوص الإلياذة ، وهذه النصوص المصرية التى عثروا عليها فوجدوا التشابه بل التطابق .

ومن هؤلاء العلماء ڤيكتور بيرار Victor Berard الفرنسى مترجم الإلياذة وشارحها ، ثم چولنيشيف M. W. Golénicheff الروسى أحد علماء المصرولوجيا . وقد أثبت عبد القادر حمزة باشا[1] النصوص المصرية القديمة التى عثر عليها هذان العالمان ، والتى لها مشابه فى الألياذة ، كما أورد الأدلة القاطعة التى لا يأتيها الشك على تلمذة اليونان للمصريين ، ومن من علمائهم ومشرعيهم وأدبائهم ومؤرخيهم أتى مصر وتأثر بما فيها من علوم ومعارف ودرس على أساتذتها وكهنتها . وهو فصل ممتع حقاً ولولا خشية الإطالة للخصناه تتمة للبحث ، ولكن هذا الجزء أوشك على الانتهاء وهناك بعض نقط تحتاج إلى نظرة قبل أن نفرغ منه ، وحسبنا أن نقول كما قال الأستاذ العقاد[2] فى بدعة السامية والآرية واختلاف العقليتين ، وكيف ظهرت هذه البدعة : « ونشأت فى إبان ذلك بدعة الآرية والسامية ، وهى تلك البدعة التى تقضى للآريين بالسبق والرجحان فى كل فضيلة من فضائل الأمم أو فضائل الأفراد ، وقد ظهر بطلانها الآن ، أو ظهر على الأقل أن الحاجز الذى أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا أو ثلمة ضعف هناك ، بل هو ينعكس فى أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم للآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناساً كثيرين فى إبان نشأتها فتحدثوا عنها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تجنى على الأفكار ؛ حتى أوغل فيها بعض

---

(١) فى كتابه على هامش المصرى القديم ج ١ ص ١٢٥ — ١٧١

(٢) فى كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس العقاد ص ١٣ — ١٤ فى فصل عن العقلية المصرية وطبيعتها .

الغلاة من دعاتها فاستخرجوا منها دليلا على رجحان بعض الأمم الأوروبية على بعض ، واستئثار جماعة من تلك الأمم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الأخرى ، فتصدى لها يومئذ من الأوروبيين من ينكرها ويزيفها ويبالغ فى السخر بها ، بعد أن كانوا يتفقون على ترويجها ، والإغضاء عنها ، حين كانت معرفتها لاصقة بالشرق وحده موقوفة عليه دون غيرها » .

وحسبى الآن ما سقته من أدلة[1] على أن أسطورة العقلية السامية والآرية لا تثبت أمام الأدلة العلمية ، وأن القصة — على الرغم من وجودها فى الأدب العربى كما هى موجودة عند كل الأمم ، وإن لم تأخذ القالب الفنى الذى لم يظهر بالقصص الأوربى إلا فى أواسط القرن الثامن عشر — لا تحتل هذه المكانة الممتازة فى عالم الأدب ، ولا يوصف من لم ينبغ فى تأليفها بعقم الخيال وجمود العاطفة وضحالة الفكر .

وكم كان بودى أن أفيض فى أدب القصة ، وأبين أصولها وكيفية إنشائها ، ولكن هذا يحتاج إلى كتاب قائم بنفسه ، وإنما دعانى إلى الخوض فى القصة على هذه الطريقة إقبال المترجمين فى العهد الذى نتحدث عنه عليها إقبالاً زائداً ، وتأثر الأدب العربى الحديث بها بعد ذلك تأثراً بالغاً ، حتى دعا ذلك إلى القول بأنها لم تكن موجودة عند العرب ، وأن العقلية السامية لا تستطيع إنتاج القصة لما بها من فقر فى الخيال .

٢ — المقالة والصحافة :

وإذا كان القرن التاسع عشر قد انقضى ، ولم تحتل فيه القصة العربية الموضوعة مكانها فى عالم الأدب ، وكانت أغلب القصص التى تطبع مترجمة من شتى اللغات ، فإن المقالة منذ ابتدأت الصحافة العربية بإنشاء الوقائع المصرية ، ثم روضة المدارس ، ثم الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، قد صارت عماد الكتاب والأدباء ، والقالب المعتاد الذى يصبون فيه

(١) وإذا أردت المزيد فاقرأ مقالة مجلة الأنصار بالعدد ٤٦ السنة الرابعة ، شوال ١٣٦٣ وكتابنا (النابغة الذبيانى) فقد تكلمت فيه عن موضوع القصة من زوايا جديدة وأضفت إلى ما تقدم هنا براهين أخرى .

أفكارهم ، وينشرونها بين الناس .

وليست المقالة غريبة عن الأدب العربى القديم ، وإن تغيرت صيغها وشروطها ، فعبد الحميد الكاتب حين تكلم عن الشطرنج ، أو الصيد أو الكتابة كان يكتب شيئاً قريباً من المقالة ، والفصول الأدبية التى أنشأها الجاحظ فى كتبه البخلاء ، والمحاسن والأضداد ، والحيوان والبيان والتبيين ، مقالات مطولة تنقصها شروط المقالة الحديثة ، وإن كان هذا القول لا يرضى بعض النقاد ، بل إنهم لا يوافقون على المقالة الأدبية التى يدبجها الكتاب اليوم إذا قاسوها بمقاييس النقد الأجنبية ، ويتطلبون من المقالة أن تكون « على غير نسق من المنطق ، وأن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة » ويحتجون بتعريف (جونسون) ومكانته من الأدب الإنجليزى فى الذروة العليا » للمقالة بـ « أنها نزوة عقلية لا ينبغى أن يكون لها ضابط من نظام ، هى قطعة لا تجرى على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها »[1] ويطبقون هذا القول على المقالة الأدبية فى مصر فيرون ألا يكون لها نقط ولا تبويب ولا تنظيم .

وهذا لعمرى شرط لا يوافق عليه الأدباء فى كل أنحاء العالم فقد تغيرت المقالة منذ عهد (جونسون) فى القرن الثامن عشر حتى اليوم ومنذ أن قال (بيكون) يصف مقالاته : « إنها ملاحظات مختصرة كتبت من غير اعتناء » ، واشترط النقاد فى المقالة شروطاً أخرى غير تلك التى صار عليها (جونسون أو بيكون) ، ورأوا أن الكاتب ملزم بالتفكير فيما يريد أن يكتب قبل أن يتناول القلم ، ثم السير فى موضوعه سيراً منطقياً متجنباً الفضول ، ومركزاً فكره فى النقط الرئيسية ، على أن يكون لموضوعه وحدة تربط بين أجزائه ، وأن يكون واضحاً فى تعابيره ، منتخباً لكلماته ، ولأسلوبه طلاوة وعليه جمال . وقد يحتاج المقال إلى مقدمة ، وقد لا يحتاجها ، ولكن لا بد له من نتيجة أو خاتمة ، ولا بد من تنسيق الأفكار ؛ فالأفكار غير المنسقة تدعو إلى اضطراب الكاتب فى كتابته ، وعدم فهم القارئ لما يكتب ، وليست هذه الشروط — كما يقال سخرية — هى شروط الإنشاء

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود فى مقدمة كتابه أدب المقالة .

المدرسى، وشتان بين هذا و بين المقال الأدبى ، فإن الفكرة التى يراد التعبير عنها سواء كانت فى نفس طالب مبتدئ أو كاتب نابغ محتاجة إلى الوضوح و إلى التمهيد لها ، ثم إلى عرضها عرضاً جيداً منطقياً يفهمه القارئ بيسر ، لا أن تكون مشعثة غامضة تسير فى غير اتساق ونظام ، فإن ذلك قد يؤدى إلى عدم فهمها فضلا عن أنه لا يتفق مع البلاغة فى شىء (١) .

وموضوع المقال يتسع لكل شىء فى الوجود من تعبير عن عاطفة أو رغبة أو رحمة أو معرفة أو فكرة ، أما أن يقال إن المقال الأدبى يجب أن يكون وقفاً « على التعبير عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه » فقد كان ذلك شرطاً مرعياً أيام (جونسون) ، وأيام أن كانت المقالة محدودة الغرض ، ولكن سارت المقالة فى طريقها شوطاً طويلا ، واتسع أفقها حتى شملت كل ألوان الحياة إلى أن زحزحت عن مكانتها بتقدم القصة والأقصوصة ، و إن ظلت إلى اليوم لوناً محبوباً من ألوان الأدب .

هذا وقد تكون المقالة :

١ — إخبارية ، تقص حادثة ما ، أو مجموعة من الحوادث ، وهى حينئذ قريبة من الأقصوصة تتخذ شكلا قريباً من شكلها ، وفيها ما يثير الشوق ، و يأسر الانتباه و يدعو إلى التقصى والتتبع . ومن المقالات الأخبارية التراجم .

٢ — وقد تكون وصفاً لحادثة أو شخص أو شىء ، تعطى تقريراً كاملا تفصيلياً عنه وعن محيطه .

٣ — وقد تكون معرضاً لفكرة وتوضيحاً لها حينما تكون الفكرة غامضة ، والموضوع معنويا . ومهمة العرض أن يفسر لماذا حدث هذا الشىء ، أو كيف يمكن أن يحدث ذاك الشىء . والفرق بين العرض و بين الوصف أن العرض لا يأبه بالتفصيلات ولكن يعنى بالصفات العامة و بالمبادئ ، و بالمميزات التى تخص نوعاً ما ؛ وقد تذكر بعض التفاصيل أثناء

---

(١) راجع Essay Writing And Rhetoric by Egerton Smith طبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩١٣ المقدمة والفصل الأول .

وراجع مقدمة English Essays. by J, H, Lobban

وراجع لنخبة من كبار الأدباء Modern Literary Esseys

العرض ، ولكنها لا تحتل المكانة الأولى ، بل تذكر لإيضاح فكرة أو تضرب مثلا على قانون عام . فقد تصف صورة ما ، ولكن الكلام عن التصوير عرض ، وقد تصف مسجداً ما ، ولكن الكلام عن هندسة المساجد يحتاج إلى عرض .

٤ — وهناك المقالة الجدلية التى تناقش فكرة ما ، وتبين ما بها من خطأ وصواب ، وصدق وكذب ، ويكون الموضوع عادة سؤالا يناقشه الكاتب ويجيب عنه بما يراه ؛ كسؤالنا مثلا عن الحرب وهل هى معقولة ؟ أو عن الكذب وهل ثمة ما يبرره فى الحياة ؟ أنتصدق على الشحاذين ؟

وهذه الصور هى التى تظهر فيها المقالة فى الأدب الغربى[1] . ونرى مثلها فى الأدب العربى الحديث لأنها صور طبيعية يلجأ إليها كل كاتب .

والكلام عن المقالة يدعونا حتما إلى الكلام عن الصحافة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لأن المقالة لم تظهر إلا فى الصحف ، ونحن قد تتبعنا الصحافة ، فى عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق . أما الصحافة فى عهد الاحتلال فقد تكلمنا آنفاً عن مجلة الأستاذ للسيد عبد الله نديم التى أنشئت فى سنة ١٨٩٢ ، وكيف كانت حرباً عواناً ، وناراً مضطرمة على الاحتلال والأجانب ، ولكن هؤلاء ضاقوا به ذرعاً فأغلقوا جريدته ، ونفوه من البلاد .

وإذا كان عبد الله نديم قد ترك مصر ، وعطلت جريدته الوطنية الحرة ، فإن الأسباب التى تدعو إلى ظهور مثلها فى حرارتها وصدق لهجتها ، ومحاربتها الاستعمار الإنجليزى كانت قائمة ، على الرغم من أن سياسة الإنجليز فى أوائل عهد الاحتلال كانت ترمى إلى كم الأفواه ، وقتل الروح والوطنية فى نفوس دعاة الحرية ، وإن تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان وتركوها حرة تقول ما تشاء[2] ؛ لأن كرومر ممثل الاحتلال بمصر لم يكن يأبه للصحافة

---

(١) راجع Essay Writing, Rhetoric and Prosody by Egerton Smith, P, 19 - 25

(٢) وفى ذلك يقول جورج يونج G, Young فى كتابه مصر Egypt مشيراً إلى تقرير اللورد (دفرين) ونصحه لسلطة الاحتلال بمصر أن ترخى العنان للصحافة ، وأن نصيحته قد وجدت أذناً صاغية حتى « أهمل قانون سنة ١٨٨١ إهمالا تاماً ، ونالت مصر حرية صحفية لا عهد لشمال أفريقية أو غرب آسيا بها » انظر ص 180 — 179

وما قد تثيره من سخط وتحت إمرته جيش إنجليزى جاثم على صدر الوادى يبطش بكل من تحدثه نفسه بالشغب . على أن الصحافة فى رأى كرومر كانت من الهوان والضعف بدرجة لا تدعو إلى القلق والاضطراب ؛ وإذا بدر من إحدى الصحف ما يسىء إلى الإنجليز أو يشوه سمعتهم بمصر عاجلوها بالتعطيل ، ولقد مر بك كيف حاربوا مجلة العروة الوثقى ومنعوها من دخول مصر ، وعطلوا جريدة الأهرام شهراً (٢) لتنديدها بالسياسة الإنجليزية فى سنة ١٨٨٤ ، وتبطش يد الاستعمار بكثير من الجرائد لأتفه الأسباب فتعطل جريدة الوطن مع أنها موالية لهم ، وتلغى الزمان ، ومرآة الشرق لأنهما من محاربى الاحتلال .

وتاريخ الصحافة فى هذه الحقبة متأثر بعدة عوامل :

١ — فتركيا كانت — على الرغم من ضعفها ، وإذعانها للأمر الواقع فى مصر — تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال الإنجليزى ؛ ضناً بمصر الغنية أن تفلت من يدها إلى الأبد وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء دينى مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة . وكانت هذه النزعة تتملك قلوب الجمهرة الغالبة من المصريين و بعض السوريين المقيمين بها . وقد ظهر من الجرائد التى تحمل لواء هذه السياسة وتنفث الحمم ملتهباً ، والسم ناقعاً ضد الإنجليز وسياستهم الاستعمارية جريدة (المؤيد) ، ثم جريدة (اللواء) .

٢ — وهناك الاحتلال البريطانى ، وهو احتلال تديره سياسة محنكة يصفها اللورد كرومر بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة ، ويجب أن تكون أصول أحكامنا — التى هى الصلة بيننا و بين جميع الشعوب الداخلة فى حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسى والاقتصادى والأدبى — قواعدَ صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية فى بناء الإمبراطورية . إن المبرر الأكبر

---

(١) كانت جريدة الأهرام تحارب الإنجليز لأنها كانت تعمل لحساب الفرنسيين ، وفى ذلك تقول جريدة الشعب (٨ مايو ١٩١٢) تصف الأهرام وسياستها : « إن سياستها عثمانية مصرية تدافع عن مصالح فرنسا فى مصر سواء كانت اقتصادية أوسياسية وأحياناً تشتد فى نقدها كأكثر الصحف الوطنية تطرفاً »

للاستعمار يجب أن يظهر جلياً فى حسن التصرف بما فى أيدى هذه الأمبراطورية من القوى[١] » . وأراد الاحتلال أن يجتث نفوذ تركيا من الأساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يجد لسياسته هذه أنصاراً ومؤيدين وأن يجتذب قلوباً عزيزة المنال تدافع عنه أو تسكت عن مخازيه . وجد الاستعمار أنصاره بين السوريين المسيحيين الناقمين على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم فى ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فرأوا فى الإنجليز من يحميهم ويعطف عليهم ، فأنشئوا جريدة المقطم[٢] تشيد بسياستهم ، وتلهج بأعمالهم ، وقد صرح أصحابها بأن غرضهم السياسى من تأسيسها معلوم ظاهر فى كل صفحة من صفحاتها ، « وهو تأييد السياسة الإنجليزية التى لولاها ما كان فى الشرق بلد يستطيع أحد أن يعيش فيه ويجاهر بآرائه وأقواله[٣] » ، ومن هؤلاء الذين شرعوا أقلامهم فى محاربة الترك وتأييد الإنجليز سليم سركيس صاحب جريدة (المشير) ، ويقول من مقالة بعنوان (هل مصر عثمانية ؟)[٤] : « لم أجد فى حياتى ، ولا قرأت فى مطالعاتى عن أمة تريد الانتقال من نور الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثمانى » . ومن شعره فى التنديد بظلم الأتراك قوله[٥] :

نرجو صلاح الترك قد خابت أمانينا الكواذب
هى دولة ظلمت وليس الـ عدل عن ظلم بذاهب
فانشد معى قولا ترد ده المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها إحدى العجائب

وقد وجد الإنجليز بجانب هؤلاء أقلاماً أخرى تناصرهم لنفورهم من الظلم التركى مثل ولى الدين يكن ، مع أنه كان تركياً صميما لا يبغى بتركيا بديلا ، ولكنه كان يحب الإنجليز لحمايتهم — فيما يزعم — الأحرار . وقد مر بك كيف اجتذبوا إليهم الشيخ محمد عبده وإن

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ١٠
(٢) ١٤ فبراير سنة ١٨٨٩
(٣) مجلة الجامعة لفرح أنطون ج ١ ص ٨٢ (٤) المشير عدد ١٠٣
(٥) العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث لأنيس المقدسى ص ٨

لم يكن من صنائعهم ، ولكنه كان من المحتمين بهم المستظلين بظلهم ، وقد استطاعوا أن يطفئوا تلك النار الملتهبة التي يصبها عليهم الشيخ على يوسف وشيعته فى المؤيد ، وأن يسكتوا تلك الأقلام القوية التى تصور فى جرأة وقوة فظائعهم وتملأ القلوب إحناً و بغضاء عليهم (١) . ولكن لم يستطيعوا مع كل هذا أن يجعلوا من المؤيد بوقاً يدعو لهم وسنعود إليه بعد قليل .

وبذلك انقسمت الصحافة قسمين قسم يشايع تركيا — وفى الغالب يدعو للخديو ويناوئ الانجليز ، ويندد بالاستعمار إما مدفوعاً بالولاء الدينى ، أو بالكراهية للإنجليز أو بتحريض دولة أجنبية مثل الأهرام وفرنسا . وقسم يدافع عن الإنجليز ويذيع مساوئ العهد التركى ، ويترنم بنعمة الاحتلال ، و ينتقص المصريين وعلى رأسهم الخديو ، ويتمثل في جريدة المقطم ، وفى بعض الأقلام التى فتنها بريق الحرية الكاذبة التى لوح بها الإنجليز .

وأكبر ظاهرة تستحق منا العناية قبل أن نفرغ من هذا الجزء ظهور جريدتين إسلاميتين كان لهما شأن عظيم فى تاريخ مصر ، وفى توجيه الحركة والإصلاح الاجتماعى ، وقد أشرنا إليهما فيما سبق إشارات عابرة ولكن سنخص المؤيد هنا بكلمة ؛ لأن الصحافة اليومية المشهورة بمصر كانت إلى ظهور المؤيد واللواء سورية تتحكم فيها نزعات وأهواء متباينة ، أما اللواء فله شأن آخر وموعدنا به فى الجزء الثانى إن شاء الله ؛ لأنه أنشئ فى السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والكلام عنه يطول .

المؤيد :

والفضل فى ظهور المؤيد يرجع إلى سياسة الإنجليز واصطناعهم أصحاب المقطم ، فإن هذا

---

(١) وقد قال فى هذا التغير حسين شفيق المصرى صاحب (المباحث السياسية) : « المؤيد الذى يقرأ الآن غير المؤيد الذى كان المصريون يحبونه ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد الحاضر غير الشيخ على يوسف الذى حمل على الأعناق بعد حكم قضية التلغراف المشهورة فقد تغيرت الحال مع الصحيفة وصاحبها ، والبون بعيد بين اجتماع الوطنيين لتوقير أم الصحف وأبى الصحفيين وبين اجتماعهم للنداء بإسقاطهما فى الحضيض الأسفل ، وليس الإقرار بهذه الحقيقة من الأمور التى تسر الوطنيين » (راجع تاريخ الصحافة العربية) للفيكونت فيليب دى طرازى ج ٣ ص ٣٨ .

أثار حفيظة الوطنيين ، فتقدم الشيخ على يوسف[١] صاحب مجلة الآداب لإخراج المؤيد جريدة وطنية مصرية وشجعه رياض باشا وكثير من زعماء مصر[٢] ، وغدت المؤيد ميداناً تتألق فيه الأقلام الوطنية الجريئة تثيرها حرباً شعواء على الاستعمار الإنجليزى ، وعلى الأجانب الذين يناصرونهم ، ونازلت المقطم نزالا عنيفاً مراً ، فما لبثت أن راجت حتى صارت أقوى جريدة عربية فى الشرق العربى كله . وأفسحت صدرها لمصطفى كامل ولفئة صالحة من كتاب الشباب ، وتلاميذ جمال الدين ومحمد عبده[٣] . وعنيت بالمسائل الوطنيـة فى جميع نواحيها ، وبالأمور الإسلامية . ولم يستطع الإنجليز أن يعطلوها كما عطلوا الأستاذ لعبـد الله نديم لقوتها وكثرة قرائها ، ولـكن تمـكنوا بعد مدة من استمالة الشيخ على يوسف إليهم ، ولعل صحبته لمحمد عبده قد أثرت فيه فنهج منهجه فى مسالمتهم .

لقد كانت المؤيد أمل المصريين ، ومدرسة تخرج فيها عدد كبير ممن قادوا الأمة فى الصحافة بعد ذلك ، وكانت غنية منتشرة فى العالم الإسلامى كله ، وهى أول جريدة استعملت مطبعة كهربية فى الشرق ، وقد احتلت منزلة كبيرة فى نفوس الناس حتى اعترف لها بهذه المـكانة العدو والصديق ، ولذلك عز على المصريين وقوفها موقفاً سلبياً من الاستعمار الإنجليزى بعـد أن كانت من أكبر خصومه ، وإن لم تفقد قراءها ؛ لسابق فضلها وقوة

---

(١) الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، ولد بقرية بلصفورة بمدينة جرجا سنة ١٨٦٣ من أسرة شريفة أخنى عليها الدهر ، ودرس فى الأزهر مدة إلا أن ميله الأدبى صرفه عن إتمام دروسه به ، وأنشأ فى سنة ١٨٨٧ مجلة (الآداب) أسبوعية فى ثمانى صفحـات ، ولـكنها اهتمت بالدراسات القديمة ، وحررت بأسلوب يعلو على جمهرة القراء ، فتعثرت فى خروجها ، ثم أسس جريدة المؤيد فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، فـكانت أول جريدة مصرية يومية كبيرة ، وراجت رواجاً عظيما . وفى سنة ١٩١٣ أسندت للشيخ على يوسف مشيخة السادة الوفائية ، فاستقال من جريدته ، ومات بعد ذلك فى سنة ١٩١٣ وكان الشيخ (على) قوى العزم أديباً متلافاً وقد أثار زواجه من بنت السيد عبد الخالق السادات ضجة عظيمة لأن السيد عبد الخالق عده دونه فى الحسب والنسب ، وشغلت الصحف بذلك وقتاً طويلا ، وقد رمى بالتعصب الدينى ، ولـكنها تهمة يشيعها من لم يفهموا سياسة ذياك الوقت والعوامل التى حركت الصحافة والدوافع التى جعلت من بعض المسلمين متعصبين وسنخصه بترجمة مطولة فى الجزء الثالث إن شاء الله .

(٢) راجع تطور الصحافة المصرية لإبراهيم عبده ص ١٥٢

(٣) من كتاب المؤيد المشهورين بجانب صاحبه : جميل مدور ، وعبد الحميد الزهراوى ، والشيخ عبد القادر المغربى ، ومحمد كرد على ، ومحب الدين الخطيب ، والمنفلوطى ؛ وحافظ عوض ، ومحمد أبو شادي وإمام العبد ، وسليمان فوزى (صاحب الـكشكول) .

تحريرها ، ولسياستها الإسلامية ، ولحسن الدعاية لها . وفى المؤيد وصاحبه يقول حافظ إبراهيم حين أخرج المؤيد فى ثمانى صفحات سنة ١٩٠٦ .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة ... أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحت مصلى للهداية عندما ... سجدت برُحْبِ فنائها الأقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية ... وعلى مؤيدك القديم سلام

ويقول ولى الدين يكن عنه :

« الشيخ على يوسف سهل التأليف ، شديد المضاء ، هو فى بيانه أقرب إلى العامة منه إلى الخاصة ، إذا غالب غلب بصوته دون روحه ، صحافى محنك . وليست الكتابة من عمله.

كأنما يراعه سوطه ... يضرب إن جَدَّ ولا يكتب
لا تدع العجمة أسلوبه ... فليس فى أسلوبه معرب

ولعلك أدركت أن ولى الدين ليس ممن يحبون الشيخ ، وقد كانا على طرفى نقيض فى سياستهما كما مر بك .

وفيه قال يوسف البستانى : « أنظر إليه بعين الصحافى فأراه عظيم البراعة فى تقليب اليراعة وشديد الحصافة فى ميدان الصحافة ، ولو وجد قلمه من عواطفه دعامة لرفعه بيننا إلى مقام الزعامة . ولقد زاد فضله أنه من الطبقة العصامية وجهال اللغات الأجنبية »[١] .

ويقول عنه تشارلس آدمس :

« أما الشيخ على يوسف فقد كان صحافياً ماهراً ، له دهاء يشوبه المكر أحياناً ، وقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة فى العالم العربى »[٢] .

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة عن الصحافة فى أخريات القرن التاسع عشر ولنا إليها عودة فى الأجزاء التالية إن شاء الله ؛ لأن كثيراً من الصحف التى ظهرت فى هذه الحقبة ازدهرت ونمت فى القرن العشرين ، وتأثرت بعوامل سياسية واجتماعية كانت وليدة أحداث ظهرت فى أوائل هذا القرن .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية — الفيكونت فيليب دى طرازى ج ٣ ص ٤٠

(٢) الإسلام والتجديد تعريب عباس محمود ص ٢١٧

المراجع

ابراهيم عبده ... ... : ١ — تطور الصحافة المصرية
٢ — أعلام الصحافة

ابن إياس الجركسى ... ... : بدائع الزهور فى وقائع الدهور

أحمد أمين بك ... ... : ١ — قصة الفلسفة الحديثة جزآن
٢ — فجر الإسلام
٣ — مجلة الثقافة مقالات عن زعماء الإصلاح الاجتماعى

أحمد تيمور باشا ... ... : أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر

أحمد سمير ... ... : سلافة النديم

أحمد صبرى ... ... : مجلة الأنصار

أحمد فارس الشدياق ... ... : منتخبات الجوائب

أحمد الإسكندرى وآخرون ... ... : ١ — المنتخب
٢ — المفصل

اسماعيل أدهم ... ... : توفيق الحكيم الفنان الحائر

إلجود (p. G Elgood) ... ... : The Transit of Egypt

إلياس الأيوبى ... ... : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل (جزءان)

أمين باشا سامى ... ... : تقويم النيل الجزء الثانى والثالث

أنيس المقدسى ... ... : العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث

برت (C . Burt) ... ... : كيف يعمل العقل الجزء الثاني ترجمة محمد خلف الله

بروكلمان (Carl Brockelmann) ... ... : Geschichte der Arabischen Litterature
ملحق الجزء الثانى

برون (E . G . Brown) ... ... : The Tersian Revolution

بطرس البستانى ... ... : أدباء العرب الجزء الثالث

بلنت ... ... : التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر . ترجمة البلاغ

تشارلتن ... ... : فنون الأدب تعريب زكى نجيب محمود

تشارلس آدم ... ... : الإسلام والتجديد ترجمة عباس محمود

توفيق الحكيم ... ... : ١ — تحت شمس الفكر
٢ — مقالة فى مجلة أخبار اليوم ١٩٤٨/٣/٢٧

جاك تاجر ... ... : حركة الترجمة بمصر

جب (H . R . Gibb) ... ... : Bulletin of the School of Oriental Studies

الجبرتى (الشيخ عبد الرحمن) ... ... : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار

جميل صليبا ... ... : ابن خلدون — منتخبات

جورجى زيدان ... ... : ١ — تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع

٢ — تراجم مشاهير الشرق جزءان

جومار ... ... : Journal Asiatiqne عدد أغسطس ١٨٢٨

حسن قويدر ... ... : نيل الأرب فى مثلثات العرب

حسين المرصفى ... ... : الوسيلة الأدبية

خليل مطران ... ... : المقتطف إبريل ١٩٣٣

رفاعة الطهطاوى ... ... : (ا) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز

(ب) مناهج الألباب

(ج) المرشد الأمين

(د) مواقع الأفلاك

رينان (Renan) ... ... : Histoire Gènérale et Systéme Comparé des Langues Sémitiques

زكى نجيب محمود ... ... : ١ — قصة الفلسفة الحديثة جزءان

٢ — مقدمة كتاب أدب المقالة

ستودارد ... ... : حاضر العالم الإسلامى أربعة أجزاء ترجمة عجاج نويهض

سليم سركيس ... ... : جريدة المشير

سميث (Egerton Smith) ... ... : Essay writing and Rhetoric

شو (G . B Shaw) ... ... : the Intelligent woman's Guide

شفيق غربال ... ... : The Begining of Egyptian question

شكيب أرسلان ... ... : ١ — تعليقات على هامش حاضر العالم الإسلامى

٢ — مقدمة النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى

صالح مجدى ... ... : حلية الزمن فى وصف مناقب خادم الوطن (مخطوط)

طه حسين باشا ... ... : (ا) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تعريب محمد عبد الله عنان

(ب) فى الأدب الجاهلى

(ج) حافظ شوقى

عباس العقاد ... ... : (ا) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى

(ب) سعد زغلول سيرة وتحية (ج) الفصول

عثمان أمين ... ... : محمد عبده فى سلسلة أعلام الإسلام

عبد الرحمن الرافعى بك ... ... : ١ — الحركة القومية ثلاثة أجزاء

٢ — عصر إسماعيل جزءان

٣ — تاريخ الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى

٤ — مصطفى كامل

عبد القادر حمزة باشا ... ... : على هامش التاريخ المصرى القديم ج ١

عبد الله فكرى ... ... : الآثار الفكرية

عبد الله نديم ... ... : الأستاذ والتنكيت والتبكيت

على أبو النصر ... ... : الديوان

على مبارك باشا ... ... : الخطط التوفيقية

عمر الدسوقى ... ... : إخوان الصفاء

فرح أنطون ... ... : مجلة الجامعة

فون فسينديك ... ... : ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربى ترجمة محمد عبد الله عنان

فيليب دى طرازى ... ... : الصحافة العربية أربعة أجزاء

قدرى طوقان ... ... : جمال الدين آراؤه وأثره — محاضرة

كلوت بك ... ... : لمحة عامة إلى مصر

لوبان (J, H. Lobban) ... ... : English Essays

لويس شيخو ... ... : (ا) تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر جزءان (ب) مجلة الشرق

مارون عبود ... ... : مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨

محمد بهجت الأثرى ... ... : أعلام العراق

محمد حسين هيكل ... ... : مقدمة الديوان البارودى

محمد الخضرى بك ... ... : محاضرات فى التاريخ الإسلامى (الدولة العباسية)

محمد خلف الله ... ... : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب

محمد رشيد رضا ... ... : (ا) تاريخ الأستاذ الإمام ثلاثة أجزاء (ب) المنار

محمد صبرى ... ... : La Genése de l'Esprit Nutional Egyptian

محمد صبيح ... ... : محمد عبده — كتاب الشهر

محمد عبده ... ... : ١ — الوقائع المصرية
٢ — مجلة العروة الوثقى

محمد عثمان جلال ... ... : العيون اليواقظ

محمد الغمراوى ... ... : النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى

محمد كرد على ... ... : خطط الشام الجزء السادس

محمد المخزومى باشا ... ... : خاطرات

محمود سامى البارودى ... ... : الديوان

محمود صوت الساعاتى ... ... : الديوان

مصطفى لطفى المنفلوطى ... ... : ١ — مختارات المنفلوطى
٢ — ترجمة للساعاتى فى الديوان

نجيب العقيقى ... ... : المستشرقون

يونج (G. Young) ... ... : Egypt

الفهرس

صفحة

مقدمة الطبعة الأولى ... ... ٣ — ٧

مقدمة الطبعة الثانية ٨

الفصل الأول — البعث ... ... ٩ — ٥٦

قبيل البعث ٩ — البعث ١٣ — البعثات ١٩ — الترجمة ١٩ — رفاعة الطهطاوى ٢٠ — أعماله بعد عودته ٢٣ — رفاعة والقانون ٢٨ — رفاعة والمرأة ٢٨ — وفاته ٢٨ — صفاته ٢٩ — الطباعة والصحافة ٣٣ — الصحافة ٣٥ — الأدب فى عهد محمد على ٣٨ — الشيخ حسن العطار ٣٨ — الشيخ حسن قويدر ٤٠ — السيد على الدرويش ٤٢ المعلم بطرس كرامه ٤٤ — الشيخ ناصيف اليازجى ٤٥ — الشهاب الألوسى ٤٩ — التأليف فى عصر محمد على ٥٢ ... ...

الفصل الثانى — النهضة ... ... ٥٧ — ١٠٢

التعليم ٥٧ — دار العلوم ٥٨ — الجمعيات العلمية ٦١ — الصحافة ٦٣ — أحمد فارس الشدياق ٦٤ — مجلة اليعسوب ٨٣ — مجلة روضة المدارس ٧٢ — أديب إسحق ٧٥ — الطباعة ٨٧ — الترجمة والتأليف ٨٨ — محمد عثمان جلال ٨٩ — النهضة فى بلاد الشام ٩٩ — المدارس فى لبنان ١٠١ ... ...

الفصل الثالث — الأدب فى عصر إسماعيل ... ... ١٠٣ — ١٤٢

المدارس الأدبية ١٠٣ — السيد على أبو النصر ١٠٦ — الشيخ على الليثى ١١٠ — محمود صفوت الساعاتى ١١٤ — شعر الساعاتى ١١٩ — عبد الله باشا فكرى ١٢٥ — السيد عبد الله الألوسى ١٣٩ — حسين بيهم ١٤١ ... ...

الفصل الرابع — بعث الشعر العربى ... ... ١٤٣ — ٢٠٤

تطور الشعر ١٤٣ — البارودى ١٤٥ — حياته ١٤٥ — أخلاقه ١٥٢ — ثقافته ١٥٦ — شعره ١٥٨ — القديم فى شعره ١٦٣ — الجديد فى شعره ١٦٩ — الوصف ١٦٩ — الشعر السياسى ١٧٨ — النسيب ١٨٩ — المخترعات الحديثة ١٩٣ — نظرة عامة ١٩٤ — الرثاء ١٩٥ — المدح ١٩٧ — فخره ١٩٩ — الزهد ٢٠٠ — الحكمة ٢٠١ — هنات فى شعره ٢٠٢ ... ...

الفصل الخامس — نهضة النثر ... ... ٢٠٥ — ٢٩٠

(ا) موضوعات النثر ٢٠٥ — الدفاع عن الشعوب المظلومة ٢٠٦ — الدعوة إلى الشورى ٢٠٧ — محاربة الاستعمار ٢٠٩ — الإصلاح الاجتماعى ٢١٣ ... ...

(ب) مميزات النثر وأنواعه ٢١٦ — السيد جمال الدين الأفغانى ٢١٩ — أثره بمصر ٢٢٤

صفحة

— جمال الدين والثورة ٢٢٧ — جريدة العروة الوثقى ٢٢٩ — عود إلى الرحلة ٢٢٩ — خاتمة المطاف ٢٣١ — نبذ من آرائه ٢٣٢ — أسلوبه فى الكتابة ٢٣٥ — الشيخ محمد عبده ٢٣٧ — الشيخ درويش ٢٣٨ — فى الأزهر ٢٤٠ — محرر الوقائع المصرية ٢٤٥ — محمد عبده والثورة ٢٤٦ — بعد الثورة ٢٤٩ — بعد العودة من المنفى ٢٥٠ — إصلاح الأزهر ٢٥٢ — وفاته ٢٥٧ — أثره فى النثر ٢٥٧ — عبد الله نديم ٢٦٢ — دراسته وتجاربه ٢٦٢ — النديم والثورة ٢٦٧ — آثاره وأثره ٢٧٢ — أسلوبه ٢٨٢ — منزلته ٢٨٨ ... ...

الفصل السادس — الاتصال بالأدب الأجنبى ... . ٢٩١ — ٤٧

(ا) الترجمة والتأليف ٢٩١ — النهضة القانونية ٢٩٥ — كتب الاقتصاد السياسى ٢٩٨ — كتب الاجتماع ٢٩٨ — الكواكبى ٢٩٩ — النهضة الأدبية ٣٠٠ — المسرح ٣٠١

(ب) المستشرقون ٣٠٥ — الجمعيات الأسيوية ٣٠٨ — المؤتمرات ٣٠٩ — المكتبات ٣٠٩ — معاهد اللغات الشرقية ٣١٠ — أشهر المستشرقين المحدثين ٣١٠ — أثر المستشرقين ٣١٧ ... ...

(ج) أثر الاتصال بالأدب الأجنبى ٣٢١ — القصة ٣٢٣ — السبب فى عدم اهتمام العرب بالقصة ٣٢٧ — مناقشة مزاعم المستشرقين ٣٢٨ — المقالة والصحافة ٣٣٩ — شروط المقالة الحديثة ٣٤٠ — أنواع المقالة ٣٤١ — الصحافة الحديثة ٣٤٢ — المؤيد ٣٤٥ — المراجع ٣٤٨

(تم طبع كتاب « فى الأدب الحديث » فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم الأحد ٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ الموافق (١١ من فبراير سنة ١٩٥١) . والحمد لله أولا وآخراً)

سيد محفوظ

المدير الفنى للمطبعة

LIBRAIRIE
AL AHRAM
23, Rue Faraal Sidki
LE CAIRE-Egypte

JAFET LIBRARY
JUN 2001
Circulation Dept. A

DATE DUE

892.709:D22fA:v.1:c.1
الدسوقي ،عمر
في الادب الحديث
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032974

892.709
D22fA
v.1